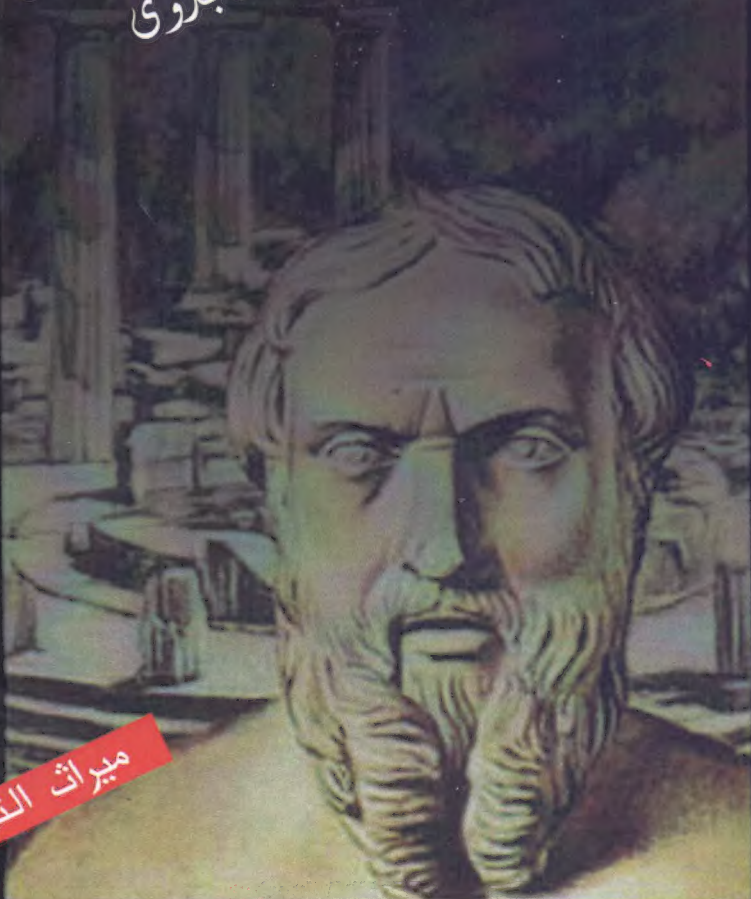


هروُدوتس

يتحدث عن مصر

ترجمة: محمد صقر خفاجه
تقديم: أحمد بدوي

مبشرات الترجمة



ΗΡΟΔΟΤΟΣ

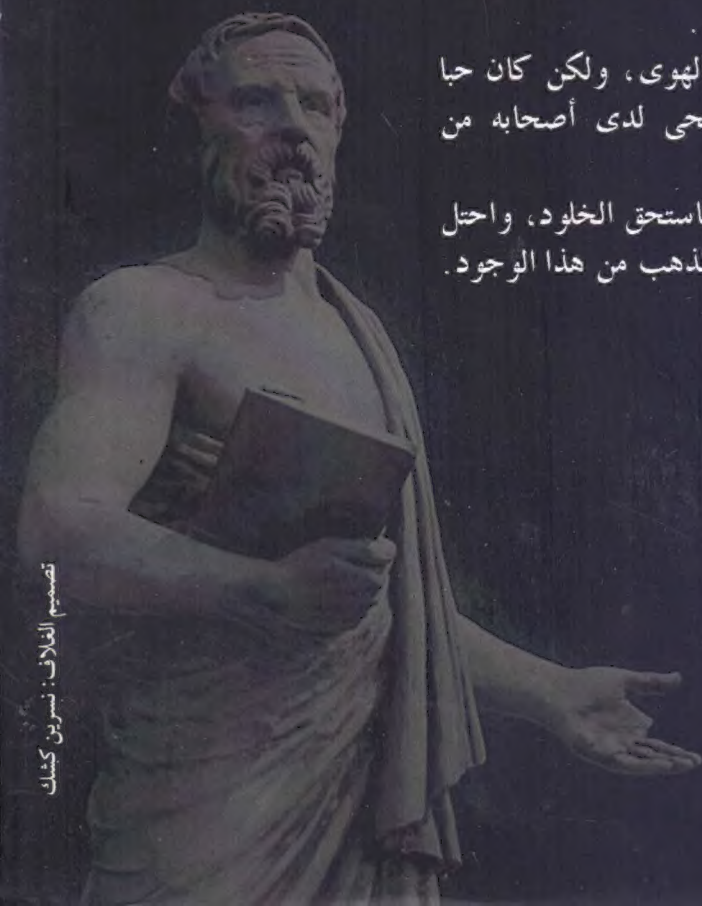
1131

إنه ثاني كتبه التسعة. وأحبها إلينا، وأعزها علينا؛
ذلك لأنه اختص به وطننا الحبيب "مصر" وشعبها
العظيم المبتكر، الذي لفتت عظمته، وجلال
أعماله، وفضائله، أنظار الدنيا، واقتادت العيون نحو
دياره الحلوة الغنية المترفة، وما حملت أرضها من
مختلف البدائع والروائع.

وشعبنا عظيم لا يشك في ذلك أحد؛ آمن بربه ووطنه
إيماناً لا نعرف أنه اتفق لغيره من شعوب الأرض،
وأحب وطنه أرضاً وسماً وماء وهواء وزرعاً
وحيواناً ثم قدس كل أولئك.

ولم يكن حبه ذاك مصدره الهوى، ولكن كان حبا
مصدره اليقين؛ بحيث أضحي لدى أصحابه من
قواعد الإيمان.

وشعبنا آمن بكرامة إنسانيته فاستحق الخلود، واحتل
من تاريخ الإنسانية صفحة الذهب من هذا الوجود.



هَرْدُوت
يَتَحَدَّثُ عَنْ مَصْر

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
محرر السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١١٢١

- هردوت يتحدث عن مصر

- هردوت

- محمد صقر خفاجة

- أحمد بدوي

- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

هردوت يتحدث عن مصر

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

هِرْدُوت

يَتَحَدَّثُ عَنْ مِصْرَ

تأليف : هِرْدُوت
ترجمة : محمد صقر خفاجة
تقديم : أحمد بدوي



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيردوت ، ٤٨٤ - ٤٢٥ ق : م .
هيردوت يتحدث عن مصر / ترجمة : محمد صقر خفاجة ؛
شرحها : أحمد بدوى - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٣٤٤ ص : ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة)
١ - مصر القديمة
(أ) خفاجة ، محمد صقر (مترجم)
(ب) بدوى ، أحمد (شارح)
(ج) العنوان

٩٣٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٧٦٣٢
الترقيم الدولى 0 - 446 - 437 - 977 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

فیروز
یتحدث عن مصر

فُرُوز

يتحدث عن مصر

قدم لها وتولى شرحها
في ضوء ما عرف من تاريخ الحياة المصرية

الدكتور أحمد بدوي

عضو بجمع اللغة العربية

ترجم الأحاديث عن الإغريقية
المرحوم الأستاذ الدكتور

محمد صقر خفاجة

عميد كلية الآداب سابقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هرودوت يتحدث عن مصر

في « كتابه الثاني » « Εὐτέρπη »

إنه ثاني كتيبه التسعة^(١) وأحبها إلينا ، وأعزها علينا ؛ ذلك لأنه اختص به وطننا الحبيب « مصر » وشعبها العظيم المبكر ، الذي لفنت عظمته ، وجلال أعماله ، وفضائله ، أنظار الدنيا ، واقتادت العيون نحو دياره الحلوة الغنية المترفة ، وما حملت أرضها من مختلف البدائع والروائع .
وشعبنا عظيم لا يشك في ذلك أحد ؛ آمن بربه ووطنه إيماناً لا نعرف أنه اتفق لغيره من شعوب الأرض ، وأحب وطنه أرضاً وبماء وماء وهواء وزرعاً وحيواناً ثم قدّس كل أولئك .

ولم يكن حبه ذاك مصدره الهوى ، ولكن كان حبا مصدره اليقين ؛ بحيث أضحي لدى أصحابه من قواعد الإيمان .

وشعبنا آمن بكرامة إنسانيته فاستحق الخلود ، واحتل من تاريخ الإنسانية صفحة الذهب من هذا الوجود .

حسبنا أن تاريخ هذا الشعب قد أضحي نفماً حلواً في فم الدهر يغنيه فيطرب له الكون ، وسيظل يطرب ما بقيت مصر وبقى في الدنيا من يتدّر تاريخ مصر ؛ بل إلى أن يأذن الله فتبدّل هذه الأرض غير الأرض .

(١) أنظر : ص ١٦ ، ١٧

ذلك كتاب كتبه كاتبه منذ خمسة وعشرين قرناً ؛ فأطلع الدنيا على كثير مما لم تكن تعرف من صور الحياة التي عاشها أسلافنا على ضفاف النيل . وإنما لصور — شهد الحق — مُشْرِقةً وضأة ، ثم هي فوق ذلك مُشْرِقةٌ نرضينا وتسعدنا ، وتعطينا حقنا في اختيار مكاننا في الحياة دون أن نتحَرَّ وجوهنا في طلبه .

وإذا كان « هردوت » قد ودع الدنيا إلى الآخرة ليلقى جزاءه بين يدي عالم الغيب والشهادة ؛ فإن من الحق علينا — نحن أبناء هذا الشعب الأمام البناء ، وخلفاء ذلك السلف الصالح الذي سبقنا إلى تعبير هذا الوطن ، والإسهام في تأدية رسالة النور والخير إلى العالم الإنساني كله — أن نذكر « هردوت » بالخير والشكر وعرفان الجميل ، وأن ندعو الله أن يغمره ببره ورحمته ، وأن يغفر له ما قد يكون وقع فيه من سوء بجهالة أو خطأ في التقدير ؛ فالحمد سبحانه وتعالى واسع المغفرة ، وهو الغفور الرحيم .

وبعد ، فأشهد أنني عَشِقْتُ هذا الكتاب منذ عرفته قبل أكثر من ثلاثين عاماً ، ثم ازداد تعشقي إياه ؛ فأكبرتُ كاتبه ، وأخذت أعجب بقدرته ، وأذيع تصويبه كلما تَقَدَّمتُ في قراءة فصوله (١) بين يدي أستاذ من أستاذي مضى إلى جوار ربه منذ أعوام ، وأعنى العالم البريطاني Waddell أستاذ الدراسات القديمة يومئذ .

كان ذلك أيام مرحلة الطلب في الجامعة المصرية (٢) . ولست أنسى مقدار فخرى واعتزازي بما وعيتُ يومئذ من فصول هذا الكتاب ، ولا مقدار أمانتي وحرصى على ما ادخرت في صدري من أحاديثه وأنا أمضى إلى أوروبا لطلب العلم في معاهدها . ولا مبلغ وفائي لتلك الذخيرة وفاء كان يلح على إلحاحاً شديداً

(١) انظر : ص ٧ هامش رقم ١ .

(٢) جامعة القاهرة الآن .

فى العودة إلى معينها والرشف من قرآحه الصافى ما استطعت إلى ذلك سبيلا .
ولا ما ملأ نفسى من غبطة حين أكرمنى الله فيسر على مهمتى بأن أتاح لى استكمال
متعنى بالإفادة من هذا الكنز ، فأخذت أقرؤه مترجماً إلى بعض ما كنت
أعرف من لغات الغرب .

أذكر كل ذلك ولا أنساه ، وإن أنس لا أنس ، يوم تمت لى السعادة
بهذا الكنز أو كادت ؛ وذلك حين سعى إلى عالم عربى مصرى شاب ، كنت
قد عرفته فألفته ، ثم توثقت صلتى به فأحببته . جاءنى رحمه الله ذات يوم
يسعى على استحياء ، والكتاب الذى نتحدث عنه — مترجم بقلمه إلى العربية —
مطوى يمينه . فلم يلبث أن نشره بين يدي ، وطلب إلى فى حياء أن
أنظر فيه ، راجياً أن أجده من الوقت وفراغ البال ما يتيح لى ذلك ، ويهد
لى السبيل إلى تحقيق فصوله (١) وتقدها وشرحها فى ضوء ما قدّر — رحمه الله —
أن أعرف من تاريخ هذا الوطن .

وما كان أصدقه حين أنبأنى أنه ليس بأول عربى نقل هذا التراث إلى
اللغة العربية ، وإنما سبقه إلى ذلك زميل كريم هو المرحوم الدكتور «وهيب كامل»
الذى مضى إلى جوار ربه بعد أن اختطفه الموت فى عمر الزهر (٢) .

ترددت يومئذ كثيراً ؛ لأننى كنت أعرف ضعفى ، ثم عذت فقبلت لأننى
كنت أحب صاحبى كما كنت أحب الكتاب وأقدر صاحبه ، ولأن صاحبى
لم يسع إلى متظفلاً ، ولا راغباً فى كسب مادى . ولست أذكر منذ عرفته أنه
سعى متظفلاً إلى أحد ؛ وإنما عرفت الناس يسعون إليه . ولا أذكر مطلقاً أنه
تهافت على صدارة بالرغم من غزارة علمه واتساع معارفه ؛ إذ كان يمنعه من ذلك
حياء نبيل واستعلاء كريم .

(١) إنها ليست فصولاً بالمعنى المعروف ولكنها أحاديث . وإنما أمييناها
كذلك فى الشرح والتعليق تيسيراً على القارئ .

(٢) أنظر : كتابه «هيرودوت» فى مصر (دار المعارف سنة ١٩٤٦) .

نعم ، هكذا والله كان صديقي وولدي « محمد صقر خفاجة » ، وهكذا عرفته
فقدرته ، ثم ألفته فأجبت عشرته ، ونعمت بها أياماً قصاراً كانت في حياتي
كأنضر أيام الربيع .

برحمك الله يا بني الصديق ؛ لقد كنت في حياتي كنجم شاء الله
ألا يُظلمه إلا بقدر امتداد النظر إليه ، وارتداد الطرف عنه . نجم ما كاد يطلع
حتى أفل . فكانت فجيعتي فيك عظيمة .
أى بني وصديقي .

عرفتك مثالياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، توأق النفس إلى أعلى
مثال من الكمال ؛ ترى بينك وبين الكمال شقة واسعة تشعر دائماً بقصورك
وعجزك ، فاسأل الله العون والعزاء لصديقك الشيخ الذي يعلم من كفايتك
وباهر مواهبك ما لا يعلمه الكثيرون .

وإذا كان الموت قد فجعه فيك ؛ فإنه ظل وفيّاً بعهدك ، أميناً على تراثك ،
قرأ الترجمة التي حطّطتها بيمينك مرة ومرات ، وقرأ غيرها أكثر من مرة .
ثم رأى أنه لا ينبغي لمثله أن يغير في الترجمة أو يبدّل ، وإنما سعى ما قدر على السعى ،
وبذل ما وسعه البذل ؛ فحقق ونقد وشرح في ضوء ما قدر أنه يعرف من تاريخ
هذا الوطن ، ثم رأى أن يطمئن إلى نتيجة ذلك ؛ فقصده إلى رحاب أستاذه
وأستاذك « طه حسين » غير مرة ، وقرأ عليه ما سطر في مقدمة الكتاب ،
وما رأى في بعض فصوله ، كما سعى إلى أستاذه « شارل كوتتر » فقرأ عليه
الكتاب كله ليطمئن قلبه ؛ كل ذلك قبل أن يسعى بالكتاب إلى المطبعة .

فإلى هذين الصديقين الكريمين ، وإليك أيها الإبن البار العالم المتواضع
أتقدم بأصدق الشكر وأجله وأوفاه ، راجياً أن يمجّد القراء في تراثك هذا أكثر
ما كانوا يبتغون من علم ومعرفة وثقافة .
وعلى الله قصد السبيل

أحمد بروي

أبو التاريخ « هردوت »

« ملأ الدنيا وشغل الناس » ١

فأما أنه « أبو التاريخ » (أى إمام كُتَّاب التاريخ) ؛ فذلك رأى رآه الناس منذ نظروا فى ترائه وقلَّبوا فيه . ولا حيلة لنا فيما رأى الناس أو اصطَلَحوا عليه . وتلك كنية لم تعرف لواحد من قبله ولا من بعده . وسنظل له ما بقى التاريخ وبقى فى الدنيا من يقرأ التاريخ أو يكتب فيه .

وأما أنه « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فذلك رأى — إن رأيتُ اليوم فيه ، وصفة إن استعرتها اليوم له — فما أحسبني قد ظلمت «المتنبى» أو تجنَّيتُ عليه . فالمتنبى شاعر فحل وقادر فذٌ ؛ لا خلاف فى ذلك ولا جدال فيه . إلا أنه — مهما تكن فحولته بين شعراء العرب ؛ بل مهما تكن قيمته بين شعراء الدنيا ، ومهما يكن له من بعد الصيت واتساع الشهرة بين أجيال الشعراء وطبقاتهم — لا يمكن أن يبلغ من القيمة فى تاريخ الإنسانية ما بلغ « هردوت » ؛ ذلك لأن أثر «المتنبى» لا يكاد يهز غير قرائه من العرب ، ولا يكاد يجاوز البيئة العربية .

فأما تراث « هردوت » فلم يكن — ولن يكون — ملكاً لشعب من الشعوب ، وإنما هو مشاع مشترك بين شعوب الدنيا فى الشرق والغرب .

فاذا قلت إن « هردوت » قد « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فما أحسبني شططت ، ولا جاوزت الصواب ؛ فما أكثر ما ردَّدت الأيَّام اسم « هردوت » ، وما أكثر ما ستردَّدته ، وما أكثر ما نظر الناس فى ترائه وما سينظرون ،

وما أكثر ما كتبوا عنه ، وما سيكتبون (١) ، وما أكثر ما جادلوا

(١) بدأ الاهتمام بتراث هردوت ، وبخاصة كتابه الثاني ، بعد ذلك الكشف الخطير الذي لفت أنظار الدنيا بين أيدي رجال الحملة الفرنسية ، وأعني تلك الوثيقة التي يسمونها « حجر رشيد » والتي عُدَّتْ بحق مفتاح الدراسات الفرعونية . كان الذين ينظرون في دراسة هذه الوثيقة يعرفون كتاب هردوت المشار إليه وجزءاً من كتابه الثالث ، ويعرفون فضلاً عن ذلك بمحتين : أحدهما ذلك الذي أخرجه المواطن المصري الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس وأعني « Horapollon » انظر : (Hori Apollinis Hieroglyphica ed. Francesco Sbordone, Napoli, 1940) وحاول فيه تفسير الأشارات الهيروغليفية .

وثانيهما ذلك الكتاب الذي أخرجه أحد الآباء اليسوعيين ويدعى « Athanasius Kircher » واسمها Sphinx mystagoga 1676 انظر : (Erman, Entzifferungen) (der Hierogl. Sitz.- Bericht. Berl. Akad. 1922) . نعم كان هذان الباحثان ومن قبلهما كتاب هردوت الثاني وجزء من الثالث من البحوث المعروفة لدى المعنيين من رجال الحملة الفرنسية ومن اهتم بعدهم بدراسة « حجر رشيد » . وقبل أيام الحملة لم يكن من السهل على المعنيين بتلك الدراسات أن يزوروا آثار مصر . لا نكاد نذكر منهم غير مستشرق دينباركي يدعى Niebuhr الذي استطاع زيارة مصر في عام ١٧٦١ انظر : (Erman, Die Welt am Nil, (Leipzig 1936) S. 11)

ولا يفوتنا أن نذكر أن أول العلماء المحدثين الذين اهتموا بدراسة كتاب هردوت عن مصر وتدرسه للطلاب في جامعة Thuring قد كان العالم الألماني Friedrich Andria Stroth ، وكان ذلك في الربع الأخير من القرن الثامن عشر . إلا أن جهود هذا الأخير لم ينظر فيها إلا بعد ظهور « شامليون » ومن جاء بعده من العلماء أمثال Lepsius ، Brugsch ، ثم Erman . وتتابعت دراسات المؤرخين الذين نظروا في هذا الكتاب ، وكان أول بحث صدر في ضوء التراث الفرعوني ، هو ذلك البحث الذي أخرجه المؤرخ الألماني Alfred Wiedemann انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch mit sachlichen Erläuterungen Leipzig 1890) . والذي يقرأ هذا البحث ، يشعر في سهولة ويسر أن كاتبه شديد الميل إلى عدم تصديق هردوت في كثير مما روى عن مصر والمصريين .

فيه ، واختلفوا في أمره . وما أظن أن جدلم فيه واختلافهم في الحكم على ترائه قد انتهى ؛ بل ما أظن أنهم سوف ينتهون من ذلك في وقت قريب .

إن الناس ما زالوا في شأنه فريقين : فريق له وفريق عليه (١) .

على أن اختلافهم هذا ، لم ينضّ مطلقاً من شهرته ، ولم يُنقِصْ ولن ينقص أبداً من قدره ؛ فهو بين الناس دائماً « أبو التاريخ » ؛ وبين المؤرخين إمام خالد ، ومثل غير مسبوق .

(١) من الذين انصفوا هردوت :

(١) العالم الألماني G. Mueller في بحث قام به عام ١٩٢٠ ثم توفي عنه ، ويعد الآن للنشر عالم ألماني شاب اسمه Luddeckens .

(٢) العالم الألماني W. Spiegelberg (أنظر : Spiegelberg, Die Glaubwuerdigkeit von Herodots Bericht ueber Aegypten)

(٣) وأخيراً العالم البلجيكي De Meulenaere في بحثه الذي نشره عام ١٩٥١

انظر : (De Meulenaere, Herodotus over de 26^{te} Dyn. Leuven 1951)

ومن الذين أناروا الشك فيما كتب ؛ فقصوا عليه وغضوا من أماته :

(١) العالم الألماني « Wiedemann » الذي تقدم ذكره .

(٢) العالم البريطاني « Sayce » في كتابه « امبراطوريات الشرق القديمة » الذي

صدر في لندن عام ١٨٨٣ .

(٣) « Heidel » انظر : William Arthur Heidel,

Hecataeus & the egyptian priests in H. Book II

(Memoirs of the American Academy of Arts & Sciences

Vol. XVIII, part 2, (Boston 1935, p. 113 ff.)

(٤) وأخيراً العالم السويدي « Saeve — Soederberg »

انظر : (Soederberg, Zu den Aethiopischen Episoden

bei Herodot, in Eranos 44, (1946) S. 68 — 80)

والعجيب من أمر ذلك الذى ملأ الدنيا بحق ، وشغل الناس بحق ، أنه لم يملأها بغير تراثه العقلى العظيم ، ولم يشغل الناس بغير ذلك التراث . ولا أدلّ على ذلك من أن حياته الخاصة ما زالت مجهولة لا نكاد نعرف عنها غير القليل .

اسم ونسب

فإذا ما عرضنا حياته العامة ، ذكرنا اسمه « هردوت » « *Hērōdotos* » . وهو فى الغالب من الأسماء المركبة ؛ فهو مركب من صدر وعجز ، صدره « هيرا » معبودة الأغريق المعروفة ، وعجزه « دوت » أو « دوتا » من مادة فعل « أهدي » أو « أعطى » ؛ فإذا الاسم من بعد ذلك يساوى عندنا « هدية هيرا » أو « عطاء هيرا » ، مثله فى ذلك مثل « عطاء الله » فى اللغة العربية . واسم أبيه « *Avξos* » ، واسم أمه « *Αρυνή* » .

مولده ونشأته

وُلِدَ « هردوت » فى « هاليكارناسوس » من مدائن الركن الجنوبي الغربى من آسية الصغرى (١) . ويختلف الباحثون فى تحديد تاريخ مولده ؛ فمنهم من يجعله حوالى عام ٤٨٩ ق . م ، ومنهم من يجعله بعد ذلك بخمسة أعوام . إلا أنهم يتفقون آخر الأمر على أنه لم يكن مجهول النسب . وهو نفسه يكاد يشير إلى هذا فى تواضع ومن طرف خفى ؛ وذلك حين يتحدث فى الفصل الثالث والأربعين بعد المئة من كتابه الثانى فى معرض الكلام عن نسب سلفه « هيكاتيه الملطى » .

(١) اسمها الحديث « Budrun » . وموقعها فى إقليم « كاريا »

كانت أسرة « هردوت » معروفة ، موسرة غير مُفسرة ، مؤثرة في توجيه السياسة التي كانت تهدف يومئذ إلى الحرية والخلاص من ظلم الطغاة .

فهذا عم له أوخال يدعى « بانياس » ، كان من الشعراء المعروفين المجيدين كما كان زعيم الحركة القومية التي هبّت ثورتها لتحرير وطنه من حكم الطاغية « جداموس الثاني » . وما نحسب أن ذلك كله قد وقع دون أن يؤثر في حياة « هردوت » ؛ فهو قد نشأ إذن في بيئة حُبّبت إليه الثقافة والمعرفة ، ورغبتة في الاستزادة منهما ؛ فأكب صبيّاً على قراءة الأدب عامة ، وقراءة ما كان منه شعراً بخاصة .

وما من شك في أن أسرة هردوت الفتى — بمشاركتها في أحداث السياسة — قد تعرّضت لألوان من المحن التي أثّرت في حياته ؛ وقد كان مشاركاً فيها ولما يبلغ العشرين من سنّنها ؛ فأثّر الهجرة ينشُد الحرية ويسعى في سبيل الوصول إليها ..

ويكاد من يقرأ تراثه يتبيّن فيه ميله إلى الديمقراطية بمعناها المعروف يومئذ ، وبغضه للظلم وأهله .

هاجر الفتى إلى « ساموس » وهي يومئذ عامرة بالصناعة ، مزدهرة بالتجارة ، غنية واسعة الغنى ، كما كانت فضلاً عن ذلك كله مركزاً للثقافة أيام « Πολυκράτης » ، وكانت — حين وصل إليها هردوت — قد فازت باسترداد حريتها ؛ فأقام فيها حتى هيات له الظروف أن يبدأ أسفاره التي أتاح له أن يسمع ويرى ويسأل ويناقش ويفكر ويفيد من كل ذلك ، ثم يعود آخر الأمر فيسجل ذلك السفر الضخم الذي ضمّن لاسمه الخلود في دنيا المؤرخين على الأقل .

وليس من المؤكد ما يراه بعض المؤرخين من أن « هردوت » قد عاد إلى وطنه ليشارك في أحداث السياسة مرة أخرى ؛ بل أكبر الظن أنه بقي في « ساموس » حتى بدأ رحلاته . وليس من المؤكد كذلك أنه تعرّض للاضطهاد فاضطر إلى رحلاته تلك ؛ ذلك لأن فكرة السفر والتنقل في أقطار الأرض لم تكن يومئذ ، ولا قبلئذ ، بالشئ الجديد على الأغريق . ولم يكن « هردوت » أسبق الرحّالين ؛ فقد سبقه في هذا المضمار كثيرون يكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال « هكاتيه الملطي » .

فأسفار « هردوت » إذن لم تجيء عفواً ، ولا هرباً من ظلم ، أو ضيقاً بعيش ؛ وإنما جاءت بعد تفكير وتدبير . وأحسب أنه كان معدّاً لها إعداداً قوياً ؛ كان معدّاً بحكم ثقافته الواسعة ومعرفته الغنيّة ، ثم بشدة ميل معاصريه وألوان انجاسهم الفكريّ يومئذ . وأحسب كذلك أنه زوّد نفسه لأسفاره تلك ؛ مقدّراً ما قد يلقي فيها من مشقة وعسر ، وأنه استطاع — بعزمته ، وقوة إرادته ، واستعداده الذهني ، وثقته بنفسه ، وإيمانه بما تفيد أمته من نتائج أسفاره — أن يردّ عن نفسه المخاوف ، ويهوّن عليها الصعاب ، ويدلّل أمامها العقبات . وقد تم له كل ذلك فوق في أكثر ما طلب .

وحين أحسّ « هردوت » بضخامة ما اجتمع بين يديه من تراث ، عكف على التدوين ، واستطاع أن يترك للأجيال تراثاً — مهما يختلف الناس في الحكم عليه — يعدّ وحدة متّصلة وبناء قوياً لم يهدمه الزمن ؛ وإنما بقي ثابتاً كالطود الشاخ الأشم لا يتزعزع . ثم هو موردّ عذب لم ينصرف عنه — رغم طول الزمن — واردّ إلى يومنا هذا . وأحسب أنه سيظل كذلك دهرًا طويلاً .

سمّي « هردوت » كتابه « *Ιστορίας απόδειξις* » « تمحيص الأخبار »

فكلمة « *ἱστορίη* » اليونانية و« *HISTORIA* » اللاتينية معناها « الفحص » أو « البحث » ؛ فكأنَّ المعنى إذن ينصبُّ على خاصَّتين من خواص الفكر الإغريق في ذلك الوقت وهما :

الرؤية (= المشاهدة) ، ثم التساؤل (= الاستفهام) .

وهاتان خاصَّتان من الخصائص المميَّزة للروح اليوناني منذ أيام القرنين السابع والسادس قبل ميلاد المسيح ؛ ونعني ذلك الروح الذي أخذ يُحرِّك الفكر عند اليونان ، ويوجِّهه نحو أوطان الحضارات القديمة ؛ فنراهم يتجهون إلى أقاليم آسية ، ويركبون البحر إلى شمال إفريقيا ؛ فينتشرون في مختلف بقاع الأرض بهاتين القارتين ؛ يصفون طبيعتها ، ويتحدثون عن مزاياها ، وعن كنوزها وأرزاقها ، ويتحسَّسون من أممها وشعوبها وقبائلها ؛ يحاولون فهم طبائعهم ، وأهوائهم ، وأصول عقائدهم . وكانوا في كل أولئك يتصيَّدون ، ويدوِّنون ، ويقيِّدون ؛ ملتصقين بما يؤمنون أنه يُشبع رغبتهم في العلم ، ويرضى في نفوسهم حاجتهم الملحة إلى المعرفة ، محيطين صوِّراً كل أولئك بإطار يوشيه الخيال . فإذا ما عادوا إلى وطنهم أفرغوا عبايهم الثقيلة ، وجعابهم المترعة بين أيدي قومهم ، ثم عرضوها في معرض شائق يثير الإعجاب ، ويُنهر الأبصار ؛ ثم يهزُّ النفوس فيحركها إلى تلك البقاع الغنيَّة بأرزاقها وحضاراتها ، وعلومها ، ومعارفها ، وطرافة ما يمارس أهلها من ألوان الحياة ، وغرائب التقاليد .

مثل هذا النحو الذي يهدف إلى جمع ذلك المزيج المختلط من ألوان المعرفة من جغرافيٍّ ، وتاريخيٍّ ، ودينيٍّ ، وقصصيٍّ ، هو نحو يوناني أصيل ؛ نحاه أصحابه مغترضين ثم داروا به حول محور وطنيٍّ واضح ؛ ونعني تاريخ الحروب

وحوادثها؛ الحروب والوقائع والحوادث التي أجرتها الظروف بين آسية وبلاد اليونان، وشقى اليونان بأحداثها وعواقبها، وصمدوا لشدها، وصبروا على أذاها حتى خرجوا منها آخر الأمر بعافية مهما يكن من أمر فإن . ذلك النحو الذي قدمنا في إيجاز وجيز، هو باكورة التاريخ المكتوب على كل حال .

وواضح من تاريخ « هردوت » أنه زار كثيراً من أقاليم الدنيا في آسية وإفريقية — وها أقدم قارتين ؛ بل أقدم وطنين من أوطان الحضارات الإنسانية — ثم في أوربة أيضاً . ولكن مسيرته في أسفاره تلك غير واضحة المنهج . وليس من السهل علينا أن نرتب أسفاره ترتيباً تنابعياً .

وكل مانعرف، أن « هردوت » حين انتهى من أسفاره توجه تلقاء THURII إحدى المدائن الواقعة في الجنوب من إيطاليا، وكان ذلك حوالي عام ٤٤٤ قبل مولد المسيح . وأقام هناك حتى أدركه الموت؛ فودّع دنياه حوالي عام ٤٢٥ ق.م . ودُفِنَ في سوق المدينة (١) . ولشدة حبه تلك المدينة، وتعلقه بها، وطول إقامته فيها، ثم لموته آخر الأمر بها، نسبة بعض المؤرخين إليها فأسموه أحياناً « هردوت الثوري » . وفي تلك المدينة عكف « هردوت » على كتابة سفره الضخم، إلا أن الموت أدركه قبل أن يتمه . والكتاب في صورته التي نعرفها من حيث وضعه في أجزاء تسعة، من عمل النحويين السكندريين؛ كل جزء منها لإحدى

(١) الواقع أن المؤرخين لا يعرفون كيف يحددون تاريخ وفاته تحديداً مضبوطاً، ولكنهم يستنتجون استنتاجاً، ويقرّبونه تقريباً؛ فيجعلونه في أواخر الربع الأخير من القرن الخامس ق.م .

عرائس العلوم والفنون من بنات « زيوس » التسع . فأما « هردوت » فقد كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه لا يسميها بغير عبارات عامة كالأحاديث الليبية ، أو الروايات الآشورية . . . الخ وهلم جرا .

والكتاب في جملته ووحدته إنما يدور — كما قدّمنا — حول محور واحد وهو تاريخ الحروب والوقائع التي جرت بين قومه الهلّينيين الأوربيين وبين أعدائهم من الفرس الآسيويين .

وقوم « هردوت » في نظره أبطال أجداد نبلاء ، استطاعوا — على قلة عددهم ، وبفضل شجاعتهم ، ونبيل مشاعرهم ، وحديد سلوكهم ، وتأيد أربابهم — أن يُنَجِّوا أوطانهم من هوان الاستعباد ومذلة الرّق (١) .

وكتاب « هردوت » لم يوضع عفواً ، ولا ارتجالاً ، وإنما فيه مقصد واضح ؛ جعل له وحدة ظاهرة ؛ هي أنه أورد قومه الأغريق أعرق وأعذب معين يرتشون منه ما يروى غلتهم من مختلف ألوان المعرفة التي ترضيهم من وصف أوطان الأرض ، وخصائص الشعوب التي تسكنها برغم ما فيه من تلك الصور التي حشاها بين صحافه من ملاحم الأبطال ، والاستطراد في سرد الحوادث ، ثم من تلك الأوصاف الجغرافية والصور التاريخية والقصصية (٢) .

وليس من شك — كما قدّمنا — في أن النحو الذي نجاه « هردوت » في وضع كتابه هذا نحو قديم ؛ وأنه لم يكن وقفاً عليه ، وإنما ألفه قومه من قبل ، واتبعه أمثاله ممن جاءوا بعده .

(١) انظر (Heubeck, Das Nationalbewusstsein des H. 1936.)

(٢) انظر الكتاب الأول (فصل ١٨٦) والكتاب الرابع (فصل ١٩)

من كتب هردوت .

وظاهر في تراث «هردوت»، أن معارفه وثقافته الإغريقية قد لُوِّنت أسلوبه في وضع كتابه بلون خاص ؛ فهو متأثر أشد التأثر بشعر الملاحم «ملاحم الأبطال» ؛ ذلك الشعر الذي شاع بين القرنين الثالث عشر والحادي عشر قبل مولد المسيح . ثم هو متأثر أشد التأثر بفن القصص المنثور الذي حلَّ محلَّ القصص المنظوم في بلاد اليونان أيام القرنين الثامن والسابع قبل مولد المسيح . وهو متأثر آخر الأمر بمذهب السوفسطائيين وحركاتهم التي عمَّت بلاد اليونان أيام القرن الخامس قبل مولد المسيح ؛ ونعني تلك الحركة التي قيل إنها أيقظت الناس من سبات الفكر ، والرُّكون إلى التقاليد المألوفة ، والعادات الجارية ، والتي أيقظت في نفوسهم الشك النظريّ والشك العملي ؛ كما أدَّت لديهم إلى خلق ملكة أدبيّة وذوق في النقد لم يكن للناس بهما عهد من قبل .

ولكن هذه الحركة — على الرغم من الوصف الذي قدمنا — قد «جَرَّت» أنصارها إلى المتاجرة بالعلم ؛ فقلَّت مبالأُهم بالحقائق ، وباعدت بينهم وبين روح البحث التزيه القرون بالأمانة ، المبرأ من الغرض والهوى ، كما أضعفت فيهم روح الصبر على تحرُّى الحقائق المجرّدة . ثم هي بعد هذا كله قد جَرَّت بهم وراء شقشقة اللسان ؛ بحيث ضعفت لديهم العناية بالإقناع ؛ فباتوا منصرفين عن المعرفة الآمنة ، والبحث عن الحقيقة ، كما مالت بهم إلى المظهر ؛ فأصبحوا مشغوفين بالأثر الخارجى ، كلفين بالمنافع العاجلة » (١) .

(١) أدين بما أعرف عن هذا المذهب لزميلى وصديقى الدكتور «عثمان أمين» رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة ، كما وصفه في كتابه المُسمَّع «شخصيات ومذاهب فلسفية» .

ترى هل نستطيع بعد هذا أن نغنى « هردوت » من آثار ذلك ؟

في رأينا أن الحكم على ذلك لن يصح إلا إذا استعرضنا كُتبه التسعة وقلّبنا فيها . وما نظن أن ذلك ممكن في هذه المقدمة التي قصد بها إلى النظر في واحد من تلك الكتب ؛ ونغنى « كتابه الثانى » الذى حدّثنا فيه عن رحلته إلى مصر .

ثم إن تراث « هردوت » ، ونغنى كتابه كلّهُ ، قد ظلّ دهرًا موضع جدل طويل ؛ شغل النقّاد من القدماء والمحدثين ، فتجادلوا في الغرض منه وتساءلوا ؛ أَراد به صاحبه أن يكون مدوّنَةً لتاريخ من عرف من شعوب الدنيا ، أم قصد به إلى أن يكون سجلًا لبعض الحوادث والأوصاف العامة التى رأى أنها تُرضى حاجة المشغوفين من قومه بالمعرفة ؟

لم يفت النقّاد بحث المراجع التى اعتمد عليها « هردوت » واستمد منها معارفه ، وتشكك بعضهم في قيمة عمله ؛ بل إن منهم من اتهمه صراحة بالسرقة والانتحال والكذب ، وعلى رأس الذين اتهموه من القدماء « بلوتارخ » الذى رماه بالخبث^(١) ؛ ثم THUCYDIDES . ومن المحدثين الناقد البريطانى SAYCE فى كتابه الذى أخرجه عام ١٨٨٣ بعنوان « إمبراطوريات الشرق القديم » وحاول فيه أن يُثبت جهل « هردوت » وعجزه عن إدراك الحقائق ، كما اتهمه بأنه كان ينقل عن سبقوه دون الإشارة إليهم^(٢) .

وعلى الرغم من كل ذلك ، مكّن الزمن لهردوت أن يكسب في عالم المؤرخين كثيرين من الأنصار والمعجبين والمريدين ، والمقلّدين أيضًا .

(١) إن لبلوتارخ في هذا مقالاً خصصه للتدليل على خبث هردوت .

(٢) انظر ماسبق من حديث عن كانوا له وعمن كانوا عليه (ص ١١ هامش رقم ١)

واستحق كتابه أن يكون كتاب الدهر الخالد الذى لا يهرم ولا يشيخ .
وقد يكون من الخير فى هذه العجالة أن نكتفى الآن بنظرة سريعة
فى أقرب كتبه إلينا ، وأثرها عندنا ، ونعنى « كتابه الثانى » الذى اختصَّ به
وطننا المصرى الحبيب وشعبنا العظيم البناء .

وهو كتاب لا يفوت من يقرؤه — على مكث — أمران :

الأول : أن « هردوت » لم يترك فرصة تمر — وهو يعرض ماسمع ورأى
فى هذا الوطن — دون أن يُعبّر عن إعجابه الشديد بالمصريين ، ودون أن يُشيد
بتفوقهم وعظمتهم وسبقهم فى ميادين العلوم والمعارف . ثم هو يمتدح فضائلهم ،
ويستريح إلى تقواهم ، ونزاهتهم ، ويُثبت لهم الفضل فى الكشف عن كثير من
العلوم والمعارف التى أفادت منها الإنسانية عامة ، وأفاد منها قومه الإغريق خاصة .
وربما كان ذلك مما أسخط عليه « بلوتارخ » فاتهمه بأنه صديق للبرابرة (١) .

والأمر الثانى : الذى يلفتُ نظر من يقرأ الكتاب ، هو الحذر الشديد ،
والحيطة البالغة عند الكلام عن دين المصريين . وحسبنا أن المؤلف قد ذكر
فى ضراحة أنه لا يتكلم عن الدين إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا (٢) .

أىكون مصدر حذره احترامه البالغ للأديان ؟ أم هى لباقة الرجل حين
أحسن أن الكلام عن الدين قد يؤذى عواطف المصريين وينفرهم منه ؟

أكاد أشعر أن سبب الحذر والحرص قد كان شيئا مرجعه إلى الجهل
بأمور الدين ، وأن الرجل أراد بسلوكه هذا أن يُخفى جهله ؛ فإقامته القصيرة

(١) انظر : ص ١٩

(٢) انظر الفصول (٣ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٥) من كتابه الثانى

في مصر ما كانت لتتيح له — ولو طالت — أن يذرك من أمور هذا الدين القديم العتيق المقد كشيئاً ولا قليلاً^(١).

وإنا لنعجب أشدَّ العجب — ولا ندرى كيف نستطيع تصديقه حين يزعم في الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب — أن كل ما ورد فيه إنما هو نتيجة ملاحظاته الشخصية ، ومشاهداته ، وبحوثه الخاصة . مع أن إقامته في مصر لم تجاوز في الغالب أربعة أشهر^(٢) .

افتتح هردوت كتابه عن مصر بحملة « قبيز » عليها ، ثم خلص من ذلك — مستطرداً — إلى الحديث عن طبيعة أرض مصر ؛ فنحدث عن مائها ، وهوائها ، ثم تحدث عن أصل سكانها وتقاليدهم ، وعن طعامهم وشرابهم ولباسهم ، ثم عن حيوانهم أيضاً . وأضاف إلى كل ذلك ما زعم أنه رأى وسمع ولاحظ في البلاد أثناء إقامته فيها .

ويعد كتابه هذا ملحمةً طريفةً مختلفة الألوان ؛ جمع عناصر نسجها من كل ما زعم أنه رأى وسمع ، ثم حشا بين طياتها ألواناً مختلفة من معارفه اليونانية ، ووشى إطار صورها بكثير مما سمع من الشعب عن حياة السلف من ملوك مصر وحكامها .

(١) وعلى الرغم من كل ذلك ، لا يجد أكثر علماء الدراسات المصرية مناصاً من تصديق « هردوت » في أكثر ما روى عن الشعائر الدينية .

(انظر : Erman, Relig. d. Aeg. S. 331 ff.)

(٢) يكاد المؤرخون المحدثون وفي — مقدمتهم Ed. Meyer — يتفقون على أن الزيارة وقعت حوالي عام ٤٤٠ ق . م ، وعلى أنها كانت في أيام الفيضان .

(انظر : Ed. Meyer, Forschungen zur alten Gesch. I, (1892) S. 156)

ثم Sourdille, C. La durée et l'étendue du Voyage d'Hérodote en Egypte, Paris 1910)

لقد كانت مصر يومئذ وقبلئذ مطمح أنظار الإغريق ؛ يرونها من أغنى موارد الرزق ومهدا لأعرق الحضارات ، ويمدّون أنفسهم إليها مدّا قويا .

وظاهر من أحاديث « هردوت » أنه بذل غاية الجهد في أن يحمل إلى قومه صورة صادقة من طبيعة هذه الأرض ومعالمها ، ومشاهداتها ، وأوصافها ، وطباع سكّانها ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وخصائصهم ، وسير حكّامهم ؛ نعم فعل ذلك ليرضى في قومه حاجة ملحة إلى العلم والمعرفة .

ثم هو قد ذكر في مطلع كتابه أن حديثه عن مصر سيطول ؛ نظرا لكثرته ما تحمل أرضها من عجائب المخلوقات ، ومن البدائع والروائع في سائر الفنون والصناعات . وكان « هيكاتيه الملطي » قد سبقه إلى زيارة هذه الأرض وحمل إلى قومه كلاما لم يرص « هردوت » عن أكثره كما أشار في مواضع مختلفة (١) . فرأى أن من واجبه أن يتحرّى الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليعوّض قومه ما فوّته عليهم سلفه « هيكاتيه » .

ويتشكك بعض النقاد فيما روى « هردوت » . بل إن منهم من استطاع أن يثبت سطوه على تراث السلف من الكتاب (٢) . كل ذلك يحملنا اليوم على اتهام « هردوت » في أمانته (٣) ، وسوء الظن في قصده ، والشك في أمره .

(١) انظر : الفصول ، ٢١ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١٤٣ ، ثم ١٥٦ من الكتاب الثاني

(٢) (انظر : Jacoby, Hekataios (Pauly - Wissowa, Sp. 2675 ff.)

(٣) ليس بين المؤرخين والكتّاب في كافة ألوان العلوم والفنون والمعرفة من لم ينتفع بهم من تقدموه في البحث ، ولا ضير مطلقا على من يقتبس من جهود من تقدموه بشرط أن يكون أمينا في الاقتباس ، بل أمينا في النقل ؛ بحيث ينسب الفضل إلى أهله .

ولا بأس علينا في أن نشك — على ضوء ما نعرف من حال مصر يومئذ، وتطلع الإغريق إليها — في أن كتابه هذا قد كان تذكرة لقومه، وإغراء لهم بالتطلع إلى هذا الوطن المصري الغني المترف، وإرهاصاً بمشينة القدر السياسي الذي قد يحقق للإغريق بعد ذلك ما كانت تنطوى عليه صدورهم من الطمع في كنوز هذا الوطن، والتمتع بخيره الذي صورّه لهم « هردوت » جَنِياً سهلاً المتال (١).

يضم كتاب « هردوت » عن مصر باين عظيمين؛ يتناول أولها الحديث عن أرض مصر وطبيعتها الغنية السمحة، وخصائص شعبها، مدّعياً أنه اعتمد في ذلك على مشاهداته وآرائه الخاصة. ويتناول الثاني الحديث عن تاريخ من اشتهروا من فراعين الوادي وأعمالهم؛ زاعماً أنه اعتمد في ذلك على رواية النقات من كهّان البلاد؛ وهم يومئذ وقبلئذ أهل العلم والمعرفة وأصحاب الثقافة الواسعة والغنية المترفة في آن معا (٢).

أطال « هردوت » وأسهب واستطرد حين تحدث في الباب الأول عن أرض مصر، وتكوينها الطبيعي وحدودها (٣)، ثم عن النيل وما راعه من طبيعته وأثره في تكوين هذه الأرض وتلوينها، وتشكيل طبيعتها، وتكييف حياة أهلها، وعن فضل هذا النهر عليهم، ثم عن عقيدتهم فيه. ثم تحدث عن فيضانه السنوي وروعته، وعن منابعه ومصبّاته، ثم عن فروعه أيضاً.

(١) الله يشهد أن الشك لم يثر في نفسى بالنسبة لهردوت وحده، ولكن بالنسبة لكثيرين غيره، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر في تاريخ وطني الطويل، وما ماني أسلافنا وما نينا نحن من غدر المستعمرين قديماً وحديثاً.

(٢) انظر: Heidel, Hecataeus & the Eg. priestes in H. Book II p. 53 — 134

(٣) انظر: الفصول: ٥٠، ٦٠، ٧٠، ٨٠، ٩٠، ١٠٠، ١١٠، ١٨ من كتابه الثاني.

وتحدث عن أوجه الشبه أو الخلاف بين طبيعة ذلك النهر وطبيعة الأنهار في بلاد الإغريق^(١) . ثم عاد ففصل الحديث عن تقاليد الناس وعاداتهم وبعض عقائدهم ، وبخاصة ما اتصل منها بالموت ؛ كطرق التحنيط والدفن وكل ما يتصل بذلك من شعائر . ولم ينس في كل أولئك أن يتحدث عن تقديمهم في العلوم التي بزوا بها شعوب الدنيا ، ودور عبادتهم وماضت عمارتها الرائعة من قصور ومسلات ، ومن تماثيل وصور ومحاريب ، ومن كنوز رائعة . وتحدث عن الأهرام ، وعن قصر التيه « اللابيرنت » ، وعن القناة التي تصل ما بين النيل والبحر الأحمر ، وعن بحيرة « مورييس » وعظمتها ، وعن قيمتها وأثرها في حياة البلاد الزراعية والاقتصادية .

كل أولئك أشياء وصفها « هردوت » . وليس من الإنصاف أن ننكر عليه فضله في ذلك . جزاه الله — برغم كل شيء ، وبرغم كل ظن — عن هذا الوطن وشعبه خيرا .

كيف تمت رحلته إلى مصر

الغالب أن يكون الرجل قد ركب إلى مصر إحدى سفائن التجارة الإغريقية التي حملته إلى « نوكراتيس » ؛ وكانت يومئذ مركزاً من مراكز التجارة الإغريقية الهامة^(٢) ، ثم تولى عنها فزار أقاليم الدلتا ، ثم غادرها مصعداً في النهر لزيارة أقاليم الوادي ؛ فلم يزل حتى بلغ أقصى حدوده الجنوبية من وراء أسوان^(٣) .

(١) انظر : (فصل ١٩ ، ٣٤ من كتابه الثاني) .

(٢) انظر : (الفصل ١٧٨ وما بعده من الكتاب الثاني) .

(٣) يرى بعض النقاد أن « هردوت » لم تمتد إقامته في مصر أرض الدلتا وواحة الفيوم .

(انظر Heidelberg, ibd. p 55) . ولكننا لا نعتقد أن هذا الرأي يقوم على أساس

قوى ؛ فمن المرجح أن « هردوت » زار صعيد الوادي ، وإن كانت إقامته فيه لم تطل .

وكان يقبس مراحل انتقاله بحساب الأيام (١) . كما زعم أنه لقي في سفره هذا كثيرين من أهل البلاد ، فتحدث إليهم ، وسمع منهم . وتلك مسألة فيها نظر ؛ ذلك لأنه لم يكن يعرف لنفهم (٢) ، وإنما كان يستعين بالأغارقة الذين كانوا يقيمون في مصر من ناحية ، ثم بالأدلاء والتراجمة الذين كانوا يلقون الغرباء ويصحبونهم في زياراتهم مشاهد البلاد وعجائبها ومعابدها من ناحية أخرى (٣) .

تاريخ الرحلة

تمت الرحلة في القرن الخامس قبل مولد المسيح ، ومصر يومئذ تحت حكم الفرس ، وعادات أهلها وخصائصهم وتقاليدهم ومظاهر حياتهم باقية كما كانت لم يغير منها الاحتلال الفارسي إلا بمقدار (٤) .

(١) انظر : حديثه عن ذلك في الفصول (١٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٩ ، ٨ ، ٥) من كتابه الثاني .

(٢) نحب أن نقرر — إنصافاً للحق — أنه على الرغم من أن « هردوت » لم يكن يعرف لسان المصريين ، وعلى الرغم مما وجد في تفكير المصريين وسائر ألوان حياتهم من غرائب ، فإن قومه الإغريق قد أفادوا من الحقائق التي وردت في تراثه ، كما أفاد منها القراء المحدثون أيضاً .

(٣) ما أكثر ما خدع المؤرخون بين أيدي التراجمة كما يُخدع السائحون اليوم ، وما أكثر ما ظهرت بساطة هردوت حين صدق ما سمع منهم ؛ ومن أمثلة ذلك ما جاء في بعض الفصول (انظر : ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٦٤) من كتابه الثاني .

(٤) بقيت عقائد المصريين وتقاليدهم كما كانت على الرغم من وجود حاكم فارسي يمثل ملك فارس ، ويجلس على عرش مصر ؛ فيدير شؤون البلاد ، ويجمع خراجها ، ويعتبه إلى فارس ، ثم يجعل على حدودها وثغورها حراساً من جنود الفرس .

وليس من شك في أن ظروف البلاد يومئذ — بحكم وقوعها تحت سلطان فارس ، وبحكم انتشار الإغريق فيها — قد مهّدت سبيل الزيارة أمام « هردوت » ، وسهّلت عليه أمورَ التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدِها . وبذلك استطاع الرجل أن يرى ما لم يكن يُقدَّر له أن يراه في ظروف أخرى (١) . ثم هو — كما ذكر — لم يعد الوسيلة إلى بلوغ الغاية في المشاهدة ودقة الوصف والتماس حقائق الأخبار (٢) .

ومن المحقق أن « هردوت » قد خُذِع فيما سمِع من روايات الأدلاء والتراجة (٣) . وذلك أمر من شأنه أن يكون له خطره العظيم في تقدير ماسجَل لنا من معارفه . غير أنه — مهما أضعف من شأنها ، أو قلَّ من قدرها — لا يمكن أن يُنقدها كلّ قيمتها ؛ فالرجل قد زعم غير مرة أنه لم يكن يُصدِّق كلّ ما كان يسمع ، وإنما كان له فيما يسمع تقدير خاص .

(١) كانت مقدسات المصريين أسراراً لا يعرفها إلا الكهان وخاصة الخاصة منهم ؛ ومع ذلك مكثَّت الظروف « هردوت » — كما زعم — من رؤية الحيوانات المقدسة والعناية بها في الأماكن التي كانت مخصصة لها عند دور العبادة (أنظر : فصل ٦٨ وما بعده ، ثم الفصول : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦) من كتابه الثاني .

(٢) يذكر « هردوت » أنه لم يكن دائماً يطمئن إلى آراء مُحَدِّثيه ، وإنما كانت له آراؤه الخاصة ؛ ومن ذلك ما جاء في حديثه عن فيضان النهر (فصل ١٩) وعن منابه (فصل ٢٨) . « وهردوت » بزعمه هذا قد حال بيننا وبين ما كان يمكن أن ينأج لنا من التماس العذر له من الخطأ في التقدير أو الميل عن الحق والواقع ، ثم الغض من قيمة السلف الذين انتفع بسابق علمهم ومعارفهم .

(٣) أنظر : Saeve - Soederberg, ibd. s. 69 ff, 73 f ، ثم ما قدمنا عن ذلك من حديث في ص ٢٥ هامش (رقم ٢ ، ٣) .

ومهما يكن من شيء ، فإن في كتاب « هردوت » عن مصر ما يدل على أنه بذل من الجهد في إخراجه ما يدفعنا إلى النظر فيه ؛ بل من الحق علينا أن نفعل ؛ ولكن في كثير من الحيلة والحذر والشك ، والحرص على تحرى الحقيقة المجردة في غير تعصب أو تحج أو قسوة في نقد .

فليكن « هردوت » إذن صادقاً في وصف كل ما زعم أنه شهد ورأى وسمع ، وليكن صادقاً أيضاً حين يزعم أن أكثر أخباره التاريخية مأخوذة عن الثقات من كهّان البلاد وأصحاب الثقافة فيها . ولن نتردد مطلقاً في تصديقه مادامت أقواله ورواياته تلاءم الواقع الثابت من آثار المصريين أنفسهم ، ثم ما حقه الكُتّاب والمؤرخون في ضوءها من ناحية ، وما دامت تتفق وواقع الظروف والأحوال السياسية والدينية التي كانت تسود مصر يومئذ من ناحية أخرى .

نعم . ليس من السهل علينا أن نتمضى في تصديق « هردوت » دون أن نتصور جرائل من الشك لا مناص من الوقوف عندها ومعالجة أسبابها المختلفة . إذ ليس من الصعب أن نفرض أن « هردوت » لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلاً (١) . ولا نستطيع كذلك أن نقدر أن بين المصريين من كان يعرف لغة الإغريق إلا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل في كل ما زار من مكان (٢) . فلم يكن هناك إذًا من سبيل إلى إدارة الحديث بين

(١) انظر الحديث عن ذلك ص ٢٥ وتعلقنا على ذلك .

(٢) جاء على لسان هردوت أن « إسماتيك » قد عهد إلى الجالية الإغريقية في مصر بتعليم بعض الصبية الوطنيين اللسان الإغريقي ؛ ومن هؤلاء المحدثات السلالة التي وُجدت في زمانه من التراجمة (انظر : فصل ١٥٤) من كتابه الثاني . كما جاء على لسانه أيضاً — عند الكلام عن طبقات هذا الشعب — وجود طبقة التراجمة (انظر : فصل ١٦٤) من كتابه الثاني . على أن عددهم — مهما كثر — لم يكن ينتشر في سائر الأقاليم ، فقد كانوا — أكبر الظن — يقيمون في الدلتا .

« هردوت » وبين من زعم أنه لقيهم من كهّان البلاد إلا بين يدي ترّجّان (١) ،
أو واحدٍ من بني قومه يُلمُّ بشيءٍ من لغة المصريين على الأقل . فأما التراجمة
فما تذكر أن « هردوت » قد أشار إليهم إلا قليلاً (٢) .

وأما الإغريق الذين لا شك في أنه قد استعان بهم ؛ فما أقل ما أشار
إليهم إلا أن يكون ذلك غرضاً من قيمة من سبقوه منهم إلى زيارة مصر وبخاصة
« هيكاتيه الملطي » (٣) . وذلك أمر قد يثير الشك في قصده ويغض من أمانته .
وقد يكون من الغفلة وقصر النظر حين تفكر في الصلة بين المصريين
والأغارقة فتصورها سلبية صافية ؛ ذلك لأن الناظر في تاريخ مصر أيام
« هردوت » لن يلمس الإحساس البين الصريح بما كانت تنطوي عليه صدور
المصريين من سُخْطٍ ومرارة ، وتفيض به قلوبهم من كره الغرباء والضيق بهم
بسبب ما أصاب البلاد على أيديهم من قرح ، ونزل بأهلها من محن .

ولقد يُقال إنَّ الأغارقة من أهل « أثينا » قد أغاثوا المصريين في نورتهم
على الفرس حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن ما الذى يمنعنا
من أن نفرض أن ذلك لم يكن مبعثه حبّ المصريين وإيثارهم على الفرس .
وإنما كان الغرض منه مناهضة الفرس بغية السيطرة على مصر . وليس أدلّ
على ذلك من أن الأغريق لم يقادروا مصر بعد النصر ؛ وإنما بقوا فيها سادة ،
وظلوا كذلك حتى عاد الفرس لخربوم وأجلوم عنها . فالأمر — كما نرى —
كان أمراً منافسة بين قوتين من قوات الاستعمار تتناحran من أجل السيطرة
على مصر .

(١) انظر فصلى ١٢٥ ، ١٢٩ من كتابه الثانى .

(٢) انظر الفصول ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٤ ، ١٦٤ من كتابه الثانى .

(٣) انظر ص : ١٠٦ ، ١٨

وليس من شك كذلك في أن احتضان البيت المصري الحاكم في «سايس»
النزلاء الأغارقة من المرتزقين وأصحاب التجارة ، قد أثار نفوس المصريين كرهاً
لهم وفجّر ها حقداً عليهم ، حتى باتوا يضيقون بجوارهم ، ويكرهون لقاءهم كما
يبدو ذلك بوضوح وبخاصة أيام «أمازيس» (١).

وليس بخاف كذلك ، أن الإغريق الذين كانوا يقيمون في مصر — سواء
منهم من كان يرتزق من العمل في الجيش ، ومن كان يعمل في التجارة —
إنما كانوا يؤثرون الفرس على المصريين طمعاً في الكسب الوفير ، والعيش
الرخيص . وذلك شأن الغريب المرتزق في كل زمان ومكان ؛ فهو واجدٌ
— على الدوام — في ظل الاستعمار فساداً يستطيع أن يفيد منه في سهولة ويسر (٢).

وهردوت الإغريقي لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بني قومه أو عن غير
بني قومه من الغرباء الطامعين في مصر ؛ بدليل أنه لم يستغ ثورة المصريين
في سبيل الحرية (٣) ، بل ظلّ يمتدحُ الفرس ، ويُشيدُ بنبلِ مسلّكهم إزاء من

(١) انظر ص ٤٨

(٢) ظاهر أن احتلال الفرس أرض مصر قد أَرْضَى الإغريق الذين
كانوا يقيمون فيها ، وليس أدل على ذلك من انضمام بعضهم إلى صفوف الغزاة
(انظر كتاب هردوت الثالث فصل ٤ ، ١٣ ، ١٣٩) . وقد ازداد نشاطهم في
البلاد يومئذ وتتابعت هجرة قومهم إليها ، كما ازدهرت تجارتهم في «نوكراتيس»
(٣) برّجّح بعض المؤرخين من أهل الشك أن «هردوت» قد زار مصر مزوَّداً
بتوصية من الفرس (انظر : Jaoby, Herodot, Pauly - Wissowa, Sp. 266)
ويرى آخرون غير ذلك ؛ فيقولون إن الثورة التي هبت في مصر لم يكن للعصريين
يد فيها ؛ وإنما قام بها الليبيون الذين كانوا يسكنون أرض الدلتا وأطرافها الغربية .

انظر : Kienitz (Friedrich Karl), die politische Gesch.

Aegyptens vom 7. bis zum 4. Jhd. (Berlin 1935, s. 68)

أخضعوا من شعوب الأرض (١) .

كل أولئك أمورٌ أقلّ ما يمكن أن يقال عنها إنها بغضت الإغريق إلى نفوس المصريين ، وقد كان بغضاً لم تخف أسبابه ومظاهره على « هردوت » (٢) . وكان على رأس الساخطين كهانُ البلاد ؛ وهم يومئذ وقبلئذ قادة أهل الفكر ، وأئمة المجاهدين ، وأرباب الثقافة ، وأصحاب التوجيه والإرشاد ، وزعماء حركة التحرير في هذا الوطن المصرى .

ألا إن أقل ما يمكن أن نستنتجه من كل هذه الحقائق ، هو أن جلّ اعتماد « هردوت » أثناء زيارته مصر — فى وصف مشاهدتها ومعالمها ، وآثارها العمرانية ، ونقل أخبارها التاريخية — قد كان فى الأغلب الأعم على النزلاء من بنى قومه ؛ وهم ناسٌ — مهما طال مكثهم فى مصر ، ومهما ازدادت معارفهم عنها — لم يكن من قدرهم ، ولم يكن فى وسعهم أن يبلغوا بثقافتهم تلك فهم الحياة المصرية الطويلة العريقة ، ولا فهم العقائد المصرية وأصولها العميقة المليئة بالأسرار ، ولا فهم الروح المصرى الذى ادّخر من تراث الماضى وودائمه ومن أخباره وتقاليده ، وتجارب أهله ، وعبره ، وعظاته ، وأسراره ، ما يضيّق به ونغى الغريب ، مهما اتسع إدراكه وعظم حفظه من العلم والثقافة .

فكيف إذن لهردوت — وهذه مصادر معرفته — أن يستطيع فهم الروح المصرى ، وأن يبلغ من فهم حقائق الأشياء ما ينبغى للمؤرّخ الثبّت . وكيف إذا جاءنا « هردوت » يزعم أن رواته فى مصر كانوا من الثقات ؛

(١) انظر هردوت ج ٣ (فصل : ١٢) .

(٢) انظر هردوت ج ٢ فصل : ٤١ ، ٩١ .

منهم سمع ، وعندهم أخذ كل ما سجل لنا في كتابه من عقائد قومهم
وتقاليدهم ومن سيرة ملوكهم وحكامهم .

ترى أيكون مبعث ذلك — إن صح زعمه — حرص الكهنة المصريين
على الإلمام بعقائد الإغريق ؟ أم تراهم أرادوا أن يطلعوا ذلك الزائر المنقذ من
بلاد الإغريق على مبلغ سلطانهم الروحي بعد أن فقدوا في غمرات المحن المتتابعة
سلطانهم السياسي ؛ وآثروا أن يتحدثوا إليه ليبادلوه علماً بعلم ، ومعرفة بمعرفة ؛
يأخذون عنه ما يعرف من عقائد قومه ، ويعطونه من معارفهم مثل ذلك ؟

لقد نستطيع أن نقدر ذلك تقديرًا ، أو أن نفرضه فرضًا . ولكننا
لا نستطيع أن نجزم بصحته على كل حال ؛ ذلك لأننا نعرف « العصر الصاوي »
الذي جاء « هردوت » في أعقابه ، ونعرف أحداثه السياسية ، ونعرف سيرة
ملوكه وأمراءه . ونعرف ما بقي من تراثه بين أيدينا . ونرى آخر الأمر في كل
ذلك أدلة واضحة على قيام نهضة يصفها بعض المؤرخين بأنها كانت نهضة
بعث وإحياء ؛ ذلك لأن قوادها وروادها كانوا يهدفون في سيرتهم إلى الرجوع
بالبلاد إلى مظاهر ماضيها ، ورد الناس إلى عقائدهم العريقة الأصيلة (١) .

ونستطيع بعد ذلك أن نقدر ما كان لتلك النهضة من أثر ؛ أقل ما يمكن أن
يوصف به أنه أيقظ في الناس الشعور بوجوب تطهير حياتهم مما كان فيها من
غرائب وشوائب أخذت تسعى إليها وتندس فيها منذ أواخر أيام
الإمبراطورية الفرعونية خلال القرن الرابع عشر قبل مولد المسيح (٢) .

(١) انظر في « موكب الشمس » ج ١ ص ٧٩ .

(٢) إن حياة المصريين في ذلك الوقت ، وبين يدي تلك النهضة كانت قد صفت
بحيث لم نعد نرى فيها أثرا من ذلك . وإيمان المصريين بتقاليدهم ، وصددهم عما =

ليس من السهل — بعد الذى قدّمنا — أن نتصور أن كهّانَ البلاد الذين أسماهم هردوتُ الثقات قد أعطوه تلك الصورة الممسوخة المشوهة من تقاليدهم الدينية أو من تاريخ أسلافهم . ثم أن المؤرخين والنقاد الذين نظروا فى كتاب « هردوت » هذا — على ضوء ما قدمنا — يختلفون فى طريقة تقديره والحكم على آراء صاحبه وصحة مصادرها، وإن كانوا يجمعون على إثارة الشك فيما روى ؛ فروايتُه التى تتصل بتاريخ الملوك تنقسم قسمين ؛ يضم أولها تاريخ الملوك وأخبار أيامهم من زمان « منا » حتى مطلع أيام « إسماتيك » . ويزعم أنه استمد معارفه عن ذلك من أحاديث الكهان المصريين (١) .

فأما ما عدا ذلك فيقول إنه قد ورد فيه معينا مختلطاً من أحاديث المصريين والأغارقة (٢) .

والذى رواه « هردوت » فى القسم الأول من تاريخ الملوك لا يستقيم مطلقاً إزاء ما كان معروفاً من مصادر التاريخ الفرعونى فى زمانه ؛ وكانت تنحصر يومئذ فى الأثبات المعروفة ؛ سواء منها ما نُقش على الحجر أو سُطر فى القراطيس .

= عداها من عقائد الشعوب الأخرى وتقاليدها قد كان شيئاً معروفاً لا يكاد يخفى أمره على أحد ؛ بل إتنا لنلحس الدليل على ذلك فى أخبار بنى إسرائيل التى وردت فى سفر الخروج (٢٦: ٨) ، ثم فى ثورة المصريين على اليهود فى جزيرة الفيلة وتخريب معبد إلههم « يهوى » ، وأخيراً فيما ذكره « هردوت » نفسه فى كتابه الثانى (فصل ١١٠) من أن كهّان منف قد رفضوا أن يقيم لدارا الفارسى تمثال فى معبد بتاح . ومن قبل رفض كهّان مصر « مذهب فيفاروس » الاغريقى على الرغم من توصية مليسكهم « أمازيس » .

(١) انظر : هردوت ج ٢ (فصل : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧) .

(٢) انظر : هردوت ج ٢ (فصل : ١٤٧ ، ١٥٤) .

ثم في السَّيرِ ؛ يحفظها الثقات من الكهَّان الذين يقدسون أسلافهم ويعظمون سيرهم . ثم في ذلك القصص الذي كان شائعا بين الناس ؛ يروونه ويروونه الناشئة من أجيالهم ؛ فيحفظونه ، ويوشونه بألوان من الخيال الذي يشيع في نسيج القصة ؛ فترق حواشيه بحيث تؤثر في النفوس ؛ وتوقظ العواطف ؛ وتلهبُ الحماس . ولكنها لا تطمس ما بين طَيَّاتِهِ من حقائق .

فكيف نظمئن إذا جاءنا « هردوت » بما صوّر في كتابه الثاني من تاريخ ملوك مصر فألفيناه خلواً من كل أثرٍ لذلك القصص الوطني الشعبي الحبيب .؟

وكيف نظمئن إذا زعم لنا أن ثَبَتاً من أثبات أسماء الملوك قد قرئ عليه في معبد « پتاح » بمدينة منف^(١) ، على حين نراه قد جهل ترتيب المشاهير من أولئك الملوك وتتابع عهودهم . وقد كان أمراً أكثرهم — على الأقل — لدى المثقفين وأنصاف المثقفين في مصر يومئذ أجل وأخطر من أن يَهْمَلَ فيُنْسَى؟

ثم كيف نظمئن إذا جاءنا كتاب « هردوت » خلواً من كل خبرٍ من أخبار الملاحم التاريخية — وعلى الأخص تلك الملحمة الخطيرة — التي تصوّر هجوم « الهكسوس » على مصر ، ثم ثورة المصريين عليهم ، ثم إجلاءهم عن أرض الوطن بعد أمة ؟ وملحمة الهكسوس ملحمة ذاع خبرها ، وخلد ذكرها ، حتى أضحت

(١) انظر : هردوت ج ٢ (فصل ١٠٠ ، ١٥٤) . والواقع أننا لن نكون متصفين إن نحن طالبنا « هردوت » بمعرفة التاريخ الرسمي لحكام مصر وسيرهم المضبوطة . فالمقول أن نترك « هردوت » يعتمد على السماع ، وهو — من غير شك — قد سمع كثيراً ولا بأس عليه من ذلك ؛ مع ما حفظت الأجيال من سير الملوك والأبطال في قالب قصصى . إلا أن « هردوت » لم يحسن فهم ما سمع . وعذره في ذلك واضح .

لدى المصريين من أحاديث العمر يروونها في كل زمان ومكان ، ويروونها
النَّشء في مختلف دور التربية والثقافة (١) .

ألم يكن ذلك التراث وأمثاله معروفاً أيام جاء هردوت إلى مصر ؟ أم كان
المصريون قد نسوه لطول عهدهم به ؟

لا نظن مطلقاً أن المصريين نسوا ذلك مهما تقدم العهد عليه .
ولو جاز ؛ لما وقع عليه مؤرِّخنا الوطني السَّمُودى « منتون » الذى جاء
بعد زمان « هردوت » بدهر طويل اللهم إلا أن يكون الكهَّان قد عمدوا
إلى تضليل « هردوت » ضناً بأسرارهم ، أو أن يكون هو قد اتصل بأقلَّهم معرفةً
وأدناهم طبقة ؛ فأعطوه من صور البلاد المشوَّهة ما جعل كتابه محشواً بالأخطاء .

لو مال « هردوت » حقاً إلى الثقات — كما يزعم — واطمأنوا إليه
— كما أوهم قراءه — إذن لأعطوه من معينٍ معارفهم ما نفعه ، ولأستطاع أن
يقدم لنا تاريخاً — إن لم يكن صحيحاً كله — كانت فيه فى نهاية الأمر أصالة
على كل حال .

ولو تجرَّى الدِّقَّة ، وأعمل الفكرَ فيما سمع ؛ لأستطاع إذن أن ينقل إلينا
عن الهرم وعمارته وقصَّة بنائه كلاماً — إن لم يكن سليماً كله — كان على الأقل
أقربَ إلى الواقع وأبعد من الشطط والسُّخف الذى سجله فى كتابه .

(١) وَجِدَتْ بعض أخبار تلك الملحمة التاريخية على لوح من تلك الألواح
التي كان التلاميذ يكتبون فيها ما يحفظون من ألوان الدروس فى التربية الوطنية
ويعرف ذلك اللوح فى كتب العلماء والمؤرخين باسم « لوح كارنارفون » .
(أنظر : فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣٥٤) .

يقول « هردوت » إنه زار الهرم ؛ ونحن نعتقد أنه فعل . وهو يذكر في مطلع حديثه أنه سمع من الكهان ، ثم لا يلبث أن ينسى ذلك حين يسند الرواية التي سمعها إلى ترجمان . وفي ذلك ما يدل على الخلط وعدم الدقة والنظر إلى الأمور في غير تحفظ وتفكير وروية .

ولقد نفهم أن يُخدع عامة الناس عن الحقائق في كثير مما يرون أو يسمعون ، وأن يُخدع السامعون في أكثر ما يسمعون من أقوال الأدلاء والتراجمة . ولكننا لا نرضى أن تجوز الخديعة على « هردوت » ذلك الذي ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأي حتى خدع قراءه دهرًا ، وحتى بات لديهم « أبا التاريخ » وإمام المؤرخين . فأكثر الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه ، وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة ، والاحتلال الفارسي قد مهد له سبيل الزيارة وأتاح له ما لم يتح لغيره من قبل (١) .

ليس هناك شك في أن مصر قد كانت أيام الاحتلال الفارسي تمتحن في عزتها وكرامتها وأرزاقها وكافة أمور دنياها . ولكن أمور الدين قد بقيت كما كانت لم يبتلها الاحتلال ولم تبدل فيها رذائله كثيراً ولا قليلاً .

فكيف نُصدّق إذا جاءنا « هردوت » فزعم أن كره المصريين لذكرى « خوفو » وخليفته قد حملهم على الغضب من سيرتهما ، والظن عليهما بكل جراح من القول وشأن من الاتهام ؛ على حين يضع التاريخ بين أيدينا من الوثائق ما يشير إلى ما ترك الحكم الفارسي من آثار تدل على مشاركة الفرس في تعمير دور العبادة عامة وعلى قيام الخدمة الدينية وشعائر الجنازة عند ضريح « خوفو » بخاصة .

(١) انظر ص ٢٦ و ٢٩

وليس هناك شك في أن « هردوت » قد جمع تلك القصة السخيفة عن بناء هرم « خوفو » والسبيل المنكبة التي سلكها الرجل ليحصل على نفقات البناء . ولسنا نذكره منه تسجيل تلك الرواية — برغم ما فيها من سُخْفٍ ثَقِيلٍ ومُجُونٍ أَقْلٍ ما يوصفُ به أنه لَوْ من الافتراء المفضوح — وإنما الشيء الذي نأخذه عليه ونذكره منه ، هو أن يقبل مثل هذا السُخْفِ ، فيثبتهُ في كتابه في غير نقدٍ ولا حرجٍ ولا ورعٍ ؛ ليداعَ على الناس و ، ليوَصِّمَ به شَعْبُ كانت الفضائل لديه — وعلى الأخص ما اتصل منها بالعبث وصيانة العرض — من قواعد الإيمان .

فأين إذن ثقافة « هردوت » ، وأين علمه ، وأين دِقَّتُهُ ، وأين رُوِيَّتُهُ ، وأين حصافته ، وأين صدقُهُ في اتهام من سبقوه في الحديث عن خصائص هذا الشعب . ثم أين تقواه آخر الأمر ؟

في الحق إن الطعنَ في مسلك « خوفو » وقبيله ، والتجريحَ في عقائدهم لم يكن بالشيء الجديد على دنيا المصريين ؛ ذلك لأن مرجعَهُ إلى زمان الدولة القديمة ، وكان مصدره دعاية الدّاعين إلى مذهب عبادة الشمس من أعداء بيت « خوفو »^(١) . ولكنه طعنٌ — مهما كان مبعثه ، ومهما قيل فيه — لم يبلغ من الأسفاف والتخريف والسُخْفِ الثَقِيلِ ، وسوء التفكير ، ما بلغتْهُ رواية « هردوت » على كل حال .

ولست أريد أن أنتهي من حديثي القصير هذا عن « هردوت » ، دون أن أشير إلى حقيقة واضحة ؛ وهي أن « هردوت » بشرٌ من أمثالنا يخطئ ويصيب ، وأن له ككافة البشر حسناتٍ وسيئات ، وأن الحسنات يذهبن السيئات .

(١) أنظر (في موكب الشمس ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها ثم ص ٢١٨ وما بعدها)

وأشهدُ لو كنتُ مكانه ، وعشتُ حياةَ كحياته ، ولقيتُ ما لقي من ظروف دهره ، إذن لأخطأتُ أضعافَ ما أخطأ . ولضلتُ أكثر مما ضل .

وإني لأشعر آخر الأمر أنني قسوت عليه ، وأن من واجبي أن أشفق عليه ، وأن أعذره وأعتذر له ؛ لا أكاد آخذ عليه غير ما ادَّعاه من أن روايته كانوا من الثقات ، على حين تقوم الأدلة على أنهم لم يكونوا كذلك ؛ بل لم يصلوا في معارفهم إلى طبقات أنصافِ المثقفين ، ولا إلى أرباعهم أيضاً . وأنه كان يُصدر في أكثر ما روى عن معينٍ إغريقى ، وعن معارفٍ أدلاءً متأثرين بثقافة الإغريق وأساطيرهم ، وأنه كان يفكر — فيما يرى ويسمع — بعقل إغريقى ، ثم ينسج فى روايته على منوال إغريقى ، ويدسُّ بين طيات نسيجه ما كان قد وقع عليه فى كتب من تقدّموه من أسلافه الإغريق وفى مقدمتهم « هيكاتيه الملطى » ، ثم يعود فى جرأة جريئة فينسبُ أكثر ما روى إلى روايته الثقات من كهّان مصر .

ونستطيع — فى ختام الحديث ، وعلى ضوء ما قدّمنا — أن نخرج من الباب التاريخى فى كتاب « هردوت » عن مصر بحقيقة واضحة ؛ وهى أن الشطر الأول من هذا الباب ؛ وهو الذى ينتهى عند مطلع « العصر البصاوى » يكاد يخلو تماماً من القيمة التاريخية . وأن الشطر الثانى الذى افتتحه بعصر « إسماتيك » قد ظاهره فيه التوفيق ؛ وذلك لأن روايته كانوا من الإغريق ، وكانوا يعرفون أسرة ذلك الملك التى احتضنتهم وأكرمهم وأشركتهم فى كثير من الأمر (١) .

أحمد بروى

تمهيد

نظرة سريعة في أهوال مصر والشرق القريب قبيل أيام هردوت

لم تكد مصر الفرعونية تستقبل من تاريخها الطويل أيام القرن الثامن قبل مولد المسيح ، حتى كانت الشيوخوخة قد وهنت عظامها ؛ فباتت وكأنها لا تقدر على شيء .

وآية ذلك أن الزمن قد أغرقها في بحر جلي من الفوضى ؛ فأخذت أمواجه الطاغية العاتية تضربها من يمين ومن يسار ؛ حتى خارت قواها ، وظلت عواصفه الهوج تلطم شراعا الرقيق من كل جانب حتى مزقت أوصاله شراً ممزق .

ثم تسكن الريح ، وينصت الدهر ليستمع إلى صوت هذه الأمة المفرقة ، فإذا الفتنة قد استيقظ شيطانها ، وراح يوسوس في صدور أمراء الأقاليم بشر ما كان يوسوس به يومئذ من أسباب الفرقة والخلاف ، حتى ملأت الأطماع نفوسهم ؛ فباتوا يتنازعون أمرهم بينهم (١) ولم يلبثوا حتى فشلوا وذهبت ريجهم ، حين دهمتهم جيوش الأثيوبيين من جنوب الوادي (٢) ثم انقضت

(١) بقيت مصر غارقة في هذا النوع من غمرات الانحلال نحو قرن ونصف قرن . يتقاسم حكمها أمراء الأقاليم وحكام المدائن . وكان من نتائج ذلك أن تعطلت فيها وسائل الإرواء ، والطرق العسكرية التي خلت من حراسها . وانعدم الأمن ؛ بحيث أصبح الناس لا يأمنون على حياتهم حين ينتقلون من قرية إلى قرية ، أو من مدينة إلى مدينة ، كما تعطلت التجارة الخارجية .

(٢) فوجئت مصر في عام ٧٢١ قبل مولد المسيح بهجوم الأمير الأثيوبي =

عليهم جيوش الآشوريين من الشرق ، فدخلوا ديارهم عام ٦٧١ ق. م. ثم اصطدموا بقوات الآثيوبيين فطاحوا بأميرهم «طهرقة» (١).

== «بغنى» الذى دهم البلاد فاحتل صعيدها ، وطوى من ورائه أقاليمها الوسطى حتى بلغ «هرقليوبوليس» (إهناسية) ، ثم لم يلبث حتى بلغ الفيوم . وهناك دانت له أكثر الأقاليم فى غرب الدلتا . ولقى «بغنى» فى زحفه هذا مقاومة شديدة من أحد أمراء الدلتا وكان يدعى «تفنخت» الذى ظل يقاوم حتى استنفد كل ما كان يملك من وسائل المقاومة ؛ فلجأ إلى جزيرة معزولة عند مصب الفرع الغربى للنيل . ولما أعجزته الوسائل وأعينته الحيل ، سَلِمَ أخيراً للغازى فأصبح «بغنى» بذلك ملكاً على مصر .

على أن الحوادث فيما بعد قد برهنت على أن تسليم ذلك الأمير المصرى المسكافح لم يكن غير وسيلة إلى الخلاص من ورطة مؤقتة ؛ بل كان خدعة قصد بها إلى تمكين نفسه من الاستعداد لتخليص البلاد من يد الغاصب . فلما عاد الغازى إلى بلاده ، أخذ الأمير يعد نفسه لما أراد ، واستطاع أن يجعل من نفسه حاكماً (بل فرعوناً) على مصر ثمانية أعوام . وفى غضون ذلك كانت الأسرة الثالثة والعشرون تقضى فى الحكم أو المشاركة فيه أيامها الأخيرة .

(اظر J.H. Breasted, *Gesch. Aeg., Deutsch v. Ranke* (1960) s. 284 ff)

واستطاع «بوخوريس» بن «تفنخت» أمير «سايس» حوالى عام ٧١٨ ق.م أن يحكم مصر السفلى جميعاً . ومعنى ذلك أن مصر كانت عام ٧١١ ق. م. تحت سلطان الآثيوبيين . وعند مؤرخنا المصرى السنودى «منتون» أن «شباكا» كان مؤسس تلك الأسرة الآثيوبية التى جعلها الخامسة والعشرين فى ترتيب الأسر التى حكمت مصر .

(١) لما دخلت جيوش الآشوريين مصر تراجع «طهرقة» متقهقراً حتى بلغ «منف» ، وتبعه «أسر حدون» ؛ فحاصر المدينة وفتحها ، ثم نكل بأهلها ، وخرب دورها ، ونهب أرزاقها . وفر «طهرقة» إلى جنوب الوادى .

(انظر Zeisel (Helene von), *Aethiopen* ثم Breasted, *ibid.* s. 292)

und Assyrier in Ägypten (*Ägyptologische Forschungen* (14))

هنالك تراءى للآشوريين أن الخير كل الخير في اجتذاب المتنافسين من أمراء الأقاليم ، ومحاولة إرضاء أطاعهم جميعاً ؛ وآية ذلك أنهم نجحوا في جعل حكومة البلاد قسمة بين أولئك الأمراء ، ليضمنوا بذلك القضاء على وحدتهم ، وتحقيق سيادة آشور .

لم يكبد أولئك الأمراء يتمتعون بمذاق ذلك العسل المسموم ، ولم تكبد جيوش آشور تغادر البلاد ولها فيها حاميات ، حتى هتف الهاتفون منهم بطهرقة الذي كرم على ديارهم فحَنُوا إليه ينفاضون (١) .

ولما بلغ ذلك صاحب آشور ، أخذهم بالصارم العنيف ، حتى إذا ما أصبحوا في يمينه ، لأن لهم ، وأكرم منهم من وثق به ، واختص بعطفه « نجاو » صاحب إمارة « سايس » (صا الحجير) ، وكانت يومئذ من أشهر إمارات مصر وأظهرها ، ثم بالغ في إكرامه والعطف عليه حين جعل ولده « ايسمانيك » أميراً على إقليم « أتريب » (٢) .

وكان « طهرقة » قد عاد إلى دياره ولبث فيها حتى هلك عام ٤٦٣/٤٦٤ ق . م . فحمل راية الكفاح من بعده « تنتامون » ابن « شباكا » الذي بادر بالحملة على مصر فدخلها في سهولة ، وأخذ يطوى أقاليمها طياً سريعاً ، حتى إذا ما بلغ « منف » ، طار إليه بعض أمراء الدلتا ممن خافوا بأسه وطمعوا في عطائه (٣) .

(١) انظر : Breasted, ibid. S. 293

(٢) انظر : Breasted, ibid. S. 293

(٣) انظر : Winkler, Untersuchungen zur al-oriental. Gesch. IV S. 925-928

فأما « إيسماتيك » (١) فقد خال السلامة عند صاحب آشور ، ففرَّ إليه ، ولقى عنده ما تمَنَّى ، حين رآه يهبُ لنصرته ، ويركب معه إلى مصر ؛ ليضرب فيها صاحب « أثيوبيه » ، ثم يتبعه بجنوده حتى يبلغ « طيبة » ، فيدخلها منتصراً عام ٦٦٣ ، ويخرب ديارها تخريباً منكراً . ثم يعود إلى بلاده تاركاً « سايس » و « منف » بين يدي « إيسماتيك » الذي لم يلبث أن بسط سلطانه على سائر أقاليم البلاد .

وتبتسم الدنيا لإيسماتيك حين يجد من أيام دهره ، ومن ظروف نصيره ما مهد له السبيل إلى العرش والتاج ؛ فيظل ولياً لنصيره ، ويبعث إليه بالجزية في حينها ؛ فيبيت راضياً عنه كل الرضا ، مطمئناً إليه كل الاطمئنان . ولما كادت الأمور تستقر بين يدي « إيسماتيك » ، أحس أنه في حاجة إلى أن يستوثق لنفسه ، ويحتمط لحادثات الأيام وفاجعات الليالي ؛ فنظر في الدلتا ، وهي يومئذ خاصة بالأغارقة ؛ ينتشرن فيها للبيع والتجارة ، ثم ينتهون إلى سوق لهم في « نوكراتيس » (٢) . فَقَدَّرَ أن يفيد منهم ، فوسَّع عليهم سوقهم تلك .

(١) كان صاحب آشور قد جعله على إقليم « أتريب » بعد أن جعل أباه « نخاو » على إقليم سايس (انظر : Breasted, ibd. S. 279)
(٢) كان الإغريق وبخاصة أهل « ملاطيه » ينتشرون في الدلتا منذ أيام القرن الثامن . ق . م . حين أخذوا يمدون أنفسهم إلى مصر مداً قويا . وكانوا من قبل قد انتشروا في حوض البحر الأبيض ، وأخذوا يترددون على ثغور مصر عند مصاب النهر ، وبخاصة مصبه الغربي عند « أبوقير » ؛ يبلغونه من « بحر إيجيه » في سهولة ، ويأمنون عنده نشاط من كان ينافسهم من الفينيقيين . واستطاعوا حوالي عام ٧٠٠ ق . م . أن يتخذوا لتجارهم سوقاً قرب « سايس » (انظر : Breasted, ibd, S. 373) عرفت أول أمرها باسم « قلعة الملطييين » ثم أطلق عليها من بعد ذلك اسم « نوكراتيس » .

وبذلك انتشر الرخاء المادى فى مصر، وأفاد « إيسماتيك » نفسه من ذلك فائدة مادية كبرى. ولما أغراه كل ذلك، استخدم من الأغارقة فى بلاطه وعساكر جيشه عدداً كبيراً^(١). وهناك أحسن بقوته فاطمان إليها. وكان من نتائج ذلك أنه توقّف عن إرسال الجزية إلى صاحب آشور. وكان هذا الأخير قد شغل عن أمور مصر لاشتباكه فى حروب مع العلاميين^(٢)، كما اضطرت حاميته فى مصر إلى الانسحاب حين هبّت الثورة فى « بابل ».

ويخلو الجو لإسماتيك، فيستقل بمصر عام ٦٦٣ ق. م. ويجعل عرشه فى « سايس » (صالحجر). ويبدأ بذلك عصراً جديداً، فيؤسس أسرة جديدة، ويمكّن لها فى أسباب الحكم؛ فنجلس على عرش البلاد قرناً ونيفاً. وتظل كذلك حتى يدال من سلطانها إلى سلطان الفرس الذين دخلوا مصر عام ٥٢٥ ق. م.

كانت أسرة « إيسماتيك » قد رأت من حسن السياسة أن تعود بالبلاد إلى مظاهر عهدها القديم، فسارت فى نظامها وإدارتها، ومظاهر عقائدها، وثقافتها على سنة السلف الصالح من حكم الدولتين القديمة والوسطى. وطلعت علينا آثارها الدينية والفنية تتحدث بذلك فى صراحة ووضوح، حتى اعتقد بعض المؤرخين والكتاب أن عصرها عصر بعث وإحياء^(٣)، وخُذع أكثرهم فباتوا فاعتقدوا أن تلك الأسرة كانت

(١) انظر : ص ٤٤

(٢) كان ذلك فى عام ٦٥٢ ق. م. (انظر : Breasted, ibd, S.296)

(٣) أليست هذه طبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان؛ نحن إلى الماضى وتنسى محنه وشروعه كما هزها من الأحداث جديد. ولقد كان لأحداث الزمن التى أصابت نفوس المصريين من جراء الفتن والفلاقل الداخلية، ثم لم يحن الغزو =

مصرية وطنية لحما ودما ، وأن سياستها قد كانت سياسة قومية خالصة . إلى أن نبه إلى فساد هذا الرأي المؤرخ الألماني Ed. Meyer حين قال إنها أسرة غربية ، وإن أصلها قد يرجع إلى فلول أسرة ليبية نزلت بمصر وانتشر أفرادها في أقاليمها أو آخر أيام الرعامسة :

ومن الواضح في تاريخ تلك الأسرة وسيرتها ، أنها اعتمدت في كفاحها وتثبيت دعائم سلطاتها على عناصر غربية عن مصر ؛ إذ لم تكد أمور مصر تستقر بين يدي عاهلها « إسماتيك » حتى يادر إلى مكافأة جنوده المرتزقين — وأكثرهم يومئذ من الأغارقة — فلأ بهم بلاطه ، وجعل منهم خاصة جند وحراسه . ثم بالغ فجعل منهم حماة الثغور ، يرذون عنها إغارات المغيرين ، وعدوان المعتدين ^(١) وتزداد مبالغته في إكرامهم حين يطلق أيديهم في إنشاء

= التي زلزلت كيان المصريين أثر ظاهر في سياسة هذه الأسرة التي كانت تهدف فيها إلى الرجوع بمصر إلى نظامها القديم ، (انظر : Breasted, ibd. 299 ff.) . ولم يكن مثل هذا التفكير بالشيء الجديد في حياة المصريين ؛ فذلك كانوا يفكرون ، وكذلك كانوا يعزّون أنفسهم كلما نزل بهم الحن (انظر في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٥) . على أن الوسيلة إلى ذلك انصهر المشار إليه لم تكن سهلة ولا ميسورة ؛ ذلك لأن الظروف قد تغيرت ، والأحوال قد تبدلت ، وأيام الدهر — بما امتلأت من ألوان الحن الحشنة الثقيلة المضنية — قد باعدت بين المصريين وماضيهم ذاك الذي كانوا يحشّون إليه ، وعناصر القوة الحجة التي كان يمكن أن تعينهم على ذلك قد ضعفت بحيث لم تعد تنهض بالمصريين إلى ما كانوا يبتغون . ولم تجد محاولات الأسرة الجديدة في نفوس المواطنين صدى إلا في العزوف عن تقديس المعبودات الدخيلة .

(١) اخلف المؤرخون في تحديد أصل « إسماتيك » وأسرته ؛ ففريق يرجع بأصله إلى « ليبية » ، وفريق يرجع به إلى « إثيوبية » ، وفريق يرى أنه مصري . فاما الذين يرجعون به إلى « ليبية » فهم :

=

المزارع، والمؤسسات التجارية في « سايس »، « نوكراتيس »، « أبو قير »^(١).

(Lepsius, Ueber die XXII. aegyptische Koenigsdynastie, 291) انظر Lepsius =

(Stern, Z.Ae.S. 21 (1883) S. 24 : انظر Stern ثم

(Piehl, PSBA. 13 (1891) S. 236 : انظر Piehl ثم

(Erman, Aegypten S. 52 : انظر Erman ثم

(Hall, CAH. III, p. 291 : انظر Hall ثم

(Smith, JSOR. 10 (1926) p. 132 : انظر Smith ثم

(Drioton — Vandier, L' Egypt p. 549 : انظر Drioton وأخيراً

ويراه من أصل أثيوبي كل من :

(Brugsch, Gesch. Aegyptens S. 731 — 733 : انظر Brugsch

(Schaefer, Z.Ae.S. 33 (1895) S. 116—120 : انظر Schaefer ثم

(Petrie, Hist. O. Egypt III, p. 320, 321 : انظر Petrie ثم

(Wadell, Manetho. p. 170, 172 : انظر Wadell وأخيراً

وأما الذين يرونه من أصل مصري فهم :

(Ebers, Z.Ae.S. 19 (1881) S. 68 : انظر Ebers

(Wiedemann, Aeg. Gesch. S. 623 : انظر Wiedemann

(Spiegelberg, OLZ. 8 (1905) S. 559—562 : انظر Spiegelberg ثم

(Max Mueller, OLZ. 16 (1913) S. 49—52 : انظر Mueller وأخيراً

أولئك هم الذين بحثوا في أصل هذه الأسرة واختلفوا في الرأي وكلهم من غفول الدلاء ؛ « كل يؤيد رأيه يا ليت شعري ما الصحيح ؟ الله وحده يعلم .

(١) لما رأى إسماتيك أن يحصن بلاده جعل على حدودها حاميات ثلاث

كانت أولاهما عند « جزيرة الفيلة » وكان جنودها من المواطنين ، وكانت الثانية والثالثة في الشمال ؛ إحداهما في « دفته » عند خليج السويس ، والأخرى في « ماريا »

(مربوط) . وكان الجند في كليهما من الإغريق .

ولقد يكون من الأنصاف — على الرغم من كل ذلك — أن نقرر أن تلك الأسرة قد استطاعت — أن تقيل عبث مصر ، وأن تُصلح ما فسد من أمورها ، وأن تنهض بأحوالها الاقتصادية ، حتى استتب الأمن ، وعم الرخاء المادى ، وحتى استقامت أمور البلاد فى أكثر نواحي الحياة (١) وذلك بفضل ما بذلت من مختلف الجهود فى سبيل تثبيت سلطانها على النحو الذى قدّمنا ، وبفضل ما أبداه أهلها الأول من الدهاء والمهارة والحزم فى سياسة البلاد أيام حكمه .

ولم ير « إسماتيك » — على الرغم من توفيقه ، وقوته التى مكنته من الاستقلال بمصر عن سلطان آشور — أن يقف من نصيره صاحب آشور موقف العداء . وإنما بقى له ولياً حجباً ، وظل حليفاً له حتى هلك عام ٦٠٩ ق . م . وسار خلفاؤه من بعده على نفس النهج الذى سلكه فى سياسته الداخلية والخارجية ، وإن كان قد حاول ، وحاول خلفاؤه من بعده — كلما واتهم الظروف — أن يتدخلوا فى الشؤون الآسيوية بغية استرداد أملاك الإمبراطورية المصرية فى الشرق القريب (٢) .

كانت الأقاليم الآسيوية يومئذ مسرحاً للفتن والأحداث الخطيرة والقلق المثيرة ، فالنورات تشتعل نيرانها حول ملك آشور ، والاضطرابات السياسية تقيم بقية الشعوب الآسيوية وتقعدها . وفى غضون ذلك تولد على حدود آشور مملكة جديدة تجمعت عناصرها من قبائل الميديين . فأخذ أصحابها

(١) انظر : Mallet, Les premiers établissements des Grecs en Egypte (Mem. Miss. Archeol. Franç. (Caire XII, Y. Paris 1893).

(٢) انظر : Kees. zur Innenpolitik der Saiten Dynastie

يوسعون رقعتها، ويمدون في أطرافها على حساب الفتن المضطربة نيرانها في آسية الدنيا؛ وآية ذلك أنهم تمكنوا من إخضاع القبائل الفارسية المتاخمة لحدود أملاكهم، وجعلوا عاصمتهم «أكبتان» (١).

وتنتهز بابل فرصة هذه الفتن لتخلص من نير آشور، ولتظهر على مسرح الدنيا بين يدي عاهلها NABOPOLASSER الذي سارع إلى التحالف مع صاحب «ميديا» ليفزوا معا «نينوى» التي اندك صرحها وتم تخريبها عام ٦١٢ ق. م. وهناك استطاع الميديون أن يستقروا في الشمال إلى الشرق والغرب من نهر دجلة؛ على حين سيطر البابليون على شرق العراق، وعلى سورية، وحاول صاحب مصر «نخاو الثاني» أن يفيد من تلك الحوادث، فسارع إلى التدخل في الشؤون الآسيوية متعللاً بمساعدة حليفه «آشور باليت» صاحب آشور الذي كان قد تمكن من جميع فلول جيشه وظل يحارب به بابل وأنصارها ثلاثة أعوام. فلما بلغ «نخاو» آسية، أخذ يتقدم فيها بجيشه؛ وكان غاصاً بالمرزقين من الأغارقة، فأخضع به سورية، ثم مضى فبلغ الفرات، وكان ذلك عام ٦٠٥ ق. م. وهناك تصدّى له صاحب بابل بجيش عقد لواءه «لنبوخذ نسر». فلما التقى الجمعان هُزم جيش مصر وفرت فلوله راجعة إلى الدلتا. وكان من نتائج تلك الهزيمة أن استولى صاحب بابل على كل ما كان لفرعون من حدود وادي النيل حتى الفرات.

وهكذا أخفقت جميع المحاولات التي بذلها فرعون «نخاو الثاني» في سبيل مساعدة حلفائه الآشوريين على أعدائهم البابليين. أو بعبارة أصح تبددت

(١) مكانها الحالي عند «همدان».

أحلامه في استغلال أحداث الشرق القريب لصالح مصر (١) ؛ فانصرف إلى النظر في شئون بلاده الداخلية ، وراح يعمل على النهوض بأمور مصر الاقتصادية .

ولما ودّعَ دنياه ، خلفه على العرش « إسماتيك الثاني » ومن وراء « إسماتيك » « أوبريس » (٢) . وكان كلاهما يؤثر الأغارقة ويختصمهم بعطفه . إلا أن الأخير قد بالغ في ذلك إلى الحد الذي فجّر قلوب الوطنيين كرها وغيظا فاشعلوا من حوله نار ثورة حامية ؛ يحمل لواءها قائد من الوطنيين المغامرين يدعى « أمازيس » (أحموسى) ؛ فظلت مشتعلة حتى نودى بهذا القائد البطل المغامر ملكاً على مصر . فقام بالحكم إلى جانب « أوبريس » ، وظل حكم البلاد شركة بينهما إلى أن انتهى الأمر بمصرع الأخير عام ٥٦٨ ق . م (٣) .

استقل « أمازيس » (أحموسى الثانى) بعرش مصر ، ولم يستطع إزاء إلتفاف الوطنيين من حوله ومؤازرتهم إياه إلا أن ينظر إلى الأغريق في مصر بأحدى عينيهِ ويستمع إليهم بأحدى أذنيه ؛ فسلك معهم طريقاً وسطاً ؛ حين أجلى جنودهم عن الثغور ، فنقل حامية « دفنة » إلى « منف » ، وجعل من المحاربين الأغارقة حرسه الخاص ليكونوا تحت سمعه وبصره (انظر: هردوت ج ٣ فصل ١٥٤) كما جمع المدنيين منهم فأنزلهم في « نوكراتيس » (انظر: هردوت ج ٣ فصل ١٧٨) .

(١) انظر : (١) (سفر الملوك الثانى ٢٤ : ٧)

Wiedemann, (A.) Der Zug Nabucadnazar's (٢)

gegen Aegypten, bestaetigt durch eine aeg. hierogl. Inschrift
in Z. Ae. S. 19 (1878) S. 2 — 9

Wiedemann, Nabucadnazar & Aeg. ibd. 77—89 (٣)

Breasted, Gesch. Aeg. S. 309 (٤)

(٢) تصحيف أغريق لاسمه المصرى (واح — إيب — رع)

(٣) انظر : ص ٥٠

كان عهد « أمازيس » (أحوسى الثانى) أشبه شىء بما يسمونه « صحوة الموت » فى حياة مصر ؛ فهى قد بلغت بين يديه أقصى ما كان يمكن أن يهبط لها من مكان ؛ فراجت تجارتها ، وازدادت ثروتها ، ونشطت حركة البناء فى عمائرها الدينية ، وازدهرت فى رحابها نهضة العلوم والفنون ، واطمأن الناس إلى حياتهم ؛ فباتوا يستمرئون لذاتها ، ويحجون من خيراتها ثمار ما أنفقوا من جهد فى كفاحهم المرير الطويل . وما كانوا يحسبون أن القدر قد كان يبيت لهم ولوطنهم شر ما يكرهون من نازلات الأيام وفاجعات الليالى .

ويكاد عصر « أمازيس » (أحوسى الثانى) من هذه الناحية يشبه عصر « أمينو فيس الثالث » الذى عاشه المصريون قبل عصر « أمازيس » بثمانية قرون .

كان « أمازيس » — كما صورته هردوت — صاحب لهُو وشراب وزير نساء . وكان سلفه البعيد « أمينوفيس الثالث » صاحب لهُو وصيّد وتبع نساء أيضاً . وكان « أمازيس » مع ذلك صاحب فطنة وذكاء وسياسة رشيدة ، وقد أعانه كل ذلك على تهيئة جو ملؤه الصفو الشامل والهدوء الكامل^(١) ، فهو برغم

(١) ذكرنا فيما سبق كيف كان « إسماتيك الأول » يعتمد على الإغريق ، وكيف أنه بالغ فى إكرامهم ، وأطلق أيديهم فى إنشاء المستعمرات الزراعية ، والمؤسسات التجارية . وقد استطاع أحد الدوريين يومئذ أن ينشئ مدينة على شاطئ ليبية عرفت باسم Cyrène (برقه) (انظر : De Muelenaer, ibid) وكره اللويون ذلك ، وظلوا يطوون صدورهم على هذا الكره أكثر من ستين عاما ؛ إلى أن كانت أيام « أبريس » ؛ هنالك أخذت طوائف الإغريق تتوافد على ليبية ، وتحتل من أرضها بقاعاً واسعة ، وأهاج ذلك الليبيين وأنارهم ؛ ففزعوا إلى « أبريس » ؛ يشكون إليه أمرهم ، ويلتمسون عنده العون والنجدة . ولم يكن =

انحيازهم إلى قومه من الوطنيين ، لم يهمل جانب من آزره من الإغريق ، بل عاملهم بالحسنى ، سواء منهم من كان يرتزق من العمل في الجيش ومن كان يعمل في التجارة . ثم بالغ فوثَّقَ صلاته بمن كانوا يقيمون منهم في بركة

== في وسع الرجل أن ينجدهم بالمرتزقين من الإغريق ؛ فبعث إليهم بنجدة من المصريين ، لم يواتها التوفيق ، ولم يحالفها النصر ؛ فهزمت وأيدت عن آخرها على حد قول هردوت (انظر : كتابه الثانى الفصل رقم ٦١ وكتاباه الرابع الفصل رقم ١٥٩) .

وكان وقع الهزيمة على المصريين شديداً ، واهتز لها الرأى العام في البلاد اهتزازا دفع الناس إلى الثورة ؛ فاندلعت نيرانها . وبادر « أريس » فمهد إلى القائذ المواطن « أحوسى » (أمازيس) بإطفائها . فلم يلبث هذا أن أصبح نصير الثورة لا عدوها ، ومع الثوار لا عليهم . فحمل لواءها ومضى فى قيادتها ؛ حتى إذا ما استوثق الثوار لأنفسهم منه ، نادوا به ملكا على الوادى . إلا أنه لم يستطع يومئذ خلع « أريس » الذى كان يتدرَّع بالأغارقة ؛ وهناك بقي أمر الحكم فى البلاد قسمة بين الرجائين — ولكن على كره منهما — أكثر من هامين . ولما كان العام الثالث ، سار « أريس » بجيش من المرتزقين ليضرب به « أحوسى » (أمازيس) وقبيله ؛ فلما التقى الجمعان عند « موعفيس » ، تمكن « أحوسى » من إلهاب شعور المواطنين ، حين أخذ يذكرهم بوطنهم الجريح ، وبالحن التى نزلت بهم على يد « أريس » وأعوانه من الإغريق . واستطاع بذلك أن يفجر قلوبهم غيظاً ، وأن يملأ نفوسهم أملاً . فقالوا معه على خصومهم ميلة واحدة ، كان النصر لهم من ورائها ، وسقط زعيمهم « أريس » فكان « أحوسى » (أمازيس) كريماً إزاء خصمه ؛ بل كان أكرم مما ينبغى . أظهر الحزن على وفاته ، واحتفل بتشييع رفاة إلى مقرها الأخير . (انظر :

Daressey, Ree. Trav. 22. p. 143 ff. (١)

Breasted, A.R. IV, 1001, 1007. (٢)

Breasted, Gesch. ibd. S. 312. (٣)

(Cyrene) حتى قيل إنه سعى إليهم فربط بينهم وبينه برباط من الصهر عندما تزوج أميرة منهم يسمونها LADYKE (انظر هردوت ج ٢ فصل ١٨١) .

ويموت « أمازيس » ، (أحموسى الثانى) ، فندق ساعة الخطر ، وتبدو عيون الشر حمراء ترمى بالشرر ، وتنذر به مستظيراً على حدود مصر الشرقية .

وقد لا يعجز المطلع على تاريخ الشرق القريب يومئذ — فى ضوء الأحداث التى أجرتها الأيام على مسارحه فى القرن الخامس قبل مولد المسيح — أن يتبين ذلك النزاع الخطير الذى تفجرت برا كينه بين الميديين والفرس ، وكيف انتهى الأمر إلى صالح الفرس (انظر : هردوت ج ١ فصل ١٢٩) . وآية ذلك أن ينكشف الغبار عن آثار تلك الملاحم الخطيرة ، وترتفع الأستار عن مسارح الأحداث ، فإذا الدنيا قد جَلَّتْ بطلها فى ذلك الوقت وهو « قورش » CYRUS . وكان — كما قيل — سليل أسرة طامحة ، مارست ألوان الحكم فى بلاد ANZAN قبل ذلك بقرن من الزمان تحت سيادة الميديين . واستطاع هو أن يظفر بعاصلهم وهو يومئذ ASTYAGES بن KYAXARES . فأضحى بذلك سيد فارس وميديا فى آن معا . واهتزت آسية الدنيا كلها بهذا الحادث ، حتى ملأ الرعب قلوب الملوك والحاكمين . فسارعوا إلى إنشاء حلف ضم « ليديا » و « مصر » و « بابل » و « إسبرطة » . إلا أن ذلك الحلف لم يوق أصحابه شر « قورش » الذى لم يلبث أن انقض على « ليديا » فانزعها من يد ملكها CROISUS ، وكان هذا من أبرز ملوك زمانه ، وأشداهم بأساً ، وأكثرهم للإغريق ولاء . فلما ظفّر به « قورش » أخذه أسيراً قبل أن يتمكن حلفاؤه من النهوض إلى نجده (انظر : هردوت ج ١ فصل ٧٧ وما بعده) .

ولم يكد « قورش » يتنوق حلاوة هذا النصر ، حتى ولّى وجهه شطر الشرق — وكان يومئذ هدفاً لإغارة جديدة يحتمل أن يقوم بها مهاجرون من الآريين — فخرّب كل ما لقي في طريقه من بلاد آسية العليا بغية المحافظة على نخومه . وحين اطمأن إلى سلامة حدوده الشرقية ، أخذ يفكر في الاتجاه إلى بابل ففعل ، ولم يلبث أن استولى عليها في غير عناء كبير ، وكان ذلك في عام ٥٣٩ ق . م . فأصبح بذلك سيد آسية الدنيا غير منازع . وظل يستمتع بتلك السيادة عشرة أعوام ، ثم ولّاه الموت عنها عام ٥٢٩ ق . م . (١) فخلفه على العرش « قبيز » ولده من « كامنداني » بنت « فارناسيس » فاستأنف سيرة أبيه ، وتطلع إلى مصر ، وأخذ يمد نفسه إليها مدّاً قويا . ولم يكن « أحوسى » (أمازيس) صاحب مصر بغافل يومئذ ولا قبلئذ عما يجري في الشرق من أحداث (٢) ، بل كان بصيراً بها مدركاً بأس « قورش » وشدته ، مقدراً عواقب

(١) يختلف الرواة في وصف موته وأسبابه ، فيقول Xenophon إنه مات حتف أنفه . ويقول « ديودور » إنه أخذ أسيراً ثم مات مصلوباً ، ويقول Ktasia — وهو طبيب إغريقي ولد في Kindos ثم ذاعت شهرته حوالي عام ٤٠٠ ق . م . بعد أن خدم في بلاط « إجزرتيس » سبعة عشر عاماً وكان من عشاق « قورش » وأكثر الملمين بأخباره — إنه مات من جرح أصابه في المعركة التي دارت رحاها بينه وبين رُحّل المغول تحت إمرة مليكهم TOMYRUS . (انظر : Lehmann H., Art. Kambyzes, in RE. X2. Sp. 1812—1823)

(٢) يشاء القدر أن يكون « أمازيس » (أحوسى الثانى) بطلاً كسلفه ونمحيته « أحوسى الأول » الذى حرر مصر من المكسوس بعد أن سيطروا عليها قرناً ونصف قرن . وإن كان — كما وصفه هردوت — بطلاً مغامراً ، وصاحب شراب يكاد في رأيي يشبه في سيرته بطلاً من المغامرين البنائين في العصر الحديث ، وأعني الغازى «أتاتورك» (انظر : Armstrong, The Greywolf

نشاطه الخطير . فسارع إلى إخضاع « قبرص »^(١) ، ومخالفة CROISUS صاحب « ليديا »^(٢) . وحين سقط هذا الأخير بين يدي « قورش » على النحو الذي قدمنا^(٣) سارع إلى مخالفة POLYCRATE طاغية « ساموس » (انظر هردوت ج ٣ فصل ٢٩) ، إلا أن هذا الطاغية قد اضطرب أمام الرعب الفارسي إلى الانسواء تحت لواء « قمبيز »^(٤) . وأعلن خضوعه وولاءه في الوقت الذي كان « قمبيز » يتهيأ فيه للوثوب على مصر .

هنالك بقي صاحب مصر بلا نصير ، ثم ودع دنياء تاركاً أمور وطنه المتنازع بين يدي خليفته « إسماتيك الثاني » . وكانت الدسائس يومئذ تملأ بلاط فرعون ، حتى قيل إن أحد قواده قد خانته ولاذ ببلاط « قمبيز » ، ودله على أقرب السبل وأيسر الوسائل إلى فتح مصر . وقيل إن القائد الخائن لم يكتف بذلك القدر من الخيانة المقنعة بل أعلنها سافرة مفضوحة فقاد بنفسه جيش العدو (انظر : هردوت ج ٣ فصل ٤) على « طريق حورس » المعروف ونعني ذلك الطريق الممتد على ساحل غزّة ، والذي طالمسا ركبته جيوش مصر إلى الشرق أيام مجد الفراعنة ، والذي ركبه الآشوريين إلى مصر قبل الفرس بزمن قصير^(٥) .

(١) انظر : الفصل الثاني والثمانين بعد المئة من كتاب « هردوت » الثاني .

(٢) انظر : ص ٥١

(٣) انظر : ص ٥١

(٤) كان ذلك بين عامي ٥٤٦ — ٥٤٥ ق.م. (انظر Breasted, ib l. S. 316)

(٥) انظر : Meissner, Das Datum d. Einnahme Aeg. durch :

Kambyses (Z. Aeg. S. XXIX 1891, S. 123—124).

وتحركت جيوش مصر في ربيع عام ٥٢٥ . ق. م. فالتقت بجيوش فارس عند « فرمة » فقاتلوا — وكانوا خليطاً من الوطنيين والمترزقين من الأغارقة — قتالاً شديداً . وحين اشتد الكرب على جيوش المصريين أخذوا يتراجعون حتى بلغوا « منف » ، وأتبعهم « قبيز » بجنوده ، حتى إذا ما أدركهم في « منف » ضرب من حولها الحصار ، وظل يُضيق عليها حتى اضطرت حاميتها إلى التسليم . وجيء بصاحب مصر إلى حضرة « قبيز » ، فقيل إنه أكرم لقاءه ، وأحسن معاملته ، غير أن ذلك لم يثنه عن الكفاح ؛ فعمد إلى إثارة مواطنيه على الفرس . فلما أخفقت جهوده وتبخرت أحلامه ، أثر الانتحار خشية الوقوع في يد « قبيز » (انظر : هردوت ج ٣ فصل ١٢) .

ولما اطمان « قبيز » — حين أدرك جيش مصر في منف فضيق عليه الحصار — أخذ في إتمام الفتح ؛ فأخضع صعيد الوادي بعد أقاليمه الوسطى في غير عناء ، ثم بعث بحملة على الواحات الخارجة ، وقاد أخرى إلى بلاد النوبة (١) . ويقول « هردوت » إنه اقترب على أثر ذلك كثيراً من الشرور والآثام ، وشطّ في استعمال العنف والقسوة (٢) ، وظلّ يعمّن في ارتكاب الآثام حتى

(١) أطال « هردوت » في الحديث عن حملة « قبيز » على أقاليم « إيبويه » (أقاليم النوبة الجنوبية) . ثم تحدث عن فشل تلك الحملة (انظر : هردوت ج ٣ فصل رقم ١٧ وما بعده) . والواقع أننا لا نملك من وثائق التاريخ في مصر ما يشير إلى تلك الحملة غير رواية « هردوت » . فإذا صح ما رواه « هردوت » فأكبر الظن أن تلك الحملة قد وقعت في زمان الملك الأيبوي NESTESEN : حوالى عام ٥٢٥ (انظر : Breasted, ibd. S. 295)

(٢) ذكر هردوت في ممرض الحديث عن مصرع الفحل المقدس (أيس) على يد « قبيز » ، أن فعلته تلك — بالإضافة إلى حمله على « إيبويه » (النوبة) — =

أصيب بلوثة فجن، ثم هلك عند سورية في طريق عودته إلى فارس عام ٥٢٢ ق.م. تلك فاحمة الخبر والحديث عن الفتح الفارسي كما رواها « هردوت » ؛ ولولاها لما وجدنا غير قليل من الحديث عن تلك الحقبة من تاريخ مصر . ذلك لأن الأيَّام لم تضع أيدينا ولا أبصارنا على شيء من الوثائق المصرية يمكن أن نقرنها بما جاء في رواية هردوت ، وإن كانت قد ادخرت لنا بعض الخبر في سيرة رجل يدعى « وازى — حور — رسنه » نقرؤه على تمثال له آكل إلى متحف الفاتيكان (١) . عاش صاحب تلك السيرة أيام الفتح الفارسي . وكان فيما يظهر أميراً للبحر عند دخول جيش « قبيز » . وقد جاء في سيرته عبارات ملنوية ، يغشاها كثير من الغموض ؛ نفهم منها أن فتنة وقعت في إقليم « سايس » ثم لم تلبث حتى عمت مصر جميعاً (٢) . ثم هو يزعم أنه استطاع أن

= إنما كانتا من نتائج الجبل الذى أصاب الرجل. فأما حملته على النوبة فليس في حكم العقل ولا في حكم الظروف يومئذ ما يمنع من أن تكون قد حدثت. وإنما الأمر الذى يحتمل الشك هو أن يكون « قبيز » قد صرع الفحل المقدس ، وإن كان قد روى ذلك بعض الكتاب والمؤرخين القدامى من الإغريق والرومان أمثال بلوتارخ (في قصة إيزيس وأزوريس ٤٤) و « كليمانت السكندري » . ولقد أنكر المحدثون تلك القصة وقالوا إن مبعثها الخلط في تحديد التاريخ الذى نفق فيه الفحل والتاريخ الذى دفن فيه (انظر :

P. snier, Le premier domination perse en egypte p. 174—5 .

(١) انظر : Erman, Relig. S. 331 ثم Schaefer, Z. Aeg. S. 37,72

(٢) الواقع أن حديث الرجل طويل ولكنه برغم ذلك سكت عن ذكر أصل الفتنة ولم يشر إلى أعمال الغزاة في مصر ، ولا إلى الفطائع والأهوال التى ذكرها « هردوت » ، وإن كنا لا نشك مطلقاً في أنه كان يعرف كل ذلك . ولكنه كان — فيما يظهر — كثيره من الخونة والنسهازين الذين يبنون مجدهم الباطل =

يدفع عن بلاده كثيراً من الأذى ، ويرد عنها كثيراً من الشر ، ذلك لأنه اتصل بالفتح وأخذ يحدثه عن مصر وأهلها حديث العارف الواثق ، فدلّه على أرباب البلاد وعقائد الناس فيها؛ فهو يذكر لنا كيف أن الفاتح اطمأن إليه وإلى صديق حديثه فصحبته إلى « سايس » ، وأظهره على عظمتها ، وروعة بيتها المقدس وفيه مزار ربّتها NEITH وقُدُسُها . وكيف أن الفاتح لما دخل القدس خرّ لها ساجداً ، ثم قام فضحى لها وقرّب كما كان يفعل فراعنة الوادى .

ويستأنف الرجل حديثه فيزعم أنه استطاع بسلوكة هذا أن يستدرّ عطف الفاتح على المواطنين ، ويثير اهتمامه بمعبّد « سايس » حين شكّا إليه ما يؤذى الحجاج في هذا المعبد من عبث النزلاء الأجانب الذين يعيشون من حوله . وكيف أن « قبيز » حين سمع ذلك فعل ما لم يفعله الملوك من آل فرعون ، إذ أصدر أوامره بإخراج أولئك النزلاء من دورهم ثم أمر بها فهدمت وأسكن أصحابها خارج أسوار المدينة .

ويمضى الرجل في حديثه فيذكر ما أثر ملوك فارس من خلفاء « قبيز » ، ويمجد أعمالهم في مصر ، ويمتدح سلوكهم في أسلوب يحملنا على الشك في روايته وإن كنا لا نستبعد أن خلفاء « قبيز » قد قصدوا إلى إزالة ما نزل بقلوب المصريين من رعب أيام سلفهم « قبيز » ، وإلى استماله نفوسهم بحسن المعاملة

= وسلطانهم الزائف على الأتقاض والأشلاء ؛ يرون القوة في جانب الغزاة فينطلقون إلى صفوفهم ، وينطوون تحت أعلامهم ، يطلبون في ركبهم السلامة ويلتمسون الرخاء المادى والعيش الخفيض في القتات من حول موأدهم . وليس يبعد أن يكون قد اتخذ من زميله القائد الخائن الذى مر ذكره (ص ٥٣) مثلاً في الضعف والحيانة ، فانتقل إلى صفوف العدو ، وسلم الأسطول إلى « قبيز » .

واحترام العقائد . وهناك من وثائق التاريخ ما يشير إلى ذلك ؛ فهذا « دارا »
يقيم لآمون معبداً في واحة الخارجة ، ثم نثر على آثار له في « منف » تشير إلى
احترامه عقائد المصريين (١) . بل إننا لا نستبعد ما رواه DIODOR من أن
المصريين قد قدّروا ذلك لدارا ، فرفعوه إلى مراتب ملوكهم من فراعنة
الوادي (٢) .

أحمد بروجي

(١) انظر :

Amir (Mustafa), JEA. 43 (1948) p. 51—56 ثم JEA. (1941) p. 165

(٢) نستطيع أن نرى أثر ذلك على شاهد من حجر آله إلى متاحف برلين
يحمل لدارا الفارسي صورة في هيئة الصقر . هذا بالإضافة إلى أن من أيام هذا
الملك آثارا تدل على حكمته ، وجمال سياسته ، وسلامة مسلكه ، وحسن معاملته ،
وشدة حرصه على إرضاء عواطف المصريين وبخاصة الدينية .

(انظر : Ed. Meyer, Der Papyrusfunde von Elephantin S. 36)

نص الكتاب

١ — بعد وفاة « قورش »^(١) تولى الملك « قبيز » ، ولده من « كاسنداني » ، ابنة « فارناميس » . ولما ماتت هذه قبل زوجها « قورش » ، حزن هو نفسه عليها حزناً شديداً ، وأمر كل رعيته بأن تلزم الحداد أيضاً .
فأما « قبيز »^(٢) ، ابنها من « قورش » ، فكان يعد « الأيونيين » و « الأبوليين » عبيداً^(٣) ؛ ورثهم عن أبيه . وعندما جهز حملة على مصر^(٤) ، ضمّن من أخذ من شعوب مملكته ، اليونانيين الذين كانوا تحت إمرته .
٢ — قبل حكم « إسماتيك » ، كان المصريون يعتقدون أنهم أقدم الناس في الوجود^(٥) . ولكن لما تولى « إسماتيك » الحكم ، أراد أن

(١) مات « قورش » في أواخر عام ٥٢٩ ق . م . (انظر : ص ٥٢)

(٢) انظر : ص ٥٢

(٣) تلك كانت نظرة الغالب إلى المغلوب في العالم القديم (وهي لم تزل كذلك حتى يومنا هذا) ؛ يفرض عليه سلطانه ، ويستغل أرزاقه ، ويسوقه مكرهاً إلى الحرب . وهكذا فعل الفرس بمن غلبوا من شعوب الأرض ، وهكذا نظر المصريون من آل فرعون إلى أسراهم من شعوب الدنيا . وهكذا سلك اليونان والرومان إزاء من حكموا من الأمم والشعوب في سائر أقطار الدنيا .

(٤) خلف « قبيز » أباه « قورش » على العرش في عام ٥٢٩ ق . م . وكان مقدراً أنه بدأ حملته على مصر في عام ٥٢٧ ، ثم تبين من بعد ذلك أن الحملة وقعت في عام ٥٢٥ ق . م . (انظر : ص ٥٣) .

(٥) الواقع أن ذلك لن يبدو غريباً من آل فرعون ؛ فتاريخهم بالقياس إلى من جاورهم من شعوب الأرض — وبخاصة في حوض البحر المتوسط — قديم =

يعرف أىّ الشعوب أقدم . ومنذ ذلك الحين يعتقد المصريون أن

= بل عتيق ، وحياتهم منذ قومتها مزدهرة بألوان من الحضارات الرفيعة ؛ لم يسبقهم إليها من تلك الشعوب سابق . وكانوا يعرفون ذلك ؛ فهم فى رأى أنفسهم « الناس » وغيرهم من أشباه الناس ؛ لسانهم إلهى مقدس ، والسنة غيرهم — من أشباه الناس — رطانة . نيلهم بحر ، وأنهار من عداهم من شعوب الأرض ترع وجداول . أرضهم أرض السواد (أى الخصب) ، وماعداها من أرض أوطان الدنيا صحراء جدباء . تلك أمور عرفها الإغريق وتحدث عنها كثيرون من كُتّابهم الذين سبقوا « هردوت » .

ويزعم العلماء الذين كتبوا فى علم الأجناس أن البحوث التى أجريت على جماجم المصريين التى عُثِرَ عليها فى كثير من قبورهم القديمة ، تشير إلى أن أقوى العناصر التى تكون منها شعب مصر قد كان عنصرًا شماليًا ، على حين كانت العناصر الأخرى مزيجًا مختلطًا من سودان الأرض ومن القبائل السامية التى دخلت الوادى من أبوابه الشرقية . ويرى المؤرخ الألمانى Ed. MEYER أن أكثر سكان وادى النيل الأسفل وأقاليمه الوسطى إنما يرجعون بأصولهم إلى ديار شمالية ؛ يجعلها عند جبال القوقاز ، ويرجح أن هجرتهم وقعت أيام العصر الجليدى فى أوروبا ، وأنهم بلغوا شمال إفريقيا عبر « جبل طارق » ؛ فنزل بعضهم على هضاب « برقة » ، ومن هؤلاء قبائل البربر المعروفة . ونزل آخرون على عيون الماء المنتشرة فى بطون الصحراء الليبية وأوديتها ، على حين اندفع أكثرهم نشاطاً وأشدّهم طموحاً إلى وادى النيل ؛ فنزل أكثرهم فى بقاعه الشمالية وبقاعه الوسطى ، ومنهم من بلغوا أقاليم النوبة واستقروا فيها ، ومن بلغ سواحل « الصومال » التى أسماها المصريون « بنت » . والواقع أن لرأى المؤرخ الألمانى المذكور من الشواهد والأدلة ما يؤيده ويرجح صدقه ؛ فقبائل البربر شقر وذوو عيون خضر ، وكذلك كان سكان الواحات — كما نرى فى بعض صورهم التى رسمها المصريون القدماء — . والنوبيون كذلك ليس لهم من سمات الأفريقيين غير السمرة الشديدة ، وأهل الصومال الذين أسماهم الفراعنة أهل « بنت » لا تكاد سحهم وألوانهم — كما تبدو فى صورهم التى سجلها المصريون من رجال البعثة أيام الملكة « حتشبسوت » — تختلف عن سحّ المصريين وألوانهم فى شىء .

« الفريجيين » (١) أسبق منهم ، وأنهم أنفسهم أقدم من الآخرين جميعا .
ولما لم يستطع الملك ، بأية وسيلة من الوسائل ، الاستعلام عن أى الشعوب
أعرق في الوجود ، فكر فيما يلي : —

عهد بطفلين حديثي المولد ، من بين العامة ، إلى راع ليربيهما بين ماشيته
على النحو الآتي : أمر الملكُ بالآلا ينطق أحدُ بكلمة ما أمام الطفلين ، وأن
يوضعا في مكان منعزل ، وأن يُحضِرَ إليهما الراعى عزرات في ساعة معينة ،
وبعد أن يشبعهما من لبنها ، عليه أن يقضى سائر حاجتهما . قام « إيسماتيك »
بهذا العمل ، وأصدر أوامره رغبةً في أن يسمع أول صوت يصدر من الطفلين
بعد أن يقبرا على إخراج المقاطع (٢) واضحة . وهذا ما حدث : اتقضى علان

(١) الفريجيون قوم سكنوا آسية الصغرى منذ عصور قديمة . وكانت ديارهم

في المناطق الوسطى منها . انظر : Breasted, Gesch. Aeg. SS. 227,263

(٢) يكاد الناظر في هذه القصة يرى من خلالها أطبافا من الشك الذى يقفز
فيشط بها إلى مواطن الخيال ؛ إذ ليس من السهل أن تتصور أن آل فرعون
الذين أقنوا من عمر الزمان دهورا يفاخرون أمم الأرض بمجدهم وعراقة أصلهم ،
وقدسية لسانهم ، هم يرون أنهم ارتفعوا بكل أولئك من عوالم الأرض إلى أجواز
السماء ، يلجأون إلى مثل هذه التجربة إلا أن تكون عقولهم قد شاخت نخرت ،
كاشاخ من حولها الزمان أيام « إيسماتيك » الذى تشكك كُتَّابُ التاريخ في أصله
حتى قال بعضهم إنه لم يكن من أصل مصرى عريق (انظر ص ٤٤/٤٥) . ولسنا
نرى في حكم العقل ، ولا في حكم المنطق ؛ ولا في حكم الزمن وظروف الحياة
المصرية يومئذ ما يمنع من أن تكون القصة صحيحة ؛ فالأيام كانت قد تغيرت ،
والوان الحياة كانت قد تبدلت ، وكبرياء المصريين وعزتهم كانت قد
رقت ؛ لكثرة ما ترك بهم من عن ، كما أن مليكهم « إيسماتيك » لم يكن
مصرى الأصل — كما قدمنا — ، ولا مصرى الموى فيما يبدو ؛ فرهطه الأدنون
وعشيرته الأقربون ، ورجال بلاطه ، وأمراء عسكره ، لم يكونوا من الوطنيين ،
وإنما كان أكثرهم — إن لم يكونوا كلهم — من الأفارقة النزلاء . ولن يستبعد =

والراعى يقوم بما سبق ذكره . ولكن حدث مرة عندما فتح الباب ودخل على الطفلين ، أن ارتى كلاهما عند قدميه ونطقا « بكوس » (١) . وقد مدّا

== بعد الذى قدمنا — أن يكون « ايسمانيك » قد قام بتلك التجربة ؛ فثلها قد حكى عن « فردريك الثانى » ملك بروسيا ، وعن غيره من حكام العصور الحديثة . مثل Jacobus IV ملك اسكوتلانده . انظر :

(Waddell, W.G. HERODOTUS, (LONDON, 1939) Book II, p. 118, Note 1)

ثم (Wiedemann, Herodot's Zweites Buch S. 44 & 44—45)

مهما يكن من شئ* ؛ فإننا نشعر أن هوى القصة إغريقى ، وأنها نسجت على منوال إغريقى ؛ فذكر العناز فيها يذكرنا بقصة « زيوس » عندما خشيت عليه أمه RHEA من بطش أبيه KRONOS فبعثت به إلى جبل IDA فى جزيرة « كريت » ؛ حيث قامت على رعايته أرواح الجبل يرضعه من لبن عنزة أمموها AMALTHEA . وجائز بعد هذا كله أن تكون ثقافة « هردوت » الإغريقى ، وأثر بنى قومه من الزلاء فى مصر يومئذ ، قد مهدا لإخراج تلك القصة فى هذا الثوب الذى يلائم الثقافة الإغريقية ويستسيغه الذوق الإغريقى .

ولو كانت القصة مصرية الأصل والهوى ، لما اختير لغذاء الطفلين غير لبن البقر الذى عاش عليه « حورس الطفل » عندما اضطرت أمه « إيزيس » إلى تركه وحيداً بين أحراج الدلتا كما جاء فى الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » .

(١) إذا كان المعروف أن الطفل يحاكى كل ما يسمع من صوت ؛ فليس

يبعد أن يكون المقطع الأول الذى حاكاه الطفلان هو صوت العناز "Bek"

(انظر : LEGRAND, HERODOT II, p. 66, Nate 1—2)

والقصة بعد هذا كله — أيّاً كان بناؤها ولونها وهواها — إنما تدل على سذاجة فى التفكير . وأكبر الظن أن يكون مصدرها ما كان قائماً يومئذ بين الأغارقة الزلاء والوطنيين من أسباب المنافسة والبغضاء . وسرى — فيما روى « هردوت » عن العلاقة بين الفريقين — ما يدل على ذلك فى صراحة ووضوح (انظر الحديث عن ذلك فى المقدمة ص : ٤٩ ، ٥٠) .

وينبغى أن نفرض كذلك أن « هردوت » لم يكن مجرداً من الهوى والميل ؛ فإذا لم يستطع أن يميز قومه الأغارقة على المصريين من حيث القدم وعراقة الأصل ، فلا أقل من أن يبحث بين الشعوب عمن يفضل المصريين فى ذلك على كل حال .

أيديهما نحوه . وعندما سمع الراعى هذه الكلمة التزم الصمت أول الأمر . ولكن لما تكررت الكلمة مراراً كلما ذهب لزيارة الطفلين والعناية بهما ، نقل الخبر إلى مولاه الذى أمره بإحضارها أمامه . وعندما استمع « إيسماتيك » بنفسه إلى الطفلين ، أخذ يستعلم : أى الشعوب أطلق كلمة « بَكُوس » على شئ من الأشياء . وبالبحث اكتشف أن « الفريجيين » يسمون الخبز بهذا الاسم . وهكذا اعترف المصريون وحكموا في ضوء هذه التجربة بأن « الفريجيين » أقدم منهم . ولقد سمعت من كهنة « هيفايستوس » (١)

(١) رأى الإغريق في معبودهم « هفايستوس » نظيراً لمعبود المصريين « بتاح » ؛ فخلعوا على هذا الأخير اسم معبودهم الذى ذكرنا . وهو لديهم ابن أكبر معبوداتهم « زيوس » ؛ أنجبته له زوجته « هيرا » ، وعرفه الرومان من بعد الإغريق فجعلوه من معبوداتهم ، ووسموه بصفته التى آمنوا بها فأسموه MULCIBER « مُلِين الحديد » ؛ فهو لدى أصحابه المؤمنين به إنما يمثل النار المتبشة من جوف الأرض ، لاتتصل ببق السماء ورعدها وصواعقها . وكان « بتاح » فى عقيدة أصحابه من آل فرعون قد خرج من الأرض ؛ فصوروه فى هيئة آدمى . وكان الصراع بين أصحابه وبين منافسيهم من أصحاب المذهب الشمسى معروفاً منذ أواخر أيام الدولة القديمة .

كان « هفايستوس » عند الإغريق إذاً ، قريباً من الأرض بعيداً عن السماء ؛ يشير إلى ذلك ما جاء فى الأساطير من حده على أمه ، وبعده عن أبيه الذى كرهه وغضب عليه فقذف به من قمة جبل « أولمب » فظل نهاره يهوى مساقطاً حتى إذا ما غربت الشمس وقع على جزيرة « LEMNOS » .

وفى رواية أخرى أن أبه « هيرا » ألفته فى اليَمِّ فنلقته الأرواح ورعته ؛ فعكف عندها على العمل فى صياغة الذهب . وإذا كان يمثل النار ؛ فقد اتصل عمله — فضلاً عن ذكرنا — بكل ما يُسَوَّى على النار من صناعة ؛ كصناعة الفخار فى « أثينا » . هذا ؛ ولم يكن الفخار وحده ، ولا المعدن وحده ، ولا غيرهما معاً =

في « ممفيس » (١) أن الأمر قد حدث كما شرحت . ولكن يروى اليونانيون

= من كل ما يصاغ على النار من منافع البشر وحسب ؛ بل كانت النار في الأرض خطوة مباركة في سبيل تقدم الحياة البشرية على كل حال . والذي ينظر إلى قيمة معبود المصريين « بتاح » وعقيدة أصحابه فيه ، ثم إلى قيمة نظيره « هفايستوس » عند الإغريق ، يرى الأول يشير إلى ذلك التطور الرفيع في سبيل التقدم الإنساني ؛ فتحت رأيته وبأبصاره خرجت مصر من طور الحياة الزراعية إلى طور الحلق والتصنيع ، وكذلك كانت لمعبود الإغريق مثل هذه القيمة فيما يبدو .

كان « بتاح » يمثل « الصنَّاع الأعظم » بين آرباب مصر ؛ يحمي الصناعات والفنون ، ويرعى آربابها ، ويلهمهم آيات الفن الرفيع . كما كان كبير أحبار « إمام الصناع » . وتحت راية « بتاح » ظهرت دنيا الفراعنة بخير ما أُخرجَ للناس من بدائع النحت وروائع الفن . وفوق أديم « منف » وتحت رعاية كهانها صاغ صُنَّاعها ورجال الفنون فيها من البدائع والروائع ما لا يحصى ولا يوصف من تحف الذهب والفضة ، والبرز والحشب والعاج والحجر ، ومن دروع الحرب وأسلحة القتال وعدته ، ومن عمائر الدين والدنيا ما يحير العقول ويهر الأبصار . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن نظيره « هفايستوس » عند الأغريق ؛ فهو الذي صنع درع أبيه « زيوس » وصاغ له صولجانه الرائع . وهو الذي سلَّحَ « آخيل » وصاغ أسلحة « هرقل » ، ثم صاغ لنفسه — وكان أعرج — عكازين من ذهب ، وأخرجهما في هيئة جارتين . وكانت له دار صناعة في جبل AETNA بجزيرة « صقلية » ؛ يُعينُ من كنوزها أباه « زيوس » أيام الحرب والغارة ؛ فيبعث إليه بالأشداء من الآلهة مدججين بأجود أنواع الدروع والأسلح . والمجيب أن « ممفيس » مدينة « بتاح » وكعبته الخالدة ، قد جعلت منها الأيام والظروف معسكرا لجيوش فرعون ودارا لصناعة الحرب فضلا عن كل ما ذكرنا من صناعات .

BADAWI (Ahmad), MEMPHIS als Zweite Landeshauptstadt: انظر
im NR. (Cairo 1948) S. 53

(١) ممفيس « منف » ثمانية عواصم الدولة المصرية المتحدة في تاريخ آل فرعون من حيث القدم ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ أيام الأسرة السادسة . وكانت من قبل ذلك تعرف بالقلعة البيضاء أو « الدار البيضاء » .

— فيما يروون من سخافات متعددة — أن « إيسماتيك » قد أمر بقطع السنة
بعض النسوة ، وطلب أن يقيم الطفلان بالقرب منهن^(١) .

٣ — هذا ما قصه على الكهان بشأن تربية الطفلين .
وسمعت أيضاً في « ممفيس » حكايات أخرى حين تحدثت مع كهنة
« هيفايستوس » . ولقد توجهت كذلك لتلقاه « طيبة »^(٢)

= ينسب بناؤها إلى « منا » ما بين ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م . وقد أقامها
يومئذ عند رأس الدلتا . وبعض أطلالها وخرائبها ما زالت بادية عند القرية
المعروفة باسم « ميت رهينة » من قرى مركز البدرشين بمحافظة الجيزة . وإن لها
في تاريخ دنيا الناس عامة ، ودنيا المصريين بخاصة لشهرة فائقة ، كما أن لها من
الأسماء والصفات غير ما ذكرنا .

(انظر : BADAWI (Ahmad) MEMPHIS. ibd S. 2 ff .)

ثم (أحمد بدوى ، « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٠ وما بعدها) .

(١) انظر كيف يحاول « هردوت » تأكيد القصة حين يزعم أنه سمعها من
كهان « منف » ثم استطرده مفترضاً ، ومحاولاً في آن معاً أن يستر غرضه
ويدارى موقفه حين يرمى من تقدمه في روايتها من قومه بالسخر ؛ ذلك لأنهم
زعموا في روايتهم أن « إيسماتيك » قد عهد بالطفلين إلى نسوة ، ثم أمر بقطع
ألسنتهم حتى لا يستطعن الكلام .

(٢) طيبة : يرجع بعض كُتّاب التاريخ بعهد نشأة هذه المدينة إلى أيام الأسرة
الأولى (انظر : Beike, Egyptian Antiq. in the Nile Valley, p. 333)
ويجعلون نواتها الأولى في المكان الممتد بين معبديها العظيمين (الكرنك
والأقصر) على شاطئ النيل الشرقى ، وبين « ذراع أبي النجا » و « مدينة
هابو » على شاطئه الغربى .

ولهذه المدينة العظيمة كآختها « منف » أسماء أخرى . إلا أن اسمها
« طيبة » قد اشتهر في كتب المؤرخين القدامى من يونان ورومان حتى ملأ أسماع
الدنيا ، وحتى كففت بمجدها الشعراء ومنهم « هوميروس » ، الذي أعجب بكثرة كنوزها =

« هيليوپوليس » (١) من أجل تلك الأمور بعينها ، رغبة في التأكد من أن

== وعظمة قصورها ، وجعل لها « مائة باب » يتسع كل منها لمرور مائتي رجل (انظر المرجع السابق ص ٣٤٢) . وبمثل ذلك وصفها كُتّاب الغرب الأقدمون ومنهم « ديودور الصقلي » ، و « استرابون » ، و « بيلينيوس » ثم « اسطفانوس البيزنطى » حين أسمىها EXATOMPOLUS (ذات المائة باب) أو « ديوس بوليس مجنا » ثم « ديوس بوليس هيميچالى » أى (مدينة الله الكبرى) . ولا يستبعد بعضهم أن يكون الاسم « طيبة » تصحيفاً لاسم مصرى قديم ، وأن يكون الأغريق قد اخذوا هذا الاسم — على قلة ذبوعه لدى المصريين يومئذ — بقصد الملاءمة بينه وبين اسم « ثيبا » الأغريقية ، وعلى ذلك يكون معناه — أن صح هذا التخمين — « القدس » . ولتلك المدينة فى تاريخ الدنيا طامة وتاريخ مصر والشرق القريب بخاصة شهرة لاتعد لها شهرة .

(انظر تفصيل الحديث عن ذلك فى الفصل السابع من كتابنا فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣١٧ وما بعدها) .

(١) هيليوپوليس : (مدينة الشمس) اسم وُضِعَ الإغريق للمدينة المعروفة فى قلب هذا الوادى ، وكانت أول عواصم المملكة المصرية المتحدة . يرجع المؤرخون بتاريخ نشأتها إلى ما قبل عام ٤٢٤٠ ق . م . وذلك بعد ما اتسعت آفاق المصريين ، وفطنوا إلى قيمة الوحدة والائتلاف بمد طول التجارب ، وبعد ما تبين لهم أن أمور حياتهم لا تستقيم فى هذا الوادى إلا على أساس الاتحاد الشامل ؛ فبدلوا فى سبيل ذلك كل ما ملكوا يومئذ من جهد ، حتى بلغ بهم السعى غاية المنى ؛ فجعلوا عرش سلطانهم فى ذلك المكان الذى يتوسط أقاليم الديار فيقع منها مكان القلب ، وأسمىها يومئذ « أون » التى جاء ذكرها فى التوراة . وأكبر الظن أن الاسم كان لبرج يرقب الكهان منه أفلاك السماء ؛ لاحتيا فى النظر فيها ، والتطلع إلى سيرتها وحسب ؛ بل طمعا فى ضبط مواعيد فيضان النهر أولا وقبل كل شئ . فعلى فيضان النهر تتوقف أمور معاشهم . ولقد استطاعوا يومئذ أن يقيموا أمور حياتهم على قواعد ثابتة من النظام والحساب المضبوط .

كهنتها يوافقون على روايات كهنة «ممفيس» ؛ إذ أن كهنة «هليوبوليس» يُعْتَبَرُونَ أغزر المصريين علماً (١) . أما الأحاديث التي سمعتها عن الآلهة ، فلا أحب أن أشرحها بالتفصيل ، ولكنني أكتفي بذكر أسماء الآلهة وحسب ؛ لأنني أعتقد أن الناس كلهم متساوون في القدر الذي يعرفون عن الآلهة (٢) .

= ولم يبق من آثار تلك العاصمة العتيقة غير تلك المسلة القائمة يقصد إليها الناس من السائحون أحياناً . وهي إحدى اثنتين أقامها فرعون مصر «سنوسرة الأول» ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة (انظر : « في موكب الشمس » ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها) .

وتعرف المدينة اليوم باسم «عين شمس» . ولسنا نستبعد وجود الصلة بين هذا الاسم الحديث وبين اسمها الفرعوني القديم ؛ ذلك إذا قدرنا أن لفظ «عين» تحريف أو تصحيف للفظ القديم «أون» وأن لفظ «شمس» قد أضيف إلى ذلك . ويكون معنى الاسم بعدئذ «برج الشمس» أو «معبد الشمس» أو ما يشبه ذلك . والله أعلم على كل حال .

(١) أما أن كهان «هليوبوليس» كانوا أغزر الناس علماً ؛ فذلك أمر لا شك فيه . وما نعرف في تاريخ آل فرعون الطويل ، أن طائفة من كهانهم قد استطاعوا أن يؤثروا في حياة مصر الثقافية والعقلية والروحية بقدر ما فعل أولئك الكهان . وإن نظرة خاطفة في مراحل التاريخ الفرعوني لتبيّن لنا تلك الحقيقة في وضوح وجلاء . (انظر : كتابنا « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٧٣ و ٧٩ و ١٢٩ و ١٥١ و ١٦٨ و ١٩٩ و ٢٧٣ و ٣٠٤ و ٣١٠ و ٨٠٥ و ٨٠٨ و ٨٦٧ و ٨٩٤ و ٨٩٧ و ٩١٣ و ٩١٩ و ٩٢٤) .

(٢) ليس من المعقول أن يكون أمر الناس في المعرفة على النحو الذي توهمه «هردوت» ؛ فما من شك في أنهم كانوا يختلفون في معارفهم اختلافاً شديداً ؛ فعبودات مصر الإقليمية قد تعددت وتطورت خلال تاريخها الطويل ، وأهل مصر — وأن اتحدوا سياسياً وإدارياً واجتماعياً — قد كانوا يستمسكون بآراءهم الإقليمية ، ويدعون لها كما أتبع لهم ذلك ؛ فيدفعون بها إلى أمام ، =

فأما ما عسَى أن أذكره عنها ؛ فساذكره مضطراً في سياق الحديث (١) .

٤ — أما بخصوص المسائل الإنسانية ، فالكهنة (٢) مثقفون فيما بينهم على أن المصريين كانوا — من بين سائر البشر — أول من عرف السنة الشمسية ، وأنهم قسموا فصولها اثني عشر قسمًا . ويقول الكهنة إنهم اهتموا

= وينظمون في قِسمِها وقدراتها ومناقبها وقدمِها ، الطوال والقصار . وإنا لنظن أن أمر المعبودات في مصر قد غمض على « هردوت » لكثرة ما سمع من مختلف الروايات ، فتعلل بإيثار الصمت عن جهل وعجز .

وليس يفوتنا بعد ذلك أن نشير إلى ما ذكرنا (ص ٢٥) من جهل « هردوت » بلسان المصريين من ناحية ، ومن كره المصريين للأجانب ونفورهم منهم من ناحية أخرى .

كل أولئك أمور كان من شأنها أن تعوق الرجل عن إدراك كل ما سمع من الأدلاء والتراجمة من بني قومه ، خصوصا إذا أضفنا إلى ذلك طول العهد ، وجهل أكثر المصريين الذين اتصل بهم « هردوت » بأصول عقائدهم وتاريخ معبوداتهم . ثم لن يفوتنا بعد هذا كله مكر طوائف الكهان في عواصم الديار المختلفة بعضهم ببعض ، وضم الكهان عامة في كل زمان ومكان بأسرار عقائدهم . (١) مثال ذلك ما ورد في الفصل الخامس والستين من هذا الكتاب .

(٢) واضح أن « هردوت » لا يقصد كهاناً خاصة بعينها ، وإنما يقصد كهان العواصم التي زارها ونعى : « ممفيس » و « هيلوبوليس » و « طيبة » على النحو الذي مر ذكره في الفصل السابق . أولئك هم الكهان الذين ذكر أنهم رواة ، وأنه سمع منهم ما ينسبون إلى شعبهم من فضل السبق في العلم والمعرفة . وواضح من ذلك أن « هردوت » يريد أن يقنع قراءه بأن ما أثبت في كتابه من معارف ومعلومات عن مصر وشعبها في هذا الباب إنما مرجعه إلى رواية الكهان ؛ يثبتها كما تقلها عنهم ، فإن صدقت فهي لهم وعندهم ، وإن كذبت فهي عليهم وليست عليه . لكننا نريد الرجل أن يعتذر لقومه من إثبات تلك الفضائل الإنسانية التي سبقهم إليها آل فرعون .

إلى معرفة هذا التقسيم بمراقبة النجوم . وهم - في نظري - يتفوقون بتقويمهم هذا على اليونانيين ؛ لأن هؤلاء يضيفون كل ثلاثة أعوام شهراً نسبياً إلى السنة حتى تستقيم الفصول . أما المصريون فيعدّون اثني عشر شهراً ، ولكل منها ثلاثين يوماً . ويزيدون على هذا العدد خمسة أيام كل سنة . وبذلك تنتهي دورة الفصول عندهم بنفس التاريخ الذي بدأ به التقويم (١) . ويقول الكهنة إن

(١) تلك حقيقة يقرها سائر الذين كتبوا في تاريخ آل فرعون ؛ فهم يقررون أنهم قد عرفوا سنة شمسية عدة أيامها خمسة وستون وثلاثمائة يوم ، وأنها تختلف في كثير عن تلك السنة التي ترجع إلى زمان « يوليوس قيصر » . وقد لا نعدو الواقع إذا نحن قررنا اليوم مطمئين ؛ أن السنة الشمسية التي عم التاريخ بها في الغرب ، والتي جرى التاريخ بها في سائر بلاد العالم المعروف ، إنما هي أصلاً من حساب آل فرعون ؛ عرفوها منذ عصور بعيدة جداً ؛ عرفوها أواخر أيام الفجر الصادق من تاريخ حياتهم ، وجعلوا عدة شهورها اثني عشر شهراً ، ثم جعلوا الشهر ثلاثين يوماً ، ثم زادوا على أيام السنة من بعد ذلك خمسة جعلوها أعياداً يحتفلون فيها بذكرى موالد خمسة من أربابهم الكبرى ؛ وهي على التعاقب « أزوريس » و « إيزيس » و « ست » و « نفيس » ثم « حوريس » . ثم وزعوا شهور السنة بين فصول ثلاثة ، يعدّ كل منها أربعة أشهر كاملة . وأول هذه الفصول فصل الفيضان ، وثانيها فصل الفلاحة والزرع ، وثالثها فصل الحصاد والجفاف . وذلك تقسيم طبيعي يلائم وجه الأرض وألوانه المختلفة على مدار العام . وإن في ذلك التقسيم الطبيعي الصادق وحسابه الفريد ما يشير إلى قيمة النيل وأثره الواضح في تفكير المصريين الأصيل المنبعث من طبيعة أرضهم ، ولئن يبدو غريباً أن يجعل المصريون من بشائر الفيضان مطلعاً لعامهم . غير أنه قد بدا لهم من بعد ذلك أن مطلع العام ربما يختلف عن موعد الفيضان مع مرور الزمن ، وذلك بسبب تكرار الأيام الخمسة الزائدة على حساب الدورة ، كما تبين لهم أن أمر ذلك من العيوب الواضحة والقصور في الحساب . ويتضح الفرق من بعد ذلك بين السنة المصرية التي تبلغ عدة أيامها خمسة =

المصريين كانوا أول من سمى الآلهة الإثني عشر بألقابها ، وإن اليونانيين

= وستين وثلاثمائة يوم . والسنة القبطية التي تعود دورتها كل خمسة وستين وثلاثمائة يوم وربيع يوم . ثم يبدو العيب آخر الأمر واضحاً في حساب السنتين معاً ، إذ أن الأخيرة تصبح ستة وستين وثلاثمائة يوم كلما ما استدار العام أربع دورات ، كما أن الأولى تقصر عن الأخيرة ربع يوم كلما استدار العام .

ويظل ذلك العيب واضحاً في الإثني حتى يتمكن البابا « جريجوار » في غضون القرن السادس عشر الميلادي أن يدخل على السنة من الإصلاح ما يسقط يومها الزائد كل مائة دورة .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نسجل للمصريين في هذا المجال خطوة موفقة ثانية ، وهي أنهم — لطول نظرهم في نجوم السماء — قد لاحظوا مع مرور الزمن أن بشارت الفيضان كانت تطالهم مع ظهور نجم يبدو في ممائم الصافية واضحاً قبيل شروق الشمس ، وهو النجم الذي أسماء العرب « الشعرى اليمانية » ؛ مكانه في دوائر الفلك خلف الجوزاء ، وهو أنور كوكبة الكلب الصغرى . وكانت « الشعرى » من معبودات قريش ، وجاء ذكرها في القرآن الكريم (سورة النجم) لكثرة عبّادها الذين افتنوا بها فمشقوها .

ومن قبلهم عشق المصريون بهذا الكوكب، وتغنوا بطلعه في أشعارهم وأناشيدهم الدينية فأسموه « مجاب الفيضان » وجعلوه علماً على أهمهم « إيزيس » . ولا غرابة فيما فعلوا ؛ فهم إنما يستقبلون بطلعه الحياة . كلما استدار العام ؛ فيتذكرون أهم تلك ، وهي مصدر الغذاء الأول . فأما اسم الكوكب عندهم فهو « ستة » وكان عند الإغريق في صورة الكلب ولعل ذلك ما جعل الرومان من بعد الإغريق يصورونه في هيئة « إيزيس » تعلق كلباً .

(انظر : MEYER, Ed. Aegyptische Chronologie, Abhlg. d, Preus. AK. d. W. Berlin 1904.)

ثم (ERMAN (Ad.), Die Relig. d. Aegypter S. 397)

والمؤرخون يقدرون أن المصريين قد رصدوا مسيرة ذلك الكوكب وجعلوا من مشرقه مطلع العام أيام حكومتهم المتحدة الأولى في « هيليوپوليس » حوالى =

تقولا ذلك عنهم^(١) . ويقولون إن المصريين كانوا أول من وقف

== عام ٤٢٤٠ ق.م. وعرفوا دائرة البروج ؛ تذكر منها مثلا ما وجد في رسوم سقف ضريح الملك « سیتی الأول » بوادی الملوك ، ثم في سقف إحدى غرفات معبد « دنره » . وقد آل ذلك الأخير إلى متحف اللوفر بفرنسا . وفي المعبد الجنائزى الخاص بفرعون « رمسيس الثانى » والمعروف اليوم باسم (الرمسيوم) . ثم في مقبرة « سنموت » من عهد الملكة حتشبوت بحجانة طيبة .

(١) لسنا نجد لمقالة « هردوت » التى يزعم أنه سمعها من الكهان المصريين من تعليل غير الخلط وسوء الفهم . إذ أن ذكر الأرباب الإثني عشر من الأمور المعروفة عند الإغريق ، يقصدون بها طائفة الأرباب العليا (أرباب أورلنت) وهى على التعاقب : زيوس . هيرا . بوسيدون . ديمتر . أبوللون . أرتيمس . هفايستوس . أثينا بللاس . آريس . أفروديت . هرمس ، ثم هستيا .

تلك هى المجموعة الكبرى التى ذكرها « هومير » ، ثم زيد عليها بعد ذلك واحد وهو « ديونيسيس » . وقد عرف الرومان تلك المجموعة بالأسماء الآتية : جوبيتر . يونو . نبتون . كيريس . أبوللون . ديانا . فولكان . مينرفا . مارس . فينوس . مركور ، ثم قستا .

أما المصريون فقد عرفوا التثليث فى كثير من عواصم ديارهم الكبرى مثل « هليوبوليس » و « ممفيس » و « طيبة » . ثم عرفوا « الناسوع » فى « هليوبوليس » من الأرباب الآتية : آتوم . شو . تقنوة . جب . ثوة . أزوريس . إيزيس . ست . ثم نفتيس . وزيد عليها بعد ذلك « حوريس » .

كذلك عرف المصريون فى هذا المجال ما نسميه « الثامون » ؛ يرمزون بأعضائه إلى عناصر الكون الكبرى من ذكر وأنثى . فكان عندهم « نون » و « نونة » للماء الأزلى . و « حاح » و « حاحة » للقضاء اللانهاى ، و « كاك » و « كاكة » للظلام المطبق ، و « آمون » و « آمونة » للهواء . وتلك فى عقيدتهم عناصر الكون كما رآها كهان « الأشمونين » .

ولسنا نجد لرواية هردوت من سند بعد ذلك غير ما ذكرنا فى أول الحديث ، إلا أن يكون لنظام الاقاليم فى زمان حكم الآشوريين — الذين قسموا مصر حين غزوها اثني عشر إقليما — أثر فى تلك الرواية .

للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وإنهم أول من حفر الصور على الأحجار (١) .
وقد برهنوا على أن أغلب ما قالوه قد حدث فعلاً . وقالوا أيضاً إن « منّا »
كان أول ملك لمصر من البشر (٢) ، وإن مصر في عهده ، كانت كلها مستنقعا

(١) الغالب أنه يقصد بذلك الكتابة الميروغليفية ، ثم ما انتشر حولها من
صور ؛ بعضها محفور حفرأ غائرأ في الصخر وبعضها بارز .

(٢) هكذا يتحدث « هردوت » عن « منّا » . ويقول إنه مبع ذلك من
الكهان . والظاهر أن أمر تلك القصة ؛ قصة « منّا » وتوحيد أقاليم البلاد ،
بل توحيد القطرين على يديه ، وتحت رايته ، ثم بناء « القلعة البيضاء » أو « الدار
البيضاء » عند رأس الدلتا (انظر : BADAWI (Ahmad) Memphis S.1 ff.)
لنكون حاصمة للمملكة المتحدة ؛ نقول إن أمر ذلك كله قد كان له في تاريخ البلاد
وفي وعى الأجيال المتتابعة أثر قوي جداً . وإن دوى تلك الأحداث قد ظل
يملاً أئماع الدنيا دهورأ ، كما غدا بطل تلك الأحداث علماً من أعلام التاريخ ،
حتى عدّه أكثر رواة التاريخ وكتّاب السّير أول ملوك مصر .

فالأبواب التي نحصى أسماء الملوك وأسمرهم تشير إلى ذلك ، والمؤرخ المصرى
السمنودى « منتون » الذى كتب سير الملوك وأخبارهم فى زمان « بطليموس
الثانى » (حوالى ٢٨٠ ق . م) قد جعل الأسر الحاكمة ثلاثين أسرة ، وجعل
رأس أولاهما « منّا » .

وعلى الرغم من كل ما ذكرناه ؛ فليس حتأ علينا أن نأخذ بهذه الأخبار فنجعل
« منّا » أول حكام مصر من البشر ، كلا ! إنه لم يكن أول حكام مصر ، ولم
تكن أسرته أول أسرة حكمت مصر ، وإنما هناك أسر أخرى اضطلعت بحكم
مصر قبل زمان « منّا » وأسرته . وإلى ذلك يشير « ثبث بالرمو » ، وهو أقدم
جريدة تاريخية تشير إلى من حكموا مصر قبل ظهور « منّا » وقبيله . غير أن
الظروف التى ظهر فيها « منّا » على مسرح التاريخ ، واستطاع أن ينتقل بمصر
والحياة المصرية من طور إلى طور ، قد جعلت من أيامه فاتحة أمة جديدة ؛ قامت
وحدها تحت رايته وبين يديه ، فأخذ هو وخلفاؤه ينهضون بالبلاد . =

ما عدا ولاية طيبة بينما لم يظهر فوق الماء جزء واحد من الأرض التي توجد الآن شمال بحيرة « مويريس »^(١)، وهذه تقع من البحر على سفر سبعة أيام تصعيداً في النهر^(٢).

== ومن أجل ذلك لم تستطع الأيام أن تنسى له ذلك الحادث العظيم ، ومن أجل ذلك أيضاً جعله الناس على رأس الحكاكين من ملوك البشر في هذا الوادى . وفى ذلك تجوز مبعثه بريق البطولة وتقديسها وبخاصة فى أشخاص من امْتَحِنُوا فى سبيل الوحدة طويلاً ، واكتنوا بنار الكفاح دهوراً ؛ فصبروا وصابروا حتى شاء الله أن يَصْرِفَ عَنْهُمْ الكرب ويرزقهم نعمة الفياء فى ظل الوحدة .

(انظر : (١) Sethe, Untersuchungen Bd. III, S. 16 ff.

(٢) BADAWI (Ahmad) Memphis, S. 1 — 2

(٣) أحمد بدوى ، « فى موكب الشمس » ج ١ ص ٩٣ — ١٠٠ .

(١) انظر الحديث عن تلك البحيرة (فصل رقم ١٤٩ من هذا الكتاب) .

(٢) تلك رواية نستطيع أن ننسب ما فيها من مبالغة ظاهرة إلى كهان ممفيس ، اللهم إلا أن يكون « هردوت » قد أخطأ الفهم ؛ فكهان ممفيس الذين عشقوا مدينتهم وأحبوا أن ينسبوا الفضل فى تعمير الدلتا إلى بطلم « منا » ، قد جاوزا المبالغة إلى الشطط حين زعموا أن الدلتا قبل أيام بطلم « منا » كانت خراباً . إذ الواقع أن الدلتا يوم فتحها « منا » كانت عامرة آهلة بالسكان ، مزهورة بألوان من الحضارات الإنسانية التى لم يتوافر مثلها فى صعيد الوادى ولا فى أقاليم الوسطى ، كل ذلك على الرغم مما كان يغشاها من المستنقعات والأحراج التى كانت تزخر بكثير من حيوان الصيد وطيئه . وإِنَّ لِمَنْ النابت — حتى فى أواخر أيام الدولة القديمة على الأقل — أن سادة البلاد والمترفين من أعيانها قد كانوا يترددون عليها للاستمتاع بين أحراجها بلهو الصيد ولذائنه .

أما المسافة بين البحر وبحيرة « مويريس » فلا ندرى على أى أساس قدر « هردوت » مداها من الوقت ، وبخاصة بعد أن قدر لرحلته من « هليوبوليس » إلى « طيبة » - وهى ضعف ما بين شاطئ البحر و « بحيرة مويريس » - تسعة أيام ، إلا أن تكون سبيله إلى البحيرة قد اختلفت ، أو أن يكون هو قد أخطأ التقدير .

٥ - ويظهر لى أن كلامهم عن وطنهم صحيح ؛ إذ يتضح لمن لم يستمع إليهم من قبل ، ولئن عساه أن يكون قد رأى البلاد وحسبه ، وكان عليها بصيراً ؛ يتضح له أن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة ، وأنها هبة من النيل (١) . والإقليم الواقع على مسافة رحلة مداها ثلاثة أيام جنوبى البحيرة ، يشبه هذه الأرض فى تكوينه (٢) . وإن كان هؤلاء (الكهنة) (٣) لم يقولوا عنه

(١) يمثل هذا تحدث آخرون من الكتّاب الأقدمين عن ذلك الجزء من أرض مصر الذى يقع بين ذرعان النيل ، ثم ينتشر من حولها ، والذى اصطالحوا على تسميته بالدلتا . ويعتبر « هيكاتيه الملطى » أول من أشار إلى هذه الحقيقة . ثم آتاه « هردوت » حين قال إن هذه البقاع من أرض مصر « هدية النيل » . ومن الواضح أن ذلك رأى سليم ؛ فأبحاث الجيولوجيين قد أثبتت أن الدلتا كانت مغمورة تحت مياه البحر ، وأن النيل بناها وشكلها من رواسب طمية .

على أن الناظر فى طبيعة الوادى كله من وراء « أسوان » حتى ساحل البحر الأبيض ، لا يكاد يشك فى أن « هدية النيل » لا تتمثل فى ذلك الجزء من شمال الوادى الذى يتحدث عنه هردوت وغيره عن سبقه وحسب ، بل أنها تشمل الوادى كله ؛ ذلك لأن مصر قبل النيل لم تكن شيئاً مذكوراً ، ولولاه لبقى ذلك الوادى الأخضر السعيد غمراً فى مياه البحر ، أو جزءاً من تلك الصحراء العريضة التى شطرها مجراها شطرين ؛ صحراء العرب وصحراء ليبيا .

(٢) لا نستطيع أن نعرف أى الأقاليم يعنى « هردوت » بالضبط ؛ فهو يجعله على مسيرة ثلاثة أيام من جنوبى « بحيرة مويريس » ؛ أى ثلث المسافة بين « هليوبوليس » و « طيبة » . فإذا صح تقديره وجب أن يكون ذلك الإقليم فى الشمال من موقع « سيوط » . ولسنا نستبعد أن يكون عند ذلك المكان الذى يفصل فيه فرع النهر المسمى « بحر يوسف » من أصله عند « ديروط » .

(٣) يقصد الكهنة الذين مر ذكرهم فى الفصلين الثالث والرابع ، أى كهنة المواسم الثلاث « هليوبوليس » و « ممفيس » و « طيبة » .

حتى ذلك الحين شيئاً من هذا القبيل . وهذه طبيعة أرض مصر ؛ عندما تبحر إليها لأول مرة — وما زلت على مسيرة يوم من اليابسة — فإنك ستخرج طمياً إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا (١) . وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقة الطميية تمتد إلى هذا الحد .

٦ — ثم تمتد مصر على ساحل البحر ستين « إسخينوس » (٢) وفقاً

(١) حوالى ٦٦ قدماً .

(٢) إسخينوس : $\sigma\chi\iota\nu\sigma$: مقياس من مقاييس الأبعاد عند الإغريق ، يقدرونه عادة بنحو ستين « استاد » ؛ أى ما يساوى فرسخين . ويقابله الإغريق بمقياس كان لدى المصريين يقال له « إارى » . وإن كانوا لم يدققوا فى ضبطه ؛ حيث ثبت من تحقيق المقاييس التى وردت فى كتب المؤرخين وأصحاب الوصف من الإغريق والرومان ، أنهم يحسبونه بمقدار ٣٠ « استاد » تارة ، و ٤٠ تارة ثانية ، و ٦٠ تارة ثالثة ، ثم ١٢٠ تارة رابعة .

ولما فكر الباحثون فى ضبط هذه المقاييس ، استطاعوا — بعد التحقيق والتدقيق — أن يثبتوا أن « الأسخينوس » يساوى فى الأغلب الأعم ٣٠ استاد ، وقد يتراوح أحياناً بحساب « الأستاذ الأتيكى » بين ٣٢ و ٣٣ ، أى ما يساوى ٩٤ و ٩٥ ، لك بمحساب المقاييس الحديثة . ثم تغير فى العصور المتأخرة فأصبح يساوى ٤٠ « استاد » أى ٩٢ ، ٧ من الكيلو مترات .

(انظر : Schwarz, Berliner Studien fuer Klass. Phil. XV Hef 3. (1894))

ونستطيع — فى ضوء ما قدمنا — أن نتبين أن « هردوت » قد كان مخطئاً حين قدّر « الأسخينوس » بستين « استاد » أى ما يساوى ١١,٨٨ من الكيلو مترات .

فإذا كان طول الساحل المصرى فى حسابه قد باع ٦٠ « إسخينوس » وكان الأسخينوس يساوى ٦٠ استاد ، فإنه بذلك قد أبلغ طول الشاطئ ٣٦٠٠ =

لتحديدنا إياها من خليج « بليثنوس » (١) حتى بحيرة « سربونيس » (٢) التي
يتمد بجانبها تل « كاسيوس » (٣) . والستون « إسخينوس » تحسب — على
ذلك — ابتداء من هذه البحيرة .

إن الذين يملكون الشيء القليل من الأراضي ، يمسحونها بالباع (٤) ،
ومن يملكون أكثر « بالاستاد » ، وأصحاب الأراضي الواسعة بالفرسخ ،
وأصحاب الضياع المترامية الأطراف بالأسخينوس . ولما كان الفرسخ يساوي

= « استاد » ؛ أى ما يعادل ٧١٢,٨ من الكيلو مترات . على حين لا يجاوز
طول الساحل في الواقع ٣٧٠ كم .

ويقضينا الإنصاف ، أن نقرر أن « هردوت » لم يقع وحده في خطأ التقدير ،
وإنما وقع فيه آخرون . ومهما يكن من شيء فإن « الأسخينوس » لم يكن
مقداره مضبوطاً في أكثر الأحيان ؛ فهو يطول أحياناً ، ويقصر أحياناً أخرى ؛
يقصر حتى يساوي ٤ « استاد » ، ثم يطول فيبلغ الأربعين ، ولكنه لا يجاوز
ذلك بحال من الأحوال .

(١) خليج بليثيني (نسبه إلى « بليثين » Plinthine) . وهى بلدة كان
موقعها على شاطئ « بحيرة مربوط » . إنه الخليج المعروف اليوم باسم
« خليج مربوط » . وموقعه يقابل أقصى الغرب من البحيرة المذكورة .

(٢) « بحيرة سربونيس » : موقعها عند حافة التل المعروف باسم « كتيب
القلس » ، وفي أطراف المكان المعروف اليوم باسم « سبخة البردويل » .
(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٣) « تل كاسيوس » : يعرف اليوم باسم « كتيب القلس » .

(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٤) الباع يساوي ٦٦ قدماً .

ثلاثين « استاد » ، والأسخينوس — وهو مقياس مصرى^(١) — يعادل ستين « استاد » ، فذلك يبلغ طول الجزء الممتد من مصر على ساحل البحر ٣٦٠٠ « استاد » .

٧ — ومن الشاطئ إلى مدينة « هيليوپوليس » (نرى) مصر واسعة في الداخل ؛ كلها منبسطة . ماؤها وفير ، وطيبها غزير ، والسييل التي يقطعها الذهاب من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ في طولها (قدر) المدى بين هيكل الآلهة الإثني عشر في أثينا^(٢) ومعبد « زبوس » الأولي في « پيزا » . ولو حسبنا طول الطريقين ، لوجدنا أن الفرق بينهما طفيف ، بل إنهما يكادان يتساويان ؛ لأن الفرق لا يزيد عن خمسة عشر « استاد » . فالطريق من « أثينا » إلى « پيزا » تقل بمقدار خمسة عشر « استاد » عن الخمسة وألف « استاد » بينما المسافة من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ ذلك القدر بأكثر^(٣) .

٨ — وتضيق مصر ابتداء من مدينة « هيليوپوليس » جنوباً ، فعلى أحد

(١) يقصد أنه كان مستعملاً في مصر .

(٢) يرى Thucydides أن ذلك الهيكل كان بميدان السوق في « أثينا » وأن الذي أقامه كان « Pisistratus » ابن « Hippias » وحفيد « Pisistratus الأكبر » ، والغالب أن الناس كانوا يتخذون منه مكاناً تقاس من عنده أبعاد الأرض . (انظر : Herodot VI, chap. 108) ثم (Thucydides VI, 45) .
(٣) وهنا خطأ « هرودوت » في قياس البعد بين « الفرمة » و « هيليوپوليس » فجعله ١٥٠٠ « استاد » ؛ أى ٢٥ « إسخينوس » (بواقع ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») أى ما يساوى نحو ٣٩٧ كم . ولو أصاب لجعله ٧٥٠ « استاد » (أى بواقع ٣٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») ؛ ذلك لأن البعد المضبوط بحساب اليوم لا يجاوز ١٦٥ كيلو متراً .

جانبها تمتد سلسلة الجبال العربية من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربى (١)،
ويشتمل امتدادها فى اضطراد حتى البحر المسمى ببحر « إروترى » (٢). وهنا
توجد مقالع الأحجار (٣) التى استخدمت فى بناء أهرام « ممفيس » (٤). وفى
هذا المكان يقف امتداد الجبال وتنحن هذه نحو الجهات التى ذكرت (٥).

وأقصى اتساع لهذه الجبال من الشرق إلى الغرب يبلغ — كما علمت —
مسيرة شهرين . وحدودها الشرقية تنتج البخور (٦) . هذه إذن هى الجبال

(١) يعنى ابتداء من « الجبل الأحمر » ، فجبل « المقطم » . وامتداده
إلى الجنوب مع انحراف إلى الجنوب الغربى .

(٢) بحر إروترى (Ἐρυθρὴ) هو « البحر الأحمر » . والمقصود هنا
بالضبط الخليج العربى . (انظر : Herodot I, 1) .

(٣) يقصد المحاجر الجرانيتية عند « أسوان » . وكان المصريون يقدّون
منها أصاب أنواع الصخر وأجوده لبناء معابدهم وبعض قبورهم ، ويشحنون منها
أصنام الأرباب وتماثيل الملوك ، ثم المسلات . وما زالت آثار أعمالهم فيها بادية
حتى يومنا هذا .

(انظر : Baïke, J. Egypt. Antiq. in the Nile Valley, P. 713, 717)

(٤) يقصد بتلك الأهرام كافة أهرام الدولة القديمة المنتشرة فى الصحراء
الغربية بين « دهشور » و « أبى رواش » ، وعلى طول امتداد « ممفيس »
الذى امتدت عمائرهما من جنوبى « البدرشين » إلى شمالى « المناوات » . ثم أخذت
تجبرى فى امتدادها حتى بلغت فى أواخر أيام الرومان وأوائل أيام العرب
ما يواجه « الفسطاط » على الشاطئ الشرقى للنيل .

(٥) يقصد بذلك « البحر الأحمر » .

(٦) تلك حقيقة لا شك فيها ، فقد كان المصريون يستوردون البخور الذى
يستخدمونه فى شعائهم الدينية من بعض مناطق الشرق العربى .

العربية . وعلى جانب مصر من جهة ليبيا تمتد سلسلة أخرى من الجبال الصخرية ، مغطاة بالرمال ، توجد بها الأهرام . وهذه السلسلة تأخذ نفس اتجاه ذلك الجزء من سلسلة الجبال العربية الذى يمتد نحو الجنوب . وإذن ، فالبلاد من بعد « هيليوپوليس » — باعتبارها جزءاً من مصر — لم تُعَدْ عظيمة الاتساع ، بل إن مصر تضيق لمرحلة أربعة أيام تصعيداً فى النهر . والأرض الواقعة بين سلسلتى الجبال التى سبق الكلام عنهما عبارة عن سهل لا يزيد اتساعه فى أضيق أجزائه — كما يبدو لى — على مائتى « استاد » (١) ، فيما بين الجبال العربية والجبال التى تسمى بالجبال الليبية ، وبعدئذ تعود مصر إلى الاتساع مرة ثانية .

٩ — هذه إذن هى طبيعة البلاد . من « هيليوپوليس » إلى « طيبة » ؛ يستغرق الأبحار تسعة أيام تصعيداً فى النهر ؛ وهى مسافة ٤٨٦٠ « استاد » (٢) ؛ لأنها تبلغ ثمانين « إسخينوس » . وهى أبعاد مصر مجمعة بالاستاد . لقد أوضحتُ فيما سبق أن طول الجزء المحاذى للبحر ٣٦٠٠ « استاد » (٣) . والآن سأبين المسافة — وسط الأرض — من البحر حتى مدينة « طيبة » ، فهى

(١) أى حوالى خمسة أميال .

(٢) وهنا أخطأ « هردوت » حين جعل البعد بين « هيليوپوليس » و « طيبة » ٤٨٦٠ استاد (بواقع ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») ؛ فأبلغه ما يساوى بالحساب الحديث ٩٦٢ كم . على حين أنه لا يبدو فى الواقع ٧٢٢ كم .

(انظر : Sethe, Untersuchungen II, 3, S. 8)

(٣) انظر ما تقدم عن ذلك من حديث فى الفصل السادس (هامش رقم ١) من هذا الكتاب .

٦١٢٠ « استاد » (١). والمسافة من « طيبة » حتى المدينة المسماة « إلفانتينا »
١٨٠٠ ستاد (٢).

١٠ — والجزء الأكبر من الأراضي التي تكلت عنها هو — حسب
أقوال الكهنة ، ووفقا لاعتقادي الشخصي — جزء اكتسبه المصريون .
فقد بدا لي أن السهل ما بين سلسلي الجبال التي تحدثت عنها ممّا يلي
مدينة « ممفيس » ، كان فيما مضى خليجا في البحر (٣) ، مثله في ذلك مثل
الأراضي التي حول « أليون » و « تيوتراينا » و « إفسوس » وسهل
« مياندروس » (٤) . هذا إذا جازت المقارنه بين صغير الأشياء وكبيرها .

(١) وهنا جرى « هردوت » على ما تعود من خطأ في التقدير ؛ فجعل البعد
بين شاطئ البحر و « طيبة » ١٢٠ « استاد » ؛ أي ما يعادل ٧٦, ١٢١١ كم .
ولو أصاب لجعل لـ « إسخينوس » ٤٠ « استاد » ، وبلغ البعد بذلك
ما يعادل ٨٤, ٨٠٧ كم ؛ وهو مدى يقرب من الواقع المضبوط على كل حال .
فالبعد الصحيح بين شاطئ البحر ومدينة « طيبة » يبلغ نحو ٨٩٠ كم .
(انظر : المرجع السابق) .

(٢) ظاهر أنه أخطأ في تقدير البعد البالغ مداه ٣٠ « إسخينوس » حين جرى
على حساب ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس » ، فأبلغه بذلك ١٨٠٠ « استاد » ؛
أي ما يعادل بحساب مقاييس اليوم ٤, ٣٥٦ كم . ولو أنه وفق فقدر لكل « إسخينوس »
٤٠ « استاد » ، إذاً لبلغ البعد بذلك ٦, ٢٣٧ كم . وذلك تقدير يقرب من
الصحيح ؛ إذ أن البعد بين مدينة « طيبة » و « جزيرة الفيله » لا يجاوز ٢٢٠ كم .
(٣) يكاد كلام « هردوت » هنا يطابق ما يراه علماء الجولوجية والجغرافية
من أن الدلتا وما يمتد وراءها من الوادي جنوباً قد كانت حتى أواخر العصر
الحجري القديم غمرأ تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .
(٤) لم يكن هذا السهل يبعد كثيراً عن موقع « ملطية » وإن كان مكانه
اليوم قد تغير بعض الشيء . (انظر : Herodot I. 18) .

إذ ليس من الأنهار التي كوّنت هذه البلاد بطمها واحد يستحق أن يقارن — من حيث الحجم — بأحد فروع النيل . وفروع النيل خمسة (١) . وهناك أيضاً أنهار أخرى لا تقاس بالنيل في عظمتها ؛ ولكنها أوجدت آثاراً عظيمة . وفي مقدوري أن أسمى الكثير من هذه الأنهار ، ولكن أهمها هو نهر « أخيلوؤس » الذي يجري في « أكارنانيا » ويصب في البحر . وقد أحال بالفعل نصف جزائر « أخيناديس » يابسا (٢) .

١١ — ويوجد في بلاد العرب — غير بعيد من مصر — خليجٌ يُوغل في الدّاخل من البحر الذي يسمى ببحر « أرورتى » (٣) ، وهو خليج طويل وضيق جداً كما سأوضح ؛ إذا بدأ المسافر من جوف الخليج (٤) ، وضرب في عرض البحر ، فإنه يستغرق في عبوره طولاً أربعين يوماً مع استخدام المجاذيف . في حين أن اجتيازه عرضاً — في أوسع أجزائه — يستغرق إبحار نصف يوم . وبه يحدث مدٌّ وجزرٌ كل يوم ويخيل إلى أن مصر كانت فيما

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تلك الفروع الطبيعية التي رآها في زمانه ؛ ذلك لأن المأثور أنه قد كان للنيل ذراعان عشر ، ثم صارت من بعد ذلك سبعة ، ثم انتهت إلى خمس . (انظر : الفصل رقم ١٥) .

(٢) أخيليوؤس : Ἀχελῷος : يجري هذا النهر في الشمال الغربي من بلاد الإغريق ؛ بين « أكارنانيا » و « أنوليا » ، ويمد أطول أنهار بلاد الإغريق ؛ إذ يبلغ طوله ١٣٠ ميلاً . وهو أقدم رمز لفرات الماء وصفوه عند الإغريق ويسمونه الآن النهر الأبيض Ἀσπρόποταμος . وقد كوّن من رواسب طميه خمس جزر وفيرة الخصب .

(٣) أي « البحر الأحمر » . (انظر : الفصل الثامن هامش رقم ٢) .

(٤) أي من « خليج السويس » حتى « بوغاز باب المتدب » .

مضى خليجاً آخر مثل هذا ؛ أحدهما كان يمتد من البحر الشمالى (١) نحو « إيثوبية » (٢) . والآخر من البحر الجنوبى (٣) صوب « سورية » . وإن رأسهما ليكادان يلتقيان الواحد بالآخر ؛ لا تفصلهما إلا مساحة صغيرة من الأرض . ولذلك ، إذا ما قُدِّرَ للنهر أن يُغَيَّرَ مجراه نحو الخليج العربى فماذا يمنعه — وهو يصب فى الخليج — من أن يُنْبَسَ فى عشرين ألف عام ؟ إنى شخصياً أظن أنه يستطيع ردم الخليج فى عشرة آلاف عام . فكيف إذن ، فى العصور التى مضت قبل ميلادى لم يقدَّرَ لنهر هائل ومخصب مثل هذا أن يُنْبَسَ خليجاً حتى ولو كان أكبر من هذا الخليج ؟ .

١٢ — وعلى ذلك فإنى لا آخذ برواية من حدثونى عن مصر وحسب ، بل أنا نفسى أو من كل الأيمان بأن ذلك قد وقع فعلاً . فقد شاهدت أن مصر تمتد

(١) أى « البحر المتوسط » .

(٢) نعتقد أن المقصود بأثيوبية هنا الأقاليم العليا من بلاد النوبة (النوبة العليا) التى أمماها القراعنة « كوش » ، على حين أمموا النوبة السفلى « واوات » . ولتلك البقاع فى تاريخ آل فرعون منذ قيام حكومتهم المتحدة الثانية (٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م) . مكان واضح ، وحديث متصل ، ثم إن لهم فيها لأناراً تحدث عما كان لهم هناك من جهود متصلة ، ونشاط عمرانى واقتصادى . وكان يحكمها منذ قيام الإمبراطورية المصرية نائب لفرعون يسمونه « ابن الملك فى كوش » .

(انظر : فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ٧) .

ومن تلك البقاع جاءت تلك الأسيرة التى حكمت مصر من عام ٢١٥ إلى عام ٦٦٥ ق . م . وعرفت فى ترتيب الأسر الحاكمة بالأسيرة الخامسة والعشرين .

(٣) يقصد « البحر الأحمر » .

في البحر دون غيرها من الأراضي المتاخمة ، وأن أصداف^(١) البحر تُرى فوق الجبال ، وأن هناك طبقة ملحية تتآكل بفعلها الأهرام^(٢) ، وأن الرمال لا توجد في مصر إلا على سلسلة الجبال التي تقع فوق « ممفيس » . وقد لاحظت ، علاوة على ذلك ، أن مصر ، في تربتها ، لا تشبه بلاد العرب التي تقع على حدودها ، ولا ليبيا ، ولا سورية . (فمناطق الساحل العربية مأهولة بالسوريين) . بل إن تربتها سوداء^(٣) وبها شقوق ، لأنها مكونة من رواسب الطمي التي جلبها النهر من « إثيوبية » . ولكننا نعرف أن تربة ليبيا رملية

(١) ثبت بالفعل وجود مثل تلك الأصداف ؛ مما يدل على أن جزءاً غير يسير من الأرض التي نسميها مصر كان مغموراً تحت مياه البحر .
(انظر : Ritter, Erdkunde I, S. 858 ff)

(٢) تلك حقيقة أميتها البحث العلمي ؛ فإن في التربة المصرية أملاحاً تساعد الأرض على الاحتفاظ بودائعها إذا ما توافر فيها الجفاف ، وتعمل العكس إذا توافرت فيها الرطوبة .

انظر : (١) Seth, Zur Geschichte der Einbalsamierung bei den Aegyptern (Sonderausgabe aus den Sitzungsberichten der Preussischen Akad. der Wissenschaften phil. Klasse (1934) XIII.

Lucas, J. EA. XVII, 125.

ثم : (٢)

(٣) تلك حقيقة من الحقائق الواضحة في تاريخ مصر التي كسا النيل أرضها بتلك الطبقة السمراء التي يحملها فيضانه كل عام ؛ فيزها عما حولها من بقاع الصحراء ، وأسماء أهلها « كيم » أي السمراء أو السوداء . ويعتقد بعض أهل العلم أن ذلك اللفظ هو الأصل في اسم « الكيمياء » (العلم أو الفن الأسود) . وقد ساد ذلك الاعتقاد في القرون الوسطى حتى غدا أمره جدلاً بين العلماء .

(انظر : Lippmann, Entstehung & Ausbereitung der Alchemie (Berlin 1919) S. 223 — 314) .

ضاربة إلى الحمرة (١) ، وأن تربة بلاد العرب وسورية صخرية وُصلبة
بعض الشيء .

١٣ — ولقد حدثني الكهنة أيضاً عن طبيعة هذه البلاد ، وقدموا
لي هذا البرهان الكافي : قالوا إن النهر في عهد الملك « مويريس » (٢) كان
يروي من مصر الجزء الذي يلي « ممفيس » إذا ما ارتفع الماء فيه ثمانية أذرع

(١) ذلك صحيح ؛ فهكذا رأى المصريون لون الصحراء فأسموها « الحمراء » .

(٢) الملك « مويريس » : إذا أخذنا بتقدير « هردوت » وهو أن ذلك الملك
قد عاش قبل أيامه بتسعة قرون ، فسيكون معنى ذلك أننا سنبلغ منتصف القرن الرابع
عشر . ق . م ، أي أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة . ولا نعرف بين ملوك
هذه الأسرة من يصح أن يكون اسمه قد صحف في لسان الإغريق على هذا النحو ،
كما أننا لا نجد بينهم من قام بتلك المشروعات التي يتحدث عنها « هردوت » .
وأكبر الظن أن يكون المقصود باسم « مويريس » هو الملك « أمنمحات الثالث »
من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وصاحب مشروع البحيرة التي تحمل ذلك الاسم
في إقليم الفيوم .

والواقع أننا لا نكاد نذكر من يحمل مثل هذا الاسم « مويريس » بين
فراعين مصر . وإن كنا نعرف أنه من أسماء البحيرة المعروفة في الفيوم ، وأنه
تصحيف أغريقي لاسمها المصري « مر - ور » (البحيرة العظمى) . ولا نستبعد
بعد ذلك أن صلة فرعون « أمنمحات الثالث » بمشروع البحيرة المذكورة ثم
الخلط الذي وقع في تصحيف اسمه أو تحريفه عند الإغريق قد أتت به أيام
« هردوت » إلى ذلك المصير . فاسم « أمنمحات الثالث » المصري « نى - ماعة - رع »
قد ورد في قراطيس البردى الإغريقية « مارس » تارة ، و « لامارس » تارة ثانية ،
ثم « لابارس » تارة ثالثة .

(انظر : في موكب الشمس ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها) .

فحسب . ولم تكن قد مرت على موت « مويريس » تسعمائة سنة عندما سمعت هذا من أفواههم . أما في الوقت الحاضر — إذا لم يرتفع النهر ستة عشر أو خمسة عشر ذراعاً على الأقل^(١) — فإنه لا يفيض على الأرض بمائه . ويخيل إلى أنه إذا استمرت الأرض في الارتفاع بهذه النسبة وأخذت في الاتساع كذلك ، فسوف يعاني المصريون الذين يسكنون المناطق الواقعة فيايلي بحيرة مويريس وخصوصاً الإقليم المسمى بالدلتا ؛ سوف يعانون على مدى الأجيال نفس المصير الذي سيتعرض له اليونانيون يوماً ما وفقاً لما كانوا هم أنفسهم يقولون^(٢) ؛ ذلك أنهم عندما علموا أن المطر يروى بلاد اليونان كلها ، وأن هذه بخلاف مصر ، ليس بها أنهار تغذيها ؛ قالوا سيأتي يوم يخيب فيه أمل اليونانيين الكبير ، ويقاسون ألم الجوع المرير . ويقصدون بقولهم هذا أنه إذا

(١) كان فيضان النهر منذ أبعد عصور التاريخ موضع اهتمام البلاد حكومة وشعباً ؛ فعلى اعتدال منسوبه تتوقف أرزاق البلاد ، وعليه تقدر الضرائب المطلوبة لخزانة الدولة . ونحن نعرف أن المصريين في زمان البطلمة والرومان كانوا يعتبرون فيضان النهر مباركا ميمونا إذا بلغ ارتفاعه ١٦ ذراعاً . والغالب أن الأمر قد ظل كذلك حتى تغير نظام الإرواء والصرف بعد إقامة المحابس والسدود في العصر الحديث . ويقدر « هردوت » — في ضوء ما سمعه من الرواة من أن النيل في زمان « مويريس » كان يروى أرض الشمال (أى أرض الدلتا) إذا بلغ ارتفاع فيضانه ثمانى أذرع — أن هذا الجزء الشمالى من أرض مصر سوف يصاب بمحنة القحط والجفاف نظراً لما ينتظر من ارتفاع في مستوى أرضه بسبب ما تصيب من رواسب طمي الفيضان على مر السنين ، مادام الاعتماد في إروائها على ماء النهر ؛ إذ أن ماء السماء لا يصبها إلا غرارا .

(٢) يقصد رواته من الكهان المصريين الذين مر ذكرهم قبل ذلك في الفصل الثالث ، ويزعم أنهم كانوا أهل علم ومعركة .

لم يشأ الإله (١) أن يُنزّل عليهم الغيث ، وأراد أن يهزمهم بالجفاف المتّصل ، فسوف يموتون جوعاً ما دام ليس لهم مورد غير « زيوس » وحسب .

١٤ — إن ما قاله المصريون عن اليونانيين صحيح . ولكن دعني أتحدّث الآن عن المصريين أنفسهم . وهذا ما أريد تفصيله : إذا قدّر — كما قلت — أننا — للأرض التي تحت « ممفيس » (وهي الأرض الآخذة في التزايد) — أن تستمر في الارتفاع بنفس النسبة التي تزايد بها في الماضي ، فإذا عساه

(١) ظاهر من ذلك أن « هردوت » كان متأثراً بالفكر الإغريقي والحياة الإغريقية ؛ فبلاده إنما تعتمد في حياتها الزراعية على ماء السماء ، وماء السماء في عقيدته وعقيدة قومه لا يهيب أرضهم إلا حيث يشاء الإله . ويعني بالإله هنا « زيوس » الذي ينزل الغيث (Jupiter pluvius) *Zeús úétios* . فأما المصريون فقد كانوا ينتظرون الحياة بين يدي النيل الذي يفيض عليهم في حينه كلما استدار العام . والواقع أنه من الأمور الواضحة في حياة هذا الوطن المصري أن النيل كان وما يزال أساس الحياة ومصدرها ، وأن آل فرعون قد أدركوا تلك الحقيقة وآمنوا بها . ولن يكون غريباً بعد ذلك أنهم قدسوا النهر أو عبدوه . « لم لا يُؤكّل من يقوت ويرزق ! » .

والذي ينظر في تراثهم الأدبي من ناحية ، وفيما أبقت عليه الأيام من رسوم تصور ألوان حياتهم من ناحية أخرى ، يستطيع أن يرى أثر ذلك واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ولا إبهام ؛ فهذا « أخناتون » صاحب مذهب التوحيد يناجي ربه ويتحدّث بنعمته الكبرى التي آتمها على شعبه بين يدي النيل فيقول مخاطباً ربه : « فَبَجَّسْتُ النيل لمصر من باطن الأرض ؛ تجريه بالزيادة والنقصان كيف تشاء . وأغثت العالم من حول مصر بماء السماء » . ثم يشير من بعد ذلك إلى مشيئة ربه في تفضيل أهل مصر على غيرهم من سائر خلقه . وذلك حين يناجيهِ في شأن النيل فيقول : « لتحفظ الحياة على أهل مصر ؛ لأنك اصطفتهم لنفسك وأنت ربهم جميعاً » .

(انظر : « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٨٢١) .

أن يحدث المصريين الذين يقطنون هذه البقاع إلا أن يقاسوا مرارة الجوع مادام المطر لا ينزل ببلادهم والنهر لا يستطيع أن يروى حقولهم؟ ولكنهم في الوقت الحاضر، من بين سائر الشعوب الأخرى وباقي المصريين، يجنون ثمار أرضهم بغير مشقة تذكر (١)، فهم لا يكبدون في تخطيط الأرض بالمحراث ولا في تفتيت

(١) ذلك ضرب من الوهم، لأن « هردوت » قد نظر إلى الأمر بإحدى عينية، أو استمع إليه بإحدى أذنيه؛ فأهل مصر في ماضيهم وفي سائر ما تلا ماضيهم من دهور، وحتى يومنا هذا، لم يجنوا غلات أرضهم وثمارها في سهولة ويسر؛ لأن النيل الذي يسعدهم قد كان يشقيهم أيضاً؛ أشقاهم دهوراً أول عهدهم بالحياة على ضفافه حين أخذوا في تهذيبه وتبرئة واديه مما كان ينتشر فيه من الأخوار والمستنقعات التي كانت فاصّة بالاحراج؛ تفشاها كواسر الوحش وجوارح الطير؛ فبعض العلماء يقرّرون أن النيل في أول عهده بهذا الوادي - وبخاصة في دلتاه - كان يشبه الجزء المعروف اليوم باسم « بحر الغزال ». وأن المصريين قد ظلوا ما كفين على مكافئة هذه الطبيعة حتى طهروا الوادي من آثارها وأحالوه إلى تلك الجنات الخضراء التي رآها « هردوت » ومن جاء بعده ممن وقعوا في هذا الخطأ، وجروا وراء أوهامهم ومنهم « ديودور » الصقلي (Diodor sic. I, 364). ثم ما أكثر ما أشقى النهر أصحابه كلما عزّ ماؤه، بل كلما زاد فيضانه، فميج هجابه، وتلاطمت أمواجه، فكسرت السدود والحواجز؛ هنالك كانوا يقومون له الليل، ولا تفتقر همّتهم في النهار؛ يكافحون شدته ويتقون خطره، ويظلون كذلك حتى تهدأ ثورته. والفلاحون في مصر هم أنشط زراع الدنيا، وأصيرهم على العمل، وصور حياتهم المنتشرة على جدران قبورهم ترينا كفاحهم الدائب في سبيل العيش. ودور التحف في الشرق والغرب فاصّة بما خلفوا من تراث حياتهم الزراعية وأدواتها من محارث وفؤوس ومناجل وغير ذلك. وهم - كما تشهد آثارهم الأدبية والدينية - لم يشقوا بالزراعة في حياتهم الدنيا وحسب، بل آمنوا باستشفاء الشقاء في حياتهم الأخرى أيضاً؛ فزودوا أنفسهم لذلك بما خالوا أن يزاووا به أعمال الزراعة.

(انظر : ERMANN, (Adolf), Die Relig. d. Aeg. S. 276 f.)

التربة وتنسيقها ، ولا يقومون بأى عمل من الأعمال التى يشق بها الآخرون من أجل الثمر . ولكن عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه ، ويروى الحقول ، ثم ينحسر ثلثية بعد ريها ، هنالك يلقى كل منهم بالبذور فى جقله ، ويطلق فيها الخنازير (١) ، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها ، ينتظر بعدئذ موسم الحصاد . وهنالك يُذَرَسُ القمح بواسطة الخنازير (٢) ثم يحمل بعد ذلك إلى الدار .

١٥ — وإذا نحن أخذنا بآراء « الأيونيين » (٣) فى مصر — وهم يظنون أن الدلتا وحدها هى مصر ، ويقولون إن ساحلها يمتد أربعين « إسيخينوس » (٤)

(١) كان المصريون القدماء — إذا ما حل موسم الزرع واستعدت الأرض لاستقبال الحب — يطلقون عليها بعض أنعامهم من الضأن والخنزير ليكسبوها اللين والنعومة ، وليسواوا تربتها من بعد الحرث ، أو ليكفروا فيها الحب إذا كانت رطبة لم تجف بعد . وقد ظل استخدام الخنازير فى ذلك أيام الدولة الحديثة معروفاً ، بل ظل قائماً حتى أدركه « هردوت » عندما زار مصر . وأكبر الظن أنه ذكر الخنازير وحدها لتيوعها فى الدلتا ؛ وذلك نظراً لتوافر المراعى الصالحة لحياة هذا الحيوان ، ولأن أكثر إقامة « هردوت » قد كان يومئذ فى الشمال .

Kees, H. Kultur Geschichte des Alten Orients (Erste : انظر)
Abschnitt Aegypten S. 35)

(٢) لم يستخدم المصريون فى درس محاصيلهم الخنازير وحدها ، ولكن استخدموا غيرها من الأنعام كالبقرة والحمار أيضاً .
(انظر : Kees, ibd. S. 36)

(٣) يظهر أن « هردوت » يعنى بذلك ما رواه سلفه « هيكانيه الملى » .

(٤) يبلغ ذلك البعد فى حساب « هردوت » نحو ٢٤٠٠ « أستاذ » أى ما يعادل ٤٧٥,٢ كم ، على حين أن المسافة لا تعدو فى الواقع أكثر من نحو ٢٧٠ كم .

من المرقب (١) المسمى باسم «برسيوس» (٢) حتى ملاخات «الفرع الپلوزى» (٣) وأنها تمتد بحد قولهم ، من البحر فى الداخل حتى مدينة «كاركاسوروس» (٤) التى يتفرع النيل عندها إلى الفرعين «الپلوزى» و «الكانوبى» (٥) . أما بقية مصر - فى رأيهم - فهى جزء من ليبيا وجزء من بلاد العرب . فإذا سلمنا بهذا القول ، كان معناه أنه لم يكن للمصريين وطن فيما مضى . فى الواقع أن الدلتا - كما يؤكد المصريون أنفسهم ، وحسب اعتقادى الشخصى - أرض طينية ، وانها فى نهاية القول حديثة التكوين . وعلى ذلك ، إذا لم يكن لهم وطن من قبل ، فلماذا يعتقدون أنهم أقدم الشعوب ؟ ولماذا يحاولون المستحيل

(١) الغالب أن يكون ذلك المرقب على بعد قريب من المكان المعروف باسم «أبو قير» . (انظر : Strabon, 17. I, 18. p. 801)

(٢) برسيوس : مرقب فى أقصى الغرب من دلتا النيل ، بالقرب من أبو قير . انظر : (Widemann, S. 87) .

(٣) موقع تلك الملاحظات لم يكن يبعد عن تلك المدينة التى عرفت باسم «يلوزيوم» (تل الفرما) ومكانها اليوم بين «تل أبى صيفه» و «تل الفراعين» . وقديما اشتهرت تلك البقاع بصيد السمك وتجهيفه وتعليحه وتصديره إلى الخارج وبخاصة إلى سورية . انظر : (Kees, H. ibid. S. 61, 109) . وشبيه بذلك ما يفعله سكان البقاع الواقعة حول «بحيرة المنزلة» فى العصر الحديث .

(٤) Cercasorus : مدينة لم يكن موقعها فى الغالب يبعد كثيراً عن رأس الدلتا . وأكبر الظن أنها كانت عند المكان المعروف اليوم باسم «الوراق» على الشاطئ الغربى للنيل تجاه «جزيرة الوراق» ، وعلى بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال من مدينة القاهرة .

(٥) نسبة إلى «كانوب» المعروفة اليوم «بكوم سمعدى» فى الشمال الشرقى من مدينة الإسكندرية . انظر : (J. Ball, p. 17) .

لإثبات ذلك ؟ إنهم لم يكونوا في حاجة إلى القيام بالتجربة على الطفلين ومعرفة أول لغة يتكلمان بها^(١) . ومنها يمكن من أمر فأنا لا أصدق أبداً أن المصريين وُجدوا في نفس الوقت الذي تكونت فيه الدلتا التي يسميها « الأيونيون » مصر ، بل هم قد عاشوا دائماً منذ بدء الخليقة البشرية . ولما أخذت بلادهم في الامتداد بقي الكثير منهم في الورا ، بينما انحدر الكثيرون تدريجياً إلى الأرض الجديدة . وأياً كان الأمر ، فقد كانت « طيبة » التي بلغ محيطها ٦١٢ ستاد^(٢) تسمى منذ القدم « مصر »^(٣) .

١٦ — والآن : إذا صحت آراؤنا في ذلك ؛ فإن الأيونيين يخطئون في كلامهم عن مصر . أما إذا كان رأى الأيونيين صحيحاً ، فأحب أن أبين أن اليونانيين والأيونيين بالذات لا يفقهون حساباً حين يزعمون أن العالم جميعه مكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا ، وآسية ، وليبيا . إذ يجب عليهم أن يضيفوا

(١) انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب) .

(٢) انظر تفصيل الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٣) أكبر الظن أن يكون ذلك أثرأ من آثار الدوى المائل الذي ملأ به الزمن أسمع الدنيا من شهرة « طيبة » وذكرها الخالدة منذ نهضتها المعروفة إبان الثورة على « المكسوس » ، وما كان لها في تاريخ الدنيا طامة ومصر بخاصة من خطر ؛ فهي قد غدت بذلك أم القُرى ، وزهرة المدائن ، وماصمة أول إمبراطورية عرفها تاريخ العالم القديم . انظر : (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ٣١٧ — ٣٧٣) . وقد ظلت ذكرها مداويةً حتى أيام « هردوت » ، واستمرت كذلك أيام البطالة والرومان . فأما اسم مصر (أيجنوس) الذي عرفه اليونان والرومان . وعرفته شعوب الغرب الحديث من وراء ذلك ، فلا صلة له بطيبة ، بل الغالب أنه تصحيف لأحد أسماء « ممفيس » ونعني اسمها الديني : « حة — كا — بتاح » . انظر : (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٢) .

إلى ذلك رابعاً ، (وهو) دلنا مصر ، ذلك لأنها إذا لم تكن جزءاً من آسية ولا جزءاً من ليبيا . لأن النيل في الواقع على هذا الحساب ، ليس هو الذي يفصل آسية عن ليبيا . ولكن عند رأس هذه الدلتا يتفرع النيل فرعين (١) بحيث تصبح مشاعاً بين آسية وليبيا .

١٧ — والآن لنترك رأى « الأيونيين » جانباً ، ونقول كلمتنا بهذا الخصوص: إن مصر هي كل البلاد التي يسكنها المصريون، كما أن « كيليكيا » (٢) هي البلاد التي يقطنها السكيليكيون ، و « آشور » هي البلاد التي يعيش بها الآشوريون. أما آسية وليبيا فلا نعرف لها فاصلاً ولا يوجد بينهما - في الواقع - إلا الحدود المصرية . ولكننا إذا آمنا بالفكرة السائدة عند اليونانيين ، فسوف نعتقد أن مصر كلها ابتداء من الشلال ، ومدينة اليفانتينا ، تنقسم قسمين ، وتسمى بالاسمين معاً ، لأن أحد جوانبها جزء من ليبيا ، والجانب الثاني جزء من آسية ، ذلك لأن النيل في حقيقة الأمر، مبتدئاً من الشلال ، متجهاً نحو البحر ، يقسم مصر في النصف (٣) ، وينساب النيل في مجرى واحد حتى

-
- (١) انظر : الفصل الخامس عشر (هامش رقم ٦) من هذا الكتاب .
- (١) كيليكيا (Cilicia) : موقعها في جنوب غربي آسية الصغرى ، وسكانها « السكيليكيون » في رأى « هردوت » من أصل فينيقي . (انظر : « هردوت » الفصل التاسع من كتابه السابع) .
- (٢) يرى « هردوت » أن النيل في هذه الحال إنما يشطر مصر شطرين : أحدهما في الشرق ، وهذا أسبوى . والثاني في الغرب وذلك لبي . ونظن أن أثر ذلك ما زال يندو واضحاً في تعريف الصحراويين المصريين ؛ فالشرقية منها تسمى « صحراء العرب » وهي أسبوية ، والغربية تسمى « صحراء ليبية » .
- وحين يبلغ النهر شمال القاهرة يتغير مجراه ، وتتغير تبعاً لذلك طبيعة الأرض التي تعرف باسم « الدلتا » ؛ وهي في رأى « هردوت » لا شرقية ولا غربية ولا أسبوية ولا ليبية ؛ وإنما هي مشاع بين ذلك .

مدينة « كركاسوروس »^(١). ومن عند هذه المدينة يتفرع إلى فروع ثلاثة (٢) ،

(١) كركاسوروس : انظر الحديث عنها في الفصل الخامس عشر (هامش رقم ٦) من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أن « هردوت » إنما يتحدث عن فروع النيل السبعة أو الخمسة في حقيقة الأمر . إلا أن الزمن قد غيّر ما رآه « هردوت » ؛ فلم تعد ترى من تلك الفروع غير اثنتين رئيسيتين « فرع رشيد » و « فرع دمياط » . فأما الأفرع السبعة التي بينها « هردوت » فقد كانت كالآتي :

(١) الفرع البوبسطى (نسبة إلى بوبسطة) ويعرف الآن بترعة « أبى النجا » . وكان قديماً يصبُّ عند « الفرمة » .

(٢) الفرع المنديسى (نسبة إلى « منديس » ما بين « تل الربعة » و « البلقية ») . ويعرف الآن باسم « بحر أشمون الرمان » ويصب في « بحيرة المنزلة » .

(٣) الفرع الثانى ويعرف الآن باسم « بحر موسى » .

(٤) الفرع الفاطميتى ويعرف الآن باسم « فرع دمياط » .

(٥) الفرع السبينيّ (نسبة إلى سمنود) ويعرف الآن باسم « ترعة ملبج » .

(٦) الفرع البلبتيّ وكان جزءاً من « الكانوبى » ، يخرج منه عند الرحمانية ثم يجرى فيصبُّ في البحر الأبيض .

(٧) الفرع الكانوبى وهو المعروف الآن « بفرع رشيد » ؛ مطلع

عند رأس الدلتا وجراه إلى الشمال . فإذا ما بلغ « الرحمانية » تفرع إلى فرعين : أحدهما « البلبتيّ » الذى مر ذكره ، والثانى يتجه إلى الشمال الغربى حتى يدنو من هضاب « ليبيا » فيصب في البحر الأبيض ، وكان مجراه مكان « الترعة المحمودية » .

ومن كل أولئك يتبين أن الحال قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه أيام « هردوت » وحتى بعد أيامه . وأن أكثر المصبات التى ذكرها قد عطلتها =

أحدهما يتجه نحو الشرق ويسمى الفرع الفيروزى ، والثانى يسير نحو الغرب وهذا يسمى الفرع الكانوبى . أما الفرع المستقيم من النيل فيجرى هكذا : عندما ينحدر النهر ويصل إلى رأس الدلتا ، (عند هذا الرأس) يشطر الدلتا فى الوسط ، ويصب فى البحر . وليس هذا الفرع هو أشح الفروع ماءً ولا هو أقلها شهرة واسمه الفرع السبئيتى . وهناك أيضاً فرعان آخران ينفصلان عن هذا الأخير ويجريان إلى البحر ، أحدهما يسمى الفرع «السايى» والثانى الفرع «المنديسى» . أما الفرعان البوليئى والبوكولى فليسا طبيعيين ولكنهما صناعيان .

١٨ — وإن إجابة « وحي آمون »^(١) لتؤكد رأى بأن مصر عظيمة الامتداد كما أوضحت. هذه الإجابة التى لم أعلم بها إلا بعد أن كنت قد كوّنت

= الرمال فاندست ، ثم انتشرت فيما بين ذلك قنوات صغيرة لتصرف المياه من الفرعين الرئيسيين ولإمداد الأرض بالماء . (انظر : « على شافعى » أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد « محمد على الكبير » من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية طبع دار المعارف سنة ١٩٥٠ ثم الأطلس الملحق) .

(١) كان للجلالية الإغريقية معبد فى « واحة سيوه » ؛ يقدسون فيه « آمون » (زيوس آمون) ويستوحونه على لسان كهّانه . وقد فصل ذلك « إسكندر المقدونى » عندما جاء إلى مصر عام ٣٣٢ ق . م .

انظر : (Wilken, Alexander der Grosse) .

ثم ترجمة ذلك الكتاب بين يدى G. Richardes التى نشرت عام ١٩٣٢ (ص ١٢١ — ١٢٩) . ثم انظر ذكر هذا الوحي فى الفصل الثانى والثلاثين والثالث والأربعين من الكتاب الثانى لمردوت .

Panitz: Mythos und Orakel bei Herodot

(Greifswalder, Beitræge zur Literatur & Stilforschung
7. (1935)

Blackman, A.M. Oracles in Ancient Egypt (JEA. 11 (1925) ثم
p. 249—255

وأبي الخالص عن مصر . حدث أن أهل (مدينتي) «ماريا» و «آيس»^(١) الذين يسكنون من مصر أجزاءها التي تتاخم ليبيا، كانوا يعتبرون أنفسهم لبيين لا مصريين . (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به ، ورجبوا في أن يأكلوا اللحم البقر^(٢) ، وأرسلوا إلى «آمون» مدعين أن ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين المصريين ؛ لأنهم يسكنون خارج الدلتا ، وأن ليست بينهم (وبين المصريين) صلة في اللغة ، وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام : ولكن الإله لم يسمح لهم بذلك قائلا : «إن مصر هي البلاد التي يجري فيها النيل ويروىها ، وإن المصريين هم الذين يقطنون البلاد ممّا يلي مدينة إلفانتينا ويشربون من ماء هذا النهر» . هذا ما أجابهم به الوحي .

(١) «ماريه» و «آيس» : واضح من سياق الحديث أن مكانهما في الصحراء الليبية من ظاهر الدلتا ، وإلى الغرب من «بحيرة مريوط» .
 Kees, Marea (Mariotis) in RE. XIV, 2. Sp. 1676,1678.
 فأما الأولى «ماريه» فكانت معروفة بكرومها الغنيّة ، وظلت كذلك حتى زمان الرومان ، وما زال مكانها وما حوله يحمل اسم «مريوط» حتى يومنا هذا . وأما الثانية «آيس» فاعترف من آثارها ما يدل على مكانها ، وما نعرف من خبرها غير ما رواه «استرابون» من أنها كانت على مسيرة خمسة أيام من معبد «آمون» بواحة سيوه .

(٢) كانت عبادة «إيزيس» في زمان «هردوت» شعبية عامة في أقاليم مصر جميعاً . وكانت مزدهرة في الدلتا ، وكانت لها يومئذ صفة رسمية نظراً لأن عاصمة الدولة كانت في الدلتا . ولما كانت «إيزيس» تُصوّر في هيئة أنثى يزدان رأسها بقرفي بقر ، لم يكن من المستغرب أن يقدّس المصريون من أجل ذلك إناث البقر ويحرّمون على أنفسهم لحومها .

انظر : (Erman, Relig. d. Aegypten S. 337)

١٩ — والنيل وقت الفيضان لا يغمر الدلتا وحسب ؛ بل يفيض كذلك على بعض أجزاء من الأرض المسماة بالأرض الليبية ، وبعض من الأرض المسماة بالأرض العربية إلى مدى مسيرة يومين من كلا الجانبين ، وأحياناً يزيد على ذلك وأحياناً يقل . ولم أتمكن من الحصول على أية معلومات عن طبيعة النهر لا من الكهنة ولا من أى شخص آخر . ولو أننى كنت شديد الرغبة فى معرفة السبب الذى من أجله ينساب النهر فى فيضان جارف مدة مائة يوم ، ابتداء من الانقلاب الصيفى ، ثم بعد مضى هذه المدة من الأيام ، ينحسر ويفيض ماؤه ، ويبقى على هذا الحال طوال الشتاء إلى أن يحين الانقلاب مرة ثانية (١) . لم أستطع مطلقاً أن أستقصى من المصريين أية معلومات بخصوص واحدة من هذه المسائل لما سألتهم عن قوة النيل التى تختلف بها طبيعته عن سائر الأنهار . ولقد أردت أن أستعلم عن الموضوعات التى ذكرتها ، وسألت أيضاً عن السبب فى أن النيل وحده - دون سائر الأنهار - لا يهب على صفحاته نسيم .

(١) لم يكن يسيراً على « هردوت » وأهل زمانه ، بل ولا على الذين جاءوا بعد ذلك بأجيال وقرون ، أن يعرفوا من طبيعة النهر وأسرار فيضانه ما يعرفه الناس فى أيامنا وقبل أيامنا بقليل ، ومن ذلك أن ماء النيل مُسْتَمَدٌّ من ذلك الفيض الآخر الذى تَشْرُقُ به بحيرات إفريقية نتيجة لما يَجْرِي إليها من ماء السماء الذى يهطلُ على جبال الحبشة ، فتتجه سيوله فى الأودية مغربةً لتلتقى بعد ذلك فى الفرعين الكبيرين (النيل الأزرق ونهر العظيمة) اللذين يُعَدُّان النيل بالماء بعد ذلك عند « الخرطوم » ؛ هنالك حيث يبدأ ماؤه فى الارتفاع تدريجياً منذ أوائل الصيف ، ثم يزداد الارتفاع خلال شهر يوليو ليلعب أعلى درجاته فى أواخر شهر سبتمبر . وهنالك تبدو مصر فى تلك الصورة التى أبدع وصفها القائد العربى « عمرو بن العاص » فى رسالته المعروفة إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

٢٠ — ولكن بعض اليونانيين — وقد أرادوا أن يشتهروا بالحكمة — ذهبوا في تفسير ظاهرة مائه ثلاثة مذاهب مختلفة ؛ أظن أن اثنين منها لا يستحقان الذكر لو لم أكن راغباً في مجرد الإشارة إليهما .

أحدهما يقول إن الرياح^(١) الموسمية هي التي تسبب فيضان النيل ؛ لأنها تعوق النهر عن أن يصب في البحر . ولكن كثيراً ما يحدث ألا تهب الرياح الموسمية ، ومع ذلك يعمل النيل نفس العمل . هذا إلى أنه إذا كانت الرياح الموسمية هي السبب في ذلك لوجب أن الأنهار الأخرى التي تجري في اتجاه مضاد للرياح الموسمية تتعرض تماماً لنفس الشيء الذي يتعرض له النيل ، بل يكون تأثيرها بهذه الظاهرة أكثر وضوحاً لأنها أصغر من النيل ، فيكون تيارها أضعف . ولكن هناك أنهاراً عديدة في سورية وأنهاراً عديدة في ليبيا لا تتعرض لما يتعرض له النيل .

٢١ — والمذهب الثاني أشد غموضاً من الذي تحدثنا عنه ، وأشد منه إثارة للعجب ، إن صح هذا التعبير . إذ يزعم أن هذه الظواهر تنتج من أن

(١) ذلك في الواقع رأى "فسد" . ولم يقل به غير Thales « تاليس الملطي » انظر : (Diod. sic. I, 39, 4) . ذلك على الرغم من أنه كان من أبرز علماء زمانه ، وقد تعددت معارفه نظراً لما اكتسب من أسفاره العديدة ، ثم هو قد زار مصر ورأى كثيراً من مشاهداتها ، كما كان أول من قدر ارتفاع الهرم من امتداد ظله ، ثم تنبأ بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ، وكان يعد من علماء الدنيا السبعة ، وأكبر الظن أن كثرة ركوبه البحر قد أوحى إليه ما رأى من تمليل فيضان النيل ، وهو رأى أنكره كثيرون من العلماء .

(انظر : Bahr, Die Musen des Herodotus von Halekarnasus, :
(Stuttgart 1866)

النهر يفيض من المحيط ، أما المحيط فيفيض حول الأرض كلها (١) .

٢٢ — أما المذهب الثالث (٢) — ولو أنه في مظهره أقربها جميعا إلى التصديق — إلا أنه بعيد عن الصحة كل البعد ، إذ لا طائل تحت ما يدعى من أن النيل يستمد مائه من الثلوج الذائبة ، وأنه ينساب من ليبيا ماراً وسط إثيوبية ويصب في مصر . فكيف إذن يأخذ مائه من الثلوج بينما يجري من أشد الأقاليم حرارة إلى أخرى أكثر منها برودة (٣) ؟ ولكن الأدلة كثيرة —

(١) ذلك أثر من خيال الشعراء القدامى ؛ أتبعه علماء الكلام وغيرهم من الكتّاب وأصحاب النساويل وأولهم « هكاتبه الملطي » ؛ وهو الذي عناه « هردوت » ورماه بالجهل دون أن يذكر اسمه . على أن النيل قد كان في عقيدة آل فرعون يستمد مائه من منهر السماء عند منعطفه الجنوبي ؛ إذ كان الجنوب قبلتهم التي اتجهوا إليها ، كما كان الغرب يمينهم ، والشرق يسارهم ، وكانوا قبل أن يؤغلوا فيما وراء مضيق السلسلة يعتقدون أن النيل يفصل من السماء بين جزيرة « الفيلة » و منطقة « فيلة » .

انظر : (Maspero, Etudes de Mythologie et d' Archéologie : vol. II, pp. 17, 18.)

(٢) يُعزى هذا الرأي إلى Anaxagoras ، وقد تبعه في ذلك وأيده .

Euripidès ، إلا أن « ديودور الصقلي » أنكره . انظر : (Diodor I, 38)

(٣) ليس يبدو غريبا أن يستنكر « هردوت » مثل هذا الرأي ، فالجبال

العالية ، وأمطار المناطق الاستوائية في قلب إفريقية قد كانت لديه ولدى أهل زمانه من الأمور المجهولة ، كما أن أمطار الحبشة الاستوائية التي تسمى بها الديسم الشقال بين شهري مايو وسبتمبر من كل عام ، لم يُعرف أمرها إلا بعد أيام « هردوت » ، ولم يرد ذكرها إلا في أخبار من عاشوا بعد زمانه بكثير ؛ فمروا أسباب فيضان النيل . ومن هؤلاء : Arriānus الذي عاش في القرن الثاني للميلاد .

انظر : (Hans Lamer, Wb. d. Antike 2te Aufg., s. 50)

إن يستطيع أن يعمل الفكر في هذه الأنور — على أنه ليس من المعقول أن يستمد النهر مائه من الثلوج . وأول الأدلة وأقواها (على ذلك) ، هو أن الرياح التي تهب من هذه الأقاليم تأتي حارة ، ثانيا : إن البلاد غير ممطرة ؛ لا يسقط فيها البرد أبداً . مع أنه بعد — سقوط الثلج — لا بد من سقوط المطر في ظرف خمسة أيام . وعلى ذلك ، إذا كان الثلج ينزل في هذه المناطق ، فإن المطر يسقط بها . ثالثاً : إن الناس سود البشرة بتأثير حرارة الشمس . هذا إلى أن الحدآن والسنوتة تعيش طول العام في هذه الأصقاع ولا تهجرها . على حين أن الكراكي تهرب من شتاء « سكينيا » وترحل إلى هذه الجهات لتمضية فصل الشتاء . وبناء عليه ، لو كانت الثلوج تسقط — ولو بقدر ضئيل جداً في هذه المنطقة التي يجري فيها النيل ويبدأ منها — لما نتج عن هذا شيء ذلك لأن الضرورة المنطقية تؤيد هذا .

٢٣ — أما من يعزو الفيضان إلى « نظرية المحيط » فإن كلامه غامض ، يعوزه البرهان (١) . وأنا شخصياً لا أعرف أن نهر « الأقيانوس » موجود فعلاً (٢) . وأعتقد أن « هوميروس » أو أحد الشعراء الذين سبقوه ، ابتكر هذا الاسم وأدخله في الشعر (٣) .

(١) ظاهر أن « هردوت » إنما يعني هنا « هكايه الملطي » وينحى عليه باللائمة كما فعل في الفصل الواحد والعشرين .

(٢) لقد عرض « هردوت » لقصة الأقيانوس ومسها مساً مشابهاً في الفصل الثامن من كتابه الرابع .

(٣) نلاحظ أن « هردوت » — عند ذكر الشعراء — لم يسم منهم غير « هوميروس » وعن هذا . انظر : (Ilias XIX, 245, XVIII, 607 ff.) . ثم انظر بعد ذلك (Ukert, Geogr. d. Griechen & Roemer 1,2 S. 8 ff.) .

٣٤ — فإذا كان من الواجب — لدحض الآراء السابقة — أن أدلى برأيي بخصوص هذه الأمور الغامضة ، فإنني سأشرح — كما يتراءى لى — لماذا يفيض النيل صيفاً : فى فصل الشتاء ، عندما تدفع الزوابع الشمس خارج مدارها المعتاد ، تذهب هذه إلى أجواز ليبيا العليا (١) . ذلك هو تعليل فى منتهى الإيجاز ، وقد قلت فيه كل شيء . ومن الطبيعى أن يكون ماء المنطقة — التى يقترب منها جداً هذا الإله (٢) — ويخلق فوقها — شحيحاً للغاية ، وأن تجفّ بحارى الأنهار فى هذا الإقليم .

٣٥ — وهذا تعليل مبيتاً بالتفصيل : إن تأثير الشمس أثناء عبورها سماء ليبيا العليا ، يكون على النحو الآتى : لما كان الجو فى هذه الجهات صافياً على مدار السنة ، وكان الإقليم حاراً ليست به رياح باردة ، فإن الشمس أثناء عبورها تقوم بنفس العمل الذى اعتادت القيام به خلال الصيف عندما تجرى وسط السماء ؛ أى أنها تجذب (٣) المياه إليها ، وتدفع بها بعد أن تجذبها

(١) يقصد بالعليا « الجنوبية » .

(٢) يعنى بهذا الإله « إله الشمس » أى الشمس نفسها .

(٣) يبدو أن مرجع ذلك إلى أثر من نظرية اليونانيين القدامى من أصحاب المذهب الطبيعى قبل زمان « أرسطو » ، وآية ذلك أن الشمس وما حولها من الأجرام السماوية إنما تتناول شحنتها الغذائية من الأبخرة الصاعدة ، انظر : (Cicero, De natura deorum II, 15) .

حيث جاء نقلاً عن الفيلسوف اليونانى Kleanthes ما يأتى :

Cum sol igneus sit oceanique alatur humoribus, ... necesse est aut ei similis sit igni, quem adhibemus ad usum atque victum, aut ei, qui corporibus animantium continetur.

« حيث الشمس نارية ، وحيث تتغذى من الأبخرة الصاعدة من المحيط ... غاماً أنها تشبه النار العادية التى تستعمل فى الحياة اليومية ، أو تشبه حرارة =

إلى المناطق العليا^(١) . وهناك تستحوذ عليها الرياح وتشتتها وتذيقها . ومن الطبيعي أن الرياح التي تهب من هذه البلاد - الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية - تجلب معها أمطاراً أغزر بكثير مما تجلبه كافة الرياح . ومع ذلك يبدو أن الشمس لا تبعث كل سنة بكل ما جذبت من ماء النيل في هذه السنة ؛ بل تبقى بعضه بجانبها . وعندما يعتدل الشتاء ، تعود الشمس ثانية إلى وسط السماء . ومنذ ذلك الحين تجذب المياه من كل الأنهار على السواء . هنالك تفيض هذه الأنهار بمياه وفيرة لكثرة الأمطار التي تختلط بها ؛ وذلك لنزول المطر بالبلاد وامتلاء الأرض بالجدول . أما في الصيف فتتصب مجاريها لعدم نزول المطر ، ولامتصاص الشمس لمياهها . ولما كان النيل لا يتغذى من مياه الأمطار وفي نفس الوقت تمتص الشمس ماءه ، فإنه لذلك - بطبيعة الحال - النهر الوحيد الذي يجري في هذا الفصل وقد انخفض مستواه كثيراً عما كان عليه في الصيف . وفي الصيف تجذب الشمس ماءه كما تجذب في الوقت عينه المياه كلها . ولكنه ينحصر وحده لتأثيرها في الشتاء . فإني لذلك أعتقد أن الشمس سبب فيضان النهر .

٢٦ — والشمس في رأيي أيضاً هي السبب في أن الهواء هناك^(٢) جاف ؛ لأنها تلتفحه أثناء سيرها : لهذا فإن المناطق العليا من ليبيا بها صيف دائم .

= الجسد اللازمة للحياة .

ثم انظر : (Milton, Paradise Lost V. 423 — 5)
 حيث جاء « إن الشمس التي يمشي برؤها الجميع ، إنما تنال جزاءها الحيوي من الجميع » .

(١) يقصد « بالعليا » الجنوبية .

(٢) يقصد في مصر حيث يجري النيل ويفيض على جانبيه فيغمر الأرض .

ولكن ، إذا تغيّرت مواقع الفصول ، وأخذت الرياح الجنوبية — والصيف — موقعها في أجواز السماء ، حيث تقع الآن الرياح الشمالية والشتاء ، ووقعت الرياح الشمالية حيث تقع الآن الرياح الجنوبية ، لو حدث ذلك إذن لسارت الشمس — وقد دفعها الشتاء والرياح الشمالية في وسط السماء — نحو المناطق العليا من أوروبا^(١) كما تسير الآن في المناطق العليا من ليبيا^(٢) . ويخيل إلى أنها — أثناء عبورها أوروبا كلها — كانت تؤثر على « الأستروس »^(٣) نفس الأثر الذي تحدثه في النيل .

٢٧ — أما بخصوص الرياح وعدم هبوبها على سطح النهر ، فرأى أنه ليس من الطبيعي مطلقاً أن تهبّ ريح ما من جهات شديدة الحرارة ، لأن الرياح تهبّ عادةً من جهة باردة .

٢٨ — لتبقى هذه المسائل إذن كما هي ، وكما كانت منذ البداية . وفيما يتعلق بمنابع النيل^(٤) ، لم يفخر أحدٌ من المصريين أو الليبيين أو اليونانيين الذين تحدثوا إلى بأنه يعرف عنها شيئاً حاشاً مسجّل الخزان المقدّسة لأثينا^(٥)

(١) يقصد « بالعليا » الشمالية .

(٢) يقصد « بالعليا » هنا الجنوبية .

(٣) الإستروس : نهر « الإيستر » ثم « الطّونة » (Donar) أو « الدانوب » فيما بعد .

(٤) انظر ما جاء في الحديث عن ذلك في الفصول من رقم ١٩ إلى رقم ٢١ .

(٥) أثينا : اسم المعبودة الإغريقية المعروفة أممى به الإغريق في زمان

« هردوت » — بل ربما قبل زمانه — معبودة المصريين « نية » . ولم يعدوا الوسيلة إلى خلق الأسباب التي دعتهم إلى ذلك .

فعبودتهم « أثينا » وهي ابنة معبودهم « زيوس » من زوجته « ميتيس » =

بمدينة « سايس » في مصر (١) . وقد بدا لى أنه يمزح حينما ادعى أنه يعرف الحقيقة تمام المعرفة (٢) . وهذا ما قاله : يوجد بين مدينتى

= (MÉTIS) ، قد كان لها عندهم اسمان وطبيعتان : كانت لديهم باسمها « أئينا » «ربة الحكمة» ، وباسمها بلالأس (PALLAS) «ربة الحرب» . وهى فى خيالهم قد خرجت من رأس أينا « زيوس » بعد أن ابتلع أمها MÉTIS . ثم من ديمة دكناء انشققت عنها من خلال مماء مُرعدة ؛ فلما صفت ، تجلّت المعبودة فى ذلك الهدوء الذى يعقبُ العاصفة . فإذا هى لديهم بعد ذلك ذات طبيعة مزدوجة ؛ فيها شدة السماء حين تنور فيغشاها الظلام ، وفيها صفوها حين تهدأ وترق .

صورها أصحابها فى لباس الحرب تحمل درعها ورمحها ، وخالوها تقودهم إلى ميادين القتال ، ثم تمنحهم من بعده نصراً وأمناً وسلاماً .

انظر : (Petiscus, Der Olymp. (Leipzig 1863, S. 702 ff)

ولم تكن المعبودة المصرية « نية » فى عقيدة أصحابها تختلف عن ذلك كثيراً ؛ جعلها أصحابها ربةً للفيض الأعظم الذى انبعثت منه الحياة الأولى ، ثم هى البقرة الحنون الأولى التى رمزوا بها إلى السماء ؛ فهى من هذه الناحية معاويةٌ مُعلّيا ، شأنها فى ذلك شأن « إيزيس » ؛ فيها نورُ السماء وحكمتها . ثم هى فى الأرض ربةُ الحرب ؛ تبدو كما صورها أصحابها فى هيئة الأنتى من بنى آدم مسلحةً بسهمين متقاطعين تارةً ، أو بسهم ودرع تارةً أخرى ، وخالوها تشقُ الطريقَ أمام فرعون إلى الحرب ، ثم فى موكب النصر الذى يعقب الحرب .

انظر : (Erman, Relig. S. 33)

(١) « سايس » كان اسمها المصرى « ساي » ، وكانت حاضرة الإقليم الخامس من أقاليم الشمال ، وتُعرف اليوم باسم « صا الحجر » .

(٢) كلاهما لم يكن الراوى مازحاً كما ظن « هردوت » ؛ فالرواية صحيحة فى عقيدة آل فرعون الذين كانت شلالاتُ أسوان لديهم منابع النهر التقليدية حتى بعد ما أدركوا المدى بينهم وبين منابعه . ونحن نلتصم العذر لهردوت الذى كان يفكر بعقله ؛ على حين كان المصريون يراعون عقيدتهم وتقاليدهم القديمة . =

« سوينى » (٥) فى ولاية « طيبة » و « اليفانتينا » تلان ينتهيان بقلتين مدببتين ، إحداهما يسمى « كروفى » والآخر « موفى » (٦) . ومن بين هذين

= انظر : (Kees, Aegypten (Muenchen) 1933. S. 211)
ولم يكن عجياً ألا يجد هردوت بين المصريين من يدلّه على منابع النيل ؛
فالنيل فى خيال المصريين أو عقيدتهم الدينية قد كان يفيض من معينين : أحدهما
دموع إيزيس على زوجها الشهيد . والثانى عرق ذلك الشهيد . والقصة بعد هذا
كله تصوير لآمالهم فى عودة النيل ؛ يصورونه فى بعث ذلك الشهيد .

انظر : Palanque, Le Nil à l'époque Pharaonique (Paris) 1903
p. 13 ff.

Hans Bonnet, Reallexikon der aegyptischen Religionsgeschichte
(Berlin 1952) 528.

(١) يقصد « أسوان » .

(٢) « كروفى » و « موفى » : ورد اللفظ الأول فى لوح المجاعة المعروف
فى « جزيرة سهيل » (سطر رقم ١٤) منسوباً إلى « جزيرة القيلة » ؛ وهناك
يشير النص إلى وجود مكان بالنيل يحوى الماء الذى يُجدّد فيضه السنوى .

انظر : (Paul Barget, La Stèle de la Famine à Sehel p. 22 ff)
ويشير الكاتب المذكور إلى اختلاف المؤرخين فى تفسير معنى اللفظين
وإن اتفقوا على وجودهما فى خيال المصريين كما ذكر « ماسيرو » من قبل
انظر : (Maspero, Etudes d. Myth. et d' Arch. eg. III. p. 385—387)
ولفظ « كروفى » الذى أورده « هردوت » ينبغى أن يكون بناءً على ذلك
تصحيحاً لللفظ القبطى « (إ) » خروف (xpoϥ) وأصله المصرى grf ومعناه
« ردى » على حين أن لفظ « موفى » لم يختلف عن أصله القبطى « nwy »
وإن كان يختلف قليلاً عن الأصل المصرى القديم « nfr » بمعنى « طيب » .
ذلك هو رأى بعض العلماء ثبتته كما ورد على كل حال .

انظر : (Spiegelberg, Koptisches Handwoerterbuch, S. 44)

ثم (Crum, Coptic Dictionary p. 127) ، حيث التعليق على معنى
اللفظين كما وردا فى كتاب « هردوت » .

التلين تنفجر منابع النيل وهي ذات عمق محقق . وينساب نصف الماء نحو مصر في اتجاه الرياح الشمالية ، والنصف الآخر نحو الحبشة في اتجاه الرياح الجنوبية (١). وأضاف هذا المسجل أن « إسماتيك » ملك مصر أثبت بالتجربة أن المنابع لا غورها ، إذ جاء بحبل مجدول يبلغ طوله عدة آلاف من الأبواح ، وأدلى به في هذا المكان فلم يصل إلى القرار . وإذا كان ما قاله المسجل قد حدث فعلا ، فقد بين كما فهمت أنه توجد بهذا المكان — وذلك بسبب انهيار الماء الشديد على الجبلين — دوامات قوية وتيارات مضادة ، مما أدى إلى أن المسبار — عند الأدلاء به — لم يستطع بلوغ القاع (٢).

(١) لسنا نستبعد — بناءً على ما تقدم — أن يكون المصريون قد خالوا إحدى القلعتين « كروفي » رديئة لأنها تبعت بمائها إلى الجنوب ، وخالوا ثانيتهما « موفي » طيبة خيرة لأنها تبعت بمائها إلى مصر. والله أعلم بالحقيقة على كل حال.

(٢) ليس غريباً أن يهتم المصريون حكاماً وشعباً بنيلهم ويروا فيه ريباً يعبدون فهو قد كان لديهم — وما يزال لدينا — مصدر الحياة ورسولها الأول ؛ صورته أسلافنا على آثارهم الخالدة كهيئة بشرية ؛ لا هو بالذكور الخالص ، ولا هو بالأنثى الخالصة . له من مظاهر الذكور لحيته ، وفيه من خصائص الأنثى ثديان ضخمان ، وبطن يشبه بطن الحامل من النساء . وفي ذلك رمز إلى امتلائه بالحير . ولم يكن عجباً أن يقدسه المصريون في كل إقليم من أقاليم الوادي ، علماً بأن دار مقدسه الأولى وكعبته الأصيلة قد كانت في كهف من صخور جزيرة « ييجه » خلف سد أسوان . ومرجع ذلك — أغلب الظن — إلى الوقت الذي خال فيه القوم أن الشلال الأول قد كان أقصى حدود واديهم الجنوبية ، وأن مهبط المزن المطال الذي يملأ النهر عند جرفين صخريين من صخور الجزيرة ؛ خالوا عندهما دوامتين ينبع منهما النهر .

انظر : (Maspero, Mémoire sur quelques papyrus du Louvre)
= pp. 99,100)

٢٩ — لم أستطع أن أعرف شيئاً من أحد سواه ، ولكننى وصلت إلى هذه المعلومات بعد استقصاء بعيد المدى ، ذهبت حتى مدينة اليفانتينا ، واعتمدت على مشاهداتى الشخصية : فأما فيما بعد هذه المدينة فروايتى تعتمد على السماع : ابتداء من مدينة اليفانتينا ، يجد المسافر صعداً في البلاد أنها آخذة في الارتفاع ، لذلك يتحتم — للتقدم هناك — ربط القارب من طرفيه كالنور ، فأما إذا ما انفلت زمامه حمله التيار الجارف وذهب به . والنيل في هذه المنطقة

reproduced by Brugsch in the (Dictionnaire géogr. = pp. 860,861) .

وبين الرسوم الفرعونية وما حولها من متون ، ما يمثل صخوراً كُومِتْ بعضها فوق بعض ؛ تعلق إحداها « رَخَّةُ الصَّعِيدِ » ويعلو الأخرى « باز الشمال » ، ومن أسفلهما حِجَّةٌ تحيط بكهف النيل في هيئته التى وصفنا أول الحديث ، وبكل من يَدَيْهِ إبريق ينصب منه الماء .

فإذا ما كان الصيف وانساب الماء من ذلك المكان جارية إلى الشمال فبلغ صخور السلسلة ، هب كهَّانُ الإقليم أو هبَّ فرعون نفسه أو أحدُ ولده إلى ذلك المكان ليضحيَّ بثور وبعض أوز ، وليلقى بذلك الضحية في النهر مصحوبةً بوثيقةٍ مختومة بآمالهم في أن يكون في فيض النهر ما يحقق الحير لمصر .

انظر : (Brugsch, Matériaux pour servir à la reconstruction du Calendrier des Anciens Egyptiens, p. 37) .

ولسنا نستبعد أخيراً — وبعد الذى ذكرنا — أن يكون لكلِّ هذه التقاليد القديمة أثرٌ فيها حِكْمٌ عن قصة « عروس النيل » التى جاء ذكرها عند العرب في رواية لمؤرخهم « ابن عبد الحكم » الذى عاش في القرن الأول الهجرى ، والذى لم يعرف عنه أنه زار مصر ، ثم فيما رُوِيَ عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » من أنه بعث برسالة إلى النيل ، وأمر واليه على مصر « عمرو بن العاص » أن يلتقى بها في مجراه حين تأخر فيضانه عن مواعده وإبَّانه.

—التي يتطلب عبورها أربعة أيام بالقارب—متفرج مثل نهر «الميانديروس» (١)
وطول المسافة التي يجب قطعها بهذه الطريقة ، اثنا عشر «إسخينوس» (٢)
ثم تصل بعد ذلك إلى سهل منبسط ، ينساب النيل فيه حول جزيرة تسمى
« تاخومبسو » (٣). ويسكن الأثيوبيون المنطقة التي تلي مدينة اليفانتينا مباشرة ،
كما يقطنون نصف الجزيرة . ويقطن المصريون نصفها الآخر . وتجاور هذه
الجزيرة بحيرة عظيمة يسكن حولها أثيوبيون رُحَّل . فإذا عبرتها فإنك تصل
إلى مجرى النيل الذي يصب في هذه البحيرة ، وبعد ذلك تنزل إلى البر ، وتسير
بجذاء النهر أربعين يوماً (٤) ، إذ توجد في النيل صخور حادة وجنادل عديدة

(١) نهر « الميانديروس » أحد أنهار Phrygie يبدأ مجراه قبل Célaene
ويصب في جنوبي Ephèse .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦ هامش رقم ١) .

(٣) تاخومبسو : مكان موقعه جنوبي أسوان . ولقد اختلف الكتاب
والمؤرخون في تحديد الموقع وضبطه ؛ فبعضهم يجعله على الشاطئ الشرقي ،
وبعضهم يجعله على الشاطئ الغربي ، وفريقٌ يجعله جزيرةً من جزر النيل ،
وفريقٌ يجعله قريةً . على أن الجميع يتفقون على أن الموقع كان عند حدود
مصر الجنوبية .

أما أن « تاخومبسو » كان يسكنها مصريون وأثيوبيون ، فذلك قول يطابق ما قاله
« استرابون » عن « فيلة » *κοινή κατοικία Αιθιοπών τε και Αιγυπτίων* ،
والظاهر من كلام « هردوت » أنه إنما يتحدث عن مدينة : πόλις وليس
عن جزيرة : νήσος . وليس بعيد أن يكون الرجل قد خلط بين « فيلة »
و « تاخومبسو » .

انظر : (Sethe, Untersuchungen, II, Dodekaschoinos, s. 4 ff.)

(٤) كانت البعثات المصرية التي اعتادت ارتياد أقاليم النوبة تكره ركوب
اليم لأمرين : أولهما صعوبة الملاحة على متن النهر من وراء الشلال ، والثاني =

تتعدى بسببها الملاحة . وبعد اجتياز هذه المنطقة في الأيام الأربعين ، تأخذ من جديد سفينة أخرى وتبحر اثني عشر يوماً ، تصل من بعدها إلى مدينة عظيمة تسمى « مروي » (١) . ويقال إن هذه المدينة هي عاصمة الأحباش الآخرين ، وسكانها لا يعبدون من الآلهة إلا « زيوس » و « ديونيسوس » (٢) فقط .

= ما كانوا يَخْشَوْنَهُ من سطو العصابات التي كانت تضرب على شواطئ النهر . ومن أجل ذلك كانت قوافلهم في العصور المتأخرة ، ثم قوافل العرب من بعدهم ، تركب الدرب الصحراوي عن طريق الواحات الممتد إلى « الفاشر » في غرب السودان فتقطعه في أربعين يوماً .

انظر : (Show, Darb el - Arbaein — The forty days road Sudan Notes & Records 12, (1929) p. 23 ff.)

(١) « مروي » : مدينة قديمة معروفة . تقع على مقربة من الشلال الرابع . وكانت في الماضي قاعدة لعرش الأسرة النوبية التي حكمت النوبة وصعيد مصر ، وجعلت والياً لها من المصريين اسمه « منتوحات » حاكماً على إقليم « طيبة » . وقد نسي أهل « مروي » اللسان المصري ، واتخذوا لساناً إفريقيًا جديداً . كما نسوا — فضلاً عن ذلك — أكثر العادات والتقاليد المصرية . وُسميت لقسطنطين الجديدة في كتب العلماء باسم « اللغة المروية » . ومنذ ذلك الوقت انفصل تاريخ النوبة عن تاريخ مصر .

(٢) « زيوس » : عند هرودوت وقبيلة من الإغريق علم على « آمون » المصري وقد ظل دهرًا صاحب المقام الأول بين المعبودات المصرية . ولما هاجرت طوائف من كهانه المؤمنين أيام آل « شيشنق » ، هاجرت كلها إلى الجنوب ، وأقامت هناك حكومة مقدسة تدين دين « آمون » وتقيم شعائره في كعبة له جعلوها عاصمة لحكمهم ، وعرفت في التاريخ باسم « نباته » وموقعها على سفح جبل برقل .

Griffith, JEA. III, p. § 235

(١) انظر :

= Sethe, Amun, 249

(٢)

وهم يمجّدونهما تمجيداً عظيماً ، ويوجد عندهم وحى لزيوس ، وهم يشنون الحروب كلما أمرهم هذا الإله — عن طريق الوحي — ويتوجهون إلى حيث يأمرهم .

٣٠ — فإذا أبحرت من هذه المدينة فإنك ستصل إلى بلاد « الفارّين » (١)

= وشيدوا فيها أكبر معابد « آمون » في بلاد النوبة ، ونشروا على جدرانها كافة المناظر التقليدية التي نراها في معابد مدينة « طيبة » ومن حولها نصوص مصرية أصيلة . فأما « دينوسيس » فالمقصود به « أزوريس » وكان أحب المعبودات عند المصريين ؛ بل كان مبودم الشبي الذي لم يُنس ولم يُسَمَل طوال عصور تاريخهم . (١) الفارّون : ليس يبدو غريباً أن يكون رجاء هذه الحامية من الليبيين ألدّ أعداء « إيسانيك » ؛ وبخاصة بعد الذي كان من أمر اختيار حرّاسه ، وخاصة أوليائه من الإغريق . نعم ! ليس غريباً أن يكونوا كذلك ؛ فهم كانوا يكرهونه أشدّ الكُره ، ويخشون خطره وشدّته ، ويشعرون أنهم لن يستطيعوا مقاومته إذا ما استعان عليهم بالإغريق .

وكان الليبيّون — كما نعلم — يعملون في الحرس الملكي منذ أيام الأسرة الواحدة والعشرين ، وهم قد استطاعوا — بعد لآي — أن يبلغوا العرش ، فأصبحت لهم أسرة بين الأسر التي حكمت مصر وعرفت عند « منيشون » بالأسرة الواحدة والعشرين . وإذا أحس « الليبيّون » أيام « إيسانيك » أنهم فقدوا كل ما كان لهم في مصر من سلطان ، آثروا الهجرة ومثّثوا من أجل ذلك عند « هردوت » بالفارّين . ذلك تخمين وتخريج يستند إلى منطق الظروف ، اللهم إلا أن يكون لعقيدة المصريّين . الذين كانوا أشدّ الناس إيماناً بوطنهم ، وبعراقة أصلهم أثرٌ في ذلك ؛ فهم وحدهم الناس وغيرهم برابرة أو من أشباه الناس ، انظر (Lepsius. D. III, 132) . وإلى قصة الحرب تشير إحدى أساطيرهم حيث جاء أن ربّهم « رع » قد ظفر بأعدائه عند « إدفو » فتمكن بفضلهم من الحرب ، وأصبحوا من « الفارّين » ؛ فالذين اتّجهوا إلى الجنوب استقرّوا في بلاد « كوش » ، والذين اتّجهوا إلى الشمال استقرّوا في « آسية » ، والذين اتّجهوا إلى الغرب استقرّوا في « ليبيا » . انظر : (Naville, M. ythe. d'Horus 21,2)

في الوقت الذي إستغرقه ذهابك من إيفانتينا حتى عاصمة الأثيوبيين . واسم هؤلاء الفارين « أسماخ »^(١) وهذه الكلمة تعني في اليونانية « الذين يقفون ناحية اليد اليسرى للملك » ، ويبلغ عددهم مئتين وأربعين ألف مصري من المحاربين^(٢) . وقد لجأوا إلى الأثيوبيين لهذا السبب : في عهد الملك « إسماتيك » وضعت إحدى الحاميات في مدينة إيفانتينا تجاه الأثيوبيين ، وأخرى في دافناي^(٣) اليلوزيونية تجاه العرب والسوريين ، وأخرى في مارية تجاه ليبيا^(٤) . وتحتل الحاميات الفارسية حتى أيامنا هذه نفس الأماكن التي كانت تقيم فيها في عهد الملك إسماتيك . ويتولى الفرس حماية إيفانتينا ودفناي .

ظل إذن هؤلاء المصريون يقومون بالحراسة في إيفانتينا ثلاثة أعوام ، ولم يأت أحد ليعفيهم من هذا العمل . فتشاوروا وقرروا بالإجماع الثورة على إسماتيك ، والذهاب إلى إثيوبية . فلما علم الملك بذلك اقتفى أثرهم . وعندما

(١) أسماخ : يرى بعضهم أن هذه الكلمة مصرية ومعناها « الذين ينسون أو الذين يفرّون » كتبها هردوت كما سمعها ، وهو يرى أن معناها « اليسار » . انظر : (Waddell, Notes, p. 151) ، يبدو أن « ديودور » يرى هذا الرأي أيضاً (Diod. I, 67, 3) .

وفي الحق أن كلمة « أسماخ » موجودة أصلها في اللغة المصرية « Smbjz » (منحجي) ومعنا « اليد اليسرى » . انظر : (Wb. Bd. IV S. 140) .
(٢) انظر : (الفصل رقم ١٦٤) من هذا الكتاب حيث جاء ذكر الطبقات ومنهم طبقة المحاربين .

(٣) دفناي : انظر : (الفصل رقم ١٠٧) ، كان موقعها عند « ييلوزيوم » وعلى بعد قريب من فرع النيل الشرقي . وقد ورد ذكرها في التوراة . انظر : (J. Ball, 8, 15, 17) .

(٤) انظر : الفصل الرابع عشر (هامش رقم ٢) .

لحق بهم حاول كثيراً اقناعهم بالآيهجروا آلهة آبائهم وأولادهم ونسائهم .
ولكن يقال إن أحدهم أشار إلى عورته قائلاً : أينما وُجِدَتْ هذه ، فسيكون
لهم أطفال ونساء^(١) . ولما وصلوا إلى إثيوبية ، قدّموا أنفسهم إلى ملك
الأثيوبيين الذى كافأهم كما يلي : اختلف معه بعض الأثيوبيين فطلب إلى المصريين
أن يطردوهم ويسكنوا أرضهم — ولما أقام المصريون بين الأثيوبيين ، أصبح
هؤلاء أكثر تمدينًا ، لأنهم تطبعوا بالطباع المصرية .

٣١ — مجرى النيل معروف إذن إلى مدى رحلة أربعة أشهر برًا وبحرًا
فضلا عن الجزء الذى يقع من مجراه فى مصر ؛ فإذا قدرنا المدة ، وجدنا أن المسافر
يقضى هذه الأشهر فى الذهاب من إلفانتينا إلى هؤلاء الفارين . والنيل يجرى
من الغرب ومن مكان غروب الشمس . فأما ما وراء هذه المنطقة ، فلا يستطيع
أحد أن يتكلم عنه فى يقين ، لأن هذه البلاد مقفرة لشدة الحرارة .

٣٢ — ولكن هذا ما سمعت من « الكورنيانيين »^(٢) الذين قالوا
إنهم ذهبوا إلى مهبوط وحى آمون^(٣) ، وتحدثوا إلى « إنيارخوس »^(٤) ملك

(١) شبيه بذلك ما حكاه Tacitus . انظر : (Tac. Hist. II, 13) .
وما حكاه Plutarch . انظر : (Plut. De Virtut. mul. II, S 246) .
وأخيراً (Lamer (H) Wb.d. Ant. s: 778 .)

(٢) الكرنائيون : هم سكان Cyrene (برقة) ، إحدى المدن التى بناها
الإغريق وجعلوها مركزاً وسوقاً لتجارهم ؛ بنوها أيام الغزو الآشورى
فى مطلع الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد (انظر : ص ٤٩) .

(٣) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من هذا الكتاب .

(٤) Etearchus : يسميه هردوت « ملك الآمونيين » ، ولستنا نستبعد أن
يكون أهل الواحات — وقد كانت خاضعة لسلطان فرعون — قد انتهزوا فرصة ضعف
المصريين بسبب ما أصابهم من محن كان آخرها يومئذ وقوعهم تحت نير الفرس ،
فاستقلوا بواحاتهم وجعلوا عليهم سلطاناً منهم إن جاز أن يكون قول هردوت صحيحاً .

الأمونيين^(١)، وبعد الكلام في مسائل شتى ، شمل الحديث النيل وكيف أن أحداً لا يعرف منابه . فروى « ايتيارخوس » إنه ، ذات مرة ، وفد إليه بعض رجال « النسامونيين » (وهم شعب ليبي يقطن حول خليج « سدره » في الأرض التي تقع شرقيةً على مسافة غير بعيدة)^(٢) . ولما جاء إليه « النسامونيون » وسألهم عما إذا كان في مقدورهم أن يحدّثوه بجديد عن صحارى ليبيا ، قالوا إنه كان عندهم شباب أرعن من أبناء السّادة ، فكروا — حين بلغوا سن الرجولة فيما فكّروا من مغامرات — أن يختاروا من بينهم بالاقتراع خمسةً لمعاينة صحارى ليبيا . ولكي يروا إن كان في استطاعتهم أن يعرفوا ما لم يعرف الذين بلغوا من قبل أبعد الآماد . (لأن سواحل ليبيا التي تطل على البحر الشمالى)^(٣) ابتداء من مصر حتى رأس

(١) الأمونيّون : هم سكان الواحة المعروفة اليوم باسم « واحة سيوة » ؛ حيث أقامت الجالية الإغريقية معبد آمون الشهير الذي زاره « إسكندر » عقب عيخته إلى مصر . انظر : (Erman, Relig. S. 350) . ثم هم الذين جاء ذكرهم في الحديث عن « قبز » عندما غزا مصر فوجّه على تلك الواحة جيشاً يضم خمسين ألفاً من عساكره ليحرقوا معبدها ، وليسحقوا سكانها .

وكان هذا الجيش قد خرج من « طيبة » فلم يكّد يبلغ الواحة الخارجة ويفصل منها حتى هلك عن آخره بين « الخارجة » و « سيوة » . وليس من شك في أن قصة هلاك الجيش — إن صحت — قد رفعت صيت « آمون » وأذاعت شهرته في العالم أجمع وفي دنيا الإغريق بخاصة .

انظر : (Ahmad Fakhry, The Oasis of Siwa (Cairo 1950) S. 27 f)

(٢) النسامييون : موطنهم في الغالب بالقرب من خليج « سدره » .

انظر : (Herodot, IV. Kap. 172, 173, 174, 175, 182)

(٣) البحر الشمالى : هو البحر الأبيض .

سولوس^(١) — وهذه هي نهاية حدود ليبيا — تسكنها في جميع أجزائها شعوب كثيرة من الليبيين ما عدا الأماكن التي يملكها اليونانيون والفينيقيون^(٢) ، وفيما عدا الأجزاء التي تقع على البحر ، والجهات الساحلية التي يسكنها البشر ، فإن ليبيا مرتع للوحوش ، ولكن فيما يلي المنطقة التي تأوى إليها الحيوانات الضارية ، لا توجد هناك غير صحراء رملية ، جرداء ، شديدة الجفاف . وتوجه إذن هؤلاء الشباب الذين أرسلهم رفاقهم — بعد أن زدّوهم بالماء والمؤمن الكافية ، توجهوا أولاً إلى الجهات المأهولة — ولما اخترقوها ، وصلوا إلى المنطقة التي تسكنها الحيوانات المفترسة — وعندما بلغوا الصحراء^(٣) — متخذين طريقهم نحو الغرب ، وبعدما قطعوا مسافة طويلة من الأراضي الرملية خلال عدة أيام — رأوا في النهاية أشجاراً نامية في سهل ، فاقتربوا منها وأخذوا يقطفون ، ما عليها من ثمر^(٤) . فامسوها إلاّ وداهمهم

(١) رأس سولوس : أكبر الظن أن يكون المقصود بذلك المنطقة الصخرية من صخور ساحل إفريقية الغربي وهي التي عرفت فيما بعد باسم « Spartel » وإن كان بعضهم يظن^٥ أن المقصود بها الصخور المعروفة باسم « Cantin » .

(٢) أكبر الظن أن المقصود بذلك هم « القرطاجنيون » وحسب ، إذ المحتمل أن منازل اليونانيين كانت في « برقة » ثم فيما يليها غرباً من المناطق الساحلية .

(٣) ذلك وصف فيما يبدو سليم ، لأنه يحدد الأقسام الطبيعية الثلاثة في شمالي إفريقية : المناطق الساحلية المأهولة بالسكان ، والمناطق البرية المأهولة بالوحوش ، ثم مناطق الرمال الصفراء (أي الصحراء) .

(٤) أكبر الظن أن تكون القافلة قد بلغت فعلاً قلب إفريقية ؛ حيث يكثر ذلك النوع من الشجر المعروف باسم « شجر الزبد » وهو شجر ذو ثمر طرى .

رجال قصار لا يبلغون في الطول قامة الوَسَطِ من الرجال (١)؛ وقبضوا عليهم وساقوهم أسرى . ولم يفهم النّسّامونيّون شيئاً من لغتهم ، ولا فهم الآسرون لغة النّسّامونيين . وإلّما قادوهم عبر مستنقعات واسعة جدا . فلما اخترقوها وصلوا إلى مدينة كُلٍّ من بها سود البشرة وفي حجم أسريهم (٢) . وبحوار هذه المدينة ، ينساب نهر عظيم (٣) ؛ تُرى فيه التّماميح ، ويجرى من الغرب متجهاً نحو الشمس المشرقة (٤) .

(١) ذلك قول تُوَيْدَة المشاهد التي رآها من زاروا تلك البقاع في العصور الحديثة . وإذا صحت الرواية ، فالغالب أن تكون القافلة قد بلغت بلاد « الكنفو » ؛ حيث كان يعيش أولئك القصار ، وهي تلك البقاع التي بلغها « ستانلي » عام ١٨٨٧ وشاهد في إحدى غاباتها أولئك الأقزام . وليس يبعد كذلك أن يكون الأقزام الذين جاء بهم الرّحالة المصريون أيام الدولة القديمة من نواحي « سنّار » على النيل الأزرق ، قد كانوا يُسْتَوْرَدون من غابات الكنفو .

(٢) قد يكون المقصود بتلك المدينة « تومبكتو » التي عُرفِتْ في العصر الحديث والتي تعد من أكبر مراكز التجارة في تلك الصحراء .

(٣) لا نستبعد أن يكون المقصود بذلك النهر العظيم هو نهر « النيجر » الذي يستمد ماءه من جبال الـ Senegambiens ، ثم ينحرف جنوباً فغرباً ، ثم يجري إلى أن يصب في خليج غينيا (Guinea) . على أن صلة نهر النيجر بنهر النيل قد كانت معروفة لدى سكان تلك البقاع ، كما كانت واسعة الانتشار إلى أن ظهر بطلانها بعد أن عرف الناس حقائق الأمور في القارة الإفريقية .

(٤) لا غرابة في هذا التّجسّط الذي نراه في قول « هردوت » ؛ فقلب إفريقيا قد كان مجهولاً في أيامه ، ومجرى النيل من قلبها لم يعرف إلا في العصر الحديث . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى شمالي وغربي أوروبا في علم هردوت . وأتانا لننمّس له العذر حين يقرن بين مجرى النيل في إفريقيا ، ومجرى « الطونة » في غرب أوروبا . وإن كان حديثه قد طال عن هذا الأخير ، إلا أن معلوماته التي استقها ممن سكنوا حول مصبه من الإغريق تعد ناقصة وضئيلة .

٣٣ — ولا كتفى الآن بهذا القدر من رواية « إيتيارخوس الآموني » .
 إلا أنه روى أن « النسامونيين » — وقفنا قائله « الكورنيثيون » —
 قد عادوا إلى بلادهم . وأن القوم الذين كانوا قد وصلوا إليهم ، كانوا جميعاً من
 السحرة . أما النهر الذى يجرى بالقرب من المدينة فقد حسبته « إيتيارخوس »
 (نهر النيل . والمنطق يؤيد ذلك ؛ إذ أن النيل ينبع من ليبيا ، ويقطعها فى منتصفها .
 وهو — فيما يُخَيَّل إلى بالاستدلال من المعلوم على المجهول — يبدأ على بُعد
 يساوى بعد « الإستروس »^(١) . لأن « الإستروس » يبدأ عند « الكلتيين »
 ومدينة « بوريني »^(٢) ، وينساب شاطئاً أوروبا فى الوسط الكلتيون وراء

= انظر : (Herodot. IV 48 ff) .

والنهر الذى يجرى من الغرب إلى الشرق ، والذى قَدَّرَ « هردوت » أنه
 النيل ، هو نهر « النيجر » الذى وصلت إليه قافلة المغامرين التى مر ذكرها ،
 والذى قال إن حاكم الواحات قد حدثه عنها .

(١) انظر الفصل الثانى والثلاثين (هامش رقم ٤) من هذا الكتاب .

(٢) جعل « هردوت » أصل الإستروس « الطونة » ومنبعه فى أرض « الكلت »
 (Celtes) ومن الجائز أنه كان على بعد قريب من ذلك وعند مدينة البرانس
 (Pyréné) . أى فى سلسلة الجبال المعروفة بهذا الاسم . ومعارف الرجل عن تلك
 البقاع فامضة ؛ وقد لا تقل فى غوضها عما كان يعرف من تلك البقاع التى استوطنها
 « الكلت » من الغابة السوداء ، وفى أعلاها من الشرق ينبع الجدولان اللذان
 يستمد منهما نهر الإستروس (الطونة = الدانوب) ماءه ، ولسنا نستبعد آخر الأمر
 أن يكون « هردوت » قد خلط فى معارفه وروايته بين نهري « الطونة » (الدانوب)
 و « الرون » ، ذلك لأن الثانى يصب فى البحر الأبيض فى مكان قريب من
 جبال البرانس .

« أعمدة هرقل »^(١) ، ويسكنون على حدود « الكينيسيين » . وهؤلاء ينزلون أقصى الغرب من كل سكان أوروبا . وينتهي (الإستروس) بعد — اختراقه أوروبا كلها — بأن يصب في البحر الأسود حيث تقع (إستريا)^(٢) التي يعيش بها مستعمرون مَلَطِيُون .

٣٤ — ولما كان (الإستروس) ينساب في مناطق مأهولة ، فقد عرفه كثير من الناس^(٣) ، على حين لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن منابع النيل ، لأن ليبيا التي ينساب فيها صحراء غير مسكونة . ولقد تكلمت عن مجراه بقدر ما استطاعت أن تصل إليه أبجائي ، وهو يصب في مصر . وهذه تقع على وجه التقريب في مواجهة (كليسيا الجبلية)^(٤) . والمسافة من هنا إلى (سينوب)

(١) يقصد بأعمدة هرقل مضيق جبل طارق . ونحن حين نفكر في الكتبيين الذين سكنوا من وراء تلك العمد ، فأنتا تقدّر لِمَنَازِلهم تلك البقاع الواقعة في أقصى الغرب من « البرتغال » . كما نُقدّر أن تكون منازل مَنْ أممهم « هردوت » « الكينيسيين » (Cynesié, Cynité) . انظر : (Herodot, IV, 49) . في أقصى الغرب من أقاليم إسبانيا ونعى « غاليسيا » .

(٢) ISTERIA : عرفت تلك المدينة باسم « إستروبوليس » أيضاً ، وكان موقعها غير بعيد من مصب نهر الطونة (الدانوب) وعند المدينة التي عرفت حديثاً باسم « كنستزا » والتي تعرف في رومانيا إلى الآن باسمها الأصلي ISTERE .

(٣) يقصد بالناس هنا الإغريق الذين كانوا يقيمون على شواطئ البحر الأسود وحول مصب نهر الطونة (الدانوب) ، ثم من سعى إليهم للتجارة من قومهم اليونانيين .

(٤) ذلك أمر يحتاج إلى تحقيق ، ولن يكون موقفنا منه بأقل من موقفنا مما قاله « هردوت » عن موقع « سينوب » الذي جعله تجاه مصب الطونة (الدانوب) . انظر : (Herodot, I, 76) ، ولن يكون ما خاله هردوت في شأن ذلك التحديد الجغرافي بأصدق من تصوّره عندما حاول جهده أن يخلق الشبّه بين مجرى النهرين العظيمين في أفريقية وأوروبا : النيل والدانوب .

على البحر الأسود مسيرة خمسة أيام للرجل المُجد^(١) . وتقع « سينوب » تجاه نهر « إستروس » حيث يصب في البحر ، لذلك يلوح لى أن النيل يعبر ليبيا كلها ويشابه « الإستروس » . وإن في هذا الحديث عن النيل لكفاية .

٣٥ — والآن سأبدأ الكلام عن مصر في إسهاب ، لأنها — دون غيرها من بلاد العالم أجمع — تحوى عجائب أكثر ، وآثاراً نجل عن الوصف . ومن أجل ذلك ، سأطيل الحديث عنها ؛ نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير ، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الأنهار ، ولذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم^(٢) ؛ فالنساء عندهم يرتدن الأسواق^(٣) ، ويمارسن التجارة . أما الرجال فيبقون في البيوت

(١) الغالب أن « هردوت » قد أخطأ في تقدير المدى بين « كليسيا » وشاطئ البحر الأسود ؛ فهو أطول من ذلك حتى لو استقامت السبيل للراحل .

(٢) نلاحظ أن « هردوت » في هذا الفصل وفي الفصول رقم ٣٦ و ٣٧ و ٩٤ من هذا الكتاب يتهادى في التعميم ، وإن كانت المدة التي قضاها في مصر لم تكن تسمح له أن يبلغ من الدقة في أحكامه ما يُمكنه من تحقيق أحاديثه التي تضمنتها تلك الفصول . فأنما أمر اختلاف عادات المصريين عن عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها فقد كان معروفاً عند الكتاب الإغريق .

وحسبنا من ذلك ما يقال إن الإغريق قد رفضوا أن يتحدثوا مع المصريين بسبب اختلاف العادات والتقاليد .

(٣) الواقع أن صور الجوارى اللآتي يحملن على رؤوسهن ويرتدن الأسواق قد كثرت على بعض آثار المصريين ؛ وإن كنا لا نوافق « هردوت » على ما رأى من أن النساء وحدهن كن يفعلن ذلك . والغالب أن حب المبالغة في الوصف هو الذي دفع « هردوت » إلى أن يرى هذا الرأي في غير تحفظ .

وينسجون^(١) . وبينما ينسج الناس جميعاً^(٢) دافعين اللّحمة من أسفل إلى أعلى ، فإن المصريين يدفعونها من أعلى إلى أسفل . ويحمل الرجال الأثقال على رؤوسهم ، أما النساء فيحملنها على أكتافهن^(٣) . وهؤلاء يبذلن

(١) حقيقة إن الرسوم التي تركها الفراعنة مُصَوِّرةً نواحي حياتهم المختلفة تشير إلى أن صناعة النسيج قد كان يمارسها النساء أول الأمر ، وفي الأغلب الأعم . انظر : (Kees, K.g. S. 73) . ولكن الرجال مارسوها بعد ذلك أيضاً . ولسنا نجد في حكم العقل ما يمنع من أن يمارسها الرجال والنساء في وقت مما . وإنما العجيب أن يراها « هردوت » قاصرةً على النساء دون الرجال . في الحق . لقد تكون المرأة أصبر من الرجل على ممارسة تلك الصنعة ؛ لأنها صنعة تتطلب الصبر على الحبس ، والرجل يكره الجلوس ويحب الانطلاق . بدليل ما جاء في تراث المصريين الأدبي مما يشير إلى بؤس من يمارس هذه الصنعة من الرجال ذلك لأن الرجل لم يُخلَقْ لهذه الحرفة ، وكيف أن حال الرجل في منسجه أتعس من حال امرأة ، وكيف أن نخذه — وهو ما كلف على ممارسة تلك الحرفة — يلتصقان يطنه ؛ بحيث لا يستطيع التنفس في سهولة ، وكيف أنه كان يرشو الحارس على باب المنسج بالحزب لِيُيسِّرَ له سبيل الخروج لرؤية الضوء أحياناً . انظر : (Erman, Lit. J. Aeg. S. 103) .

(٢) والإغريق أولهم بطبيعة الحال .

(٣) لا ندري من أين جاء « هردوت » بهذه الصورة ؛ ذلك لأن أيسر النظر فيما ترك آل فرعون بين أيدينا من صور حياتهم اليومية ، تشهد بغير ذلك . ولا نذكر فيما رأينا من تلك الصور — وهي كثيرة تجل عن الحصر — ما يؤيد قوله ، وإن كنا نذكر — إنصافاً للحق — أننا وقفنا على صور دينية يحمل فيها الرجال على رؤوسهم . وونعني أنهم كانوا يحملون الصور المقدسة في الأعياد الدينية على رؤوسهم .

انظر : Capart, Chronique d'Egypte N^o 37. Jan. 1944
= Ch. Noblecourt' ibd.

واقفات (١) ، أما الرجال (فيفعلون) وقد قعدوا القرفصاء . وهم يتغوطون في بيوتهم ، ويأكلون في الطرقات (٢) ؛ معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء . أما غيرها فتؤتى جهره . والمرأة لا تصبح كاهنة لإله

(Ch. Noblecourt T.A.A p. 248) نم

(Murray, The Osireion at Abydos, London 1904 Pl. V. et P.4.) نم

وإذا جاز أن يكون هناك غير ما ذكرنا ، فقد يكون من النادرة بحيث لا يقاس عليه . إلا أن تكون حياة الناس قد تغيرت ؛ بحيث انقلبت فيها كثير من الأوضاع أيام « هردوت » . وإن كنا نرى ذلك بعيد الاحتمال على كل حال .

(١) تلك مسألة نرى من الخير ألا نعلق عليها ؛ ذلك لأن التعليق عليها قد يومم القراء أننا نضعها موضع الجد ، ولو فعلنا لكنا إذًا من المازلين . فطبيعة المرأة لم تهيئها لذلك الوضع المضحك الذي يصوره « هردوت » . ولا يمكن أن نراها في مثل هذا الوضع إلا أن تكون قد سكرت ؛ فمربت ، ثم فقدت كل ما تملك من حياء المرأة . ثم إن امرأة كهذه لا يمكن أن توجد إلا في مكان لا يزوره من كان وقوراً تقياً ورعاً مثل « هردوت » .

(٢) يعجب « هردوت » من أن المصريين كانوا يزيلون ضروراتهم مستورين داخل الدور ، على حين كانوا يأكلون طعامهم في الطرقات ؛ اعتقاداً منهم أن الضرورات عورات يجب أن تُستر . أما غيرها فلا جناح عليهم في إتيانها جهاراً . وليس غريباً ولا عجيبة ما يراه « هردوت » ؛ وإنما العجب كل العجب في أن يرى « هردوت » ذلك من الفرائب في حياة المصريين . فإذا صح ما رآه فنحن جد نفورين به ؛ لأن فيه من صور الحياة السليمة ومن الكرامة الإنسانية ما يدل على ذوق هذا الشعب . نعم ! إنه الذوق كل الذوق ؛ بل إنها صور تدل المروءة الكاملة . فهردوت حين يعجب من ذلك لأنه لم يره عند غير المصريين ؛ إنما يرمى شعبه الإغريق — على الأقل — بفساد الذوق وانعدام المروءة .

أولاهة^(١) ، أما الرجال فمنهم الكهنة لجميع الآلهة والآلهات . وليس لزماً
على البنين أن يعولوا آباءهم^(٢) إذا لم يشأوا . ولكن يفرض هذا على البنات
فرضا حتى ولو لم يردن .

(١) لم تكن الكهانة محرمة على النساء كما يقول « هردوت » ؛ بل كان
النساء منذ أيام الدولة الحديثة ، وربما قبل ذلك أيضاً ، في خدمة المعبودات ، وبخاصة
« حتحور » و « نوة » . ولم يكن من الموجب أن تعمل المرأة المصرية في خدمة
المعبودة « حتحور » رمز الأمومة والعطف والحب والحنان ، ففي أيام الدولة
الحديثة ما يدل على أن النساء قد عملن في خدمة الأرباب . إلا أن عملهن في
الكهانة لم يكن أصيلاً ؛ فهن كنّ يشاركن في الشعائر بالغناء والأنشاد وهنّ
الصلاصل ، كما كنّ على الجملة من جوارى المعبودات ؛ فبما كان لفرعون من
يخدمه في قصره من الجوارى ، كان للأرباب كذلك من يخدمن في معابدها ،
وكنّ في ذلك طبقات : فأولاهن تدعى « أعظم الحظيئات » ؛ وكانت في الأغلب
الأعم « زوجة عظيم الأحيار » . ومن فوق الجميع سيدهُ بيت فرعون ويسمونها
« صاحبة الإله » ، أو القاتنة « المتعبدة » أو « الإلهية » . وكانت هذه في معبد
« آمون » تقوم مقام زوجة الإلهية « موة » (= الأم) ؛ أم ولده « خنسو » .

وأول من عُرِفَتْ بتلك الصفة من بيت فرعون أيام الأسرة الثامنة عشرة
هى « أحوسى نفرتارى » أم فرعون « أمينوفيس الأول » ؛ تلك التى قدّست
بعد زماها في حياة طيبة ، وأصبحت من حماها ورماتها . وكذلك كانت الملكة
المعروفة « حتشبسوة » من صواحب « آمون » . فلما بلغت العرش قامت ابتها
مكانها . فكلّام « هردوت » إذا لم يكن حقاً كله ، وإنما هو صحيح من حيث
أن المرأة لم يكن لها نفس الدور الذى كان يضطلع به الرجل في الكهانة .

(٢) إن « هردوت » حين يذكر ذلك ، إنما يذكر القانون الذى أصدره
« صولون » مشرع الإغريق المعروف ، والذى نص على أن يعول الابن أبويه
=

٣٣٦ — وفي غير مصر يطلق كهنه الآلهة شعورهم ، أما في مصر فيحلقونها (١) .
ويقضى العرف عند سائر الشعوب بأن يحاق أقارب المصاب رءوسهم
أثناء الحداد (٢) . ولكن المصريين ، إذا نزلت بساحتهم محنة الموت ،

= وإذا كان « هردوت » — حين ذكر ذلك — قد ذكره على سبيل
الفخر بأمته فقد فاته أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذا القانون ليعولوا
آباءهم وأمهاتهم وذويهم ؛ بل وغير أوائك وهؤلاء من العجزة والمساكين
والمعوزين . وليس على من يريد أن يعرف حقيقة ذلك إلا أن يقرأ سيرَ الحكام
من أمراء الأقاليم ، يرى برّهم بمن كانوا يرعون من الناس .
انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ١٠ وما بعدها) .

(١) تلك حقيقة تؤيدّها صور الكهّان التي نراها على آثار الفراعنة وبخاصة
في أيام الدولة الحديثة وأواخر أيام المصريين من آل فرعون . ولم يكن الباعث
على حلاقة الشعر شيئاً غير الحرص على النظافة التي تقتضيها العقيدة ، وتستلزمها
الشعائر الدينية ؛ فقد كانت النظافة أهم ما يشترط أن يتوافر في الكاهن . وليس
أدل على ذلك من أن أول مراتب الكهانة تشير إلى تلك الحقيقة ؛ فالكاهن يسمى
« الطاهر » أو « المُطَهَّر » . والأصل في ذلك من فعل « طهّر » . وفي الآداب
الدينية ما يحدثنا بوجوب تطهير الكاهن الجديد عند تنصيبه في « بحيرة الكرنك
المقدسة » . انظر : (Erman, Relig. S. 789) . هذا ! وقد كان الكهّان
من قوم « هردوت » ، كما كان أجبار اليهود يرسلون شعورهم .

انظر : (Leviticus XIX, 87. XX, 5) .

(٢) لكل شعب عاداته وتقاليده الخاصة ؛ فن الشعوب من يرى استحلال
الزينة في تطويل شعر الرأس وتصفيفه ، وإرسال شعر اللحية وتمشيطه ،
فلا غرابة في أن يتجرّد هؤلاء من تلك الزينة حين يصيهم الحزن على موتاهم ،
فأما آل فرعون فقد كانت زينتهم في النظافة ، وكانت الحلاقة لديهم كما مر بنا
في (الفصل ٢٦ هامش ١) من مكّلات الزينة ؛ فهم حين يحزنون يصرفهم
الحزن عن الزينة ، فيرسلون شعورهم ويطلقون لحاهم . وما زال ذلك دأب =

يطلقون شعر الرأس واللحية . وقد كانت لديهم ، حتى يومئذ مخلوقة .
 ويسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات ، أما المصريون فيسكنون مع
 حيواناتهم^(١) ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير ، ولكنه عارٌ
 عظيمٌ على من يعيش عليهما من المصريين . إذ هم يصنعون خبزهم من الذرة
 (أورا)^(٢) ، وهم يعجنون العجين بأقدامهم ، فأما الطين فبالأيدي وبها أيضاً

= خلفاءهم من سكان هذا الوادي حتى اليوم وبخاصة أهل القرى في شمال مصر
 وفي صعيدها وأقاليمها الوسطى ؛ فالرجال من أهل الميِّت يهملون زينتهم
 فلا يذهبون إلى (المزيّن) ليحلقوا لحاهم وإنما يتركون شعور لحاهم ورءوسهم
 حتى تنتهى أيام الحداد . وقد كانت إلى عهد قريب تبلغ « أربعين يوماً » ، بعد
 أن كانت قبل ذلك تطول فبلغ السبعين . وإنا لنعرف كذلك أن المرأة المصرية
 قد كانت تنجزد من زينتها الطبيعية إذا مات زوجها ؛ فتحاق شعر رأسها
 ولا ترسله إلا بعد مرور عام على وفاته .

انظر : (Moeller, Berichte aus d. kgl. Kunstsammlung)
 Berlin, 33, 199.)

ولا نستبعد آخر الأمر أن تلك العادة وما إليها من مظاهر الحزن في مصر
 الحديثة بقيّةٌ من تراث الماضي ؛ يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل . وقد يكون
 الأصل في ذلك كله هو الحزن على إمام شهداء السلف « أزوريس » .

(١) يقصد الآيـ... الحيوانات . ولسنا نستغرب من المصريين أن يعنوا
 بالحيوان أكثر مما ينبغي به غيرهم من شعوب الأرض ؛ فصر قد كانت - وما زالت -
 تعتمد في بناء حياتها على الزراعة ، وإن يعيب المصريون أن يعنوا بحيوان الزراعة
 ويرعوه على النحو الذي رآه « هردوت » واستغربه منهم .

(٢) نظن أن « هردوت » قد أخطأه التوفيق فيما فهم ؛ ذلك لأن المصريين
 قد عرفوا من الحبوب الشعير والقمح والذرة . فأما الشعير فقد كانوا يصنعون
 =
 منه الخمر .

يرفعون الروث (١). وأعضاء التناسل يتركها غامة الناس ، على طبيعتها ،
أما المصريون من أخذ عنهم فيمارسون الختان (٢). ولكل رجل ثوبان وللمرأة

= وليس من شك مطلقاً في أنهم كانوا يأكلون من خبز القمح والذرة
على السواء . وإذا صدّقنا رواية « هردوت » ؛ فإذا كان يفعل المصريون إذاً
بالقمح ؟ ، وقد كان لديهم أغلى ما تنتج الأرض من غلات ؛ وحسبنا أنهم أعموه
« الذهب » ، انظر : (Wb. II, s. 24) . فأما الحب الذي ذكره « هردوت »
وزعم أن المصريين كانوا يعيشون على خبزه ، والذي أسماء *σλυρα* ، والذي يسميه
بعض علماء النبات *Triticum Spelta* ، كما يسميه البعض الآخر *Sorgho* (الذرة) ،
قد كان غذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين ، وما زال كذلك حتى يومنا هذا .
على أن ذلك لا يمنع الفلاحين اليوم من أن يأكلوا من خبز القمح إذا هم وجدوه .
(١) لا نريد أن نكذب « هردوت » فيما ذكر من أن المصريين كانوا
يمجنون المجن بأقدامهم ، وإن كنا لا نكاد نتصور ذلك إلا في الخنازير العامة .
أما فيما عداها فلدينا من آثار المصريين وتراث حضارتهم ما يصور عكس
ما رأى « هردوت » .

فأما العمل في الطين ، فنظن أنه كان يجري طبقاً للظروف ؛ فبالأقدام إن كان
كثيراً ، وبالأيدي إن كان قليلاً . وما زلنا نرى ذلك في القرى حتى يومنا هذا .
فأما العمل في روث البهائم بالأيدي فما زال يجري في القرى حتى اليوم .
ولن يفوتنا بعد ذلك أن نذكر أن الروث — كان وما زال — من مواد الوقود
التي تستعمل في القرى حتى الآن .

(٢) عرف المصريون الختان منذ أقدم عصورهم التاريخية ، وإن آثارهم —
منذ أيام الدولة القديمة — تثبت ذلك إيمانياً يكاد يبرأ من كل شك .

انظر : (Capart, Rue de Tombeaux p. 66.) .

ثم (Klebs, Reliefs. AR. s. 27) .

وأخيراً (Borchardt, Statuen I, No 23) .

هذا . ولدينا من الشواهد والأدلة ما يثبت أن تلك العملية ظلت تمارس =

ثوب واحد^(١). ويعقد سائر الناس حلقات الشراع وجبالها في الخارج. وكتابة الحروف والاتجاه في العدو يجرى بها اليونان من اليسار إلى اليمين أما المصريون فمن اليمين إلى اليسار وهم إذ يفعلون ذلك يقولون إنهم (يمينيون)^(٢) وإن اليونانيين (يساريون) . وهم يستخدمون نوعين من الكتابة ، إحداها

=حتى أواخر أيام الفراعنة (انظر: Otto, Priester und Tempel, s. 213 ff.). وأما الحكمة من الحثان عند المصريين فقد كانت حرصاً على النظافة والطهارة ورعاية صحة البدن ، وإلى ذلك يشير « هردوت » في الفصل السابع والثلاثين من كتابه الثاني ، كما يشير إلى سببهم في ممارسة الحثان في الفصل الرابع بعد المائة من هذا الكتاب أيضاً . والغالب أنها قد كانت كذلك عند اليهود ، ثم هي كذلك عند المسلمين أيضاً .

(١) أما أن الرجل من آل فرعون كان يملك ثوبين على حين كانت المرأة لا تملك غير ثوب واحد ، فذلك مسألة فيها نظر . ولا ندرى كيف نستطيع أن نؤيد « هردوت » فيما روى . وكلما كنا نود أن نلمس له بين تراث المصريين ما يؤيد هذا روايته ؛ إذ أن مركز المرأة في مصر الفرعونية بخاصة قد كان مرموقاً ؛ بحيث نالت حقها كاملاً غير منقوص .

انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها) .

كما كانت المرأة من نساء الفلاحين أو الجارية من الخدم في بيوت الموسرين تستطيع أن تحمل من ثياب ما يشبه في تطريزه ووشيه ما يحمل السيدات من نساء الأغنياء . انظر : (Kees, K. g. ss. 32. 68) .

(٢) كانت القاعدة أن تجرى أيدي المصريين بالكتابة والنقش من اليمين إلى اليسار، شأنهم في ذلك شأن الشعوب السامية . فاليمين عندهم أفضل من اليسار . وإذا حدث أن جرت أيديهم على عكس ذلك وبخاصة في الهيروغليفية (النقش المقدس) فقد كان ذلك لضرورة فنية يقتضيها اتجاه الصور والرسوم التي يكتبون من حولها . وقد يكتبون من أعلى إلى أسفل أيضاً .

تُسَمَّى (المقدسة) والأخرى (العامة) (١) .

٣٧ — وهم يزيدون كثيراً عن سائر الناس في التقوى . وهذه
هى القوانين التى يتبعونها ؛ يشربون فى أقداح برنزية^(٢) يُنظفونها كل يوم
وكلهم دون استثناء يفعلون ذلك . ويلبسون ثياباً من الكتان ، يهتمون جداً
أن تكون دائماً حديثة الغسيل . وهم يمارسون الختان حباً فى النظافة ، لأنهم
يفضّلون النظافة على حسن المنظر^(٣) . وكل يومين يخلق الكهنة أجسامهم
بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة

(١) تلك حقيقة معروفة ؛ فلقد كان للمصريين لغتان : إحداها الفصحى ؛
ويعرفها الخاصة من صفوة الصفوة ، وهى التى أمماها الإغريق الهيروغليفية
(النقش المقدس) يكتبونها على الحجر نقشاً ورسمًا . ثم يكتبونها فى القراطيس
وغيرها بالقلم السريع ؛ ويسمى العلماء فى هذه الحالة (الميراطيقية) . ولغة
أخرى يعرفها العامة ويكتب بها من يعرف الكتابة منهم . وهى التى أمماها
الإغريق الديموطيقية (أى الشعبية) . وتدل شواهد الأمور على أن الوثائق
المكتوبة بهذه الأخيرة قد بدأت تظهر بوضوح حوالى ٦٥٠ ق . م . ثم بدأ
استعمال التحرير بها يزول من آثار المصريين خلال القرن الرابع للميلاد ؛ أى بعد
استقرار الدين المسيحى فى أرض مصر . وبعد أن كتبت لغة المصريين بحروف
يونانية .

(٢) إن المصريين حتى اليوم يشربون من أقداح البرنز أو الصفيح
ويسمونها (الأكواز) ، ويعنون بتنظيفها ، ولا عجب أن كان أسلافهم يشربون
من أقداح البرنز . وإن كنا نستبعد أنهم لم يستعملوا أقداحاً أخرى .

(٣) انظر تفصيل الحديث عن الختان والحكمة فى ممارسته فى الفصل السابق
(٣٦) هامش رقم (٦) .

الآلهة ، ويلبث الكهنة ثياباً من الكتان فقط ، وأخذية من البردى (١) .
وغير ذلك من الملابس أو الأحذية محظور عليهم لبسها إلا قليلاً وهم ينتلون
مرتين كل نهار بالماء البارد ، ومرتين كل ليل . وهم يرعون من الطقوس
الدينية الآلاف المؤلفة إذا صح لنا هذا التعبير . وهم يتمتعون أيضاً بامتيازات
ليست بالقليلة ... فهم لا يستهلكون ولا ينفقون شيئاً من ثروتهم الخاصة (٢) ،
بل يُصنَعُ لهم خبز مقدس ، ويصيب كل واحد منهم يومياً كمية كبيرة من
لحم البقر والأوز (٣) ، وتُقدَّمُ لهم خمر مصنوعة من العنب (٤) . وأكل السمك

(١) لقد كان أجود اللباس لدى المصريين إنما يصنع من الكتان ؛ فلا عجب
أن تكون ثياب الكهان من ذلك النسيج الأبيض الناصع البياض . فهو لشدة
بياضه سريع التأثير ؛ لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله إلى تنظيفه .
ولا غرابة كذلك في أن يتعل الكهان تلك النعال الخفاف المجدولة من فتائل
البردى حتى يسهل عليهم تنظيفها . انظر : (Plutarch, Isis & Osiris 4) .

(٢) ذلك صحيح ، فلقد كان لكل معبد من معابد الدولة وبخاصة الكبرى
منها أوقافه من الأرض ، وما تنتج من غلة وثمر ، وما يرعى فيها من حيوان
ويعيش عليها من طير . وكان الكهان وكافة من يخدمون في المعابد من حولهم إنما
ينالون أرزاقهم من أوقاف تلك المعابد وجبوسها .

(٣) كان المصريون يبنون بترية الطير ، وبخاصة الأوز . وتشير آثارهم بما
عليها من رسوم إلى كثرة عنايتهم به وإقبالهم على لحمه ، ينالون منه ما استطاعوا .

(٤) عرف المصريون زراعة العنب منذ أبعد عصورهم . انظر : (الفصل رقم
٧٧ من هذا الكتاب) . وآثارهم تطالعنا بصور من السكروم ؛ يشاها الزراع
إذا أبيع ثمرها وطاب جناها ؛ فيجمعون ويعصرون ألواناً من الأنبذة . ولا عجب
إذا في أن ينال الكهان حاجتهم من تلك الأنبذة . ولقد تحدث « بلوتارخ » عن
مقدار ما كان يتناول الكهان والملوك من الأنبذة .

انظر : (Plutarch, Isis & Osiris, Cap. 6) .

غير مباح لهم^(١) . ولا يبذر المصريون الفول في بلادهم مطلقاً ، ولا ينوقون

(١) كثرت الآراء فتعددت واختلفت حول موضوع السمك وتقديسه في مصر الفرعونية . والشئ الذى لا شك فيه هو أن السمك النبلى قد كان وما يزال من عناصر الغذاء طرياً ومجففاً ومملوحاً . وإلى تلك الحقيقة يشير « هردوت » نفسه عند حديثه عن العصر الفارسي في الفصلين (السابع والسبعين ، والتاسع والأربعين بعد المائة) وبخاصة في أقاليم الدلتا وإقليم الفيوم . هذا ، وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنشطة العمال من الغذاء إلى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك . انظر : (Kees, K. G. s. 60. 6) . والعجيب مع ذلك أن ينظر المصريون إلى صيد السمك على أنه من الحرف الوضيعة التي تشير إلى عدم النظافة ، إلا أن يكون رياضة يمارسها الهواة من المقندين وأهل اليسار . انظر : (Schaefer, Von Aeg. Kunst, s. 181, Abb. 154) .

وفي أيام الدولة القديمة من الشواهد ما يدل على النفور من السمك أو بعضه على الأقل واعتباره نجساً . انظر : (Sethe, Urk. I, 173, 202) . وأعجب من هذا كله — على الرغم من تلك الحقيقة — أن المصريين لم يمتنعوا من تقديم السمك على موائد القربان لأربابهم وموتاهم ، وإن لم يكن ذلك في سائر الأقاليم . انظر : (Kees, K. G. s. 64) . ثم قدس السمك — وبخاصة أيام الرعامسة — في كثير من أقاليم مصر ، مثل « إيسنا » و « أيديوس » في صعيدها ثم « البهنسا » في أقاليمها الوسطى .

انظر : (Bruyère, Bullet. inst. fr. 28, p. 4) . وكذلك عُدَّ السمك من رموز الحياة ، وأصبح شعاراً لأزوريس . انظر : (Bonnet, Bilderatlas Abb. 137) .

فإذا صدق قول « هردوت » فيما روى عن تحريم السمك على الكهنة ، فأكبر الظن أن يكون نبهت ذلك وموضوع الخلاف حول تقديس السمك ونجاسته ، هو تلك الأسطورة الشهيرة (أسطورة إيزيس وأزوريس) التي أشارت إلى أن سمكةً بعينها من أنواع السمك الشهري قد ابتلعت عضو التذكير من أشلاء أزوريس بعد مصرعه . انظر : (Plut. Isis & Osiris' 18) .

ما قد ينبت منه فجًا أو مطبوخا . أما الكهنة فلا يطبقون حتى رؤيته ،
ويعتقدون أنه بقل نجس^(١) وليس لكل إله من الآلهة كاهن واحد بل أكثر
واحد هم هو كبير الكهنة وعندما يموت منهم كاهن يخلفه ابنه^(٢) .

٣٨ — ويعتقدون أن الثيران مقدسة لأپافوس^(٣) لذا فهم يفحصونها

(١) أكبر الظن أن يكون في قول « هردوت » شيء من المبالغة .
وقد يكون الصواب فيما رواه « ديودور الصقلي » . انظر : (Diod. I. 89, 4.) .
من أن أكل الفول (Faba Vulgaris) قد كان محرّمًا على بعض المصريين .
فالقول قد وجدت حبوته في بعض قبور المصريين .

انظر : (Legrand, Hérodote T. II P. 92 Note 2) .
ثم (Schweinfurth, Pflanzen s. 362 f.) .

ومعنى ذلك أن زراعته لم تكن محرّمة كما يزعم « هردوت » . ونحن
على استعداد لتصديق روايته إن هو اقتصر تحريم أكله على الكهان مثلاً . إذ قد
يكون السبب في ذلك أن الفول من الأغذية عسرة الهضم ، وأنه يُفسد المعدة
بما يُثير فيها من غازات قد يتسبّب عنها خروج رياح تنّة .

(٢) ذلك أمر معقول ؛ فقد كانت الكهانة تتوارث وبخاصة في المعابد
الإقليمية الكبرى كذلك التي ذكرها « هردوت » في الفصل الثالث من
هذا الكتاب .

(٣) Epaphus : الاسم الذي أطلقه « الهلينيّون » على الفحل المقدس
« آيس » . (انظر : هردوت الكتاب الثانى فصل ١٥٣ ثم فصل ٢٧ من الكتاب
الثالث) . وظاهر أنه تصحيف للاسم المصرى الأصيل . وتقديس البقر في مصر
الفرعونية معروف منذ أقدم العصور ، والشواهد على ذلك معروفة منذ
عصر التاريخ .

انظر : (1) Brunton, The Badarian Civilisation p. 38. pl. 70,6

(2) Petrie, The Labyrinth, Gizeh, Mazgounah, pl. 6,7.

= (3) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 11.

هذه الكيفية ، إذا رأى الكاهن شعرة واحدة سوداء في جسد الثور عدّه

= والشئ الذى نحب أن ننبّه إليه هو أن التقديس ليس معناه العبادة ، وأن تقديس البقر في مصر الفرعونية ليس بالشئ الغريب ، إذا ما نحن فكّرنا في مصر وحياة شعبها منذ نشأته في هذا الوادى ؛ فمصر قد كانت حياتها — وما زالت — تعتمد على الزراعة ، ولم يدخل التصنيع في حياة المصريين ليكون عنصراً من عناصر مقوماتها إلا بين يديّ ثورتنا الشعبية الأخيرة (ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) . والحضارة التى نشأت وتطوّرت بين يديّ هذا الشعب البناء وعلى ضفاف النهر الكريم قد حوّلت مصر من صحراء مجذبة جرداء إلى أنضر جنات الأرض وأكرمها وأنداءها ، كانت حضارة زراعية قبل كل شئ ولن يكون عجبا بعد ذلك أن نرى أسلافنا من أشد شعوب الأرض حباً للأرض ، وتعلقاً بما يرون فيها من خلق . وكانوا يعرفون قيمة النهر ؛ يقدسونه ، ويفنون له ، بل ويقدمون من أجله كل مخصص من الحيوان والطير ؛ فربطون بينه وبين النهر الذى كان لديهم فحل هذه الأرض ؛ سعى إليها هائماً من قلب إفريقيا ليغرس بها ، فلما تغشاها حملت حملاً ثقيلاً ، ثم أخذت تخرج من الرزق ما لم يتوافر يومئذ لشعب من شعوب الأرض . وليس أدل على أن الباعث على التقديس قد كان الحصب ، من الربط بين النيل وبين كل مخصص من الحيوان والطير ، وفي مقدمة كل أولئك فحل البقر . فالمصريون قد كانوا يمثلون فيض النهر الأكبر في هيئة آدمى له رأس الفحل (انظر : Chassinat, Le Mammisi d' Edfou. p.X2) (pl. XV II,) كما أمموا فيضان النهر في العصور المتأخرة « عطاء الفحل » (Wl. I, S. 150) . ثم هم يسمون الفحل — نظراً لما ياتونوا فيه من الحصب الجنسى — « خالق نفسه » .

انظر : (Gauthier, Le fêtes du Dieu Min, p. 9) .

ومن مظاهر عقيدة القوم في طبيعة هذا الحيوان والتماس الخير بين يديه أنهم كانوا يطوفون به حول عاصمة البلاد « ممفيس » قبيل موسم الفيضان ، (Kees, Apotheosis by Drowning, Studies presented to Griffith p. 405) وأن يطوفوا به مزينا في عيد الحصاد ؛ يعبرون بذلك عن شكرهم =

نجساً ويقوم بفحص الثور كاهن^(١) معيّن لهذا العمل ؛ يفحص الحيوان واقعاً وراقداً ، ثم يسحب لسانه ليرى إذا ما كان تقيّاً من علامات خاصة سأتحدث عنها في فصل آخر^(٢). وينظر كذلك في شعر الذيل (ليرى) أن نبتته طبيعي^٣. فإذا كان الثور طاهراً ، من كل الوجوه ، يضع عليه علامة (وذلك) بأن يلف حول قرنيه قطعة من البردى وبعد أن يلمصها بصلصال لزج يضع عليها خاتمه^(٣) ، وبعد ذلك يسوقون الحيوان . أما من يُضْحَى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت . وبذلك الطريقة إذن يفحص الحيوان .

= وفرحتهم بما أفاء عليهم النهر من رزق يُجرّيه الحِصْب بين يديه ،
(Gauthier, Les fêtes du Dieu Min, p. 176) .

ولا يفوتنا بعد كل ذلك أن نذكر أن فرعون قد كان يُوصف بأنه « الفحل القوي » من البقر الذي « يحمي الوادي » .

انظر : Gauthier, Livre des Rois II p. 200

ثم Sethe, Amun & die acht Urgoetter v. Hermopolis S. 9. على أن وصف الملوك والأبطال بالفحولة وتشبيههم بالفحول من طوائف الحيوان لم يكن قاصراً على آل فرعون وحسب ، بل كان أمر ذلك معروفاً لدى شعوب أخرى ؛ فالعرب كانوا يقولون « فلان كبش قومه » أي عزيزهم وسيدهم ، وهم قد أمموا « مروان بن محمد » آخر خلفاء بني أمية « مروان الحمار » لصبره على مرارة الحرب واحتمال شدة القتال . والفرنسيون قد أمموا نابليون الأول « النسر » كما سمّي الغازي أثار تورك « الذئب الأشهب » .

(١) كانت طبقة هذا الكاهن كما سماها اليونان تدعى $\mu\sigma\chi\sigma\phi\rho\alpha\gamma\iota\sigma\tau\alpha\iota$ انظر : (Kees, G.G. n. 136) .

(٢) لا نظن أنه يقصد فصلاً من فصول هذا الكتاب كالفصل ٦٤ وما بعده إلى الفصل ٦٧ ثم الفصل ١٥٣ وحسب ، وإنما يقصد الفصل الثامن والعشرين من كتابه الثالث ، حيث يتحدث بإسهاب عن الفحل « أيس » .

(٣) انظر ما ذكره بلوتارخ عن ذلك (Plut. Ibid, 31, p. 363) أيضاً .

٣٩ — وهذه طريقتهم في تقديم الضحية ، يذهبون بالحيوان الموسوم إلى المذبح حيث يضحون ، ثم يوقدون ناراً وبعد ذلك يسكبون خيراً على المذبح^(١) فوق الضحية ، ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله . وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ثم يمحطون على الرأس^(٢) وافر اللعنات . وإذا كانت لهم سوق ويقم عندهم تجار يونانيون ، فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونها . أما الذين لا يوجد بينهم يونانيون فإنهم يلقون بها في النهر . أما عن اللعنات التي يتلونها على رؤوس الضحايا فهذا مدلولها ، « إن كان هناك خطب سيحل بالمضحين أنفسهم أو بمصر كلها ، فليُنزل على هذا الرأس » . وجميع المصريين يراعون هذه الشعائر فيما يتعلق برؤوس الحيوانات المُضَحَّى بها ورشها بالنبيذ ويتبعونها عند تقديم كافة الضحايا . ووفقاً لهذه السنة لا ينوق أحد من المصريين مطلقاً رأس أى كائن حي^(٣) .

(١) يختلف النقاد في ترجمة حرف الجر (Epi) في هذه العبارة ؛ فبعضهم يرى أن معناه « فوق » المذبح ، وبعضهم يفضل ترجمته « بالقرب من » المذبح . ولكن « فوق » و « على » المذبح أقرب إلى الصواب ؛ لأن « هردوت » يفكر فيما يجري في بلاد اليونان الذين كانوا يضحون على المذابح ويستخدمونها بطريقة لم تكن مألوفة عند المصريين .

(٢) معنى ذلك أن الضحية كانت كفارة . انظر: (Erman, Relig. S. 33).

(٣) لا نستبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، وإن كنا نرجح ألا تكون هذه العادة مصرية أصيلة أو على الأقل متبعة بالنسبة لرؤوس كافة الذبائح ، ذلك لأن موائد القربان لم تخل من رؤوس الذبائح من البقر والطيور . فإذا لم تكن الرؤوس رموزاً للحيوان فعنى ذلك أنها كانت تؤكل .

انظر : (Erman, Relig. S. 336 f.) .

٤٠ — أما عن إخراج أحشاء الذبيحة وحرقها فيختلف عندهم باختلاف المعابد . وسأبدأ إذن بالكلام عما يحدث لدى الآلهة التي يعدونها العظمى^(١) وقيمون من أجلها أعظم الأعياد : عندما يسلخون الثور وينتهون من صلاتهم ، يخرجون المعدة بينما يتركون الحوايا والدهن داخل الجسم ، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العجز والأكتاف والرقبة . وبعد ذلك يملأون بقية جسم الثور خبزاً طيباً « تقياً » وعسلاً وزيبياً وتيناً وبخوراً ومراً وغيرها من الطيب . فإذا ما ملأوا الجوف بذلك ، فإنهم يسكبون عليه زيتاً وفيراً ثم يحرقونه . وهم يصومون قبل تقديم الضحية . وأثناء احتراق الضحايا يلطمون كلهم . وعندما ينتهون من اللطم^(٢) ، يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبائح .

٤١ — ويضحي المصريون كلهم بالثيران والعجول الطاهرة ولا يباح لهم أن ينحروا الأبقار فهي مقدسة لإيزيس^(٣)، وتمثال إيزيس في الواقع على شكل

(١) انظر : (Erman, Relig. SS. 176, 337)

(٢) انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 70 f

(٢) Diod. I. 11

(٣) Herodot, II, 41

(٣) تلك حقيقة لا ريب فيها ؛ إذ لم يكن المصريون يأكلون لحم الإناث من البقر لأنها كانت لديهم من الحيوانات المقدسة وذلك تكريماً لمعبودتهم (إيزيس حثحور) :

ثم (Kees G. G. S. 77) . ثم (Hopfner, Tierkult S. 76 f) .

وما نذكر في مناظر النحر التي صورها المصريون على آثارهم ما يشير إلى ذبح الإناث من البقر غير منظر واحد من أيام الدولة القديمة .

انظر : (Wreszinski, Atlas II. Taf. 86 A.) .

امرأة وله قرنان كما يصور اليونانيون « إيو »^(١). والمصريون جميعا — بنير
استثناء — يَخْصُونُ الأبقار من بين الماشية كلها بأكثر تعظيم، ولهذا السبب
لا يُقْبَلُ مصري أو مصرية يونانياً على الشفاء، ولا يستعمل سكين يوناني^(٢)
أو سفايده أو قِدْرَه، ولا ينوق لحم ثورٍ طاهر إذا قطع بسكين يونانية^(٣).
ويدفنون الثيران والأبقار عند موتها بهذه الكيفية؛ يلقون بالإناث^(٣)

(١) إيو (Jo) : ابنة « إناخوس » (INAKHOS) أول ملوك
« أرجوس » وقد قيل إن « زيوس » هام بها حتى أصبحت أقرب النساء إلى قلبه
فحقدت عليها زوجته « هيرا ». وقد خلد الشعراء ورجال الفنون أسطورة هذه
العذراء الفاتنة . وقالوا إن « زيوس » عندما خشي عليها من بطش علفتها
« هيرا » . جعلها في صورة بقرة . ولقد ذاعت قصص هيامها في ربوع الأرض
وتأثر الإغريق بذلك فخالوا في صورة العذراء « المنجولة » ذلك المصباح النير
الجوَّال من نجوم السماء وهو « القمر » .

وكان الإغريق يصورونها في هيئة الأنتى من بنى آدم ، ويزيدون هامتها
بقرنى بقرة ، وتلك صورة « إيزيس » (حتحور) عند آل فرعون .

(٢) شبيه بذلك ما يُحكى عن « يوسف » بن « يعقوب » (إسرائيل)
عندما أُولم لأخوته في مصر ففرق بينهم وبين المصريين ؛ بحيث جعل لكلٍّ من
الفريقين طعاماً . ذلك لأن المصريين كانوا يعتبرون للعبرانيين نجساً .
انظر : (سفر التكوين إصحاح ٤٣ و ٤٤) .

(٣) ذلك قولٌ فيه شكٌ كبير . وأكبر الظن أن يكون مصدره الخيال
وسوء الفهم . ومرجع ذلك إلى ما كان معروفاً من عقائد المصريين وشعائرهم
التي كانت تقتضيهم إغراق « خُل أيس » عندما تدركه الشبحوخة .

انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 85 f.

(٢) A. Moret, La mise à mort rit. d. dieu en Eg. (٢)
(Paris 1927)

= Chassinat, Rec. Trav. 4. XXXVIII, p 33 seq. (٣)

فى النهر ، أما الذكور فیدفنها سكان كل مدينة فى ضواحي مدينتهم . بينما یبقى أحد قرینها أو كلاهما بارزین ؛ علامة على مكان الدفن . وعندما تتحللُ الجثة ، ویحلُ الميعاد المحدد ، یأتى إلى كل مدينة قارب من الجزيرة المسماة « پروسوییتیس »^(١) ، وتقع هذه فى الدلتا ، ومحیطها تسعة « إسخینوس » وبهذه الجزيرة مدن أخرى كثيرة ؛ أما المدينة التى تأتى منها القوارب لجمال عظام البقر فتسمى « أتابیخیس »^(٢) . وفیها معبد مقدس لأفرودیت . ویخرج الناس فى هذه المدينة جماعات ، وتتوجه كل جماعة منهم إلى إحدى المدن ، یدفنون سائر الأنعام عند موتها بنفس الطريقة التى یتبعونها فى دفن الأبقار . وهكذا سنّت عندهم القوانين بشأن الحيوانات الأخرى ، فلا یذبونها أیضا .

Otto, Stierkulte. s. 13 f.

(٤)

=

على أننا لا نرید أن نكذب « هردوت » فى النهاية ، إذ ربما تكون هذه العادة قد كانت معروفة فى المكان الذى یقول إن ذلك قد كان یقع فیہ . انظر : (ما جاء عن تقدیس الفرقی . فصل ٩٠ هامش رقم ٣) .
(١) كان موقع تلك الجزيرة فى الفالب بین فرعى النيل : (الكانوبى والسمنودى) من غرب الدلتا ، وهى ضمن مجموعة من المدن كان یتزلها الحاربون . انظر : (الفصل الخامس والستین بد المائة من هذا الكتاب) .
والغالب أن النزلاء من الإغریق الذین وفدوا إلى مصر عند منتصف القرن الخامس قبل المیلاد قد استوطنوا هذه الجزيرة .

انظر : (Thucyd. 1. 109. 4) .

(٢) ATARBECHIS : حاول بعضهم أن یجعلها مدينة « أفرودیت » أى مدينة « حتحور » . انظر : (Strabon, 17. 1) .
وإن كنا لا نستبعد ما یراه البعض الآخر من أن یكون معناها « معبد حورس الصقر » (حت — حر — یك) .

٤٢ — ويمتنع الذين يملكون معبداً لزيوس الطيبي (١) ، وكل الذين في ولاية طيبة ، كلهم يمتنعون عن تضحية الأغنام ويضحون بالمعز (٢). (لأن المصريين لا يعبدون على حد سواء نفس الآلهة ما عدا « إيزيس » و « أزوريس » وهذا الأخير — على حد قولهم — هو « ديونيسيس » (٣) . إذ كلهم بغير استثناء يعبدون هذين الإلهين) . فأما الذين لديهم معبدٌ لمنديس ، ثم أهل مقاطعة منديس فلا يضحون بالمعز بل بالضأن (٤). ويقول أهل طيبة وأمثالهم ممن يضحون بالأغنام أن هذه السنة فُرِضَتْ عليهم لهذا السبب : أراد «هيراكليس» أن يرى

(١) « زيوس الطيبي » : هو معبود المصريين الكبير « آمون » في طيبة .

(٢) الواقع أن المذبح لم يكن له بين حيوان مصر المقدس قيمة ، وإنما كان المصريون يجعلونه عند الضرورة الملحة بديلاً من الضأن . وكانت التضحية به كرهاً له وزهداً فيه ؛ إذ كان في عقيدتهم من قبيل « ست » ورهطه .
انظر : (Kees, K. G. s. 247 250) .

(٣) ذكرنا غير مرة كيف كان الإغريق يساوون بين معبوداتهم ومعبودات المصريين ، ثم كيف كانوا يسمون هذه الأخيرة بأسماء نفاثرها عندهم . ومن ذلك أنهم أسموا المعبود المصري « أزوريس » « ديونيسيس » ؛ كما أسموا صاحبه « إيزيس » « ديمتر » . انظر : (Erman, Relig. d. Aeg. S. 333) .
وصحيح ما يرويه « هردوت » من أن سائر المصريين كانوا يمجِّمون على تقديس هذين المعبودين .

(٤) لم يكن المعز — كما قدمنا — من مقدسات المصريين . فهم كانوا يقدسون الكباش دون التيوس ؛ يقدسونها منذ أقدم عصور التاريخ لأنها جاءتهم وافدة مع النيل من قلب إفريقية ، فربطوا بينها وبين النيل — وهو لديهم مصدر الحُصْب والحياة — . انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الثامن والثلاثين هاشم رقم ١ من هذا الكتاب) .

«زيوس» بأي حال من الأحوال، ولكن هذا لم يرغب في أن يراه هيرا كليس .
وفي نهاية الأمر، لما استمر الأخير في إلحاحه، فكر «زيوس» فيما يلي ... سلخ
كبشاً، وبعد أن قطع رأسه وضعها على وجهه، ثم لبس الفرو وأظهر نفسه لهيرا كليس
بهذه الكيفية . لذلك يصنع المصريون تمثال «زيوس» وله وجه كبش (١).

= خال المصريون الكبش حارساً على منابع النيل التقليدية عند شلاله الأول
جنوبي أسوان، وزادوا على ذلك نخالوه بارتناً للبشر يصورهم من صلصال كالفخار .
وذلك تصويرٌ يذكرنا بما جاء في كتب السماء كالتوراة والقرآن .

انظر : (Badawi, (Ahmad). Der Gott Chnum, S. 52 f.)
وكان الكبش كذلك لدى المصريين من حيوان «آمون» المقدس، فهم
صوروا هذا المعبود في هيئة بشر له رأس كبش .

انظر : (Sethe, Amun & die acht Urgoetter, S. 31 ff.)
هذا، وأكبر الظن أن الحيوان المقدس في «منديس» (ومكانها اليوم
«أثمون طناح») كان أول الأمر كبشاً، وأن كان الإغريق قد جعلوه تيساً
• τράγος

انظر : (١) Kees, Artikel Mendes in Pauly — Wiss. R. E.

Hopfner, Tierkult S. 89. (٢)

فاذا صح ما رواه «هردوت»، فإن أهل «منديس» لم يستبدلوا بالضأن
المعز إلا في عصورهم المتأخرة . على أن ذلك لم يقع عند المنديسيين وحدهم،
بل وقع كذلك في جبال «طيبة»؛ حيث جاء ذكر المعز بوصفه الروح المقدس
لآمون . انظر : (Hans Bonnet, Bilderatlas 49) .

(١) مثل هذه الروايات لم تكن معروفة عن شعائر المصريين قبل
أيام «هردوت» . ومن قبل قدمنا الحديث عما طرأ على حياة المصريين
من تغير ربما كان مبغته تنابع المحن الجبارة التي تزلت بديارهم .
انظر : الحديث عن ذلك في الكتاب الذي أخرجه Erman عن ديانة المصريين
(Erman, Relig. S. 331 f.) .

وقد نقل الآمونيون^(١). ذلك عن المصريين . والآمونيون هاجروا من مصر والخبشة . ويتكلمون لغة وسطا بين لغتي الشعبين . ويبدوا أن نفس الإسم الذى اتخذه الآمونيون علماً عليهم مشتق من ذلك ، لأن «زيوس» عند المصريين اسمه «آمون»^(٢) . ولذلك لا يضحى أهل طيبة بالكباش ولكنهم يقدسونها . ومع ذلك ففي يوم من أيام السنة ؛ يوم الاحتفال بعيد «زيوس» ، يذبحون كبشاً واحداً ويسلخونه ويفطون بجلده تمثال زيوس، ثم يحضرون بعدئذ بالقرب منه تمثالا آخر لهِيراكليس. وبعد أن يفعلوا ذلك، يلطم كل من يحيطون بالمعبد حزناً

(١) «الآمونيون» : هم سكان «واحة سيوة» المعروفة وفيها معبد آمون الشهير الذى زاره «إسكندر المقدونى» زورته التاريخية ليستوحى «آمون» الذى رضى عنه وأرضاه حين جمعه ابناً له وألبسه تاجه . انظر : (الفصل رقم ٣٢ هامش رقم ٢) وهناك ما يشير إلى وجود مستعمرة كوشية أقامها الآمونيثون، وقد يشير من ناحية أخرى إلى أن «وحى سيوة» ربما يرجع إلى أصل كوشى ؛ وربما يؤيد ذلك أن «طهارة» قد احتل هذه الواحة .

انظر : Steindorff, Durch die Lybische Wüste zur Amon-
(oasis S. 69-70) .

(٢) آمون : رب إقليم طيبة منذ أيام الدولة الوسطى ، ورب الديار المصرية طراً بعد ذلك ؛ بل رب الإمبراطورية المصرية أيام الدولة الحديثة . واسمه مشتق - أكبر الظن - من فعل «أمن» بمعنى «بطن» و«خفي» «واستسّر» ؛ فهو «الباطن» لأنه يمثل الهواء (الآثير) الذى لا يرى ، ونظيره عند العبرانيين «يهوفا» (يهوى) أى الهواء . وليس يبعد أن يكون لنشأة «موسى» الذى وُلد في مصر وتربى في قصورها وليداً ، وتثقف في معابدها صبيّاً وإفعاً أثره في ذلك . انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ١٠٧ وما بعدها) . ثم (Sethe, Amun § 256 ff.) .

على السكبش ثم يدفنونه في قبر مقدس (١) .

٤٣ — ولقد سمعت هذه الرواية عن « هيرا كليس » ، ونحوها أنه أحد الآلهة الإثني عشر (٢) . أما عن « هيرا كليس » الثاني الذي يعرفه

(١) ليس يبعد أن يكون المصريون قد عدّوا هذه الضحية كفارةً يُقدّمونها بين يدي « آمون » على أنه رب الشمس (رمز الشمس) ، وقد كان في عقيدتهم فعلاً يمثل الشمس . انظر : (Sethe, Amun §. 243 ff.) . وكانوا يفعلون ذلك في فصل الربيع عندما تكون الشمس في برج الحمل . والله أعلم بالحقيقة على كل حال .

(٢) انظر : (Diodor, I 24.1, Ἡρακλέα τὸ γένος)

Αἰγύπτιον ὄντα

« إذ أن هرقل مصرى الأصل . . . » . ومثل ذلك ورد عند Cicero .

انظر : (Cicero, De Natura deorum III, 16) . وعند Arianus .

انظر : (Arianus II, 16) . وأخيراً Hopfner

انظر : (Hopfner, Fontes Historiae religionis Aegyptiacae)

. (p. 87, 103 - 104, 296, 308) .

وتلك مسألة تقتضينا الوقوف طويلاً عند النظر فيما يقول « هردوت » بشأن تلك الطوائف من المعبودات المصرية . فالطائفة الأولى عنده من ثمانية ، وعنها — كما سنرى في آخر هذا الفصل وفي الفصل ٤٦ — نشأت طائفة ثانية . ومن هذه الثانية نشأت الثالثة كما سنرى في الفصل ١٤٥ . وهردوت يعد من معبودات الطائفة الأولى : Leto (Latona) .

انظر : (الفصل السادس والخمسين بعد المائة من هذا الكتاب) ونظيرتها عند المصريين تُدعى « حتحور » ، ثم يحمل من هذه الطائفة Pan أيضاً .

انظر : (الفصلين الخامس والأربعين والسادس والأربعين بعد المئة) ونظيره

عند المصريين يدعى « مِين » .

=

اليونانيون فلم أستطع أن أسمع عنه شيئاً من أى مكان فى مصر . والأدلة كثيرة التى يمكن أن أسوقها على أن المصريين لم ينقلوا اسم (١) « هيرا كليس » عن اليونانيين ، ولكن بالأحرى أخذ هؤلاء عنهم . ومن اليونانيين من يقولون بأن « هيرا كليس » هو ابن « أمفيتريون » . ومن بين هذه الأدلة أقدم ما يأتى : لقد كان والدا هيرا كليس — « أمفيتريون » و « ألكينا » (٢) — كلاهما ، من سلالة مصرية الأصل . وعلاوة على ذلك فالمصريون يؤكدون أنهم

ويعُدُّ من الطائفة الثانية « هرقل » . انظر : (فصل ١٤٦) . ويقابله عند المصريين « حرى شاف » معبود « إهناسية » .
 ويعُدُّ من الثالثة « ديونيسيس » . انظر : (فصل ٤٢ ، ١٤٥ من هذا الكتاب) . ونظيره عند المصريين « أزوريس » .

فأما ما بقى من طوائف تلك الأرباب الثلاث فلم يذكرها « هردوت » ؛ كما أنه لم يذكر ما يناظرها من أسماء الأرباب المصرية التى أوردنا ذكرها فيما تقدّم . ولو حاولنا أن نبحث أمر ذلك فى ضوء ما حقق المؤرخون المحدثون من واقع ما ترك المصريون من تراث ، إذا لتفرقت بنا السبل ، ولضاعت الحقائق فى سيل من الفوضى ، ولكان حالنا أشبه شئ بحال من يحاول عدّ نجوم السماء وإيجاد الصلات بين بعضها وبعض ، ولكان علينا أن نفكر فى أرباب « أولمب » الإثني عشر ؛ ثم فى حيوانات الدوائر الفلكية التى رمز بها المصريون إلى أقسام الكون . انظر : (الفصل الرابع من هذا الكتاب) .

(١) هذه ترجمة حرفية لكلمة (OUNOMA) ، ولكنها تعنى فى الحقيقة اسم الإله وخصائصه ، ولو أردنا ترجمتها بدقة لاضطررنا إذا إلى استخدام جملة بأكلها لنقول : إن المصريين لم ينقلوا اسم « هرقل » وأوصافه وخصائصه .

(٢) انظر الحديث المفصّل عن أبوى « هرقل » وما جاء فى الأسطورة الخاصة بذلك من اختلاف فى الرواية (Theocrite, chap. J. La Naissance d'Héraklès) .

لا يعرفون اسمي «بوسيدون» و «الديوسكوري» (١). وأنهم لا يعدّونها آلهة بين الآلهة الأخرى. فإذا قدّر أن المصريين كانوا قد أخذوا عن اليونانيين اسم أي إله، فقد كان من باب أولى أن يذكروا هؤلاء أولاً وقبل كل شيء إذ كان المصريون بالفعل — حتى في ذلك العصر — يمارسون الملاحظة. كما كان بعض اليونانيين ملاحين فيما أعتمد أيضاً، وكما يحملني الفكر على ذلك. إذن — والحالة هذه — كان الأولى بالمصريين أن يعرفوا أسمى هذين الآلهين لا اسم «هيراكليس». كلاً.. إن هيراكليس إله قديم جداً عند المصريين. ووفقاً لما يقولون هم أنفسهم، إذ أنهم يعدّون «هيراكليس» واحداً من الآلهة الإثني عشر التي انحدرت من الآلهة الثمانية (٢) منذ سبعة عشر ألف عام قبل أن يتولى

(١) انظر ما جاء عن ذلك في الفصل (رقم ٥٠).

(٢) في الغالب أن «هردوت» قد سمع بقصة الأرباب الثمانية، ولكنه لم يفهم مما سمع كثيراً؛ بل ربما فهم شيئاً وغابت عنه أشياء. فالقصة مرجعها إلى فلسفة كهّان الأثينيين (هرموبوليس) وتصورهم نظرية نشأة الكون؛ تصوره قائماً من عناصر أربعة: «نون» (الماء الأزلي) «حاح» (القضاء اللانهاي) «كاك» (الظلام المُطبق). وأخيراً «آمون» (المواء) وكان لديهم بمثابة الروح، حل في هذه العناصر الثلاثة فأوجد فيها الحياة. ولما كان المصريون لا يتصورون قيام الكائنات ولا وجود الحياة بغير اتصال زوجين من ذكر وأنثى، فقد جعلوا لكل من تلك العناصر الأربعة صاحبة؛ فلننون زوجة تدعى «نونه» وللحاح «حاحة»، وللماك «كاكة»، ولآمون «آمونة».

ثم كان من نتائج حلول الروح في تلك العناصر أن طفت الأرض على وجه الماء، وأضأت الشمس، وانبث صوت الحياة الأولى؛ فسكانت الكلمة. ولنسنا ندري — لماذا كلما مرت بالخطر تلك القصة تذكرنا بقول الله تعالى في سورة (الحاقة) «ويخمسُ عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية». يضاف إلى كل ما تقدم من أن خيال المصريين في الكون ونشأته يذكرنا بما جاء في مطلع سفر التكوين.

« أمازيس » الحكم (١) .

٤٤ — ولما كنت أرغب في معرفة معلومات أوضح (٢) بشأن هذه الموضوعات على قدر المستطاع ، أبحرت لذلك إلى « صور » في « فينيقية » ؛ ذلك لأنني سمعت بوجود معبد مقدس لميراكليس (٣) هناك . ولاحظت أن هذا المعبد قد زينته نصبٌ كثيرة ؛ ومن بينها عمودان ، أحدهما من الذهب المصقول ، والآخر من حجر الزمرد (٤) الذي يلمع في الليل بشكل غير مألوف . وأثناء حديثي مع كهنة الإله (٥) ؛ سألتهم منذ متى أقيم المعبد عندهم . فوجدت أنهم

(١) المعروف أن « أمازيس » بلغ العرش في عام ٥٧٠ ق . م . ثم ودّع الدنيا بعد أربعة وأربعين عاما . أي في عام ٥٢٥ ق . م . (انظر هردوت : الفصل الأول من الكتاب الثالث) فالحسبة إذاً عند هردوت تقريبية .

(٢) واضح أن « هردوت » يحب دائماً أن يؤكد حرصه على صحة معلوماته ، وأنه من أجل ذلك لا يدّخر وسعاً في التقليل مما كلفه ذلك من جهد .

(٣) لن يكون « هرقل » هذا في فينيقية غير واحد من اثنين : إما إله الشمس عند الفينيقيين وهو « بعل » أو « ملكارت » (= ملك المدينة) .

(٤) ورد ذكر هذا العمود من الزمرد عند Theophrastes وعند Plinius غير أنه ليس من السهل أن تتصور زمردة في تلك الضخامة . ومن الجائز أن يكون الأمر قد أشكل على « هردوت » أو غلبت عليه المبالغة ، وجائز أيضاً أن يكون العمود من اللازورد . أو أن يكون مطلباً بطلاء يشبه لون الزمرد .

(٥) ذلك رأى يؤيده فريق من المؤرخين ويخالف عنه آخرون ؛ يرون أن نشأة المدينة لا يمكن أن يجاوز تاريخها أواخر القرن السادس عشر ق . م .

انظر : (MOVERS, Die Phoenicier II, l. S. 134 ff - 167 ff.) .

لا يَتَقَوْنَ أَيْضاً مع اليونانيين ؛ إذ قالوا إن هذا المعبد قد بنى فى نفس الوقت الذى أُسِّسَتْ فيه « صور » ، وأنه قد مر على سكناهم بالمدينة ألفان وثلاثمائة عام . ولقد رأيت فى « صور » معبداً لهيراكليس يسمى « الناسوسى » ، وذهبت بالفعل إلى « ناسوس »^(١) حيث وجدت معبداً لهيراكليس ، بنىه الفينيقيون الذين أُسَّسُوا « ناسوس » أثناء نجوالهم للبحث عن أوروبا ، كان ذلك قبل خمسة أجيال من ميلاد « هيراكليس » بن « أمفيتريون » فى بلاد اليونان^(٢).

هذه البحوث تُبَيِّنُ إذن فى وضوح أن « هيراكليس » إله قديم . وأظن أن تصرف اليونانيين كان فى غاية الصواب أولئك الذين شيدوا عندهم معبدين لهيراكليس^(٣) ؛ يضحون لأحدهما ويسمونه « هيراكليس الأولي » بصفته أبدياً ويضحون للثاني باعتباره بطلاً .

(١) Thasos : جزيرة فى الشمال من بحر « إيجه » . انظر : (« هردوت » الفصل السابع والأربعين من كتابه السادس) . كان فيها للفينيقيين محلة منذ عام ١٤٠٠ ق . م . وكان فيها معبد لهرقل ، كُشِفَ عن بعض أنقاضه فى العصر الحديث ، كما كُشِفَ فيها عن قطع من العملة تحمل صورة هذا المعبود .

(٢) إذا كان المتواتر أن مولد « هرقل » الإغريق لأمفيتريون من أمه الكين يرجع إلى عام ١٢٨٤ ق . م . فأكبر الظن أن بناء معبده بجزيرة « ناسوس » يقع تاريخه فى حساب « هردوت » حوالى ٥٥٠ ق . م .

(٣) يرى بعض الكتاب المتأخرين عن عصر هردوت ومنهم « ديودور » . أنه كان هناك ثلاثة معابد ، كايرون أنه كان هناك أكثر من « هرقل » . ومهما يكن من أمر فإن بلاد الإغريق لم يكن فيها لهرقل غير معبدين .

انظر : (Rawlinson, Herodotus Vol II. P. 71) .

٤٥ — ويحكى اليونانيون روايات عديدة — دون تدقيق — ؛ منها تلك الرواية السخيفة (١) التي يروونها عن «هيراكليس» . إذ يُحكى أنه لما جاء هيراكليس إلى مصر ، وضع المصريون الأكليل على رأسه وأخذوه في موكب ليضجوا به لزبوس ؛ فلزم الصمت برهة . وما أن بدأوا بأقامة الشعائر للتضحية أمام المذبح حتى لجأ «هيراكليس» إلى العنف وقتلهم عن بكرة أبيهم . ويلوح لى من هذه الرواية أن اليونانيين يظهرون جهلاً مطبقاً بطباع المصريين وعاداتهم . إذ كيف ينبغي أن يضحي ببني آدم (٢) قوم لا يضجون من الحيوان بغير الخنازير والثيران والعجول إن كانت طاهرة ، ثم بالأوز ١١ . ثم كيف يستطيع هيراكليس قتل هذه الآلاف المؤلفة بمفرده وهو ما يزال بعد — حد قولهم — بشراً من الناس ١١ . ألا لنت الآلهة بعد الكثير مما رويناه عن هذه الأمور تتقبل ذلك بقبول حسن (٣) .

(١) الإشارة هنا إلى قصة تُنسب إلى ملك أسطوري من ملوك مصر يسمى «بوزيريس» ، يقال إنه كان يذبح كل الأجانب ، وظل يفعل ذلك حتى جاء «هيراكليس» (هرقل) إلى مصر فقتله .

انظر : (Wiedemann, Herodotos Zweites Buch S. 213) .

(٢) ورد في بعض الروايات أنه كان يُضحي بالأسرى في أيام الأسرتين ١٩ و ١٨ (١٥٨٠ — ١٢٠٠ ق م) .

انظر : (Frazer, Golden Bough, II, pp. 254) . ولانظن أن ذلك كان صحيحاً على أى حال .

(٣) ذلك عهد أخذ «هردوت» على نفسه كما مر بنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، حين قال إنه لن يتحدث عن المقدسات والشعائر إلا بمقدار ، ولسوف نلتقى في الفصول التالية مثل هذا ؛ إذ يقول إنه حين يتحدث عن ذلك لن يبدو ما سمعه من الكهان وأهل المعرفة .

٤٦ — وهذه هي الأسباب التي من أجلها لا يضحى المصريون (١)

— الذين سبق ذكرهم — بالعبادة والنبوة : إن أهل « منديس » يعدّون « بان » بين الآلهة الثمانية (٢) ، ويزعمون أن هذه الآلهة قد وُجِدَتْ قبل الآلهة الإثني عشر . والرّسّامون والمثالون يصوّرون ، ويمجفرون صورة « بان » كما يفعل اليونانيون ؛ بوجه عنز ورجلي تيس . دون أن يعتقدوا أنه على هذه الصورة ولكن لأنهم يرون تصويره على شاكلة الآلهة الأخرى ، ولست أرى ما يمنع من ذكر السبب الذي من أجله يصورون « بان » على هذا النحو (٣) . إن أهل « منديس » يقدسون كل المعز ، ويفضلون الذكور منها على الأنثى ؛ ويختص الرعاية واحداً منها بالتحظيم وهو الذي إذا ما نفق عمّ الحزن كافة ولاية « منديس » . وفي مصر يسمى التيس والإله كلاهما « بان » و « منديس » .

(١) يقصد بالمصريين هنا أهل « منديس » بطبيعة الحال .

انظر : (الفصل الثاني والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : (ما جاء في الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .

وفي اعتقادنا أن ما أسماء هردوت (PAN) في ذلك الفصل — وأورده ضمن الطائفة الأولى (طائفة الأرباب الثمانية) . انظر : (فصل ٤٣ هامش رقم ١) — لا يمكن أن يكون عند المصريين غير معبودهم « مين » ؛ رمز الحصب في الطبيعة . انظر : (Erman, Relig. S. 333) . إلا أن الإغريق قد اختلط عليهم الأمر ؛ فجعلوه « تيس منديس » تارة و « كبش إهناسية » تارة ثانية ، ثم « خنوم » تارة ثالثة .

(٣) لم يكن مألوفاً لدى المصريين أن يُصوّروا مقدّساتهم من الحيوان على هذا النحو الذي تخيّل « هردوت » ؛ فهم قد صوّروها أول الأمر حيوانات كاملة ، ثم خلقوها من الحجر وغيره كهيئة البشر برؤوس الحيوان ، ثم أخرجوها آخر الأمر في صورة بشرية خالصة . وما نعرف أن « مين » قد عُرِفَ مطلقاً عند المصريين في تلك الصورة التي تخيلها « هردوت » .

وفى وقتى حدث بولاية « منديس » هذا العجب العجائب ؛ اجتمع تيسُ
بامرأة فى العلانية (١). وعلم الناس بذلك جميعاً.

٤٧ — والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً (٢) ؛ لذلك إذا مَسَّ مصرى

(١) اجتماع التيس بالأنثى من بنى آدم يبدو شيئاً بشعاً ومضحكاً فى آن معا .
وإن كان وطء الذكر من بنى آدم مختلف الإناث من طوائف الحيوان أمراً
معروفاً وبخاصة فى القرى . ولست أعتقد أن أمر ذلك قاصر على المصريين
وحسب ؛ بل هو عام فيما يبدو . على أن العكس ليس يبدو مستحيلاً فى مجال
الرغبة الجنسية وتصويرها لدى المرأة . فقد عُثِرَ بين تراث المصريين على رسوم
تصور ذلك . انظر : *Michaelidis, Un moule en plâtre illustrant un passage d' Hérodote. Bulletin de l'Inst. fr. d' Arch. Or. L, LXIII.*
(٢) نجاسة الخنزير : ذلك شئ لم يَقُلْهُ « هردوت » وحده . وإنما أكدّه

سائر الذين كتبوا عن مصر والشرق . والواقع أن سائر شعوب الشرق الأدنى
قد حرّمت لحم الخنزير . وليس من شك فى أن التحريم قد كان لأسباب تتصل
بصحة هذا الحيوان والحرص على صحة من يأكلون لحمه . وإذا كان التحريم قد
بُنِيَ فى شرائع الشرقيين كاليهود ، والمسلمين مثلاً على أساس النجاسة ؛ فقد كان
ذلك لأن الشرائع لا تحرّم إلا بسبب النجاسة . وليس من شأنها أن تذكر
فى إجمال أو تفصيل ما يمكن أن يلحق بصحة البشر من أذى . والواقع أن الشرق
الأدنى وأكثر أقاليم مصر لم يكن فيها من المراعى الفنية ما يمكن أن تصح معه
أبدان الخنازير بحيث تخلو من العال التى تنتقل إلى من يأكل لحومها .
ولو توافرت المراعى إذاً لتغير الحال ولم يعتبر الحيوان نجساً ؛ فليحتم الخنزير
قد أكل فى مصر ، كما أن الخنزير قد عُرف فى مصر منذ فجر تاريخها ؛ وبخاصة
فى الدلتا حيث توافرت المراعى الفنية السخية . وكان الناس ينالون من لحمها كثيراً
كما كشفت عن ذلك أعمال التنقيب فى منطقة « مرمدة بنى سلامة » .

انظر : (١) *Menghin, bei Junker, Vorberichte, Merimde Beni Salame 1933. (Wien. Anz.) (1933) s. 88.*

(٢) *Junker, Merimde Beni Salame, Wien. Anz. 1929*

خنزيرا أثناء مروره به ، ذهب في الحال وألقى بنفسه في النهر دون أن يخلع
ملابسه . كما أن رعاة الخنازير — ولو أنهم مصريون بمولدهم — لا يدخلون
— دون سائر المصريين — أى معبد من جميع معابد مصر . ولا يرضى مخلوق
أن يزوّج أحد هؤلاء الرعاة من ابنته ، ولا أن يتزوّج منهم . ولكنهم

= ولم تتوافر للخنزير مثل هذه المراعى في صعيد الوادى ولا في أقاليمه الوسطى
فبرئت منه دهرأ ؛ لانكاد نجد له من ذكر في آداب المصريين ، ولانكاد نعثله
على أثر في مناظر الزرع والفلاحة إلا قليلا ؛ بل لانكاد — حتى عصر الدولة
الحديثة — نجد له من ذكرٍ أو رسمٍ في قبور المصريين وآثارهم إلا قليلا .
والمصريون قد تجنبوا ذكره في تراجمهم التى سجلوها على صفحات قبورهم
أو على آثارهم الأخرى ؛ لانكاد نذكر من ذلك غير مثل واحد ورد في سيرة أحد
الرعاة من أيام الدولة الوسطى (Sethe, Lesestuecke, MR. s. 79) . هذا وإن
كان ذكر الخنازير ورعاتها قد كثر وروده منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة
(Klebs, Reliefs MR. s. 86) . وليس يبعد أن يكون المصريون قد فطنوا
— على مر السنين في تاريخهم الطويل — إلى ما فى لحم هذا الحيوان من أذى
على صحة آكله ؛ فهم قد كانوا يختبرون دماء الذبائح عقب نحرها فيقررون
سلامتها ، أو عدم سلامتها .

انظر : (١) Erman, Reden, Rufen, & Lieder, Berl. Akad. 1918

Montet, Bull. Inst. fr. or. 7 p. 41 f. (٢)

نرى هل امتنع المصريون جميعاً عن أكل لحم الخنزير ؟ نكاد نشك ؛ ذلك
لأن التحريم لم يكن فى أى مكان ولا فى أى زمان من الروادع مهما تكن
أسبابه وأياً كانت النتائج المترتبة على مخالفته .

ولسنا نستبعد أخيراً أن يكون بعض الفقراء من الهال قد كانوا يأكلون لحم
الخنزير إن هم وجدوه .

انظر : (Keimer, Bull. inst. eg. 19 (1936—37)) .

يتزوجون فيما بينهم^(١). والمصريون لا يضحون بالخنازير لسائر الآلهة حاشا «سيليني» و«ديونيسيس» وحدهما؛ ينحرونها ضحية لها في الوقت الذي يكون فيه القمر بدرًا^(٢). وبعد نحرها يأكلون من لحمها. أما لماذا ينفرون مُشمزّين من الخنازير في بقية الأعياد ويذبحونها في هذا العيد؛ فلذلك قصة يردها

(١) لقد مر بنا (في الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب) كيف كان حرص المصريين شديداً على نظافة الكهّان الذين يخدمون في المعابد؛ فلن يبدو غريباً بعد ذلك أن يُحرم غيرهم من دخولها إذا لم تتوافر لهم نظافة المظهر على الأقل؛ بل لن يبدو غريباً أن ينفر الناس من تلك الطبقة من الرعاة، وهم رعاة الخنزير النجس فلا يتصلون بهم بصهر أو نسب.

(٢) جاء في تقويم الأعياد من أيام الدولة القديمة أن المصريين كانوا ينحرون من الضحايا عتزا أو خنزيراً؛ وذلك في الاحتفال بعيد «سُكريس» الذي كان يُقام في الرابع والعشرين من شهر «كهك». وهو اليوم الذي يزعمون أن «سُكريس أزوريس» قد دُفن فيه.

انظر: (H. K. Nelson, Medinet Habu III, Pl. 188). ولم يُخطئ «هردوت» حين ذكر أن الضحية كانت تُقدّم والقمر بدرًا؛ فلقد جاء في تقويم الأعياد بمعبد «إدفو» أن الضحية كانت تحرق في اليوم الخامس عشر من شهر بثنس.

انظر: (Brugsch, Drei Festkalender No. I. Z. 17). ولم يخطئ «هردوت» كذلك حين ذكر أن بعض أجزاء الضحية كانت تحرق وإن كان الغالب أن الضحية كانت تحرق كلها؛ ذلك لأن الخنزير كان معدوداً من قبيل مبيودهم البغيض «ست» (= تيفون) ورهطه الذين صرعوا معه أخاه «أزوريس» (= ديونيسيس).

وليس بمستغرب بعد ذلك أن نعلم أن الخنازير كانت ترفع في الأراضي الموقوفة على معبد «أزوريس» في «أيدوس» أيام الدولة الحديثة؛ ليضحى بها في أعياده. انظر: (Kees, K. G. S. 20 f.).

المصريون ولكنى أرى — رغم على بها (١) — أن سردها غير مناسب . وهكذا تكون تضحية الخنازير لسيليني : عند نحر الضحية توضع نهاية الذيل والطحال والغشاء المهبل مع بعضها ، ثم تلف معاً بكل ما يوجد حول بطن الحيوان من دهن ، ثم تحرق قرباناً . ويؤكل باقي اللحم في ليلة البدر الذى تُقدَّم فيه الضحية ، ولا يذاق مطلقاً في سائر الأيام . والفقراء منهم — لضالة موردتهم — يشكّلون من العجين خنازير ويخبزونها ثم يقدمونها قرباناً (٢) .

٤٨ — وفي ليلة العيد (٣) ينحر كل فرد أمام بابه ، خصوصاً لديونيسيس ، ثم يتركه إلى نفس الراعى الذى باعه إياه . ويكاد يكون احتفال المصريين بعيد « ديونيسيس » أن يشبه من جميع الوجوه احتفال اليونانيين به فبعاد الرقص (٤) . وقد ابتكروا بدلاً من المذاكير تماثيل ، طول التمثال منها ذراع ، يمكن تحريكها بواسطة خيط ، تطوف بها النساء في القرى ، وعضو التذكير بها متحرك

(١) انظر : (الفصل الخامس والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) بين آثار الفراعنة التى عُسِرَ بها في قبور موتاهم ما يؤيد ذلك ؛ حيث وجدت بعض التماثيل الصغيرة لهذا الحيوان مصنوعة من الدقيق ، والغالب أنها من القرابين التى زوّد الناسُ بها موتاهم .

(٣) لا بد أن هردوت قد ذكر هنا عيد الأباتوريا (Apaturia) الذى كان يُحتفلُ به « الآثينيون » مدة ثلاثة أيام ؛ يُسمّى أولها « دوريا » (Dorpia) ، وكان يُقام هذا العيد احتفالاً بالمعبودة « أفروديت » حيث يُعرَفُ أثناءه بشباب القبيلة كأفراد رحيمين فيها .

(٤) كان يُضحى بالخنازير غالباً في عيد « ديونيسيس » عند اليونان ، ويكاد عيده يماثل عيد نظيره « أزوريس » في مصر فيما عدا الرقص والغناء ؛ فقد كانا من مظاهر عيد اليونانيين . وقد كان الخنزير كذلك من أضحيات الرومان ؛ يقدمونه على المذابح مع الضأن والبقر ، تشير إلى ذلك لفظة Suovetaurilia .

لا يقل كثيراً في طوله عن باقي الجسم ، ويتقدم الموكب الزمار ، تتبعه النساء اللاتي تنغى بديونيسيس . أما عن السبب الذي من أجله كان عضو التذكير كبير الحجم ، وكان يتحرك دون سائر أجزاء الجسم ، فلذلك قصة مقدسة بروونها (١) .

(١) ينبغي — لنفهم ذلك — أن نذكر في هذه المناسبة الأسطورة الخالدة (أسطورة إيزيس وأوزيريس) ، تلك التي جاءت فصولها عبر عصور التاريخ الفرعوني متفرقة ، ونذكرها كما وضعت كاملة على يد « بلوتارخ » ؛ حيث جاء في الفصل الثامن عشر من فصولها تقطيع جسد الشهيد « أوزيريس » ، وبعثة أشلائه بين أقاليم الوادي ؛ حاشا عضو التذكير الذي أبقى به في اليم فابتلعه إحدى أمماكه . وظاهر من ذلك أن القاتل قد كان يخشى ما توقعه من أن أرملة الشهيد سوف تجوس من أجله خلال الديار لتجمع أشلاءه ؛ فعمد إلى فعلته تلك خشية أن يثبت الشهيد إلى الحياة فيلد من يرث عرشه ويطلب به .

إذا ذكرنا ذلك كله ، وذكرنا أن « أوزيريس » (ديونيسيس) قد كان في عقيدة أصحابه رمزاً الحصب والخير ؛ بأتيان بين يدي الشمر عند فيضانه في كل عام ، وذكرنا أن المصريين قد ربطوا بين بعث « أوزيريس » ووفاء النهر . نقول إذا ذكرنا ذلك كله ، استطعنا أن نفسر ما رواه « هردوت » عن قصة الاحتفال بهذا العيد على الصورة التي رآها . وقد تكون المبالغة في تطويل عضو التذكير وانتشاره مقصودة ؛ ذلك لأن طول العضو في عقيدة المصريين أو في وهمهم قد كان دليلاً على كثرة الإنجاب ؛ يشير إلى ذلك ما جاء في كتاب الأحلام وتأويلها عندهم . ولازيد آخر الأمر أن نخص المصريين وحدهم بمثل هذا الوهم ؛ ذلك لأن الأمر قد يمدوم إلى شعوب أخرى . وإنا لنذكر على سبيل المثال قول الشاعر العربي (السراقد السدوسي) الذي يعبر أعداءه بقلة عددهم فيقول :
ولو شاء ربِّي كان « أيرُ » أيسكمُ طويلاً كأيَر الحارث بن سدوس

فأما ما جاء في آخر الوصف من تحريك العضو المذكور من التمثال دون سائر الأعضاء ، فقد يكون المقصود منه الرمز إلى بعث « أوزيريس » والعمور على العضو ، ثم إلى عودة الحياة بين يدى النهر حين يفيض . والله أعلم بالمراد على كل حال .

٤٩ — ويخيل إلى أن «ميلامبوس»^(١) بن «أموثيون» لم يكن يجهل هذا الاحتفال بل كان به عليماً . لأن «ميلامبوس» في الواقع كان أول من أدخل في بلاد اليونان اسم «ديونيسيس» والاحتفال بعيدة وموكب اللذكري . إلا أنه لم يفهم بدقة كل ما يتعلق بالفكرة التي جاءهم بها . ولكن الحكماء^(٢) الذين تلوهم الذين شرحوها بالتفصيل . أما عن موكب اللذكري الذي يقام لديونيسيس ، فميلامبوس هو أول من أدخله ، ومنه تعلم اليونانيون ما يعملون . وأنا أقرّر الآن أن «ميلامبوس» ذلك الرجل الحكيم ، الذي أوجد فن العرافة ، قد تعلم من المصريين أشياء عديدة مختلفة ، نقل منها إلى بلاد اليونان — بعد تعديل طفيف — ما يختص بديونيسيس . وأنا لا أومن مطلقاً بأن الاتفاق بين شعائر «ديونيسيس» في مصر وفي بلاد اليونان وليد الصدفة . وإلا لانسجت هذه الشعائر مع طباع اليونانيين وما كان دخولها عندهم حديث العهد^(٣) . ولن أقول أبداً إن المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ؛ لا هي

(١) MELAMPUS بمعنى «أسود القدمين» . ورد ذكره في أساطير اليونان بصفته من كبار الكهان المنتبئين ، وقد خلده الشاعر Hesiod في مقطوعة طويلة أسمها MELAMPODIE . وكما قيل إنه أدخل عبادة «أزوريس» (ديونيسيس) ، وأدخل معها تقديس عضو التذكير في بلاد اليونان . وقيل كذلك إنه أدخل عبادة «ديونيسيس زاجريوس» رب العالم السفلى ، — وكان نظيره في مصر — «أزوريس» سلطان العالم الآخر .

(٢) أولئك هم المعروفون باسم «الأرفيئين» . انظر : (نصلي ٨١ و ١٢٣ من هذا الكتاب) وهم من أممهم σοφισταί ، أي الذين خلفوا . MELAMPUS .

(٣) انظر ما كتبت حديثاً عن (ديونيسيس) وشعائر عبادته فيما كتبه Farnell . انظر : (Farnell, Cults of the greek states V, 78 - 92) .

ولا غيرها من العادات. ولكن من المحتمل جداً — كما يجيل إلى — أن «مِيلامبوس» تعلم هذه الشعائر من «كادموس» الصوري، ومن أولئك الذين هاجروا معه إلى البلاد التي تسمى حالياً «بيؤسيا».

٥٠ — لقد جاءت أسماء الآلهة كلها تقريباً من مصر إلى بلاد اليونان . أما أنها قد جاءت كلها من الأجانب فهذا أمر وصلتُ إلى معرفته أثناء بحثي . وأظن أنها جاءت من مصر على الأخص (١) ؛ لأن أسماء الآلهة فيما عدا اسمي «بوسيدون» (٢) و «الدبوسكوري» (٣) ، كما سبق أن

(١) أما أن أسماء الآلهة جاءت إلى بلاد اليونان من الخارج كما ذكر «هردوت» زاعماً أن ذلك قد وصل إلى علمه ، فشيء لا نحبُّ أن تناقشه أو نعارض فيه «هردوت» . وأما أنها جاءت جميعها من مصر ، فأمر لا نستطيع تصديقه إلا أن يكون الإغريق الذين سبقوه إلى مصر قد كانوا يسمون على معبوداتها بأسماء نظائرها في بلادهم كما تمَّحَّوا «أزوريس» مثلاً «ديونيسيوس» و «إيزيس» «ديمتر» و «حورس» «أبوللون» و «ست» «تيفون» و «نية» «أثينا» و «مين» «بان» و «أمون» «زيوس» و «بسته» «أرتميس» و «توت» «هزمس» و «بتاح» «هيفايستوس» وهلم جراً . . . فلما جاء «هردوت» إلى مصر ، وسمع تلك الأسماء ؛ توهم أنها مصرية ، وأنها انتقلت من مصر إلى بلاده على أننا نستبعد ذلك على كل حال .

(٢) بوسيدون (Poseidon) : ويسميه الرومان «نبتون» (Neptun) .

ابن (Kronos) أمان أخاه «زيوس» على المرافقة ، فكان من نصيبه البحر وصار سلطاناً عليه .

(٣) الدبوسكوري (Dioskuren) : هما «كاستر» (Kastor) و «بوليديكس» (Polydeukes) من أبناء «زيوس» وزوجته «ليدا» (Leda) . وكان لهما أختان : هما «هيلينا» (Helena) و «كليمنسترا» (Klytaemnestra) زوجة «أجنون» (Agamemnon) .

قلت (١) ، وأسماء « هيرا » (٢) و « هيسنيا » (٣) و « ثيميس » (٤) و « خارييتيس » (٥) و « نيريديس » (٦) ، وجدت دائماً منذ القدم في مصر . وأنا أردد هنا ما يقوله المصريون أنفسهم (٧) ، ويبدو لي أن « البيلاسجيين » (٨) هم الذين أعطوا الأسماء لهذه الآلهة التي يعلن المصريون عدم معرفتهم بها

(١) انظر : (الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) هيرا (Hera) إحدى بنات (Kronos) من زوجته (Rhea) ، وإحدى أخوات « زيوس » وزوجته في آن معاً ؛ كانا يمثلان معاً قوة الذكورة والأنوثة .

(٣) هيسنيا (Hestia) : أخت « ديمتر » (Demeter) وكلاهما من بنات (Kronos) وزوجته (Rhea) .

(٤) ثيميس (Themis) : ابنة (Uranos) من زوجته (Gaea) وكانت رمز العدل المقدس .

(٥) خارييتيس (Chariten) (Gratia) ربّات الجمال والجاذبية عند الإغريق .

(٦) نيريديس (Nereiden) : من ربّات البحر وعرائسه وكنّ خساً .

(٧) ليس من حقنا أن نكذب « هردوت » فيما زعم ، فالمصريون الذين أممّوه تلك الأسماء قد كانوا يعرفون أنه إغريقي ، وأن تلك الأسماء إغريقية . وقد كان فريق منهم يومئذ يعرفون اللسان الإغريقي .

(٨) البلاسجيثون (Πελασγοί) في رأى الكتاب الإغريق هم أقدم من سكن أرض « هيلاس » قبل أن يفزوها « الهلينيثون » (أبناء هيلاس) . ويقول « هوميروس » إنهم كانوا يسكنون كافة المناطق من شمالي « بحر إيجه » قبل عصر البرنز .

انظر : (Crusius, Beitrage zur gr. Mythologie (Leipzig 1886))

إلا «بوسيدون»^(١)، فقد عرفه اليونانيون من الليبيين لأن اسم «بوسيدون» لم يكن موجوداً منذ البداية عند أى شعب غير الليبيين الذين يعظمون هذا الإله دائماً أبداً. ولا يعتقد المصريون مطلقاً في عبادة الأبطال^(٢).

٥١ — لقد أخذ اليونانيون إذن عن المصريين هذه العادات وغيرها مما سأحدث عنه، ولكنهم لم يتعلموا من المصريين عمل تماثيل «هرمس»^(٣)

(١) ليس يبدو غريباً أن يكون المصريون قد عرفوا اسم Poseidon عن طريق الليبيين، فقد كانت للإغريق على سواحل ليبيا ثغور وأسواق للتجارة. هذا وقد أشار «هردوت» في الفصلين رقم ١٨٠، ١٨٨. من كتابه الرابع إلى صلة Poseidon بليبيا.

(٢) هكذا زعم «هردوت» وهكذا أيده بعض المحدثين من الكتاب. انظر: (Wadell, Herodotus, p. 175).

في الحلق أن تمجيد الأبطال والشهداء، والإيمان بقدرتهم لم يُعرف عند آل فرعون كما عُرف عند الإغريق. ولكن هل لنا أن ندعى تقدير الظهاء، وتقديس بعضهم من أمثال «منا» و«سنوسرة الثالث» و«أمينوفيس الأول» الذى يسمى باسمه شهر «برمها» ومن قبله أمه «أحوسى نفرتارى»؟ ثم لم نحرّم على أنفسنا آخر الأمر الفرض أن «أزوريس» و«إيزيس» ومن إليهما، قد كانوا من أبطال البشر.

(٣) يتحدث «هردوت» هنا فيما يبدو عن تماثيل رآها في ميادين «أثينا». وهى تماثيل نصفية لهرمس تتميز بأعضاء التذكير المنتشرة، وهى مأخوذة عن خرافة ساموثراقية، يُسمى بطلها «كدهيلوس»، ولم يكن غير صورة معبرة عن عقيدة أصحابها فى تمثيل القوة الخلاقة فى الطبيعة، ونعنى ما يظهر فيها من النمو والانتشار فى عالم الحيوان وفى عالم النبات. ذلك هو «هرمس» أو MERCURIUS ithyphallicus. وتلك صورة لا تختلف فى كثير عن تلك الصورة التى تخيلها المصريون فى معبودهم «ممين». فأما قوله إن اليونانيين لم يتعلموا مثل ذلك من المصريين، فقول مردود عليه. ويكفى أن نُذكر بما رواه فى الفصل الثامن والأربعين من هذا الكتاب.

ذات الذكر المنتصب ؛ بل تعلمها أهل « أثينا » من « الپيلاسجيين » قبل سائر اليونانيين ، ثم أخذها هؤلاء عن الآثينيين ؛ إذ كان أهل « أثينا » يعدّون بالفعل من اليونانيين^(١) وقما شاركهم « الپيلاسجيون » في سكنى أرضهم . ومنذ ذلك بدأ اعتبار « الپيلاسجيين » أنفسهم من اليونانيين . وأى فرد ممن دخلوا فى طقوس « الكبيرو » السرية التى يحییها « الساموثراقیون »^(٢) ، والتى أخذوها عن « الپيلاسجيين » ، يعرف معنى ما أقول . لأن هؤلاء « الپيلاسجيين » الذين أصبحوا يسكنون مع الآثينيين ؛ كانوا يقطنون من قبل « ساموثراقيا » وعندهم أخذ « الساموثراقیون » طقوسهم السرية . وعلى ذلك كان الآثينيون أسبق اليونانيين إلى صنع تماثيل « هرمس » ذات الذكر المنتصب ، وقد تعلموا هذا من « الپيلاسجيين » . وپروى « الپيلاسجيون » فى هذا الشأن قصة مقدسة ؛ ويظهر معناها بوضوح من طقوس

(١) انظر مارواه « هردوت » فى الفصل السادس والخمسين من كتابه الأول .

(٢) SAMOTHRACE : « الساموثراقیون » هم سكان جزيرة صغيرة تقع على ساحل تركية ، وكان لهم فيها معبد معروف ما زالت بعض أطلاله بادية . وظلت شعائرهم تقام فيه حتى أيام الرومان . ومن مقدسات هذه الجزيرة تلك القوى الكبرى التى كانوا يطلقون عليها - عامة - اسم « الكبيرو » فى اللغات السامية بمعنى « الأشداء » . فأما عددها فقد كان أكبر الظن ثمانية . واپس یعيد أنها بعددها هذا قد كانت فى رأس « هردوت » عندما تحدث عن الأرباب الثمانية التى جعلها الطائفة الأولى فى معبودات المصريين .

انظر : (الفصلین الثالث والأربعین والسادس والأربعین من هذا الكتاب) : وقد ظهر من بین « الكبيرو » فى المعبد المشار إلیه HERMES CASMILUS أو HERMES CADMILUS . فى المحل الأول .

انظر : (Dict. des Ant. s. v. Cabieres) .

« ساموثراقيا » السرية (١) .

٥٢ — لقد عرفت مما سمعت في « دودونا » أن « الپلاسچيين » كانوا فيما مضى يقدمون توضحياتهم مصحوبة بدعاء الآلهة دون أن يسموا واحدا منها بأى اسم أو صفة ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا قد سمعوا بأسمائها . ولقد سمّوها آلهة (٢) باعتبار أنها هي التي قد رتبت كل ما فى الكون ، وأن بيدها مصير كل شيء . وبعد مرور زمن طويل عرفوا أسماء الآلهة كلها لما جاءتهم من مصر حاشا اسم « ديونيسيس » فقد عرفوه بعد ذلك بكثير . وبعد زمن لجأوا

(١) إذا لم يكن سكوت « هردوت » عن ذلك مصدره الجهل فهو نوع من مظاهر الحرج والتّقوى يديه « هردوت » غير مرة فى هذا الكتاب .
انظر : (الفصول ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨) .

والعجيب أن « هردوت » على الرغم من ذلك التّقى لا يتحرج ولا يتورع حين يقول مثلا فى الفصل الخامس والثلاثين : « إن نساء مصر يلن واقفات » ، ولا حين يزعم فى الفصل السادس والأربعين : « إن نساء قد اجتمع بامرأة فى العلانية » . ولنا نشك فى أن توضيح ما يسميه « هردوت » هنا « الطقوس السريّة » لا يسببُ حرجا . فالأمر أمر خرافة خال فيها أصحابها مظاهر البعث أو الإحياء الذى تطالعهم به الطبيعة فى ربيع المسام نتيجة لاجتماع « هرمس » بـ « پرسيفون » .

(٢) إن البلاسچيين الذين يَظَنُّ أنهم نقلوا عبارة « الكبيرو » إلى SAMOTHRACE من الشرق ، لم يكونوا فيما يبدو على حظٍ يرضى من النحضر . وكانوا فى الأغلب الأعم أقدم سكان الوطن الإغريقى ؛ وليس أدل على تأخرهم من أنهم لم يستطيعوا تسمية ما عبدوا من مظاهر الطبيعة فى الأرض والسما . وإنما اكتفوا بتسمية تلك الطائفة « بالمنظّمين » .

انظر : (مادة Θεός) . فى (Legrand, Introduction sur Herodote, p. 155 — 157) .

إلى وحى « دودونا » يستفتونه فى الأسماء لأن هذا الوحى يعد أقدم وحى فى بلاد اليونان ، وكان وقتئذ الوحى الوحيد^(١) . فلما استفتى « الپيلاسجيون » وحى « دودونا » فيما إذا كان يجوز لهم أخذ الأسماء التى جاءتهم من الأجانب ، أجابهم الوحى بقبولها . ومنذ ذلك الحين بدءوا يستعملون الأسماء أثناء التضحية وبعدئذ أخذها اليونانيون عن « الپيلاسجيين » .

٥٣ — ولم يعرف اليونانيون أصل واحد من الآلهة ، ولا تاريخ وجودها القديم جميعاً ، ولا ماهى أشكالها ، لم يعرفوا ذلك إلا بالأسس أو بالأسس القريب كما يقولون^(٢) . وأنا أعتقد أن « هيسودوس » و « هوميروس » عاشا قبل عصرى بأربعمائة سنة لا أكثر^(٣) . وهما اللذان دونا لليونانيين أنساب الآلهة

(١) أشار « هوميروس » و « هيسودوس » إلى قدم « دودونا » ، وجعلها الأخير وطناً للبلاسجيين . انظر : (Ilias, XVI, 233 ff) . والغالب أن يكون مكانها « كاستريزا » بألبانية على مقربة من « يانينا » التى كانت مقر الحاكم التركى المعروف « على باشا » فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

(٢) يقرر « هردوت » فى هذه الفقرة أن « هوميروس » و « هيسودوس » عاشا معاً فى وقت واحد ولعله كان يؤمن بهذا رأى . ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن « هوميروس » عاش فى أواخر القرن التاسع (٨٣٠ ق) بينما ذاع صيته « هيسودوس » فى منتصف القرن الثامن أى حوالى ٧٥٠ ق . م .

(٣) إن Thucydides الذى تجنب تحديد الوقت الذى عاش فيه « هوميروس » قد جعله بعد حرب طرواده (عام ١١٨٣) بوقت طويل . فإذا زعم « هردوت » أن « هوميروس » و « هيسودوس » قد عاشا قبل عصره بأربعة قرون ، فعنى ذلك أنهما عاشا فى نهاية القرن التاسع ق . م . وهو تحديد لا يعد عملاً يراه أهل الدقة من الباحثين الذين جعلوا أيام « هوميروس » حول مطلع القرن العاشر قبل مولد المسيح .

وسماها بألقابها ، وتكلما عن مرتبة الشرف التي لكل منها ، واختصاصاتها
وفصلاً أشكالها . أما الشعراء الذين يقال إنهم وُجدوا قبل « هوميروس »
و « هيسودوس » فقد وجدوا بعدها (١) فيما أعتقد . والشر الأول مما سبق
يُنسب إلى ما تقوله كاهنات وحي « دودونا » . أما ما يأتي بعد ذلك بخصوص
هوميروس وهيسودوس فهذا من قولي أنا (٢) .

٥٤ — وهذا ما يقوله المصريون بشأن الهاتين اللذين يوجد أحدهما عند
اليونانيين والآخر في ليبيا (٣) . قال كهنة « زيوس الطيبى » إن الفينيقيين قد
خطفوا امرأتين مقدستين من طيبة ، وإنهم عرفوا أن إحداها قد بيعت
في ليبيا والأخرى في اليونان . وإن هاتين المرأتين هما اللتان قد أنشأتا الوحيين
أول الأمر عند الشعبين المذكورين . ولما سألتهم من أين لهم هذه المعلومات
الدقيقة التي يسردونها ، أجابوا على ذلك بأنهم قاموا ببحث واسع النطاق للعثور
على هاتين المرأتين ، إلا أنهم — رغم هذا — لم يستطيعوا أن يجدوها ،
ولكنهم أخيراً عرفوا بخصوصهما ما ظنوه لى .

٥٥ — هذا إذن ما سمعته من الكهنة في طيبة ، وفيما يلي مارواه عرّافات (٤)

(١) أكبر الظن أن الشعراء الذين عناهم « هردوت » هنا هم الذين كانت
شهرتهم واسعة أئيرة في دنيا الإغريق في أيامه من أمثال : Musaeus, Orpheus
ثم Linus .

(٢) نلاحظ هنا حرص « هردوت » على أن يفرّق دائماً بين ما سمعه من
رواته وما يراه هو . كما نلاحظ حدّته وعنفه في تقدّم من يرى أنهم أخطأوا .

(٣) يقصد بطبيعة الحال وحي « دودونا » وحي « آمون » .

انظر : (Cook, Zeus I, p. 264) .

(٤) يقول « سترابون » إن الكاهنات والعرافات لم يلحقن بمعبّد « دودونا »
إلى ما بعد ذلك التاريخ .

« دودونا » . طارت حمامتان سوداوان من « طيبة » التي في مصر^(١) ؛ ذهبت إحداها إلى ليبيا وجاءت الثانية إليهم . وعندما حطت هذه فوق شجرة سنديان^(٢) ، أعلنت في صوت آدمي^(٣) أنه يجب إنشاء هاتف لزيوس هناك . وأدرك القوم أن هذا نبا جاءهم من إله . وتصديقا له أقاموا الهاتف . أما الحمامة التي توجهت إلى ليبيا فتقول العرافات إنها أمرت الليبيين بإقامة وحي « آمون » ؛ وهو أيضاً خاص بزيوس . هذا ما قصه على كهانات « دودونا » . وكبراهن تسمى « برومينيا »^(٤) والثانية « تيجاريتي »^(٥) وأصغرهن « نيكاندري »^(٦) ووافق على روايتهن سائر الدودونيين الملحقين بالمعبد^(٧) .

(١) ترى أيكون قد اختلط عليه الأمر . حين كان يستمع إلى رواية المصريين عن النواحتين (يزيس ونفتيس) وقد كان المصريون يصور رانها في صورة حدأتين؟ انظر : (الفصل رقم ٨٥ وتعليقنا على ذلك) .

(٢) *Quercus esculus* (φηγός) شجرة من البلوط المثمر يزعم كُتَّابُ الإغريق أنها أقدم الشجر طرّاً ، وأن الناس عرفوها وماشوا على غمرها قبل أن يعرفوا الزرع والفلاحة . وقد جُعِلَتْ هذه الشجرة من مقدسات معبودهم « زيوس » . وبين اهتزاز غصونها وأصوات الطير من فوقها يُوحى إلى الكهان بإرادة الآله في مستقبل أيامهم . انظر : (Paus. T. 17. 5) .

(٣) *Pelaeides* : كانت الحمامة من مقدسات « دودونا » ، وكانت دائماً إلى جوار « زيوس » . وقد كان كهاناتها يُعرفن من أجل ذلك بالحائم . وكن من المذارى ؛ ينقلن الوحي (إرادة لآلهة إلى الناس) كما كانت تفعل *Pythia* في « دلفي » .

(٤) *Promonia* : « المبصرة » « الواعية » « المدبّرة » .

(٥) *Timarete* : « ذات الفضيلة » .

(٦) *Nikandra* : « قاهرة الرجال » .

(٧) انظر : (Homer, Ilias XIV, 235) .

٥٦ — وهذا ما أدلى به أنا في هذا الصدد ؛ إذا حدث حقيقة أن الفينيقيين قد اختطفوا هاتين المرأتين المقدستين ، وباعوا إحداهما في ليبيا والثانية في بلاد اليونان ؛ فيلوح لى أن هذه (الأخيرة) قد بيعت إلى «اليسبروتيين» الذين يقطنون حالياً بلاد اليونان . وكانت هى بعينها تسمى من قبل بلاد «بيلاسجيا» . وفيما كانت تعيش في هذا البلد عيشة العبيد ، أنشأت تحت شجرة سنديان تنمو هناك معبداً لزيوس ، فقد كان من الطبيعي — بعد أن خدمت في معبد لزيوس بطيبة (١) — أنها تذكره أينما حلت . وبعد أن تعلمت اللغة اليونانية أقامت هاتفاً ، وهى التى قالت إن الفينيقيين الذين باعواها هم أنفسهم الذين قد باعوا أختها أيضاً في ليبيا (٢) .

٥٧ — ويخيل إلى أن «الدودونيين» قد سموا المرأتين «حامتين» ؛ لأنها كانتا أجنبيتين (٣) ، ولأن لفتهما كما بدا للدودونيين كانت تشبه أصوات الطيور . وإذا ما قالوا إن الحمame بعد وقت نطقت بصوت آدمى فذلك بعد ما كلمتهم المرأة بما يفهمون ، ولكنها طالما كانت تنطق بلفة أعجمية ؛ فقد بدت لهم وكأنها تزقزق مثل العصفور (٤) . إذ كيف يتسنى للحمame أن تتكلم

(١) أكبر الظن أن «هردوت» هنا يُذكر بالثناء اللاتى كن يخدمين في المعابد المصرية وقد مر ذكرهن في الفصل الخامس والثلاثين من هذا الكتاب .
(٢) يبدو أن نسبة الاختطاف والبيع إلى الفينيقيين بالذات ، مرجعها إلى أن الفينيقيةين قد كانوا أئمة تجار الدنيا عامة ، وأشهرهم في حوض البحر الأبيض بحاصة .
(٣) انظر ما قدمنا عن ذلك من حديث في الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) .

(٤) كان من عادة الإغريق حين يسمعون لساناً غريباً لا يفهمونه أن ينعنوه بلسان الطير من صغار المصافير . انظر : (Eschyle, Agamemnon 1050) .

بصوت آدمى؟ وعندما يدَّعون أن الحمامة كانت سوداء ، فهم يشيرون بذلك إلى أن المرأة كانت مصرية^(١) . إن علم العرافة في « طيبة » المصرية يشبه ذلك الذى في « دودونا » . كما أن العرافة عن طريق فحص الضحايا جاءت من مصر أيضاً .

٥٨ — ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة^(٢) ، وعنهم تعلمها اليونانيون . ودليل على ذلك أنها تقام عند المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون إلا منذ وقت قريب .

٥٩ — والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة في السنة بعيد شعبي عام ؛ ولكن أعيادهم العامة كثيرة . أهمها ذلك الذى يتحسسون جداً لأقامته في مدينة « بوباسطيس »^(٣) لأرتيمس . ويليه عيد الإلهة « إيزيس » الذى يُحتفلُ به في مدينة « بوزيريس »^(٤) ، حيث يوجد بها أكبر معبد لهذه

(١) اللون الأسود ليس مرجح — إذا صح تخميننا في الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) — إلى أن الحمامة أو المرأة كانت مصرية وحسب ؛ بل لأنها كانت تُصور لدى المصريين في صورة حداة .

(٢) قد يكون ذلك صحيحاً ؛ يدل عليه كثرة ما خَلَّفَ المصريون على جدران معابدهم من مناظر تلك الأعياد . وحسبنا مناظر عيد « آمون » التى ما زالت باقية على جدران مبدب الأقصر ؛ حيث كان ذلك المعبود ينتقل إليه في موكبته الرسمى أيام عيد زواجه الذى جعله أصحابه في شهر « بابه » فسمى الشهر من أجل ذلك باسم المبدب . انظر : (Sethe, Amun. S. 11) .

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٠) من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل (رقم ٦١) من هذا الكتاب .

الإلهة . وتقع هذه المدينة وسط الدلتا^(١) . و « إيزيس » هي « ديميتير »^(٢) في اللغة اليونانية . وثالث هذه الأعياد يقام في مدينة سايس لأثينا^(٣) ، والرابع في مدينة « هيليوپوليس »^(٤) لهليوس ، والخامس في مدينة « بوطون »^(٥) للبتو ، والسادس في مدينة « پاپريميس »^(٦) لأريس .

٦٠ — وفي طريقهم إلى « بوباستيس »^(٧) ، يسلكون هذا المسلك : يبحر الرجال والنساء معاً ويحمل كل قارب عدداً كبيراً من الجنسين . ويُطبل

(١) « بوزيرس » مدينة قديمة في وسط الدلتا موقعها جنوبي « سمنود » . وتسمى الآن « أبو صير بنا » .

انظر : (J. Ball, Egypt in the Class. Geogr. p. 17) .

(٢) انظر الفصل السادس والخمسين بعد المئة من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل الثاني والستين من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٥) بوطون : مدينة قديمة بالقرب من « إبطو » وتعرف الآن باسم « كوم

الفرعين » أو « تل الفرعين » . انظر : (J. Ball, ibd. p. 17) .

(٦) پاپريميس Paprêmis : كانت أكبر الظن جزءاً من « تل الفرما » .

انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) . ويرى Kees (Kees, G. G. s. 12)

أنها على مقربة من (سايس) .

(٧) بوباستيس : مدينة من المدائن الشهيرة في مصر الفرعونية ، وكان موقعها

إلى الشرق من الفرع الپيلوزى ، ويعرف مكانها اليوم باسم « تل بسطة » عند

الزقازيق . جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت ف قيل إن « بسطة » كورة

بأسفل الأرض بمصر ويقال « بُسطة » بضم الباء : كذلك ورد ذكرها في قوانين

الدواوين لابن تيمّاتي على أنها من أعمال الشرقية . فأما اسمها المصري فركب من

لفظين ؛ بر (بيت) + بسته وهي المرة المقدسة عند المصريين .

بعض النسوة على الطبول التي بأيديهن ، وبعض الرجال يزمرن طول الطريق . أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون^(١) . فإذا ما بلغوا — أثناء إبحارهم — مدينة من المدن جنحوا بزورقهم إلى الشاطئ وقاموا بما يأتى : بينما يستمر بعض النسوة فى القيام بما وصفت ، تملأ أصوات بعضهن هاتفات ، ساخرات بنساء هذه المدينة . وبعضهن يرقصن ، كما يقف بعضهن رافعات ثيابهن . و« الناس » يفعلون مثل ذلك عند كل مدينة على شاطئ النهر . وعند وصولهم إلى « بوباسطيس » ، يحتفلون بالعيد ويقدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من النبيذ فى هذا العيد أكثر مما يستهلكون فى بقية العام كله^(٢) . ويبلغ عدد المجتمعين فى هذه المناسبة

(١) كان التصفيق والطبل والزمر من الأمور المألوفة فى أعياد الفراعنة ، وقد مرر بنا الكلام عن أعيادهم فى الفصل الثامن والحسين .

(٢) لسنا نعتقد أن « هردوت » مبالغ فى روايته ؛ فحياة هذا الشعب على زمان الفراعنة لم يكن فيها كثير من الضيق والشح ، وإنما كانت حياة موفورة الرزق مليئة بالحير ؛ فوجبة الفرد البسيطة كانت من الخبز ، وشرابه فيها الجمعة ، تكاد تشبه الوجبة الألمانية الشعبية . وأما الوجبة الكاملة الغنية فكان الطعام فيها من لحم البقر والطيور ، كما كان الشراب فيها نبيذاً . وكان نصيب العامل الفقير الكادح من الرزق فى اليوم ثلاثة أرغفة وإبريقين من الجمعة ، وقد يزداد عدد الأرغفة فتكون أربعة أحياناً . انظر : (Erman, Lit. S. 105) .

وفى صور الحياة اليومية — كما سجلها القوم بالرسم والحكاية — ما يدل على أنهم عاشوا عيشة راضية ؛ فهم قد أكلوا كثيراً وشربوا كثيراً ، وكان زادهم من الطعام والشراب حلواً طيباً . وأيسر النظر فى صور موائد القربان أو ما يصاحبها من قوائم الطعام والشراب ، وما فيها من ألوان الخبز والفطائر ولحم البقر والطيور ومن أنواع الشراب من الجمعة والأنبذة ، ليدل فى وضوح على أن أسلافنا فى هذا الوطن المصرى قد أحبو الحياة واستمتعوا فيها بالطيبات من الرزق ، ولم يطمعوا من وراء ديناهم فى أخرى تختلف عن أخيها فى شيء ؛ إذ كانت =

وفقا لقول أهل البلاد ، سبعمئة ألف من الرجال والنساء عدا الصبية .

== الأخرى في تصوّثهم استئنافا دائما لديّناهم .

وبعد ، فإن في آدابهم — فوق ما ذكرنا من صور الحياة — ما يدل على أنهم قد كانوا يستعشون أنفسهم على الاستمتاع بديّناهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ فهذا حكيم من حكماء الدولة القديمة يُغسّى الرجل بالزواج من المرأة البَصَنَّة المثلثة المرحّة ، ويوصيه بأن يكرمها بكل طيّبٍ من الطعام .

انظر : (Pap. Prisse 15, 6 — 7) .

وذلك آخر ، يئذل النصيح لغيره فيقول : « أنفق كل ما تملك فـِرْحاً ، وإياك أن تـَمْسك ، فإن من الخير للمرء أن يستمتع برزقه » .

انظر : (Erman, Lit. S. 144) ثم (Gardiner, Admon. 8, 6 — 7)

ونالت من زمان الأسرة الحادية عشرة يوصى بأن يُكْتَسَبَ على شاهد قبره : « لقد كنت امرأةً استمتع بكل يومه ، ولم أضيع من يومي ساعة استمتع » .
انظر : (Polotsky, Zu den Inschr. der 11. Dyn. S 32) .

وفي كل أولئك ما يظهرنا على نظرة القوم إلى الحياة ؛ يستوى في ذلك غنيهم وفقيرهم . فما أكثر ما تعددت أعيادهم ، وما أكثر ما استمتعوا فيها بالطعام والشراب ؛ بل لقد كانت لهم أعياد خاصة يستمتعون فيها بالشراب وحسب . وفيما أدخر الزمن من تراثهم الأدبي — من أغاني الحب والغزل من زمان الدولة الحديثة — ما يشير إلى كثرة الولائم في الأعياد وبخاصة ولائم الشراب منها .

انظر : (Erman, Lit. S. 313) .

والمصريون لم يتخرجوا من التحدّث عن ذكرى أيام استمتاعهم بالحياة ، وأعيادهم اللاهية الطامعة الشاربة ، وما أصابهم في كل أولئك من نشوة وسكر .

انظر : (١) Wreszinaki, Atlas I, Taf. 293

(٢) Erman, Aegypten, S. 288, Abb. 728

وجاء في الخبر عن أحاديث النّصر الذي أحرزه المصريون على يد بطلمهم المظفر « تحتمس الثالث » أن جلالاته كان يقضى أيامه بعد النصر نشوان متطيّباً ==

٦١ — ذلك ما يفعلون في هذا العيد . ولقد وصفت فيما سبق (١) كيف يحتفلون بعيد « إيزيس » في مدينة « بوزيريس » . بعد تقديم الضحية يلطم الجميع ، نسوة ورجالاً ، وهم آلاف مؤلفة من البشر . وليس من الورع أن أقول على من يلطمون (٢) . وكل « الكاريين » الذين يسكنون

= كما لو كان يُعيّد في مصر . وليس غريباً بعد هذا كله أن يراهم « هردوت » يشربون في أعيادهم على نحو ما وصف .

على أن كل ذلك لم ينس المصريين واجباتهم نحو وطنهم ، ونحو أنفسهم ، ولم ينسهم كرامتهم الإنسانية ، ولم ينسهم احترام القيم الحلقية والروحية . وفي آدابهم ونصائح الحكماء منهم حصّة على الاعتدال في استمراء لذات الحياة ولهوها ، ونهت عن الإسراف على أنفسهم في الحياة الدنيا . وفيها تحذير من فقدان الوعي خشية عقدة اللسان ، أو فقدان توازن البدن الذي يؤدي حتماً إلى وقوع الضرر والأذى بأبدانهم فضلاً عن إهدار الكرامة .
انظر : (Erman, Lit. S. 296) .

تلك كانت نصائح الحكماء والشيخوخ . ولكن لطبيعة البشر أثرها في السلوك على كل حال ، ففهم العاقل الرشيد ، ومنهم الطائش المنحرف . وليس على الحكماء والناصحين من ضير حين تذهب نصائحهم سدى إزاء فورة الشباب ، فما أكثر ما ينسى الشباب — والكهول أحياناً — ما مر بهم من عظات الأيام ، وما أكثر ما تضعف النفس البشرية أمام الإغراء ، وما أكثر ما يعجز الشباب عن أن يكبحوا جماحهم حين يتمسون شيئاً من لذات الحياة ، « فما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب . وما أحياء الدنيا إلا متاع الغرور » .
(١) انظر الفصل الأربعين من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٢) إنه يقصد « أزوريس » من غير شك ، يلطم المحتفلون الحدود في ذكرى مصرعه على يد أخيه الغادر « ست » ، ويرمزون بذلك إلى دخول الشتاء . كما فرحوا ببعثه في استقبال ربيع الحياة بين يدي فيضان النهر على نحو ما رأينا في الحديث عن « عيد بوبسطة » .

مصر^(١) يبالغون أيضاً في عمل ذلك لدرجة أنهم يقطعون جباههم بالمشارط ، ومن ذلك يتضح أنهم أجانب غير مصريين .

٦٢ — وعندما يجتمع المصريون في « سايس »^(٢) ، يشعلون جميعاً ليلة التضحية ، مصاييح عديدة في الهواء على شكل دائرة حول منازلهم . وهذه المصاييح عبارة عن أوان مسطحة مملوءة بالملح والزيت . ويطفو على سطحها فتيل يشتعل طول الليل . ولذا يسمى العيد « عيد المصاييح »^(٣) . والذين لا يذهبون إلى هذا الاحتفال من المصريين يترقبون ليلة التضحية ، ويشعلون بدورهم جميعاً المصاييح . وهكذا فالمصاييح لا تشتعل في « سايس » وحدها بل في مصر كلها . أما عن السبب الذي من أجله تُعظم هذه الليلة ، وتُضَاء ، فلذلك قصة مقدسة يروونها .

٦٣ — وإلى « هيليوپوليس »^(٤) و « بوطو »^(٥) يذهبون لتقديم الضحايا

(١) كان « السكارثون » يسكنون مصر منذ أيام « إيسماتيك » .

(٢) سايس : تعرف اليوم باسم « صا الحجر » . وكانت من أشهر مدائن الدلتا ، وكان موقعها في شرقي « فرع كاتوب » وعلى بعد قريب منه . انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) .

وقد تردّد ذكرها في هذا الكتاب . انظر : (الفصول : ٢٨ ، ٥٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦) .

(٣) ليس يبعد أن يكون السبب في إشعال المصاييح هو شدة الظلام في ليالي الشتاء الطويلة .

(٤) انظر الحديث عن « هليوبوليس » في الفصل الثالث (هامش رقم ٢) من هذا الكتاب .

(٥) بوطو : مدينة من أشهر مدائن مصر الفرعونية ؛ مكانها اليوم « تل الفرعين » ، وكان يخفل فيها عيد « حنجر » (= ليتو) . انظر : (الفصل الخامس والحسين ، ثم الفصل التاسع والحسين من هذا الكتاب) .

وحَسَب . فَأَمَّا فِي « بَابْرِيمِس » (١) فَيَقْرَبُونَ الْأَصْحِيَّاتِ وَيُؤَدُّنَ الشَّعَائِرَ كَمَا فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ . وَعِنْدَ مِيلِ الشَّمْسِ إِلَى الْغُرُوبِ تَنْصَرَفُ قَلَّةٌ مِنَ الْكَهَنَةِ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِتَمَثُّلِ الْإِلَهِ وَتَقِفُ أَكْثَرُهُمْ مَزُودِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ خَشَبٍ . بَيْنَمَا يَحْتَشِدُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْمَعْبَدِ وَفِي مَوَاجِهَتِهِمْ جَمْعٌ آخَرٌ مِنَ الرِّجَالِ يَرَبُّو عِدَدَهُمْ عَلَى الْأَلْفِ ، يُوْفُونَ بِالنُّورِ وَبِأَيْدِيهِمْ عَصَى أَيْضًا . أَمَّا تَمَثُّلُ الْإِلَهِ — وَقَدْ وَضِعَ فِي مَقْصُورَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْخَشَبِ الْمَنْهَبِ (٢) — فَيَنْقَلُ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى بِنَاءٍ آخَرَ مُقَدَّسٍ . وَتَجْرُ الْفَتَّةُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي كَانَتْ تُرَكِّتُ حَوْلَ التَّمَثَالِ مُحَمَّةً ذَاتَ أَرْبَعِ عِجَلَاتٍ ، تَحْمِلُ الْمَقْصُورَةَ وَالتَّمَثَالَ الَّذِي يَدْخُلُهَا . وَبَيْنَمَا يَنْعَمُهُمْ مِنَ الدِّخُولِ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقِفُونَ عِنْدَ الْمَدْخَلِ ، يَتَقَدَّمُ الَّذِينَ يُوْفُونَ بِالنُّورِ لِنَجْدَةِ الْإِلَهِ وَيَضْرِبُونَهُمْ . فَيُدَافِعُ هَؤُلَاءِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَعِنْدَئِذٍ تَنْشَبُ بَيْنَهُمْ مَعْرَكَةٌ حَامِيَةٌ بِالْمِصْبَى ؛ فَتَشْجِرُ رِمَوسُ بِلَ وَيَمُوتُ كَثِيرُونَ — كَمَا يُخَيَّلُ إِلَى — بِسَبَبِ جِرَاحِهِمْ . وَلَوْ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ أَكْثَرُوا لَيَأْتِيَهُمْ أَنْ لَا يَمُوتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وَيَقُولُ أَهْلُ الْبِلَادِ إِنْ نَشَأَ هَذَا الْعِيدُ تَرْجِعْ إِلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ : كَانَتْ أُمُّ « آرِيس » تَسْكُنُ هَذَا الْمَعْبَدَ ، وَكَانَ « آرِيس » قَدْ رَبَّيَ بَعِيدًا عَنْهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ سِنَ الرِّجُولَةِ ، جَاءَ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا . وَلَكِنْ أَتْبَاعُهَا لَمْ يَسْمَحُوا لَهُ بِالدِّخُولِ وَرَدُّوهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوْهُ مِنْ قَبْلِ . فَجَرَعَ « آرِيس » وَجَاءَ مِنْ مَدِينَةٍ أُخْرَى بِحِشْدٍ كَبِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ فَأَخَذَ الْأَتْبَاعَ بِالْعَنْفِ وَدَخَلَ عَلَى أُمِّهِ . وَمِنْ هُنَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِأَنْ تَنْشَبَ

(١) بَابْرِيمِس : مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ وَالْحَمْسِينَ (هَامِش رَقْم ٨)
وَمَا تَذَكَّرَ أَنَّهَا وَرَدَتْ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الْكُتُبِ الْقَدَمَاءِ غَيْرِ هَرَدُوتِ .
وَيَرَى Kees أَنَّهَا كَانَتْ بِالْقَرَبِ مِنْ « سَابِس » انْظُرْ : (Kees. G. G. S. 2)
(٢) عَرَفَ الْمَصْرِيُّونَ تِلْكَ النَّوَاسِيسَ الصَّغِيرَةَ ؛ وَكَانُوا يَحْمِلُونَ فِيهَا تَمَائِيلَ
الْمَعْبُودَاتِ لِيُسَطَّوْا بِهَا فِي الْمَآبِدِ أَيَّامَ الْأَعْيَادِ .

هذه المعركة في عيد « آريس » (١) .

٦٤ — والمصريون أيضاً هم أول من راعى السنة التي تحرم بجامعة النساء في المعابد ، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال (٢) . وسائر الشعوب تقريباً — فيما عدا المصريين واليونانيين — يجامعون النساء في المعابد ، ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، إذ يعتقدون أن شأن الإنسان في ذلك شأن سائر الحيوان . وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الآلهة وحرماً . فإذا كان ذلك العمل لا يرضى الإله فلماذا إذن تفعله الحيوانات . هذا ما يروونه ليبرروا به أعمالاً هي في نظري غير مرضية .

(١) يخيل إلينا أن تلك الصور المختلفة من العادات والتقاليد . مرجعها جميعاً إلى أسطورة الشهيد « أزوريس » وما صوّرت من حوادث مصرعه على يد أخيه « ست » ، ومولد « حورس » الذي تركته أمه رضيعاً بين أحراج الدلتا . ومطالبة هذا اليتيم بعرش أبيه القتل . وكيد عمه له ولأمه « إيزيس » . والنضال الذي جرى بين الخصمين حين اختصما إلى القضاء الإلهي في هليوبوليس وغيرها . ثم حين جرت بين الخصمين الحروب والوقائع التي رددتها الأساطير .

(٢) ان يبدو غريباً أن يحرم المصريون على أنفسهم دخول دور العبادة بعد الجماع دون اغتسال . ولسنا نستبعد مطلقاً أن يكونوا قد سبقوا غيرهم من الشعوب في الأخذ بهذه السنة إن لم يكونوا أول من أخذ بها .

انظر : (في موكب الشمس ج ١ ، ص ٢١٥) .

ونحب بهذه المناسبة أن نذكر أن الإسلام قد حرّم على أصحابه مباشرة النساء في المساجد . انظر : (سورة البقرة : آية ١٨٦) وفي ذلك ما يشير إلى أنهم ربما كانوا يفعلون ذلك قبل التحريم .

٦٥ - ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدسة وعلى الأخص ما يتعلق بالموضوع التالي : مع أن مصر تقع على حدود ليبيا (١) ، إلا أنها ليست مرتعاً للحيوانات المفترسة (٢) . لكن المصريين يقدسون كل

(١) حقيقة إن مصر التي رآها « هردوت » ؛ بل مصر كما عرفتها الدنيا قبل أن يعرفها « هردوت » بزم من طويل ، كانت قد برئت من كواسر الوحش وجوارح الطير بحيث لم يبق فيها من ذلك غير قليل . انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ٥٠) . وإنا لا نستطيع أن نرد الشك عن أنفسنا حين ننظر فيما يزعم « هردوت » حين يتحدث عن امتلاء صحراء ليبيا بالوحوش .
انظر : (الفصل الواحد والتسعين بعد المائة من كتابه الرابع) ؛ فيذكر فيها الأسود مثلاً ، وإن كان قد غلب وجودها في الصحراء العربية .

انظر : (Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung) Uebers. v. Roeder (Newberry (Der Alte Orient 27)) .

أو الفيلة التي لم يرها المصريون - غالباً - إلا في عصورهم البعيدة ، ولم يمارسوا صيدها إلا أيام حروبهم في آسية وعند أطراف الفرات . انظر : (Sethe, Urk. IV, S. 893) . أو الدببة التي لم يرها المصريون إلا في أحراج سورية ولبنان . انظر : (Borchardt, D. Grabdenkmal d. K. Sahurê Bd. II. Taf III Bd. I, SS. 16, 78 179)

أو «الحمار ذا القرن» ، وما نعرف ولا نقدر أن المصريين أو غيرهم قد عرفوا هذا اللون من الحيوان ، إلا أن يكون « هردوت » قد قصد به « وحيد القرن » وذلك حيوان لم تعرفه صحراء مصر لا في الشرق ولا في الغرب ، وإنما عرفه المصريون وتصيدوه في غابات إفريقية ، ولسنا نذكر أننا رأينا من رسومه غير ما وجد في أيام فرعون « تحتمس الثالث » على جدار في معبد له في «إرمنت» . انظر : (Helk, Urk. d. 18. Dyn. Heft 17. 1248) .

(٢) ذلك قول صحيح تؤيده آثار الفراعنة ، ولم ينفرد « هردوت » بذكره ؛ بل ذكره غيره من الكتاب . انظر : (Newberry, Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung uebers. v. Roeder D. Alte Orient 27) .

الحيوانات التي توجد في بلادهم — مستأنسة كانت أم غير مستأنسة (١) — وإذا أردت أن أتكلم عن الأسباب التي قدّست من أجلها الحيوانات ، لاستطردت في حديثي إلى الشئون الدينية التي أتحاشى بوجه خاص الخوض فيها بالتفصيل . أما ما ذكرته بصورة سطحية عن هذه الأمور ، فقد اضطررت إلى ذكره في سياق الحديث (٢) . وهذه هي السنة المتبعة فيما يتعلق بالحيوانات .

يُعَيَّنُ من المصريين — رجالا ونساء — من يسهرون على تربية كل نوع منها على حدة ، ويتوارثون هذه الوظيفة ، الابن عن أبيه (٣) . ويوفى سكان المدن ، كل على حدة ، بنذورهم إلى الحيوانات بهذه الطريقة : عندما يقدمون النذور إلى الإله الذي يُقدّس له الحيوان ، يخلقون رؤوس أبنائهم — الرأس كله أو نصفه أو ثلثه — ويقدّرون الشعر بزنته فضة (٤) ، ويُعطى هذا القدر من الفضة — مهما يكن وزنه — للحارس التي ترعى الحيوان . وفي مقابل

(١) شبيه بذلك ما ذكره في الفصل الثالث من هذا الكتاب حين قال : إن الناس يعرفون عن الآلهة قدراً واحداً .

(٢) شبيه بذلك ما رواه في الفصل الثالث انظر : (هامش رقم ٥) من هذا الكتاب .

(٣) مثل ذلك ما حكاه عن الكهان في الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب .

(٤) لا يبدو ذلك غريباً بين ما نعرف من صور عقائد المصريين وتقاليدهم ، وإن كنا نعتقد أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الأرض ، فلقد فعل غيرهم مثل ما فعلوا . ومن ذلك ما روى عن رسول الله « محمد بن عبد الله » صلوات الله وسلامه عليه ، أنه تصدّق بوزن شعر ابنته « إبراهيم » ذهباً . وشبيه بذلك ما يفعله المصريون من أهل القرى حين يخلقون شعور أطفالهم عند ضريح ولى الله السيد (أحمد البدوي) في طنطا .

هذا تقطع الحارسة قطعة من السمك وتقدمها طعاماً للحيوانات (١) . تلك هي الطريقة التي خصصت لتربية هذه الحيوانات ، وإذا قتل امرؤٌ إحداها عمداً ، كان جزاؤه الموت (٢) . أما إذا قتله بغير قصد ، فيدفع الغرامة التي يقررها الكهنة . فأما عقوبة الموت فلا مفرّ منها لمن يقتل « أبا منجل » أو باشقاً سواء ارتكب القتل عمداً أو دون عمد .

٦٦ — والحيوانات الأليفة عندهم كثيرة . وكان يمكن أن تكون أزيد من ذلك بكثير لو لم تلم هذه المصائب بالقطط (٣) : فعندما تلد الإناث من

(١) لا نعتقد أن سائر الحيوانات كانت تأكل السمك . إلا أن يكون تمساحاً ، أو سبعماء ، أو طيراً من طيور الماء .

(٢) يروى «ديودور الصقلي» (١، ٣، ٨، ٩) أن هذه العقوبة قد وقعت على أحد الرومان على الرغم من تدخل الملك المقدوني « بطليموس الزمار » أملاً في تخفيفها . انظر : (شيشرون : الرسائل ٥ ، ٧) .

(٣) كانت القطط — وما زالت — من أحب الحيوانات الأليفة إلى الناس ؛ تخصنها ربةُ الدار بكثير من الحب والراية والتدليل ؛ ذلك لأنها تخشى على نفسها وأهلها طامة ، ثم على صغارها بخاصة أذى الزواحف والحشرات . وتعرف أن القطط من ألد أعداء الزواحف والحشرات . وربة الدار تخشى أيضاً على ما في دارها من زائر وأنثى من عبث الفيران وعدوانها . وتعرف أن القطط من ألد أعداء الفيران . فلا غرابة إذن في أن يقدس المصريون للقطط ، ويحسّطوها بعد الموت ، ويصنعوا لها التماثيل . وقد عُثِرَ على قبور القطط في بعض الجبانات المصرية بصقاره وبنى حسن . انظر : (Kees, G.G S. 82) . ولم تل القطط من الشهرة والحظوة ما نالت — بين ما قدس المصريون من طوائف الحيوان — إلا في أيام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوبسطة » ماصمةً لملكهم . ثم خلط الناس في عقائدهم بعدئذ بين القطط وبين نفاثها وأشباهاها من الحيوانات ؛ ومن أمثلة ذلك أن تصبح المرأة لديهم الصورة الضاحكة لشبيبتها العباسية الفناكة « زحه » التي كانت من الباءة . انظر :

= (Höpfer, Tierkult, S. 35 f.)

القطط ، لا ترغب بعدئذ في معاشرة الذكور ، فإذا ما حاولت هذه الاجتماع بها فإنها لا تستطيع . ولهذا السبب : فكَّرت الذكور في الحيلة الآتية : تخطف الصغار من أمهاتها ، أو تسرقها ثم تقتلها ، ولكنها لا تأكلها . وبعد أن تحرم الإناث من صغارها ترغب في غيرها . وعلى ذلك تسعي نحو الذكور لأن هذا الحيوان كثير الحب لصغاره (١) . وعندما يشب حريق ، يستولى على القطط

= ولن ننسى من ذلك كيف تخيَّل المصريون معبودهم الأكبر « رع » في هيئة قط يصرع الحية « أبوفيس » التي خالوا أنها تتصدى لموكبه أصيل كل يوم وهو يعبر محيط السماء من شرق الدنيا إلى غربها . انظر : (Naville, Totenbuch I, Taf. 30) .

ولم يقف القوم في تصوُّرهم وخيالهم عند حد ما ذكرناه ؛ بل تخيلوا أن السماء محوطة برعاية القط ليطمئنوا أنفسهم على سلامة الشمس في سيرها . انظر : (Lacau, Textes. Relig. 30.) .

ولن تنكر عليهم بعد ذلك أنهم صوروا إله الشمس برأس قط .

انظر : (Lanzoni, Dizionario di Mitol, Taf. 16) .

ثم لا تنكر عليهم بعد كل ذلك أن يكثرُوا من صور ما تخيلوا من الأرواح في العالم الآخر، وأن يجعلوا لها رؤوس القطط ، ثم ينشروا تلك الصور على صفحات قبور الملوك أيام الدولة الحديثة ؛ معتقدين أن تلك الأرواح تقيم شر ما يعترض سبيلهم في هذا العالم من حيات . انظر : (Blackman, JEA. 5. p. 34) .

(١) قد لا يكون مستحيلا أن يقتل القط صغاره ليغري وليفته بالسمي إليه طلباً للومب وإرضاءً لشهوته ، وإن كان المتواتر في قصص الشعب وشعر الشعراء أن الأنتى هي التي تأكل صغارها إشفاقاً عليها من الأذى وخوفاً عليها من العدوان . ويحضرني في هذه المناسبة قول « شوقي » حين شبه الشمس بالهرة في نونيته المشهورة حيث قال :

فياك هرة أكلت بنينا وما ولدوا وتنتظر الجنينا
ويظن كذلك أن الهرة إنما تأكل بعض صغارها خطأً عند الوضع ، كما تأكل ما كان يموت منها .

أمر عجيب ؛ بينما يقف المصريون على مسافات متقاربة ؛ يراقبون القطط غير مهتمين بإطفاء النار المشتعلة ؛ تتسلل القطط من بينهم أو تقفز فوق رؤوسهم ثم تنب إلى النار . وتنزل هذه الحوادث بالمصريين حزناً شديداً . وعندما تموت قطة موتاً طبيعياً في مُنْزِلٍ من المنازل ، يخلق كل سكان المنزل حواجبهم فقط . أما إذا مات لهم كلب فيحلقون شعر البدن كله والرأس أيضاً (١) .

٦٧ — وبعد موتها تنقل القطط إلى مدافن مقدسة في مدينة « بوباسطيس » (٢) ، حيث تدفن بعد تحنيطها (٣) . أما الكلاب ، فيدفنها أهل كل مدينة في مقابر مقدسة . ويدفن النمس (٤) بنفس الطريقة التي تدفن

(١) ذلك لون من ألوان التعبير عن الحزن ، وإن كان يختلف عما جاء في الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب . وليس غريباً أن يحزن الناس عندما تنفق الحيوانات ؛ بل هم يفعلون ذلك في كل زمان ومكان ، وإن كانوا لا يُعَبِّرُونَ عن حزنهم بمثل ما يَصِفُ « هردوت » ، وإنما يفعلون غير ذلك ؛ فبعض المُعْتَرِضِينَ بدوا بهم في العصر الحديث كانوا يدفنون أغلاها لديهم وأعزها عندهم وبخاصة الحيل عند مدخل الدار (= تحت عتبة) .

(٢) انظر الفصل (رقم ٦٠) .

(٣) انظر الفصل السادس والستين من هذا الكتاب .

(٤) النمس : فهم المصريون القدماء — كما يفهم خلفاؤهم اليوم — طبيعة هذا الحيوان ؛ فعرفوا شدة عدائه للثعبان ، وجعلوه من أجل ذلك من حيواناتهم المقدسة ، ورمزوا به إلى الشمس (= آتون) تنقص روحه وبدنه حين تعرض لها الحية « أبوفيس » فتتصدى لموكبها أصيل كل نهار .

Sethe, Z.Ae. S. S. 63, 50

انظر : (١)

Dareasy, An. d. S. XVIII, p. 116

(٢)

والريفيون — وأنا منهم — يعرفون من طبيعة هذا الحيوان بعض ما عرف أسلافهم ، وأزيد على ذلك أنني رأيت بعينى نمنين يقاتلان حية ضخمة فيصرطانها .

بها السكّاب ، أما الجرذان الطويلة والبواشق ؛ فننقل إلى مدينة « بوطو » (١) ،
وينقل « أبو منجل » إلى « هرموبوليس » (٢) . أما الدببة . وهي نادرة
الوجود (٣) والذئاب (وهي) لا تزيد كثيراً في حجمها على الثعالب (٤) ،
فتدفن حيث تموت .

(١) انظر الفصلين رقم ٦٣ ، ١٥٥ من هذا الكتاب .
(٢) « هرموبوليس » (= مدينة هرمس) : اسم أطلقه الإغريق على الإقليم
الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، ثم على عاصمته في وقتٍ معاً . وتُعرفُ
المدينة اليوم — كما عُرِفَتْ قديماً — باسمها المصري القديم « أثنونين » . موقعها
على مسيرة ١٨٠ ميلاً إلى الجنوب من القاهرة .
وقد وُجِدَ في جياتها المعروفة اليوم باسم « تونة الجبل » كثيرٌ من مدافن
هذا الطير ومواميه وتماثيله . وكان الطير ، كما سنرى في الفصل السادس والسبعين
رمزاً لمعبود المصريين المعروف « توت » . انظر : Gabra (Sami)

- (1) Rapport sur les fouilles d' Hermopolis ouest
(Touna el — Gebel) 144
(2) Exploring the Galleries of Hermopolis the sacred city of
Thoth, Illust. London News 13. (1939)

(٣) تلك مسألة فيها نظر ؛ فالدب ليس حيواناً مصرياً ، وإنما عرفه المصريون
في غير واديهم . انظر : (الفصل رقم ٦٥ هامش رقم ١) . هذا ، ولم يرد ذكره
في تراث الكُتّاب الأقدمين حاشاً عند أحدهم وهو « Prosper Alpinus » .
ولا نذكر أن المصريين قد قدّسوا هذا الحيوان ، ولا نعرف أنهم حنّطوه
بعد موته ، أو جعلوا له قبوراً كثيرة من حيواناتهم المقدسة .

(٤) ليس المقصود هنا الذئاب كما نعرفها ، وإنما الغالب أن تكون « بنات آوى »
التي خلط الإغريق بينها وبين الذئاب . ومن آثار هذا الخلط أنهم ممّثّوا مدينة
« سيوط » « لىكوبوليس » أى « مدينة الذئب » . ولم يكن حيوانها ذئباً ،
وإنما كان من بنات آوى ، وقد عُيِّنَ في الجبانات المصرية بكثير من مدافن
هذا الحيوان ومواميه وتماثيله .

٦٨ — وهذه هي طبيعة التماسيح (١) : لا تأكل التماسيح شيئاً ما أثناء أشهر الشتاء الأربعة . والتمساح من ذوات الأربع ؛ يعيش على الأرض وفي الماء على حد سواء ؛ يضع بيضه ويقفسه على الشاطئ . ويمضي أكثر النهار على الأرض الجافة ، ولكنه يقضى الليل كله في النهر ؛ لأن ماءه يكون حينئذ أسخن من الهواء والندى . وهو دون سائر الكائنات التي نعرفها ينمو من أصغر حجم إلى أكبره . فالبيض الذي يضعه لا يزيد فعلاً في حجمه على بيض الأوز . وحجم الصغير عند خروجه من البيضة يتناسب مع حجم هذه (٢) . ولكنه يأخذ في النمو حتى يبلغ سبعة عشر ذراعاً أو أكثر (٣) . وله عينا خنزير وأسنان كبيرة ، وأنياب تتناسب مع حجم جسمه . وهو الحيوان الوحيد الذي ليس له لسان . ولا يحرك أيضاً فكّه الأسفل . وهو كذلك — وحده دون سائر الحيوانات — يطبق فكّه الأعلى على الأسفل (٤) . وله مخالب قوية ، وجلد مغطى بالفلوس ؛ غليظ على الظهر ، لا ينفذ خلاله شيء . ومع أن التمساح

(١) إن الوصف الذي أورده « هردوت » في هذا الفصل وفي الفصول التي تليه ، لا ينصبُّ على التمساح من حيث تقديس المصريين له وحسب ، ولكن من حيث طبيعته وصفاته كحيوان لا تعرفه بلاد الإغريق . والواقع أن « هردوت » قد وصفه وصفاً لا يخلو من الدقة والبراعة .

(٢) يقصد أن التماسيح تضع أيضاً يراه صغيراً بالنسبة إلى أحجامها . ومن أجل ذلك يخرج الحيوان صغيراً من البيضة الصغيرة ، ثم يأخذ في النمو إلى أن يبلغ المدى الذي قَدَّرَتْ له الطبيعة من حجم .

(٣) أى نحو خمسة وعشرين قدماً . وذلك في الواقع هو متوسط ما يبلغ التمساح — في الأغلب الأعم — من طول .

(٤) الواقع أن للتمساح لساناً ، موضعه في الفك الأسفل الذي لا يتحرك . ومن أجل ذلك لم يستطع « هردوت » رؤيته .

أعشى في الماء ، إلا أن بصره حاد جداً في الهواء (١) . وبسبب بقاءه في الماء
يمتلئ فيه كله من الداخل بالعلق (٢) ، وتفر منه الحيوانات والطيور الأخرى
إلا « الزقزاق » ؛ فهو على وئام معه لأنه نافع له (٣) . إذ عندما يخرج التماسح
من الماء إلى الأرض ، يفغر فاه (ومن عادته أن يفعل ذلك غالباً في مهب الرياح
الغربية) هنالك يدخل « الزقزاق » في فمه ويلتقط العلق ؛ فيبتهج التماسح من
حسن صنيع الزقزاق ولا يؤذيه .

٦٩ — ويقدّس بعض المصريين التماسيح ، أما البعض الآخر فلا
يقدمونها ؛ بل يرونها أعداء (٤) . والمصريون الذين يقطنون حول طيبة

(١) أما أن التماسح يعشى في الماء ؛ فقد يكون ذلك أثراً من آمال المصريين
في اتقاء شرّه . ولم يكذب « هردوت » يسمع منهم ذلك حتى اعتقد أنه حقيقة ؛
إذ الواقع أن المصريين — وبخاصة رواد الماء كالرعاة ورجال الملاحة —
كانوا يخشون على أنفسهم وعلى أنعامهم شر هذا الحيوان ؛ فيلجأون إلى
التخلص من ذلك بالتعاون والرفق .

انظر : (Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the Brit. Mus. pl. 20 & P. 23. 34 (London 1910))

(٢) يقصد بالعلق نوعاً من حشرات الماء الصغيرة تدافع إلى فم الحيوان
كلّما تشاء .

(٣) تلك حقيقة واقعة ؛ إذ أن الوحيد في عالم الحيوان والطيور ، بل وفي سائر
الكائنات ، الذي كان يستطيع الاقتراب من التماسح ، قد كان طيراً يُعرف عندنا
اليوم باسم « الزقزاق » ؛ لا يكاد يجذب التماسح على الشاطئ حتى يندفع إليه ،
ولا يكاد التماسح يستقبله حتى يرفع فكه الأعلى ، وهنالك يدخل « الزقزاق »
رأسه في فم التماسح ويلتقط ما في فكه من ذلك العلق ، ويرتاح التماسح
لذلك فتسيل دموعه . ومن أجل ذلك يُسمّى الناس الدموع التي لا يجريها
الحزن والألم « دموع التماسيح » .

(٤) التماسح : أسماء المصريون حيواناً « إمساح » . وليس بعيد أن تكون =

وبحيرة « مويريس » يعدونها مقدسة جداً . ويربى سكان كل إقليم من هذين الإقليمين تمساحاً واحداً من بين التماسيح كلها ، يُدرب ويُستأنس ثم توضع في أذنيه أقراط من الحجر المذاب والذهب ، وحول قائمته

== قد سبقت الإسم أداة التعريف المصرية للمفردة المؤنثة « ت » فصار الاسم « تمساحاً » . فأما اسمه كحيوان مقدس فكان « sbk سبك » ، وصحفه الإغريق فصار « سوخوس » . وليس عجيباً أن تبدو فكرة تقديس هذا الحيوان لدى الفرعنة غامضة عند المؤرخين لكثرة ما ورد له في آدابهم من صفات منها : الجشع ، الشر ، الوقح ، الثائر ، الفتاك . كل ذلك رغم ما يذكرون من صفاته الطيبة ؛ حين يحملونه « رباً للتيل » ويضيفون إلى ذلك أنه هو « الذى يجوب البحيرات » ، ثم هو عندهم « ذو النظر الحديد » الذى يجوب الشواطئ . كما أن رياض الأرض من مصائده ، وهو الذى يعيش على أكبر سُكَّانِ الماء ؛ فيخشاه أكبر سكان الماء . بل هم آخر الأمر قد خالوا فرعون المتوفى في صورة تمساح ! ولم يكن عجيباً أن يرهبه سكان الوادى وبخاصة رؤاد الماء من البحارة والرحاة ؛ ويبلغ بهم الرعب أن يتحاشوا ذكر اسمه ويدعون عليه بالعمى ، ثم يدعون على اللصوص من نباشى القبور بأن يتعقبهم التمساح في اليم ، وتتبعهم الحيات في البر . وليس من شك في أن طبيعة النهر ومجرأه ، ثم تجارب رؤاد النهر وركابيه هي التي أوحت إلى المصريين تقديس هذا الحيوان ؛ وحسبنا من كل ذلك الجزر المنتشرة في مجراه ، وسرعة التيار في بعض مناطقها ، والشواطئ الصخرية التي تعوق الملاحة بحيث تبدو خطرة على الملاحين ؛ ومنها منطقة « جيل السلسلة » و « شواطئ كوم أمبو » والجزر المنتشرة عند « منطقة الجبلين » وثنية النهر عند « دندره » ، و « جيل الطارف » ، و « جيل أبي فودة » عند أسيوط ؛ ومظاهر تقديس التمساح بادية عند « المعابدة » ، و « طهطا » ، و « السرارية » ، و « الشيخ حسن » ، و « الحبيه » ، ثم « الفيوم » . وكذلك في منطقة غرب « الدلتا » .

الأمميتين أساور^(١). ويقدمون له طعاما خاصا وأصحيات. ويعاملونه طول حياته أحسن معاملة . وعند موته يُحنطونه ويدفنونه في مقابر مقدسة^(٢) . أما الذين يعيشون حول مدينة «إليفانتينا»^(٣)، فلا يعتبرونها مقدسة ؛ بل يأكلونها^(٤). والمصريون لا يسمونها تماسيحا ؛ بل « خامبسي »^(٥) والأيونيون هم الذين سموها تماسيحا [عِظَاء] بمقارنة أشكالها بأشكال العظاء التي توجد عندهم في الحوائط ذات الأحجار الجافة^(٦) .

٧٠ — ولصيدها طرق متباينة ؛ أكتب منها هذه لأنها تبدو لي أجبرها بالذكر. يضع الصياد حول الشص عجيزة خنزير ، ثم يلقي بالشص في وسط النهر ، بينما يبقى واقفا هو نفسه على الشاطئ ومعه خنزير صغير حتى يضربه ، وعندما

(١) تزيين التماسيح : إن في الصور التي وُجِدَتْ على آثار المصريين ما يؤيد ذلك.

انظر : (Knauers Lexikon der Aegypt. Kultur, S. 137) .

(٢) يدل على ذلك ويؤيد صحته كثرة ما وجد في الجبانات من بقايا

موامى التماسيح .

(٣) انظر ما جاء عن تلك المدينة في الفصل (١٧) من هذا الكتاب .

(٤) لا نظن أن المصريين كانوا يأكلون التماسيح ، ولا نعرف كيف يأكل

الناس التماسيح ، ولم يرد في أخبارهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى أكل

التماسيح ، وأكبر الظن أن يكون ذلك من باب الخلط وسوء الفهم . اللهم

إلا أن يكون هردوت قد رأى بعضهم يأكلون العظاء ، كما كان العرب مثلا

يأكلون الضب ؛ هذا ، وقد سمعت من سكان النوبة أنهم يأكلون الورن ،

وأن بعضهم يأكلون لحم التماسيح ، وأزيد على ذلك أن أحد الأحياء من زملائنا

علماء الدراسات المصرية القديمة من البريطانيين قد أكل لحم التماسيح في بلاد النوبة.

(٥) خپسي ليس من السهل مطلقاً تحديد أصل هذه الكلمة .

وليس من السهل كذلك إرجاعها إلى أصل مصرى كما حاول البعض .

(انظر : 8 — J. Černy, An. d. S. 42, p. 346)

(٦) كان ذلك منذ بدأ الإغريق يقدون على مصر للبدل والتجارة ، ومنذ

أن اتخذ « إيسماتيك » من بينهم جنودا مرتزقين . انظر : (ص ٦) .

يسمع التماسح صباح (الخنزير) يندفع نحوه ، فيجد عجيزة الخنزير ويبلغها .
وعندئذ يُجرُّ إلى الشاطئ . وبمجرد أن يتم إخراجها من الماء ، يبدأ الصياد أولاً
وقبل كل شيء بتلطيف عينيه بالطين . فإذا نجح في عمل ذلك ؛ تمكن من تذليل
ما تبقى (من عقبات) في يسر تام . فإن لم ينجح ، فإنه لا ينال (بقيته) دون مشقة .

٧١ — وأفراس النهر مقدسة في ولاية « پاريميس » (١) . ولكنها
ليست مقدسة لدى سائر المصريين . وهذه طبيعة شكلها : إنها من ذوات
الأربع ، لها مخالب مشقوقة كأظلاف البقر ، مفرطة الأنف ، ولها معرفة
حصان . ولها أنياب بارزة ، ولها ذيل الحصان وصهيله . وهي في حجم أكبر
ثور ، جلدها غليظ جداً حتى إن قنا الرماح تصنع منه بعد تجفيفه (٢) .

٧٢ — وتوجد في النهر كذلك كلاب الماء وهي مقدسة . ومن بين
الأسماك ما يعد مقدساً كذلك . ما يسمى منها الشبوط والشبان . ويقال إنها
مقدسان للنيل ، ومن الطير الأوز الثعلبي (٣) .

(١) انظر الحديث عن تلك المدينة في الفصل (رقم ٦٣) . هذا وقد فات
هردوت أنها كانت مقدسة في إقليم طيبة أيضاً .
انظر : (Roeder, Art. Thuëris in Roschers Lex. d. Mythol.)
(٢) فرس النهر : حيوان نهريٌّ من أكلة النبات ، لا خوف منه على حياة
الإنسان ، وإنما خطره محقق على الزرع ؛ يطؤه بأقدامه فيفسده . أكثر المصريون
صيده وكانوا يستعيضون بعظامه عن سنّ الفيل ، وراحت سوق التجارة في تلك
العظام خلال العصور المتأخرة .

انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 184) .

(٣) انظر : لفظ $\chi\eta\nu\alpha\lambda\omega\pi\eta\gamma\gamma\iota$ (كينالوبيكس) الذي يترجمه الألمان إلى
Fuchsgans أي «الإوزة الثعلبية» ، نظرأما رأوا من تشابه بين لونها ولون الثعلب .
وهو ضربٌ من الإوز المائي كان موجوداً في وادي النيل ؛ أسماء المصريون Smn
وفي القبطية CMOYN واسمه العلمي Chenalopex Aegyptiaca .
انظر : (Kuentz, L'oie du Nil (Archives du Museum d'histoire
naturelle de Lyon XIV 1926)

٧٣ — وهناك طائر آخر مقلس يسمى «الفونكس» (١) . لم أره إلا مصوراً . إذ أنه يزور البلاد فيما ندر ؛ يزورها كل خمسمائة عام على حد قول أهل «هيليوبوليس» . وذلك عندما يموت أبوه . وإذا كان يشبه رسمه فهكذا يكون حجمه وشكله : بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر . وهو

(١) Phoenix : جرت العادة أن نسميه بالعربية «العنقاء» فأما اسمه المصري الأصيل فقد كان « بنو » (Bnu) . وأكبر الظن أن يكون اشتقاقه من الفعل المصري «وين» (wbn) بمعنى «أشرق» «برق»، «لَمَعَ» . ويكون معنى الاسم بناء على ذلك «البراق» أو «اللماع» . انظر : (Sethe, Z. Ae. S. 45 S. 48) . من هنا جاءت قصة الصلة بين اسم الطائر وبين الحجر المرمي «بن بن» (bn bn) الذي رمز به المصريون إلى التل العتيق الذي برز من «النون» (= الماء الأزلى) . أى إلى الأرض التي طفت على وجه الماء ، فإذا هذا الطائر يتلاّ من فوقها فيملاً نوره الكون ، ويخرج صوته فيكون بذلك أول صوت دوى في الوجود ثم تكون «الكلمة» . انظر : (Wiedemann, Z. Ae. S. 16, S. 89 f) . ثم (Kees, G. G. S. 52 f. & 217 f) .

ويستمر المصريون في الربط بين هذا الطائر وبين الحجر المدبب الذي ذكرناه ، ثم بينه وبين العمود الذين يسمونه «إيونو» ويجعلون من كل أولئك رمزا لظهور إله الكون العتيق «آتوم» . انظر : (Sethe, Pyr. Text. 1952) . ثم (Erman, Relig. SS. 28, 333) . ثم (Kees, G. G. S. 217 ff) . وأخيراً يعرف المصريون المسلات ، ويتخذون منها رمزاً للشمس ؛ فيدبسون قمها على النحو الذي عرفنا في الحجر المرمي الذى أسمىه « بن بن » . ثم يكسونها بصفائح من خلوط الذهب والفضة ؛ حتى إذا ما أشرقت الشمس وأصاب أشعتها قمة المسلة انعكس منها الضوء فأثار ما حولها من وجود . ونستطيع أن نتصور كيف كان كهّان هيليوبوليس ينتظرون عودة ذلك الطائر في شوق ولهفة ، كما كان كهان ممفيس ينتظرون ظهور الفحل «آيس» . انظر : (Ranke, Z. Ae. S. 78) .

قريب الشبه جداً من النسر في هيئته وحجمه^(١). ويروون أنه يُدبّر في مهارة هذا الأمر. ولكنني لا أصدق ما يقولون. يرون أن هذا الطائر يغادر بلاد العرب حاملاً أباه إلى معبد الشمس ليدفنه بهذا المعبد، وذلك بعد أن يغطيه بطبقة من المر. ولكي ينقله يقوم بما يلي: يصنع أولاً من المر بيضةً بالقدر (الحجم) الذي يستطيع حمله، ثم يحاول حملها، فإذا انتهى من محاولته يُفرغ البيضة ويضع أباه فيها. وبعدئذ يُلطّخ بالمر ثانية المكان الذي جَوّفه من البيضة وأدخل أباه منه، على أن يبقى ثقل البيضة واحداً (قبل تفريقها وبعد وضع أبيه فيها). وبعد أن يغطي أباه هكذا، ينقله إلى معبد الشمس بمصر؛ ذلك ما يفعله ذلك الطير حسب قولهم.

٧٤ — وتوجد حول طيبة حيات مقدسة لا تؤذى الإنسان مطلقاً. صغيرة الحجم. لها قرنان ينبتان بأعلى الرأس، تدفن عند موتها في معبد «زيوس» لأنها — على حد قولهم — مقدسة لهذا الإله^(٢).

(١) إن هذا الوصف الذي أورده «هردوت» مأخوذ غالباً عن سلفه «هيكاتيه». انظر: (Waddell, Herodotus, p. 100).

(٢) لا يملك تاريخ العقائد في مصر الفرعونية ما يشير إلى تقديس تلك الحية في العصور المتأخرة وإن بات من المرجح أنها قُدّست في العصور البعيدة. ولا أدل على ذلك من أنها اُستُخِذَتْ علماً وشارة ورمزاً للإقليم الثاني عشر من أقاليم الصعيد؛ وهو الإقليم المعروف بإقليم «جبل الحية». فإذا صح ما قاله «هردوت»، فلن نستبعد مطلقاً أن يكون تقديسها قد بُعث بعد ذلك، وكان قائماً في زمانه. وإنما الشيء الذي غاب عن «هردوت» هو أن ذلك النوع يُعدّ من أخطر الحيات السامة. انظر: (Kees, G. G. S. 58)، وأنه لا يزال معروفاً في مصر الوسطى، وفي الصعيد، ثم في الصحراء أيضاً. ويسمى الشعب اليوم تلك الحية بأسماء منها «الطريشة» و«العمية» و«الدفانة»؛ يوهون أنفسهم بأنها لا تسمع، وبأنها لا ترى، ثم يُحذّرون أنفسهم من خطرها لأنها تدفن جسمها في التراب مُتَكَوِّنةً بلونه فتصعب رؤيتها.

٧٥ — ويوجد في بلاد العرب مكان يقع تقريبا تجاه مدينة «بوطو» (١). وقد ذهبت إلى هذا المكان في أثناء بحثي عن الحيات ذات الأجنحة. ولما وصلت رأيت كميات تفوق الوصف من عظام حيات من وأعمدتها الفقرية. إذ كانت هناك أكوام كثيرة من الأعمدة الفقرية بعضها كبير وبعضها صغير وأخرى أصغر من هذه وتلك... وهذا وصف المكان الذي تملؤه الأعمدة الفقرية: هو عبارة عن ممر ضيق يبدأ من الجبال وينتهي بسهل فسيح؛ ذلك السهل يتاخم سهل مصر. ويقال إن الحيات ذات الأجنحة تطير عند بدء الربيع من بلاد العرب إلى مصر، وإن «أبا منجل» يتصدى للقائها عند مدخل هذا الممر ولا يسمح لها (بدخول مصر)؛ بل يهلكها (٢). ويقول الأعراب إن المصريين يُعْظَمُونَ «أبا منجل» كل التعظيم من أجل صنيعه هذا. والمصريون يتفقون مع الأعراب على أنهم يُجْلَوْنَ ذلك الطير لهذا السبب.

(١) بوطو: ربما يقصد بها الجزء الممتد في الصحراء من وراء الفرع الشرقي للنيل. والغالب أن «بوطو» هنا مدينة أخرى غير التي مر ذكرها في الفصول ٥٩ و٦٢ و١٥٥ وهو يعني في الغالب مدينة أخرى ربما كان مكانها بالقرب من البحيرات المرة. انظر: (Waddell, Herodotus, p. 192, Not. 7). وربما كان غير بعيد من بحيرة التمساح.

انظر: (Sourdille, La durée et l'étendue du Voyage, p. 87).

(٢) لا نظن أن مصر قد عرفت ما يسميه «هردوت» بالحيات المجنحة، وبخاصة بعد الذي قال في وصفها (في الفصل رقم ٧٦) من حيث أنها تشبه حيات الماء، وأن أجنحتها بغير ريش، وأنها تشبه إلى حد ما أجنحة الخفافيش، أما من حيث تصدى «أبي منجل» لتلك الحيات وإهلاكها؛ فإن ذلك يعدها كل البعد عن أن تكون حيات بالمعنى أو المبني الذي يتصوره هرودوت، بل إن الظن لينتج بنا إلى تصوّر شيء كالجراد الذي يجيء مادة من الشرق عبر الصحراء العربية إذا ما كان فصل الربيع.

٧٦ — وهذا شكل « أبي منجل » : كله أسود حالك السواد ، له فخذان كركي ، منقاره مُقَوَّسٌ جداً ، وهو في حجم الكركي . ذلك شكل « أبي منجل » الأسود الذي يقاتل الحيات . وفيما يلي وصف « أبي منجل » الذي يروح ويفندو بين الناس في أغلب الأحيان (لأن هناك نوعين من هذا الطير) : الرأس وكافة العنق لا يكسوها الريش ، وريشه أبيض فيما عدا الرأس والرقبة وأطراف الجناحين ، ونهاية الذيل . (كل هذه الأجزاء التي ذكرتها حالكة السواد) وهو يشبه النوع الآخر من حيث الفخذ والمنقار (١) . أما الحيات ذات الأجنحة فتشبه في شكلها حيات الماء ؛ أجنحتها بغير ريش ؛ تشبه على وجه التقريب أجنحة الخفافيش .

وإن لفي ذلك الحديث الكفاية عن الحيوانات المقدسة .

(١) أبو منجل : يَتَوَهَّمُ كثيرون أن المقصود بهذا الطائر المقدس ، هو ما نسميه اليوم « أبا قردان » ؛ ذلك الطائر الأبيض المعروف الذي ينتشر في الزروع ويُحَوِّمُ حول الأماكن التي يكثرُ فيها الماء ، ثم يعلو ظهور الدواب — وبخاصة البقر — يلتقط من جراحها الدود . واسم هذا الطائر عند العلماء (*Ardeola ibis*) والواقع أن أسلافنا قد عرفوه كما نعرفه اليوم ، وكانوا يَعدُّونه من حاة البقر .

فأما الطائر الذي قدَّسوه فعلاً ؛ فقد صوروه على آثارهم في صور ثلاث :

أولها الأسود وكانوا يسمونه (gm.t) ويسميه العلماء *Plegadis falcinellus* وذلك هو الذي عناه « هردوت » وقال إنه كان يقي مصر شر ما أمناه « الحيات المُجَنَّبَةُ » . وذلك الطيور بالحيات عامة أمرٌ معروف ، إذ يقال إن بعض البقاع الإفريقية طائراً يقال له الـ *Serpentaire* يتصدى للحيات ويقتلها .
وثانيهما ذو الناصية وكانوا يسمونه (akh) أي « اللناع » . ويسميه العلماء *Comatibis eremita* . وقد اقرض اليوم من مصر تماماً كما اختفى من ربوع أوروبا الوسطى والجنوبية .

٧٧ — أما عن المصريين أنفسهم ؛ فأولئك الذين يعيشون في الأراضي المنزرعة^(١) ، يهتمون دون سائر الناس اهتماماً كبيراً بتمرير الذّاكرة . وهم ، في العلم ، يتفوقون كثيراً على كل الشعوب التي خبرتها . وهذه هي طريقة الحياة التي يتبعونها :

مراعاة لصحتهم ، يتناولون في ثلاثة أيام متتالية من كل شهر مقيّات^(٢) وحقنٍ شرجيّة ؛ إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التي تتغذى بها . وهم — حتى بغير ذلك — أصبح الناس عامة بعد الليبين^(٣) .

== وثالث هذه الأنواع وأهمها وهو الذي قدسه المصريون وأسموه (hibi) وجعلوه رمزاً لمعبودهم « توت » فيسميه العلماء *Threskiornis aethiopica* كان أبيض اللون ، وفيه من السواد لون رأسه وعنقه وأطراف ريشه . ولقد انقرض هذا الأخير من مصر ولم يعد يُرى بوادي النيل إلا في السودان الأعلى . انظر : (Kees, K. G. S. 32 34) .
ثم : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur) .
وأخيراً : (Keimer, An. d. S. XXX, S. 20 ff.) .
(١) يقصد بذلك من يعيشون في الوادي ؛ حيث الأراضي التي تزرع على ماء النيل وما يتفرع منه من ترع وجداول تميزاً لهم من البدو الرحّل الذين يعيشون في الصحراء .

(٢) لا نظن أن المصريين وحدهم قد كانوا يفعلون ذلك ، وإنما شركتهم في ذلك شعوب أخرى ؛ يقصدون به إلى تطهير أحشائهم حفاظاً على سلامة أبدانهم .
(٣) ذلك قول صحيح إلى حدٍّ كبير ، والمصريون القدماء كانوا أشدّ عناية بسلامة أبدانهم من خلفائهم في العصور الوسطى والحديثة ؛ فهم لم يعرفوا أمراض « الكوليرا » ، وما صنعنا كذلك بأنهم أصيبوا بالطاعون ، ولا غيره من تلك الأمراض التي نشأت بعد مشروعات الري الدائم . وليس معنى ذلك أنهم سلموا من سائر العلل والأمراض ؛ كلا ! بل إن كثرة ما كان عندهم من أطباء — تنوعت تخصصاتهم — يدل على ما كان يصيبهم من مختلف الأدوية .
انظر : (الفصل رقم ٨٤ من هذا الكتاب) .

وهذا يعزى — فيما أعتقد — إلى المناخ ؛ فهو غير متغير الفصول (١) ،
إذ أن الأمراض تنتاب الناس — أغلب الأحيان — نتيجة للتغيرات بجميع
أنواعها ، وبوجه خاص ، نتيجة لتغيرات الفصول (٢) . ويأكلون خبزا يصنعونه
من القمح ذى الحبة الواحدة ويسمونه « كيليستيس » (٣) . ويشربون نبيذاً
مصنوعاً من الشعير ؛ إذ لا توجد في بلادهم كروم (٤) . ويأكلون بعض السمك

(١) انظر مايرويه «ديودور» عن مناخ مصر : (Diod. I, 10, 1) .
(٢) مثل ذلك ما رواه «أبقراط» عن تغير المناخ في فصول مصر السنوية .
انظر : (Hippocrates, Aphorismi, III. 1) . ثم مارواه «جالينوس»
وغیره من الأطباء عن فروق التغير خلال تلك الفصول وإن كانت غير كبيرة
كما هي الحال في بلاد أوروبا .
(٣) انظر الحديث عن ذلك النوع من الحبوب في (الفصل رقم ٣٦) من
هذا الكتاب .

(٤) ليس المقصود هنا نبيذاً بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ؛ فالنبيذ
لا يصنع من الشعير ، بل يصنع من العنب . وإنما الذى يصنع من الشعير هو الجعة .
والمصريون قد عرفوا الجعة ، واستمتعوا بهذا الشراب الشعبي ؛ شأنهم فى ذلك
شأن الألمان الذين اشتهروا بحبهم الممتازة . وإذا كان الإغريق قد ائتموا هذا
اللون من الشراب نبيذاً (OINOS) فلم يكن ذلك — أكبر الظن — إلا من
باب التعميم كما يسمى العامة فى مصر اليوم كافة أنواع الأشربة الروحية «خرا» .
ولم يكن «هردوت» وحده هو الذى ذكر هذا الشراب ، وإنما ذكره «ديودور»
(Diod. I, 3) و «استرابون» . انظر : (Strab. Geography XVII, 2,5) .
وكذلك ذكر «أثينيوس» Athenaeus أن المصريين قد صنعوا من الشعير
شراباً مسكراً . انظر : (Athenaeus, The Deipnosophists, I, 34) .
واشتهر المصريون بصناعة الجعة ، وأغرموا بشربها ، وزودوا بها موتاهم
فى الآخرة . وكانت صناعتها من محتكرات القصر الملكى أيام البطالة .
انظر : (Bevan, A Hist. of. Eg. under Ptol. Dyn. (1927) . =

نيثاً ، مجففاً في الشمس ، ويأكلون البعض الآخر بعد حفظه في الملح ،
ويأكلون من الطيور السمان والبط والعصافير ، يأكلونها نيئة بعد تلييحها (١).
وخلاف ذلك من الطير والأسماك التي توجد عندهم — إلا ما يعدونه مقدساً —
وكل ما تبقى يأكلونه مشوياً أو مسلوفاً .

٧٨ — وفي اجتماعاتهم عند الأثرياء منهم — بعد أن ينتهوا من الأكل —
يطوف بهم رجل يحمل في نعش جثة من الخشب تشبه تماماً ، بما عليها من
نقش وتصوير (٢) ، جثة حقيقية تبلغ إجمالاً في حجمها ذراعاً أو ذراعين .

= ذلك قول لا يستقيم مع الحق والواقع ، بل ولا مع ما ذكره « هردوت »
نفسه عن مقادير النبيذ التي كان يشربها الكهان (فصل رقم ٣٧) . ولا ما ذكره
من مقادير الأنبذة التي كان يستهلكها المصريون عامة في الأعياد (فصل رقم ٦٠) ،
ولا مع ما ذكره عن استمتاعهم بالأنبذة (فصل رقم ٧٨ ، ١٢١ ، ١٣٧) .
ولا ندرى كيف فات « هردوت » كل ذلك ، فوقع في هذا الخطأ البين ؛ ذلك
لأن مجرد النظرة البسيطة فيما ترك المصريون من صور حياتهم في مختلف العصور
تدلنا على أنهم عرفوا الكروم عامة ، وكروم العنب بخاصة ، وعصروا منها
الأنبذة (Erman, Aeg. S. 227) ثم (Breasted, Anc. Rec. V. P. 170)
كما عرفت المعاصر منذ أبعاد العصور (Breasted, ibid. 1, 173) ومناظر
الكروم والمعاصر وتعبئة النبيذ معروفة في الصور المنتشرة على صفحات القبور
منذ أيام الدولة القديمة (Davies, The Mastaba of Ptahhetep & Akhethetep, I. pl. XXIII).

(١) ذلك صحيح ، فقد كان السمك المجفف المملوح ، وسائر ألوان الطيور
من عناصر الغذاء لدى المصريين ؛ ينال منها الغنى والفقير على السواء . وإن
على آثارهم من الرسوم ما يرينا صور العمل في تجهيز مختلف أنواع السمك والطيور
ثم تجفيفها وتلييحها .

(٢) انظر : (Plut., Isis & Osiris, I, 7) .

ويربها الرجل لكل فردٍ من الحاضرين وهو يقول : « انظر إلى هذه . . . ثم اشرب وتمتع (بالحياة) ، ذلك لأنك سوف تصير مثلها بعد الموت » (١) . ذلك ما يفعلونه في الولايم .

٧٩ — ويتمسك المصريون بتقاليد أسلافهم (٢) ، ولا يزيدون عليها مطلقاً أى جديد . ومن بين عاداتهم المختلفة التى تستحق الذكر هذه بالذات . أعنى وجود أنشودة وحيدة ؛ أنشودة « لينوس » التى تنشد فى « فينيقيا » و « قبرص » وغيرهما . ومع أن اسمها يختلف باختلاف الشعوب (٣) ، إلا أنها

(١) من الطريف أننا ما زلنا نردّد مثل هذه العبارات فى حياتنا الحديثة (« ساعة لقلبك وساعة لربك » و « اتمتع بالدنيا وسيك ») .

(٢) حقيقة إن المصريين من أشد شعوب الأرض محافظة على تقاليدهم القديمة انظر : (الفصل رقم ٩١) ؛ يحرصون عليها أشد الحرص ، بل يحرصون عليها حرصهم على عقائدهم وأعراضهم . لا يكاد يدانهم فى ذلك شعب من شعوب الأرض غير الصينيين . بل إن بعض هذه التقاليد ما زالت تنشى حياة أهل القرى ؛ وإن كانوا لا يعرفون عنها أكثر من أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك .

(٣) Linus : الكلمة فى أغلب الظن اسم لفتاءٍ حزين يُندبُ به العزيزُ ممّن يودّعون الدنيا ؛ كمن يموتون فى سنٍّ مبكرة من الأبناء والأحباب . وأكبر الظن أيضاً أن مرجح ذلك كله إلى موت الشهيد « أزوريس » . وقد كانوا يرمزون بموته إلى ما يصيب الطبيعة من موات أيام الشتاء . ولم يكن مثل هذا التفكير قاصراً على المصريين من آل فرعون وحسب ؛ بل تعداهم إلى غيرهم من شعوب الشرق ثم إلى شعب يونان . و « آدون » عند شعوب الشرق يمثل البعث فى الطبيعة ؛ أى يمثل ربيع الحياة الزاهر كلما استدار العام من وراء موات الطبيعة فى أيام الشتاء . ولسنا نستبعد أن يكون هو بعينه الذى عبّر عنه العرب بلفظ « عدن » ، ونسبوا إليه « جنّات عدن » . ثم هو بعينه من يستبّه الإغريق فى أساطيرهم « أدونيس » ، ويصورونه فتىً جميل الطلعة من أبناء =

بالإجماع نفس الأنشودة التي ينشدها اليونانيون باسم « لينوس » . ومن بين الأمور العديدة التي تثير أشد العجب في مصر ، المصدر الذي أخذوا عنه اسم « لينوس » . ويظهر أنهم يتغنّون به دائماً من قديم الزمان . و « لينوس » اسمه في اللغة المصرية « مانيروس » (١) . ولقد قال لي المصريون إنه كان الابن الوحيد لأول ملك حكم مصر ، ولما مات قبل أوانه كرّمه المصريون بهذه المراثية فكانت هذه أنشودتهم الأولى والوحيدة (٢) .

٨٠ — ويتفق المصريون مع « اللاكيديمونيين » وحدهم من بين اليونانيين في أمر آخر ؛ عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ،

= الملوك . تراه « أفروديت » فيشغفها حباً ، ويحسده على ذلك آريس (Ares) ، ويمتلئ قلبه كرهاً له وحقداً عليه ، ويظل يتربص به حتى يلقاه ذات يوم في الصيد فيغري به من الوحوش ما يفتسه . ومن ذلك كله نرى أن « آدون » الذي يرمز به أهل الشرق إلى ربيع الحياة الزاهرة ، ويتخيّله الإغريق في ميسم الشباب الفاتن لا يخرجان في طبيعتهما عن طبيعة « أزوريس » الذي صورته الأسطورة المصرية الخالدة صريعاً في نضرة الشباب ، وجعلته رمزا للخير والوفاء ؛ فهو يمثل وفاء النيل وفيضه ، ويمثل البعث في حياة الطبيعة .

(١) MANEROS : « مانروس » : اسم لم تعرفه الوثائق المصرية برغم ما بينه وبين الكلمة القبطية « مانرو » (= راعي) من تشابه . ويحتمل أنه مشتق من المقاطع المصرية « ما — ن — را » بمعنى « تعال » ارجع « عُدْ » . التي ورد ذكرها في كتاب الموتى . انظر : (Waddell, p. 196) . وليس يعيد كذلك أن يكون أصل الكلمة المصري Ma - n - ir - bs (ما . إن — إر — حس) بمعنى « مكان الإنشاد » .

(٢) انظر : (Plut. Isis & Osiris, 15—17) .

نم (Paus. I, 29. 3; Athénée, 14. 71 p. 620) .

ويتنحّون جانباً . وعندما يقبل عليهم الشيوخ (١) ، يقومون من مقاعدهم . ولكنهم لا يتفقون مع أحد من اليونانيين في عادة أخرى ، فبدلاً من أن يتبادلوا فيما بينهم عبارات التحية في الطرقات ، ينحنون احتراماً ويخفضون اليد حتى الركبة (٢) .

٨١ — ويحملون ثياباً من الكتان محلاة بهُدّاب حول الساقين يسمونها « كالاسيريس » (٣) . ويلبسون فوقها معاطف من الصوف الأبيض تنسدل على الكتف (٤) . ولكنهم لا يلبسون الملابس الصوفية عند ذهابهم إلى المعابد (٥) . ولا يُدَقَّفُون بها ؛ لأن الدين يحرم ذلك . وهم يتفقون في هذا

(١) إن احترام الصّغير للكبير أمرٌ من أخصّ خصائص التّرية في الشرق عامة وفي مصر بخاصّة . ولسنا نشك في رواية « هردوت » ؛ بل ليس علينا إلاّ أن نتظر في بعض ما ترك السلف من كتب التّرية لئلا نرى تلك الحقيقة واضحة . انظر : (Pap. Priese, S.4 ff. die Sprueche des Wesirs Ptahhotep)

(٢) انظر : Mueller (Helmuth) Darstellungen von Gebaerden auf Denkmälern d. AR. (Mitt. d. deutsch. Inst. in Kairo Bd.7 (S. 91 ff.

(٣) καλασιρις : لباسٌ من الكتان .

انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 39) .

(٤) نوع من المعاطف أشبه شيء بما يسمونه « البرُنس » في بلاد المغرب .

(٥) سبق أن قدّمنا ما كان يجب على الكهّان من العناية بنظافة أبدانهم ، وكيف أن حرصهم على ذلك قد اقتضى ألا يلبس الكهّان غير ثياب من الكتان الأبيض الناصع البياض . انظر الحديث عن ذلك (في الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) . فلا عجب إذن في أن يُحرّم على المصريّين دخول المعابد بملابس غير كُتّانية .

مع الطقوس التي تسمى «أورفيّة» (١) و «باخوسية» (٢) . وهي في الواقع طقوس مصرية (٣) ؛ وفيثاغورسية (٤) ؛ إذ لا يباح لأحدٍ ممن يشتركون في هذه النحل أن يُدفنَ وعليه ملابس صوفية . ولذلك قصة دينية يروونها (٥) .

٨٢ — ويُعزى اكتشاف هذه الأشياء الأخرى إلى المصريين أيضاً ، باسم أي إله يسمى كل شهر وكل يوم . لاحظ من يولد في يوم كذا وكذا ؟ كيف سيقضى أيامه . وما سيكون شأنه (٦) . ولقد استخدم

(١) أصلها في الإغريقية Orphika وفي اللاتينية Orphica ومعناها «الطقوس السرية لعبادة Orphéus» معبود «تراقيا» .

انظر : (Lamer, (Hans) Woerterbuch d. Antik. S. 537) .

(٢) Bakchai : «عابدات باكوس» . وكن يرتدين أردية طويلة وعليها

جلد غزال ، وشعورهن منحلة مسدلة . انظر : (Lamer, ibd. S. 76) . .

(٣) انظر ما جاء عن ذلك في (الفصل رقم ٤٩) من هذا الكتاب .

(٤) ظاهر أن «هردوت» كان يرى أن الطقوس «الأورفيّة» التي أنماها

«الباكوسية» أو «الباخوسية» إنما جاءت من مصر ، وأن الإغريق كانوا يسمونها في عصره «الفيثاغورسيّة» ؛ لأنها بلغت بلادهم بين يدي «فيثاغورس» .

(٥) يعني بذلك قصة الشهيد «أزوريس» . وهو يتجنب دائماً التحدث عنه

كما ذكر في الفصول (رقم ٤٨ و ٦٢ و ٦٥) من هذا الكتاب .

(٦) استخدم المصريون التنجيم في كشف طوابع الناس وتحديد حظوظهم

من الأيام التي ولدوا فيها . وقلدهم في ذلك الإغريق والرومان . وفعل

المسيحيون مثل ذلك في عصورهم الوسطى ، ثم ظلوا على ذلك حتى أيام القرن

السابع عشر للميلاد . ولقد كانت للمصريين في أيامهم عقائد ؛ فيها ما يكون فيه

طالع السعد ، ومنها ما يكون فيه طالع النحس .

انظر : (Bakir, (Mohsen) Cairo Calender of lucky & unlucky)

. (Days, No. 86637)

الشعراء^(١) من اليونانيين هذه المعلومات . ولقد اكتشف المصريون من علامات الغيب أكثر من الشعوب قاطبة ؛ وذلك لأنه كلما حدثت معجزة خارقة ، راقبوا نتيجتها وسجلوها . فإذا ما حدث شيء مشابه بعدئذ ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بالأولى .

٨٣ — وهذا شأن العرافة عندهم : لا يُنسبُ هذا الفن إلى واحد من البشر ؛ ولكن إلى بعض الآلهة^(٢) . فعندهم وحي « لثيرا كليس » و « أبوللون » وآثينا و « أرتيمس » و « آريس »^(٣) وزيوس . و وحي « ليتو » في مدينة « بوطو »^(٤) ، الذي يُجلُّونه أكثر مما (يُجلُّون) الجميع . ولكن طرق العرافة عندهم ليست واحدة ؛ بل مختلفة .

= حيث اهتم الدكتور عبد المحسن بكير الأستاذ بجامعة القاهرة بهذا الأثر وأعدّه للنشر ، وهو قرطاس يحوى كافة أيام السنة (٣٦٥) مع وصف طوالها السعيدة وغير السعيدة .

انظر أيضا^(١) Chabas, Le Calendrier des jours fastes et néfastes de l'année égyptienne Paris 1870.

وأخيراً Pierre Montet, Everyday life in Egypt, trans. p. 36 f.

(١) انظر : (Hesiode, Orphée) .

(٢) نلاحظ أن « هردوت » هنا يسمي المعبودات المصرية بما خلع عليها هو أو قبيله من الإغريق — الذين يجهلون أسماء المعبودات المصرية — من أسماء إغريقية

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٣) وما بعده من فصول .

(٤) انظر الفصل (رقم ١٥٥) .

(٥) يقصد بذلك الطريقة التي تتبع في الاستبحاء والتي يُعلن بها الوحي .

انظر : (Erman, Relig. 23. 312. 337) .

ثم (Ed. Meyer, Die Papyrusfunde von Eleph. (Leipzig. 1912))

(S. 78 ff) .

٨٤ — وينقسم التطبيب عندهم^(١) إلى الفروع التالية: لكل مرض

(١) سجل التاريخ قديمه وحديثه لشعب مصر العظيم معرفة في الطب لم يسجلها لغيره من شعوب الدنيا ، ثم وضع بين أيدينا من شواهد تلك المعرفة ذخيرة غنية مترفة قوامها كتب « ثمانية » . زعم كتّابها أنها صور من أصول قديمة . وعلى الرغم من هذه الكتب المتعددة ؛ نرى أننا ننظم المصريين أشد الظلم إن نحن اكتفينا بها في تصوير ما ينبغي لهم من معرفة في علم الطب ؛ ذلك لأن هذا العلم قد كان لديهم من الأسرار . ولسنا نشك مطلقاً في أنهم قد أخفوا من أسرارهم أضعاف ما أبدوا . وتلك حقيقة يشير إليها ويؤكددها « استرابون » حين يقول : إن علوم الطب كانت سرّاً من أسرار الكهنة المصريين . ثم يدلّل على ذلك بأن بعض من طلبوا شيئاً من أسرار المصريين في معارف الطب قد ظلوا يلزمون أبواب الكهان ثلاثة عشر عاماً .

وإذا كان تراث المعارف الطبية عند آل فرعون قد جاء مشوّباً بتعاويز السحر والرقى ؛ فهو قد كان وما يزال كذلك عند كثير من شعوب الدنيا .

ولإنه ليسعدنا حقاً أن نقرر أن مهنة الطب عند أجدادنا من شعب هذا الوادي قد كانت تقتضى من أصحابها أن يعرفوا الفنّ الجليل ، وأن يعرفوا صناعة التحنيط ، وأن يكونوا من الكتّاب المجيدين ، والسحرة الماهرين ؛ كما كانوا يؤمنون بقداسة هذا العلم ؛ فهذا قرطاسى « إپرس » (Pap. Ebers) ، وهو واحد من تلك الكتب التى ذكرنا ، يزعم كاتبه ويؤكد ، أن علمه قد أورحى إليه من أرباب « صا الحجر » (سايس) وأرباب « أون » (عين شمس = هليوبوليس) ليخفف عن الناس آلامهم ، وليحفظهم من شرور العلل والأسقام .

انظر : (Schaefer, Z. Ae. S. XXXVII, P. 27) .

هذا ، وكان الملوك من آل فرعون يقرّبون الأطباء ، ويجدلون لهم العطاء . انظر : (Quibell, Saqqara, 1905/6 - II. 4. 7. 22) . كما كان بعضهم يعرفون الطب ؛ وإلى بعضهم تُنسب أصول معرفته ومنهم الملك « أوديمو » أحد ملوك الأسرة الأولى (٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م.) ومنهم الملك « نفر إركارع » من ملوك الأسرة الخامسة .

طبيب متخصص فيه لا لأكثر . وبلادهم كلها غاصة بالأطباء ؛ بعضهم متخصص في العيون^(١) ، وبعضهم في الرأس ، وبعضهم في الأسنان ، وبعضهم

== انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ١٨١ وما بعدها) .

كذلك كانت أكثر العقاقير التي استخدمها أطباء الفراعنة تُوصف بأنها من عمل الأرباب ، وقد يذكرنا ذلك بما يفعل المحدثون من أتقياء الأطباء حين يبدأون عملهم « بسم الله » . وكذلك كان الأطباء المصريون من كهان المعبودة « زُخَّة » (ربة الفنتك ، ومذبة العلل والأوبئة) . كما كان الأطباء الإغريق ينتسبون إلى معبود لهم يدعونه « أسكليپوس » ، ويرمزون إليه بالثعبان الذي يحمل السم .

وبعد ، فقد كان من أشهر ما تسمينه « الكُتب الطبية » عند آل فرعون ذلك القرطاس الشهير الذي يعرف لدى العلماء باسم « Pap. Edwin Smith » (قرطاس « أدوين سميث ») في الجراحة . وإنه لكتاب يعالج أجزاء الجسم الإنساني ، ويشخص ما يصيب أعضائه من علل ، ثم يتحدث عن الجراح وعلاجها ، وما لا يمكن علاجه منها . ونحب أن نشير آخر الأمر إلى أن أقوم ما يمكن أن يُقرأ عن ذلك القرطاس وقيمه في عالم الطب والجراحة ، ما كتبه طبيبنا المصري العالم المفكر والباحث المدقق الدكتور « محمد كامل حسين » في كتابه « متون » (القاهرة ١٩٥١) . ثم بحثه الذي صدر بعد ذلك بعنوان The EDWIN SMITH PAPYRUS, The OLDEST SURGICAL TREATISE IN THE WORLD.

(١) إذا كان « هردوت » قد رأى ذلك في مصر ؛ فإن البحوث العلمية في الأعوام الأخيرة قد طلعت علينا بما يؤيد قوله لا في الأيام التي زار فيها مصر وحسب ؛ بل في أيام الدولة القديمة أيضاً ؛ فهي قد يئسنا لنا قدس علوم الطب إلى حد يبعث على الدهشة ، ذلك لأن مصر قد عرفت في ذلك الوقت البعيد من تاريخ الإنسانية أطباء للإمراض الباطنية ، وآخرين للعيون ، وغيرهم للأسنان . كما عرفت طوائف منظمة من رجال الطب ، مثل « عميد الأطباء » . و « الطبيب الأول » و « عميد أطباء القصر » و « طبيب القصر الأول » ، و « طبيب الأسنان الأول للقصر » . انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ١٨٩) . ==

في الأمعاء ، وبعضهم في الأمراض الخفية (١) .

٨٥ — وهذه أساليب الحداد والدفن عند المصريين ؛ إذا مات

— في بيت من البيوت — رجل ذو قدر ، لطخت كل نساء هذا البيت الرأس أو الوجه بالطين ، ثم يتركن الجثة في الدار ، ويجلن في المدينة لأطبات وقد شمرن ، وكشفن عن صدورهن (٢) ، ومعهن كل قريباتهن . والرجال كذلك

= وأخيراً وليس آخراً ، لا نجد أدل على تقدم المصريين في علوم الطب عامة وفي طب العيون بخاصة من أن يلجأ « قورش » ملك فارس — حينما أصيب بمرض في عينيه — إلى فرعون مصر « أمازيس » ؛ يلتمس منه إرسال أحد أطبائه المتخصصين ليقوم بعلاجه .

انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الأول من الكتاب الثالث لهردوت) .

(١) يقصد الأمراض الباطنة . انظر : (Kees, K. G. S. 306) .

(٢) إن لطم الحدود ، وشق الجيوب ، وتلطخ الوجوه والثياب بالوحل أو صبغها بالألوان القاتمة كان وما يزال معروفا كله أو بعضه في الشرق عامة ، وفي مصر بخاصة ، وظاهر أن تقاليد الندب ومظاهر الحزن في مصر قديما وحديثا إنما ترجع إلى أصل قديم ؛ نطالع آثاره في تلك الأسطورة الخالدة المعروفة التي تصور لنا مأساة إمام الشهداء عند آل فرعون « أزوريس » . وإذا كانت أخته « إيزيس » و « نفتيس » في مقدمة المحزونين لمصرعه ؛ فقد رمز المصريون إليهما بمحدأتين نواحتين ؛ تركع الأولى عند رأسه وتضع يديها عليه ، وتركع الأخرى عند قدميه وتضع يديها على صدرها . وتلك صورة مألوقة في مناظر الجنائز التي رممها القوم في قبور موتاهم ومن حولها صور لطوائف من النساء باكيات معولات صائحات ، وقد حللن شعورهن ، وشققن جيوبهن ، وأرسلن دموعهن . انظر : (Kees, K. G. S. 98) .

تلك صور ما زالت أمثالها حية في ريف بلادنا عامة وفي ريف الصعيد بخاصة .

وإذا كان الإسلام قد قبّح ذلك ونهى عنه ، فإن الناس في مصر لم ينتهوا عن

ذلك وما أظن أنهم منتهون عنه في سهولة ، بل ولا في وقت قصير . =

يلطمون ويشمرون ، وعندما ينتهى ذلك يحملون الجثة لتحنيطها (١) .

= حقيقة إن الإسلام قد نهى عن ذلك ، وحقيقة إن النبيَّ صلوات الله عليه يقول « ليس منا من لطمَ الحدودَ وشقَّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية » .
ولكننا نسمع أن النبي عندما اشتد حزنه على شهيد أحد الأول عمه « حمزة » رضوان الله عليه ، وسمع نساء الأنصار يبكين من استشهاده من أهلنَّ ، سُمِعَ يقول محزوناً : « ولكن حمزة لا بواكى له » . فخرج نساء الأنصار جميعاً يبكين « حمزة » . وإنا لنسمع أن ذلك قد أصبح من التقاليد المعروفة عند الأنصار وبعض القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر ؛ حيث يبدأ النساء ندبهنَّ بذكر « حمزة » ، ثم يخلصن من ذلك إلى بكاء الميت من أهلن .

(١) التحنيط : عادة قديمة ، ابتدعها واشتهر بها قدماء المصريين ؛ بمعناها الاعتقاد أن الموت لم يكن عندهم نهاية كل حي ، وإنما كان نقلةً تفارق فيها الروح الجسد فترة ، ومن الممكن أن تعود إليه إذا ما استطاعوا حفظه سليماً بينَ المعالم . وفكرة المحافظة على الجسد من التلف ترجع عند المصريين إلى عصر بعيد جداً ؛ فهم قد كانوا يعمدون إلى الجسد فينزعون عنه ما يكسو العظام من لحم ، وما يتخلل ذلك من مواد رخوة تعمل على إذابة العظم . ولم يكن غريباً إذا أن يسموا القبر « مكان العظم » (Sethe, Die Totenliteratur d. alt. Aeg.) (Preuss. Akad. Wissensch. Phil. Hist. Klasse 1931, XVIII) .
فأما التحنيط الكيميائي فترجمه إلى عصور قديمة أيضاً ، وإتسا لنجد آثار ذلك من زمان الأسرة الأولى . انظر : (JEA. 7. 31—7) .

ثم لا نلبث أن نبيِّنها بوضوح في زمان الأسرة الثانية .

انظر : (Lucas, Anc. Eg. Mat. & Ind. p. 230,) .

ثم (Petrie, R. T. II, 1.) . ولقد كان من الممكن أن يتوافر لدينا الكثير من آثار التحنيط رتيبة يتلو بعضها بعضاً ، لولا ما وقع على قبور الملوك والموسرين من عدوان ، وما أصابها من تخريب خلال الثورة الاجتماعية التي قامت أواخر أيام الدولة القديمة .

= انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها) .

٨٦ — ويقم هناك أناس مهنتهم التحنيط وبه يشتغلون^(١). عندما يؤتى إليهم بجثة ؛ يعرضون على من جاء بها نماذج لجثث مصنوعة من الخشب ، تشبه الحقيقة بنقشها ، ويقولون إن أجود أنواع التحنيط إلتقانا هو ما يرجع إلى من لا أستبشح ذكر اسمه في هذا المجال^(٢) . ثم يعرضون نماذج الطريقة الثانية وهي أقل من الأولى جودة ونمنا . والثالثة وهي أقلها نفقة . وبعد شرحهم هذا ، يستفهمون منهم عن الطريقة التي يريدون أن تعد لهم بها الجثة . وبعد أن يتفق أصحاب الجثة معهم على التكاليف^(٣) ، ينهبون عنهم ويتركونهم في محلاتهم . فيقوم المخطون بتحنيط الجثة على الوجه التالي ؛ وهذه أحسن الطرق : أولا : بواسطة قطعة معقوفة من الحديد يخرجون المنخ من المنخارين ؛ يخرجون بعضه هكذا

= هذا ولقد أصبح التحنيط في مصر صناعة طبقت شهرتها الآفاق ، وصارت حديثا يروى حتى يومنا هذا . انظر : (Ell. Smith, Eg. Mummies 1924) .
ثم B. Grdseloff, D. Aegyptische Reinigungszelt (Le Caire)
(1941) .

(١) من الطبيعي أن يكون في مصر أناسٌ يحترفون التحنيط ، وقد كانت حرفة مُرمجة من غير شك ، وكان الأبناء يتوارثونها عن الآباء ؛ شأنهم في ذلك شأن أبناء المحترفين من كل لون . انظر : (Diodor, I. 91, 2) .

(٢) يقصد « أزوريس » كما أوضحنا غير مرة في الفصول السابقة .

(٣) تلك حقيقة لا نعدم العثور على ما يؤيدها في تراث المصريين من العصر الروماني .

انظر : (١) Pap.Bulaq III; Pap. Louvre 5158

(٢) Maspero, Mém. sur quelques pap. d. L. p. 14

(٣) Urk. d. Relig. d. Aeg. S. 297

والبعض الآخر بفضل عقاقير يَصْبُونُهَا (فى الرأس) ، وبعد ذلك يشقون الكشح بحجر أثيوبى مسنون^(١) . ويخرجون الأحشاء كلها التى ينظفونها ويفسلونها بنبيد التمر^(٢) ، ثم يطهرونها بالتوابل المجروشة . وبعدئذ يملأون الجوف بمر نقى مسحوق ، ودارصينى^(٣) وسائر أنواع الطيب ما عدا البخور ، ثم يخيطنونها ثانية . وبعد أن يفعلوا ذلك يملحون الجنة بتفطيتها بالنطرون^(٤)

(١) أكبر الظن أن ما يسميه « هردوت » هنا « بالحجر الأثيوبى » هو « الصوّان » . وقد كان من أوائل المواد التى اتخذ منها المصريون أسلحتهم منذ أقدم العصور . وفى ترانهم كثير من تلك الأسلحة . وطبيعى أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى الأسلحة الحجرية أيام « هردوت » ؛ ذلك لأنهم عرفوا المعدن قبل أيام « هردوت » بوقت طويل . فإذا صح ما يقوله « هردوت » من أنهم استعملوا « الصوّان » ؛ فأغلب الظن أن يكون سببه الحرص على التقاليد . وأن المحافظة على القديم قد دعتهم إلى استعمال « الصوّان » مع وجود المعادن التى تصلح لأن تصاغ منها أسلحة الجراحة .

(٢) يقصد بذلك الحمر المقطر من البلح وقد عرفه المصريون القدماء كما يعرفه خلفاؤهم اليوم . وكما كان يعرفه غيرهم مثل سكان أرض النهرين . انظر : (ما قاله « هردوت » عن ذلك الحمر فى كتابه الأول فصل ١٩٣) .

عُريق ذلك النوع من الحمر عند المصريين منذ أيام الدولة الوسطى ، وكان يستعمل دواءً . انظر : (Kees. K. G. S. 52) .

(٣) الاسم العلمى *Cinamomum Zeylnicum* Nees

(٤) عرف المصريون قيمة « النطرون » ، فاستعملوه للتطهير ، وفطنوا إلى قيمته الكيميائية من حيث قدرته على امتصاص ما فى الجسم من مواد رخرة (Lucas, JEA 1. P. 119) . وكان محظوراً على الكاهن أن يدخل على تمثال المعبود قبل أن يُطَهَّرَ فيه بالنطرون ، كما كان يفعل مثل ذلك كل من دخل على الملك ليتحدث إليه . انظر : (Kees, K. G. S. 87 ff.) .

سبعين يوماً^(١) ، ولا يجوز أن تستغرق عملية التلميح وقتاً أطول من هذا ، وفي نهاية الأيام السبعين ، يغسلون الجثة ويلفون الجسم كله بشرائط من الكتّان الشفاف^(٢) ، مغطاة بالصمغ الذى يستعمله المصريون غالباً بدلاً من الغراء . وعندئذ يتسلم الجثة أصحابها ، ويعملون لها هيكلًا خشبياً على شكل إنسان ، ويضعونها فيه . وبعد إغلاقه عليها ، يحفظونها بعناية فى غرفة الدفن

(١) إن مدة الأيام السبعين هى مدة الحزن على الميت من يوم الوفاة حتى يوم الدفن . ونحن نعرف ذلك منذ زمان الأسرة الثامنة عشرة .
انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kult. S. 54 ff) .

فأما جعل فترة الحزن — وهى تشمل التحنيط — سبعين يوماً ، فأمر ينبغى أن يُسأل عنه المصريون أنفسهم . كما ينبغى أن يُسأل آباؤنا الأقربون ، مثلاً لم كانوا يحزنون على موتهم أربعين يوماً ؟ بل ينبغى أن يسأل المصريون القدماء أيضاً ، لم تمنّوا أن يعيشوا عشرة ومئة عام . إن أقصى ما وصل إليه تخمين العلماء بشأن ذلك التحديد هو ربطه بفترة اختفاء «نجم الشعرى» من السماء مصر ، وهى فترة تبلغ سبعين يوماً ، يعود النجم بعدها إلى الظهور . ومعنى ذلك أن المصريين كانوا يتمنون للميت أن يعود إلى الحياة بعد سبعين يوماً . انظر : (Knauers ibid. S. 54 ff) .
ونحن نذكر آخر الأمر ما روى فى «التوراة» من أن «يوسف» أمر الأطباء أن يُحنّطوا أباه «إسرائيل» (يعقوب) ؛ «فحنّط الأطباء» «إسرائيل» وكمّل له أربعين يوماً ، لأنه هكذا تكمل أيام الحنّطين ، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً . (سفر التكوين ، الأصحاح ٥٠ و ١٠ و ٢ و ٣ و ٤) . ومن ذلك نرى أن مدة الأيام السبعين هى مدة الحزن من يوم الوفاة إلى يوم الدفن .

(٢) الكتّان الشفاف Byssus : ورد اللفظ فى اللسان الإغريق Byssos وفى اللسان العبرى בִּסּוּس وفى اللغة الآشورية būsu . ويحتمل أن يكون أصله مصرى قديم وإن كان ذلك الاحتمال بعيداً وتحقيقه غير ميسور . وقد يكون هو «البز» فى اللغة العربية . وهو ماورد فى سفر الخروج باسم «بوص» . انظر : (سفر الخروج الأصحاح ٢٥ و ٤) .

ويقيمونها مسندة إلى حائط (١) .

٨٧ — هكذا يُعدُّ المُنحَظون الجُثث بأهبط الوسائل نفقات . ولكنهم يجهِّزونها على النحو التالى لمن يرغبون فى الطريقة الوسطى ويتجنبون النفقات الباهظة : يملأون الحفن بزيت الصنوبر ، ثم يملأون به جوف الجثة دون أن يشجوها ، ودون أن يستخرجوا الأحشاء . ولكنهم يضعون الزيت من الشرج ، ويسدونه لكيلا ينساب منه الزيت بعدئذ . ويملحون الجثة ألياًما عدتها [سبعون يوماً] . وفى نهايتها يخرجون من الجوف الزيت الذى كانوا قد أدخلوه من قبل . وقوة هذا الزيت عظيمة ، حتى أنه يحرف معه الأحشاء والمصارين التى تكون قد تحللت . أمّا اللحم فيذيبه النظرون وبذلك لا يبقى من الجثة إلا الجلد والعظام فقط . وبعد أن يفعلوا ذلك يردون الجثة إلى أهلها دون عناية أخرى بعدئذ .

٨٨ — وهذه هى طريقة التحنيط الثالثة التى تستخدم لإعداد جثث من هم أقل نراء . يغسلون الجوف بماء الفجل (٢) . وتترك الجثة فى الملح سبعين يوماً ، ثم ترد لأصحابها لينهبوا بها .

(١) لا نظن أن توابيت الموتى كانت تقام فى حجرات الدفن مسندة إلى حائط إلا إذا تعددت وضاق بها المكان .

(٢) الفجل (*surpaulin*) . لا نعرف أن هذه المادة قد كانت تستعمل

فى التحنيط ، ولا نعرف على وجه التحقيق أن المصريين القدماء قد عرفوا الفجل الذى نعرفه فى بلادنا اليوم ، وإن كنا لا نستطيع على الرغم من ذلك تكذيب « هردوت » ؛ ذلك لأن اسم الفجل قد ورد ضمن ما كان يقدم فى الوجبات الخاصة بمعال البناء الذين كانوا يعملون فى هرم « خوفو » (فصل ١٢٥ من هذا الكتاب) . ويعرف هذا النوع من الفجل فى اللاتينية — أغاب الظن — باسم Raphanus ، وفى الفرنسية raifort ، وفى الإنجليزية horse radish ، وفى الألمانية Meerrettich أى « الفجل البحرى » وهم يقصدون بذلك « الفجل البرى » .

٨٩ — إن زوجات العظماء ، والنساء الفاتحات الحسن ، والذائعات الصيت ، لا يسلّمن مباشرة بعد موتهن للتحنيط . ولكن بعد انقضاء ثلاثة أيام أو أربعة على موتهن . تعطى عندئذ جثتهن للمحنطين ، وذلك حتى لا يجامع المحنطون أولئك النسوة . إذ يُحكى إن أحدهم قد قُبِضَ عليه وهو يواقع جثة امرأة ماتت حديثاً ، حين وشى به أحد زملائه (١) .

(١) لا نعرف مطلقاً أن المصريين القدماء قد انحرفوا إلى هذا الحد الذي انحطوا عنده إلى نكاح الموتى . ومع ذلك فإن دنيا الناس لم تخل من مرضى النفوس الذين يمكن أن يفعلوا مثل ذلك في كل زمان ومكان . والأمر ليس مستحيلاً ؛ ذلك لأن في الإنسان نوازع إذا سيطرت عليه استحالة إلى وحش منكر ، لا نكاد نجد في طبيعته هزة من عاطفة ، أو فضلة من وقار ، أو طيفاً من مروءة وحياء ؛ بل لا نكاد نجد في نفسه معنى واحداً من معاني الإنسانية . حقيقة إن فكرة نكاح الموتى أو مجرد تصورها شيء بشع ، إلا أنها غير مستحيلة ؛ فكثيراً ما معنا بقصص السفّاحين الذين كانوا يقتلون الصغار من الجنسين ، ثم يفعلون بهم تلك الفعلة النكراء . وتاريخ البشر مليء بالمآسى الخلقية والأمراض النفسية التي تعيد الحياة تمثيلها وسيرتها في كل زمان ومكان . وإما لنذكر قصة بمعناها في الريف أو آخر أيام الصبا ، وأوائل أيام الشباب ، يسمونها قصة الشيخ « أبي نبوت » . وكان الشيخ أول الأمر سفّاحاً ؛ قيل إنه قَتَلَ بنبوته مائة رجل ، وكان كلما قتل واحداً آوى إلى الجبانة ليمتّع النفس بمرأى فريسته وهي تُوارى التراب . وبينما هو ساهر في الجبانة في إحدى لياليه ، رأى رجلاً ينبش قبر عذراء كانت قد دُفِنَتْ ظهر النهار ، ثم يخرجها فيجمل أكفانها ليقضى منها وطره ؛ فنارث نفس الشيخ ، واستيقظ ضميره ؛ فأمسك بالجاني وسأله ما بال المرأة التي شق قبرها ، فلم منه أنها عذراء ، وأنه هام بها وطلب يدها فاباها عليه أهلها ، فلما ماتت أراد أن يقضى منها وطره . فقال الشيخ إذا كنت لم تدركها بين يدي أبها أفتريد أن تدركها وهي بين يدي الله ، والله لأقتلك ، ثم هوى عليه بنبوته فقتله ، ثم دعا الله أن يغفر له ما جنت يده ، أن يجازيه بفعله تلك مغفرة ورضواناً ، وخطر له أن يغرس « نبوته » =

٩٠ - إذا اختطف تماش أحد المصريين أو الأجانب ، على حد سواء ، أو جرفه النهر نفسه ثم طفت جثته ، تحتم قطعاً على سكان المدينة التي وصلت عندها الجثة ، أن يُحطّطوها ، وأن يعنوا بها كل العناية ، ويدفنها في مقبرة مقدسة (١) . ولا يسمح لشخص ما أن يلمس الميت ؛ لا من أقاربه ولا من أصدقائه . ولكن ذلك يباح لكهنة النيل أنفسهم (٢) ؛ فهم الذين يدفنون الجثة بأيديهم . إذ تعد هذه شيئاً أعظم من جثة فرد (عادى) (٣) .

٩١ - والمصريون يتجنبون اتخاذ العادات اليونانية ، وجملة القول إنهم يتجنبون عادات الناس جميعاً دون استثناء . وهكذا يراعى سائر المصريين

= فوق قبر القليل ؛ فإن أدركه الصبح واخضرَّ نبوته فأصبح شجرة ، كانت هذه آية من الله بالمغفرة ، فأصبح الصبح واخضرَّ النبوت وأضحى شجرة ، وجلس الرجل من تحتها تقياً ظلّها وظل يعبد الله ويستغفره حتى مات فد فن في ظلها .

ولا يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن حياة المخطئين - كحياة من يغسلون الموتى في أيامنا - كانت حياة منقّرة تنقرّف منها النفس ؛ يضاف إلى ذلك أن انزعالم في معامل التحنيط على حدود الصحراء قد كان يعدم عن رؤية من يهون من النساء . وليس يعيد بعد ذلك أن يوجد منهم من يقدم على تلك الفعلة النكراء .

(١) انظر : (Erman, Relig. Kap. 19;5) ثم (Kees, K. G. S. 13) .

(٢) الغالب أن المقصود بكاهن النيل هو كاهن « أزوريس » الذي عدّوه إماماً للشهداء وربطوا بينه وبين النيل كما تشير الأسطورة الخالدة (أسطورة إيزيس وأزوريس) .

(٣) « من مات غريقاً مات شهيداً » . كان الموت بالفرق أو الإغراق يُكنسبُ صاحبه قداسة ، ويكتب له الشهادة في العصور المتأخرة على الأقل .

انظر : (132) (1909) Z. Ae. S.46 (Griffith, Z. Ae. S.46) ثم (Kees, in: Studies presented to Griffith, Oxford 1932. p. 402 ff.)

هذا العرف (١). إلا أنه في مقاطعة طيبة بالقرب من مدينة « نياپوليس » (٢)،

(١) ليس من شك في أن المصريين من آل فرعون قد كانوا من أكثر شعوب العالم اعتزازاً بماضيهم ومحافظة على تقاليدهم ؛ يرون ذلك من قواعد الإيمان . وليس من شك كذلك في أن الإغريق قد أخذوا عنهم كثيراً ، ولما يأخذ الإغريق عنهم حتى ذلك الوقت كثيراً ولا قليلاً . ولم يكن « هردوت » وحده هو الذى اعترف بفضل المصريين وسبقهم في سائر الفنون والمعارف الإنسانية ؛ بل فعل غيره من بنى قومه ومنهم « پلاتون » Platon . وليس يفوتنا أن ما حصله « هردوت » من علوم المصريين ومعارفهم ؛ بل وطاداتهم أيضاً ، قد كان ضئيلاً ضحلاً ؛ ذلك لأن رواته لم يعدوا طوائف الأدلاء من بنى قومه ، والبسطاء من كهان مصر . يضاف إلى ذلك أن المصريين في زمان « هردوت » ، قد كانوا غارقين في المحنة السياسية والاجتماعية إلى آذانهم ، وكان من حقهم أن يضيّقوا بالأجانب طامّة ، والإغريق منهم بخاصة ؛ إذ كان من هؤلاء المرتزقون في جيش البلاد ، وأصحاب الأمر والنهى في بلاط الحاكم ، كما كان منهم حراس بدنه . لقد كانت حال المصريين يومئذ أشبه شئ بحال أنبائهم في القرن الماضى وبخاصة أيام « إسماعيل » وابنه « محمد توفيق » ؛ فالحاكم فى بلادهم لم يكن مصريّاً ، وإنما كان ينحدر من سلالة ليبية ، وبلاطه كما ذكرنا يموج بالغرباء ، والمقدّمون من عسكره وأمراء جيشه كانوا من الغرباء . فلا عجب إذاً أن يضيّق المصريون بالغرباء ، وأن يكون أشدّهم ضيقاً تلك الطبقة المستنيرة من أهل العلم والمعرفة ؛ وهم يومئذ من رجال الدين . ولم يكن هؤلاء يملكون لأنفسهم ولا لشعبهم من الأمر غير التذكير بالماضى ؛ يفأخرون به كل غريب ، ويوقظون به وعى الشباب ، ويلتمسون لأنفسهم فيما كانوا يفعلون بعض العزاء .

انظر : (Kees, Art. Sesostria, RE, Sp. 1861) .

(٢) NEAPOLIS أى « المدينة الجديدة » . وليس يعيد أن يكون مكانها الآن قرية « المنشيّة » قرب « أخيم » . والمنشيّة قائمة في الغالب على أنقاض مدينة بناها « بطلميوس الأول » ، وأسمّاها باسمه وكانت من قبل أيامه منشأة حديثة . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣٢٦) .

توجد مدينة عظيمة تسمى « خميس » (١) ؛ بها معبد مربع لبرسيوس ابن داناي ، ينمو حوله النخيل ، بوابته من الحجر ، وهي ضخمة جداً يقوم فوقها تمثالان عظيمان من الحجر ، وفي نطاق هذه الساحة يوجد محراب يقوم به تمثال لبرسيوس . ويزوى أهل « خميس » أن « برسيوس » كثيراً ما يتجلى لهم في الأقاليم ، وكثيراً ما يظهر داخل المعبد . وغالباً ما يجدون النعل الذي ينتعله وطوله ذراعان (٢) ، وعند ظهوره تزدهر مصر كلها (٣) . وفيما يلي ما يفعلون

(١) CHEMMIS : تصحيف للاسم المصري القديم « خم — مين » مقصورة المعبود « مين » ، ثم قلبت النون ميأ فأصبح الاسم « خميم » . ثم وضع العرب في أوله همزة فأصبح « أخميم » . علم على البلد المعروف بهذا الاسم في صعيد الوادي . ويقع على الشاطئ الشرقي للنيل بين قرية « كوم اشقاو » وقرية « المنشيّة » مركز طهطا .

(٢) شبيه بذلك ما قبل عن « هرقل » وأثر قدمه في أرض السكيثيين (Scythen) . انظر : (هردوت ج ٤ الفصل رقم ٨٢) ، أو ما يحكى عن أثر قدمي « بوذا » في الهند ، أو ما كان يحكى في مصر من القصص الشعبي عن « أثر النبي » في مصر العتيقة (جنوبي القاهرة) . أو قدمي آدم أبي البشر في صخور سيلان . الخ .

(٣) ذلك تخليط من « هردوت » وعذره في ذلك واضح ؛ فثقافته إغريقية ، ورواته كما أسلفنا قد كانوا من التراجمة ، سواء منهم من كان إغريقياً لا يفهم من الحياة المصرية إلاّ أمانى ، أو من كان مصرياً لا يفهم من ثقافة الإغريق غير القليل النافه ، فالصورة التي رسمها هردوت لن تعدو ذلك النسيج المتخلط من ثقافة الإغريق وعقيدة المصريين التي لم يقو يومئذ على هضمها . ومن هنا جاءت الصورة مرقعة مشوّهة . وأكبر الظن أن « برسيوس » ذلك البطل الإغريقي الأسطوري لم يكن في تخليط هردوت — الذي حاول أن يجعل منه إلهاً للشمس — غير صورة لمعبود المصريين « مين » رمز الحصب الذي صورّه المصريون في صورة عملاق من بني آدم ، ممسكاً يمينه عضو التذكير منتشراً ، ليعبروا بذلك عن =

— على الطريقة اليونانية — تكريماً له . يقيمون مباريات رياضية تشمل جميع ضروب المسابقات ، ويقدمون جوائز من الأغنام والأردية والجلود (١) . ولما سألتهم لماذا تعود « برسوس » أن يتجلى لهم وحدهم ، ولماذا يقيمون المباريات الرياضية ، مخالفين بذلك سائر المصريين ، ردوا على بأن « برسوس » أصله من مدينتهم ، وأن « دناؤس » (٢) و « لينكيوس » (٣) اللذين أبحرا إلى بلاد اليونان كانا من أهل « خيس » . وذكروا الأنساب التي تبدأ بهما وتنتهى بـ « برسوس » (٤) . ويقولون إن الأخير لما جاء مصر لعين السبب الذي

= قوة الحِصْب الكامنة في صورته . وقد يماً عُرِفَت كعبة عبادته « خيم » (أخيم) — انظر : (هامش ٣ من هذا الفصل) — بِحِصْبِ ثَرَبَتِها ، وكان أذكي نباتها « الحِص » الذي أثبتت البحوث العلمية أن في زيتها ما يزيد في القوة الجنسية . انظر : (Kees, K. G. S. 32.) . والعجيب أن بعض أهل الصعيد من حول « أخيم » ما يزالون يذكرون ذلك الحِصْب في أغانيهم التي يرددونها مستعينين بها على العمل ومن ذلك : « هات لي عنب وتين من جنان خيم » . (١) الواقع أن آل فرعون عرفوا رياضة البدن . وكانت لهم ألعاب مختلفة يمارسونها على الدوام ، كما كان يفعل أبناء القرى في العصر الحديث قبل أعوام . إلا أنها لم تكن قاصرة على عيد بعينه ، ولا على الأعياد وحسب . فأما أمر الجوائز فواضح أنه كان معروفاً في المسابقات الرياضية التي تجرى بمناسبة الأعياد في بلاد الإغريق .

(٢) DANAUS : انظر فصل ٩٨ ، ١٧١ من هذا الكتاب .

(٣) LYNCIUS : هو زوج HYPERMNESTRA الذي رعاها الـ DANAIDEN وبقي على قيد الحياة .

(٤) ظاهر من هذه الخرافة أن قيمة « برسوس » هنا قيمة روح شمسية وظاهر أن « هردوت » قد سمع بقصة الحية « أبو فيس » التي كانت تعترض موكب الشمس في خيال المصريين ، فينتهى الأمر باتصار الشمس وقطع رأس الحية .

يقول به اليونانيون ؛ أى لإحضار رأس «جورجو»^(١) من ليبيا — ذهب عندهم بالذات — وتعرّف على كل أقاربه ، وإنه قبل وصوله إلى مصر كان يعرف اسم «خيس» الذى تعلمه عن أمه ، وإنه قد أمرهم بأقامة المباريات الرياضية من أجله .

٩٢ — ويراعى المصريون الذين يعيشون فيها وراء المستنقعات^(٢) كل هذه العادات ، والقاطنون فى المستنقعات يتبعون هذه العادات بعينها التى يراها سائر المصريين من حيث أن يعيش كل منهم — مثل اليونانيين — مع زوجة واحدة^(٣) . ولكنهم ؛ توفيراً للحبوب ، ابتكروا طرقاً أخرى ؛ عندما يمتلئ النهر وتصبح السهول بحاراً ينمو فى الماء السوسن بكيات وفيرة .

(١) «جورجو أو ميدوزا» تقول الأسطورة إنها كانت على درجة رائعة فى الجمال ، أساءت إلى المعبودة «آثينا» التى ثارت عليها ، خوّلت شعرها إلى حيّات مفزعة ، ووضعت فى عينها قوةً خارقةً تُحيل كل من تنظر إليه إلى حجر ، ولقد نجح «پرسبوس» فى قطع رأسها ثم حملها معه فى كل أسفاره لئلا يتغلب على أعدائه ، ويحولهم إلى أحجار .

(٢) أعلى المستنقعات : يقصد بذلك أرض الدلتا وبخاصة ما وقع منها بين «الفرع السنودى» و «الفرع البوليبيتى» .

انظر : (Diodor, I 80, 3) ثم (Kees, K. G. SS. 19, 52, 60) .
(٣) من ذلك نرى أن المصريين كالإغريق كانوا يكتفون بالزواج بواحدة . انظر : (Kees, K. G. S. 63) . فاما التعدد أو ما يسمونه «الحريم»

فقد عُرف فى بلاط فرعون . وربما عُرف كذلك عند بعض المقتدرين من أهل النصار . وأما الحريم الذى تعود الكتاب الغربيون أن يرموا به الشعوب الشرقية عامة والمسلمين بخاصة ، فقد كان معروفاً فى بلادهم أيضاً ؛ ويكفى أن نذكر على سبيل المثال «أغسطس» ملك بولندا وسكسونيا وحرمة الضخم . ويكفى أن نذكر أن تعدد الزوجات عند الشرقيين قد كان شرعياً ، على حين كان يمارسه الأوربيون فى السر . انظر : (غوستاف لوبون ، حضارة العرب : ترجمة عادل زعير الطبعة الثالثة ص ٣٩٨) .

ويسميه المصريون البشنين (لوتس) (١) . فيجمعون هذا النبات ويجففونه في الشمس ويأخذون ما في وسط البشنين من حب . وهو يشبه الخشخاش . ويطحنونه ويصنعون منه أرغفة يخبزونها على النار . وجذر البشنين يمكن أكله أيضاً ، وهو حلو لذيق إلى حد ما ، مستدير الشكل ، في حجم التفاحة (٢) . وهناك أنواع أخرى من السوسن تشبه الورد ، تنبت في النهر مثل البشنين وتتكون ثمرتها من كأس تنفرع عن الساق ، وهي في الشكل مثل خلية الزنابير . وتحتوي هذه الكأس على حبوب كثيرة صالحة للأكل ، وهي في حجم نوى الزيتون . تؤكل طازجة وجافة . أما البردى (٣) الذي ينبت

(١) لم يكن ذلك النبات قاصراً على الدلتا وحسب ، بل عرف في أمواه مصر العليا وكان رمزاً لها . كما كان يسميه المصريون « سشن » وهي كلمة ليست بمبتدعة في لفظها ومعناها عن «السَّوسن» . انظر : (Wb. III. S. 485) . وقد كانوا يصرون منه الزيت . انظر : (Kees, K. G. S 52) . عرف المصريون منه لونين : الأبيض وهو المسمى NYMPHAEA LOTUS والأزرق وهو ما يسمى : NYMPHAEA CAERULEA .

(٢) أكبر الظن أن هذا النوع لم يكن معروفاً في مصر قبل العصور المتأخرة وهو النوع المعروف باسم NYMPHAEA NELUMBO . انظر : (Posener, Dict. of Eg. Civil. P. 152) .

(٣) يسميه « هردوت » BYBLOS . وأكبر الظن أنه سُمي بذلك الاسم وعُرف به في الغرب عامة وفي بلاد اليونان بخاصة لأنه صُدِّر إليها من ميناء « يبلوس » (جبيل) على الساحل الفينيقي . وكانت للمصريين بهذا الساحل صلات قديمة ، منها الديني ومنها المدني . ولئن يبدو غريباً إذا كان « الكتاب » (BIBEL) « وخزانة الكتب » (BIBLIOTHEK) عند الغربيين قد اشتقا من هذا الاسم . كذلك عُرف البردى عند القدماء من أهل أوروبا باسم CYPRUS PAPYRUS ذلك لأنه كان يصل أول الأمر إلى

سنويا ؛ فعندما يقتلعونه من المستنقعات ، يقطعون الجزء الأعلى منه ويفيدون منه في أمور عدة (١) أو يبيعونه . والجزء الأسفل الذى يتبقى وطوله ذراع تقريباً يأكلونه أو يبيعونه . أما المولعون جداً به فيأكلونه بعد طبخه في فرن محمى ويعيش بعض المصريين على الأسماك وحدها (٢) . فعندما يصيدونها ويخرجون أحشائها ، يجففونها في الشمس ثم يأكلونها بعد تجفيفها .

٩٣ — إن الأسماك التى تعيش في أسراب لا تعيش بكثرة في الأنهار ، ولكنها تكبر وترعرع في المستنقعات على النحو التالى : عندما تمتلكها

= « قبرص » ، ثم يرسل منها بالتالى إلى بلاد اليونان . وكان وصوله إلى « قبرص » بين أيدي الفينيقيين الذين لم تعد أساطيلهم في شرق البحر الأبيض « قبرص » و « رودس » و « كريت » . هذا وقد انتقلت زراعة البردى والتجارة فيه إلى قبرص وفلسطين في العصور المتأخرة .

انظر : (Posener, Dict. of. Eg. Civil. P. 205) .

(١) كان للبردى في حياة المصريين وحضارتهم أثر خطير ، فهم قد بنوا من سوقه أول مساكنهم ، ثم حاكوا مظاهر عمارتها في مبانيهم عندما عرفوا البناء بالحجر ، كما اتخذوا منه أول فراشهم : انظر : (Kees, K. G. S. 75) ، ثم طعاماً يستخلصونه من جذوره ويطبخونه . انظر : (Posener, Dict. of. Eg. Civil. P. 206) ، كما اتخذوا منه أكفانهم الأولى . ثم بنوا من أعواده مراكبهم الخفيفة ، وبخاصة زوارق الصيد . انظر : (Kees, K. G. SS. 26, 110) . يلتسمون فيها السلامة من عدوان النماسيح زاعمين أن « إيزيس » قد حملت أشلاء زوجها الشهيد على زورق من البردى . انظر : (Kees, K. G. S. 110) . ثم كانوا يصنعون منه النعال ، ويجدلون منه الحبال ، كما كان في مقدمة صادراتهم الوفيرة . انظر : (Kees, K. G. S. 118) . ولا يفوتنا أخيراً أن الدنيا أودعت هذا النبات خلاصة الفكر البشرى من علم وأدب ومعرفة . وذلك فيما صنعوا منه من قراطيس أيام العالم القديم .

شهوة التلقيح الجاحدة — تسبح إلى البحر على هيئة أسراب . فتأخذ الذكور القيادة وتنثر اللقاح ، فتلتهمه الإناث التى تتبعها وتحبل منه . وعندما تحمل فى البحر ، تعود إلى النهر ؛ كل واحدة إلى مكانها المعتاد ، ولكن القيادة لم تعد بعد للذكور ؛ بل إن الإناث هى التى تكون فى المقدمة . وهى إذ تأخذ القيادة تفعل ما كان يفعله الذكور تماماً . فتتشر بيضها — وهو فى حجم حبات الأذرة — قليلاً قليلاً فتبلعها الذكور التى تسبح خلفها . وهذه الحبات هى السمك . إذ من الحبات التى تبقى ولا تبتلع تولد الأسماك التى تكبر . وإن صيدت بعض هذه الأسماك عند ذهابها إلى البحر ، يلاحظ أن الجانب الأيسر من رأسها قد تهشم . ولكن عند رجوعها إلى النهر يشاهد أن الجانب الأيمن هو الذى قد تهشم . وهى تعانى هذا الأذى للسبب الآتى : عند ذهابها إلى البحر تلزم الجانب الأيسر من الشاطئ . وعند عودتها ثانية تتبع نفس الجانب ، وتقرب منه وتحتك بقدر الإمكان حتى لا تضل طريقها بسبب التيار ، وعندما يبدأ النيل فى الفيضان ؛ تأخذ الحفر التى فى الأرض والبرك التى بجانب النهر فى الامتلاء — قبل غيرها — بالماء الذى يتسرب إليها من النهر . وبمجرد امتلائها بالماء تغص بالأسماك الصغيرة سريعاً . وأحسبني أفهم ، لم كان من الطبيعى أن تتوالد هذه الأسماك . فعندما انخفض النيل فى العام السابق ، رجعت الأسماك مع آخر ما انحسر من الماء بعد أن وضعت بيضها فى الطين . فإذا ما انقضى الوقت ورجع الماء من جديد خرجت هذه الأسماك على الفور من هذا البيض . ذلك شأن الأسماك .

٩٤ — والمصريون الذين يعيشون حول المستنقعات (١) ، يستخدمون

(١) انظر : (الفصل رقم ٩٢ هامش رقم ١) .

زيتا يستخرجونه من ثمار الخروع ، ويسمونه « كيكي » (١) . وهم يصنعونه بهذه الطريقة : يبدرون هذا الخروع على شواطئ الأنهار وحافات البحيرات (في بلاد اليونان ينمو من الخروع نوع برى من تلقاء نفسه) . والنوع الذى يندر في مصر يحمل ثماراً كثيرة ، ولكنها كريهة الرائحة . وعند جمعها يكسرها البعض ويعصرونها والبعض الآخر يمحضونها ويفلونها ويجمعون ما يتقطر منها . وهذا السائل لزج ، لا تقل صلاحيته عن زيت الزيتون للمصباح ولكن تنبعث منه رائحة كريهة .

٩٥ — ولقد دبر المصريون هذه الحيلة (وقاية) ضد البعوض الذى يوجد عندهم بكثرة (٢) : فالذين يسكنون شمال المستنقعات (٣) ، يفيدون من أبراجهم التى يصعدون إليها وينامون بها . لأن البعوض لا يمكنه أن يطير إلى هذا

(١) KIKI : عرف المصريون القدماء كثيراً من الزيوت النباتية ، منها ما استعمل في الغذاء ، ومنها استعمل في أغراض صحية . ومن بينها زيت الخروع الذى كثر في أيام الدولة الحديثة . وليس من الثابت أنهم أسموه « كاكا » كما جاء في قاموس برلين .

انظر : (Wb. Bd. V, S. 109)

ثم انظر : (Kees, K. G. S. 33.) ، وما يزيد أن تكرر ما قاله « هردوت » من أن المصريين قد استعملوه لتنظيف أمعائهم وتطهيرها كما نستعمله اليوم . والواقع أننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف ممي المصريون الخروع ، ذلك لأن قاموس برلين قد ذكره باسمين مختلفين في غير تأكيد وإن كنا نرجح أن ثاني الاسمين « dgm » هو الأصح . انظر : (Wb. Bd. Vs. 500) .

(٢) من الطبيعى أن يكثر البعوض حيث توجد مجارى الماء طامة وتنتشر المستنقعات بخاصة .

(٣) الغالب أن هردوت يقصد من يعيشون جنوبى الدلتا أى جنوبى « ممفيس » .

العلو تحت ضغط الرياح^(١) . أما الذين يعيشون حول المستنقعات فقد فكروا في وسيلة أخرى لتحل محل الأبراج ؛ كل فرد منهم عنده شبكة يصيد بها السمك أثناء النهار ويستخدمها أثناء الليل كما يلي : يضرب الشبكة حول السرير الذى يستريح عليه ثم يتسلل داخلها وينام تحتها^(٢) . وإذا ما نام أحدهم ملفوفاً في رداء أو ملاءة من الكتان لسعه البعوض من خلالها بينما لا يحاول البعوض ذلك مطلقاً من خلال الشبكة .

٩٦ — ويصنع المصريون السفن التى تحمل البضائع من شجر السنط^(٣) .

(١) ربما يقصد بالأبراج هنا أعلى المنازل ، وهى تلك الأسطح المكشوفة يتخللها الهواء ولا يستقر فيها البعوض . والمصريون فى القرى يحيطون أسطح الدور بما يشبه الأبراج ، يحفظون فيها الغلال والوقود ، وينامون فيها فى ليالى الصيف ، وأحسن أمثلة لذلك ما نراه فى منطقة « القرنة » غربى « طيبة » .

(٢) لا غرابة فى أن يستخدم الناس شباك الصيد يتقنون بها لسع البعوض . فالأمر لا يختلف عما نفعل اليوم حين نستخدم « السِكَّة » (الناموسية) .

(٣) ACANTHUS : يقصد بها فى الغالب الشجر المعروف فى الكتب العلمية باسم MIMOSA NILOTICA . وهو معروف فى مصر منذ زمن بعيد ، وما زال يعرف اليوم — كما عرف فى الماضى — باسم « السنط » . والسنط كلمة مصرية أصيلة ($\omega\text{ONTE} : \omega\text{ON} + \text{t}$ فى القبطية) وشجرة السنط إذا لم تكن سامقة العود مديدة الفصن فإن خشبها قوى شديد الاحتمال ومنه يبنى السودانيون سفنهم حتى اليوم . انظر : (Schweinfurth, Im Herzen von Afrika, S. 24 (Akazienholz) .

والمصريون القدماء لم يبنوا سفنهم من هذا الخشب وحسب ؛ بل كانوا يبنونها من أخشاب آخر ؛ فهم قد استغلوا أعواد البردى لبناء خفاف الزوارق وصغار المراكب ؛ يستخدمونها حين يخرجون للصيد والقتل أو للسفر القاصد . انظر : (الفصل الثانى والتسعين هامش رقم ٦) . ولم يكن من اليسير على المصريين =

وشكله كثير الشبه بالبشنين الكورنيائي^(١) ويسيل منه الصمغ . يقطعون من خشبه ألواحاً طول كل منها ذراعان تقريباً ويصففونها كما يصفف الآلين ، ثم يصنعون منه السفن على الوجه الآتى : يعشقون الألواح التى طول الواحد منها ذراعان حول أوتاد طويلة متقاربة جداً ، وبعد أن يبنوا هيكل السفينة بهذه الكيفية يمدون عوارض على أعاليها . وهم لا يستخدمون الصلوع بل يسدون الفواصل التى بالداخل بالبردى ، ويصنعون دفة واحدة تدفع من قاع السفينة^(٢) . ويصنعون السارى من السنط ، والشرع من البردى . وهذه السفن لا يمكن أن تبهر صعداً فى النهر إذا لم تواتها ريح قوية . بل تُجرُّ حينئذٍ من الشاطئ . وهى تسير مع التيار هكذا : يوجد إطار مصنوع من الأثل^(٣) ، وقد حشى

= أن يقتلعوا الأشجار ذات الثمر الحلو للاقتناع بنخبها إلا عند الضرورة الملحة ؛ بل كان اقتلاع الشجر عامة ينبغى أن يصدر به أمر من كبير الوزراء . انظر : (Sethe, Urk. IV, 111) . واقتلاع شجر الجميز بمخاضة كان مكروهاً (ولم يزل الأمر كذلك حتى يومنا هذا) إلا أن تكون الحاجة إلى خشبه مُلِحَّةً ، كما وقع أيام الملكة «حتشبسوت» ؛ حين صدرت الأوامر بتوفير خشب الجميز اللازم لبناء السفينة التى حملت المسكينين الشهيرتين فى أيامها من محاجر أسوان إلى معبد الكرنك . وكان طول كل منها ٢٩٥٠ متراً ، كما بلغ وزن كل منها ٣٢٣٠٠٠ كجم . مما اقتضى بناء سفينة بلغ طولها نحو ٨٢ متراً ، كما بلغ مسكها ٢٩ متراً . ولم يكن من السهل بناء سفينة كهذه من خشب السنط (Sethe, Urk. IV, 425) .

(١) اللوتس الكورنيائي : هو ما يسمونه RHAMNUS LOTUS .

انظر : (Herodot. IV. 177) . ويسمى أيضاً (Zizyphus و lotus) . وهو ما نسميه «السدر» وثمره «النسج» ومناجه فى إفريقيا . (انظر : Wiedemann, H. Z. B. S. 385) وسمى بالكورنيائي نسبة إلى (برقة) . (٢) هكذا كان يبنى المصريون سفنهم حقا . انظر (Kees. K.G. S. 111 f.) (٣) TAMARISK : فى هذه الفصيلة من الحشب نوعان ، أحدهما سامق العود واسمه العلمى Tamarix arpiculate وهو ما يسمى بالعربية الأثل ، ويسمى فى اللغات السامية الأخرى eshel فى العبرية و Ashlu فى الآشورية . ومما المصريين القدماء «أزر» وفى القبطية «OCI» . انظر : (Wh. Bd. I, S. 130) . والثانى قصير العود ضامر الفروع واسمه العلمى Tamarix gallica ويسمى «الطرفاء» .

بقصب مجدول وحجر مثقوب زنته تالثنان تقريباً . يُلقى بالإطار وقد شدَّ بمجمل
ليطفو أمام السفينة، ثم بالحجر خلفها وقد رُبطَ بمجمل آخر. وباندفاع النيار يتحرك
الإطار في سرعة ويسحب « الباريس » (١) (وهذا هو اسم السفينة) بينما
ينسحب الحجر ورائها وهو في قاع النهر فيَهْدِي السفينة في إبحارها . وعندهم
من هذه السفن أعداد كبيرة (٢) . ويحمل بعضها آلاف عديدة من التالينات .

٩٧ — وعندما يفيض النهر على البلاد ، تظهر المدن وحدها فوق الماء ؛
وتكاد تشبه الجزائر في « بحر إيجيه » . على حين تصبح سائر أجزاء مصر
بحراً . فلا يبدو منها غير المدن . وأثناء ذلك لا ينتقل المصريون بمراكبهم
في مجرى النهر ؛ بل في وسط السهل (٣) . فالصاعد في النهر مثلاً من مدينة
« نوقراطيس » (٤) إلى « ممفيس » يسير بجنداء الأهرام (٥) . وليس ذلك

(١) BARIS : تصحيف للكلمة المصرية Br — انظر : (Wb. I. S. 30) —
التي عرفت منذ أيام الدولة الحديثة كصفة لنوع من سفن النقل والسفر
في آن معاً . وقد استخدم الإغريق هذا الوصف للسفن غير الإغريقية . انظر :
(Plutarch. Isis & Osiris 18. p. 358 a) .

(٢) إن ما خَلَّفَ آل فرعون من تراث ، يوضَّح لنا ذلك في جلاء ، فما أكثر
ما رسموا على آثارهم من ألوان السفن والزوارق التي استخدموها في السفر ، وحمل
السلع كما نرى في أكثر ما صوروا من مناظر رحلاتهم وما جرى فيها من حوادث .
(٣) ذلك صحيح ، وهكذا كانت تبدو مصر أيام الفيضان . ولعل أروع
وصف لتلك الصورة ما جاء في رسالة « عمرو بن العاص » إلى أمير المؤمنين
« عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

(٤) NAUKRATIS : انظر : (الفصول ١٣٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩) . مدينة موقعها
« كوم جيف » الحالية قرب « قراش » وعلى الشاطئ الأيسر للفرع الكانوبي
ثم على بعد ٣٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من الإسكندرية . وقد كان إنشاؤها
بين عامي ٦١٥ ، ٦١٠ ق . م .

انظر : (Kees, Naukratis, in RE. XVI 2, Sp. 1959—1966) .

(٥) يقصد أهرام الجيزة المعروفة .

بالطريق المعتاد التي تمر برأس الدلتا بمدينة « كركاسوروس » (١) . وإذا أبحرت من البحر و فرع « كانوب » إلى مدينة « نوقراطيس » عابراً السهل فإنك تبلغها ماراً بمدينة « أنثيلا » والمدينة التي تسمى بمدينة « أرخاندروس » (٢) .

٩٨ — أولاهما — « أنثيلا » فهي مدينة عظيمة ، اشتهرت بأنها توهب لزوجات الجالس على عرش مصر لشراء أحديتها . ولقد جرى ذلك التقليد منذ عصر احتلال الفرس مصر (٣) .

والمدينة الثانية — ويلاحظ لي أنها أخذت اسمها من ختن « دناؤس » وهو « أرخاندروس » بن « فينيوس » بن « أخيوس » (٤) — إذ أنها تسمى مدينة « أرخاندروس » . ويحتمل أن كان هناك شخص آخر يدعى « أرخاندروس » . ومهما يكن من أمر فالاسم ليس مصرياً .

٩٩ — إن ما قلته حتى الآن هو نتيجة لمشاهداتي الخاصة وآرائي وأبحاثي الشخصية . ولكنني سأبدأ من الآن فصاعداً بقص الروايات المصرية طبقاً لما

-
- (١) CERCASORUS : انظر (الفصل الخامس عشر هامش رقم ٦ من هذا الكتاب) .
- (٢) ANTHYLLA و ARCHANDER : مدينتان بالدلتا . تقع الأولى بين كانوب (كوم ممعدى) ونوقراطيس (كوم جيمف) وتقع الثانية بالقرب منها . انظر : (I Ball, Egypt in the classical geographers p. 17) .
- (٣) ليس المقصود بالجالس على عرش مصر فرعونها ، وإنما المقصود هو الحاكم الفارسي الذي يمثل الغاصب المحتل . والظاهر أن نفقات حياة الترف التي عاشها زوجات أولئك الحكام — وبخاصة نفقات زيتهن — كانت باهظة ؛ بحيث كانت تُوزَّع على مدائن معينة من مدائن الوادي ؛ تلتزم كل منها بنفقات لون معين من ألوان الزينة التي كان يهواها أولئك النسوة . وليس عجيباً أن يقع مثل ذلك العبث المنكر في بلد محتل لا سلطان لأهله عليه .
- (٤) كان « أرخاندروس » ابن « أخيوس » ولم يكن من أحفاده .

سمعته ، مضافا إليها — كذلك — بعض ما شاهده بنفسى^(١) . لقد حدثنى الكهنة^(٢) بأن « مينا » (منا) كان أول من حكم مصر^(٣) ، وبأنه أوجد جسرا لحماية « ممفيس » . إذ كان النهر كله يجرى بمحاء الهضبة الرملية من الجانب اللىبى . على حين أن « مينا » — مبتدئا من أعلى — قد أنشأ بوساطة السدود الثنية التى تقع جنوبى « ممفيس » بنحو مائة « سناد » ، وبذلك وجفَّ المجرى القديم ، وحول مجرى النهر لينساب فيما بين الهضبتين . ولا يزال الفرس حتى الآن يتعهدون ثنية النيل هذه لى ينساب النهر فى مجرى محدود ، يتعهدونها بالعناية البالغة ، ويدعمونها كل عام ؛ لأنه إذا اجتاحت النهر الجسر فى هذه المنطقة لأمت « ممفيس » كلها فى خطر من الغرق ، ولما تكونت لمينا — أول ملك للبلاد — هذه البقعة التى جفَّت من الأرض بعد عزلها عن الماء ، أسس فيها المدينة التى تسمى الآن « ممفيس » ، (لأن ممفيس تقع فى الجزء الضيق من مصر)^(٤) وحفر خارج المدينة بحيرة تخرج من النهر وتتجه نحو الشمال والغرب

(١) انظر فصل ١٢٣ و ١٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أنه يقصد كهنة ممفيس .

(٣) انظر : (الحديث عن مينا « منا » فى الفصل رقم (٤) هامش رقم (٥) من هذا الكتاب) .

(٤) مدينة ممفيس والظروف التى بنيت فيها : ليس لدينا ما ينق تلك الرواية ، ولا ما ينقض دليلا لبطلاتها ؛ بل إن فى تاريخ آل فرعون الطويل ما يشير إلى قيام الصلة القوية بين « منا » وبين « ممفيس » ؛ فعبودها « بتاح » قد قامت عبادته منذ نشأتها . وفى أخبار الأسرة التاسعة عشرة من الوثائق التاريخية ما يُسمَّى « بتاح » هذا « بتاح منا » . انظر : (Badawi, Memphis, S. 13) . ثم قصة « منا » وبناء ممفيس فى الجزء الأول من كتابنا « فى موكب الشمس » ج ١ الطبعة الثانية ص ١١٥ وما بعدها .

(والنيل نفسه يحدها من الشرق) ، ثم شيد في المدينة معبد « هيفايستوس » ، وهو هائل ، ويستحق بكل جدارة أن نتحدث عنه (١) .

١٠٠ — وتلا على الكهنة — من ثبت بردى — (٢) أسماء ثلثمائة وثلاثين ملكاً آخرين بعد « مينا » . وكان من ضمن هذه الأجيال ثمانية عشر ملكاً من الأثيوبيين (٣) وامرأة واحدة من أهل

(١) معبد هيفايستوس : هو معبد « بتاح » الذى بُنى في الجنوب من ظاهر مدينة « ممفيس » أيام بناء المدينة . وتعاقب الملوك على تجديده والإضافة في عمارته . انظر : (Badawi, Memphis, S. 12 ff.) .

(٢) إذا صح ما قاله « هردوت » من أن الكهنة قد تلوا عليه أسماء الملوك من قرطاس البردى ؛ فقد كان ذلك أمراً منطقياً ؛ لأن الكهان كانوا يملكون الكثير من تلك الوثائق الرمية التى سجلوا فيها أسماء الملوك ، وكانوا يحفظونها في خزائن المعابد ؛ ومنها تلك الوثيقة التى آلت إلى متحف « تورين » ، وعُرفت من أجل ذلك باسم « قرطاس تورين » . وعلى تلك الوثيقة ونظائرها اعتمد المؤرخون حين كتبوا تاريخ الفراعنة وحساب أيامهم . وفي مقدمتهم مؤرخنا المصرى السمندى « منتون » ومن جاء بعده من القدماء والمحدثين . وبذل المحدثون غاية الجهد في تحقيق ما ورد في ذلك القرطاس وبقية الأبيات الحجرية الموجودة في المعابد ؛ وذلك في ضوء ما وُجد من آثار الحكام فيما تركوا من مختلف التراث . وعلى الرغم مما بذلوا من جهود جَيَّارة ؛ فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق كل ما أرادوا بالتفصيل والتحديد والنسب ، وإن كانوا قد بلغوا أكثره جملةً وتقريباً .

(٣) لم يبلغ الملوك الأثيوبيون — ويقصد بهم النوبيين — هذا العدد الذى يزعمه هردوت ؛ وإنما كانوا ستةً هم على التعاقب : « كشتا » و « بنخي » و « شباكو » و « شبتاكو » و « طهرقة » ثم « تنامون » . وكان زمان حكمهم بين عامى ٧٥٠ و ٦٥٦ ق . م . انظر : (JEA. XXXV. P. 141 ff.) .

البلاد (١) . أما البقية فكانت من الرجال المصريين . والمرأة
التي حكمت كانت تدعى « نيتوكريس » (٢) . كالمملكة

(١) كلا : لم تكن « نيتوكريس » المرأة الوحيدة التي حكمت البلاد ، فهناك
المملكة « سبك - نفرو - رع » آخر حكام الأسرة الثانية عشرة ؛ وقد جلست
على العرش نحو ثلاثة أعوام ، ثم « حتشبسوت » من حكام الأسرة الثامنة عشرة ،
وقد استقلت بالحكم نحو ثلاثة عشر عاماً .

انظر : (Parker, Journal of Near East. Studies XVI, 42) .
(٢) ظاهر في تاريخ الدولة القديمة من حكم آل فرعون أن سلطان الأسرة
السادسة على الرغم من ذكر أربعة ملوك بعد زمان « پيبي الثاني » كان قد انتهى
فعلًا بموت هذا الأخير . ومهما يكن من أمر ؛ فإن المتواتر من أقوال المؤرخين
القدامى ، وعلى رأسهم مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » يرسم لنا من ذلك
العهد ملحمة لا يقبلها غير منطق الأساطير ؛ حين يعد فيها أمماها الأسرة السابعة ،
سبعين ملكاً ، ويجعل مدى حكمهم جميعاً سبعين يوماً . لكننا هي ساحة من
ساحات الصراع بين أبطال خياليين ؛ يبرز بعضهم لبعض بحيث يكون الحكم يومئذ
لمن ظفر . . . وهلم جرأ . و « منتون » يجعل نهاية حكم الأسرة السادسة على يد
امرأة يقال لها « نيتوكريس » ، ويزعم أنها بذلت من السعى كل ما كان في طاقتها
لتحتفظ بعرش آبائها . ويضيف إلى ذلك أنها كانت أحب وأنبى نساء عصرها
جميعاً . وجاء في « قرطاس تورين » NITOKERTI . كما جعلها ثاني أو ثالث
من حكم بعد « پيبي الثاني » .

ومهما يكن من شيء ، فإن وجودها قد وقع في تلك الحقبة على كل حال .
وإن كان يستبعد أن تكون هي « NEITH » التي كشف عن ضريحها الهرمى
العالم السويسرى Jéquier . انظر : (C. Jéquier, Les Pyramides des)
Reines Neit et Apout; Caïre 1933) . ذلك لأن « نيتوكريس » —
إن صح ما جاء في الخبر على نحو ما قدمنا — ربما كانت من بنات « پيبي الأول » ،
وأنها أضحت في حريم أخيها « پيبي الثاني » أول عهده بالحكم . =

البابلية (١) . ثم قالوا لي إنها احتالت ، وأهلكت الكثيرين من المصريين انتقاماً لأخيها الذي قتله المصريون أثناء حكمه عليهم ، وولّوها المملكة بعد

== فأما ما جاء في رواية « هردوت » من قصة احتيالها في التدبير للانتقام ممن قتلوا أخاها ، فليس من اختراع « هردوت » وإنما هو خلط مبهم — في الغالب — ما كان من سيرة القصر أيام تلك الأسرة ، وما كان يدور في البلاط من فن ومؤامرات ؛ منها ما ذكره « منتون » من أن رأس الأسرة السادسة ويسميه « تنى » قدم مات مقتولاً . (انظر في موكب الشمس ج ١ الطبعة الثانية ص ١٧٥ و ١٧٦) . ومنها ما أثبتته التاريخ في تلك الإشارة التي وردت في ترجمة « أونى » إلى مؤامرة الحريم في بلاط « ببي الأول » . (انظر المرجع السابق ص ٩٩ وما بعدها) . يضاف إلى كل ذلك طول الزمن ؛ يتناقل الناس فيه تلك الروايات جيلاً بعد جيل . وإذا كانت رواية الخبر تتغير أحياناً بين عشية وضحاها ، ويتغير أسلوبها بين الرواة من البيئة الواحدة ومن أهل الزمن الواحد والثقافة الواحدة أحياناً ، فأخلق بقصة « نيتوكريس » — التي ظلت تتناوبها الرواية ، وتتناقلها الأجيال عبر الزمن الطويل الذي بلغ مداه أكثر من ألفي عام ، لتبلغ مع « هردوت » في القرن « الخامس قبل ميلاد المسيح » — أن تحمل في ثناياها ذلك اللون من ألوان الخيال . والشئ الواضح أن في بناء تلك القصة أثراً من الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » التي لم تخل منه أكثر الأساطير المصرية .

(١) ورد ذكر هذه الملكة البابلية ضمن أسماء ملوك بابل . انظر : (هردوت الكتاب الأول فصل ١٨٥ ، ١٨٧) بوصفها أمّاً لآخر ملوك بابل . وكان يدعى LABYNETUS ، وأنها أنجبت في الغالب زوجها « نبوخاذنسر » . وقيل إنها ظفرت بالحكم بعد وفاة هذا الأخير عام ٦٠٤ ق . م . هذا ، وينبغي أن نقرر أن اسم « نيتوكريس » الذي ذكّرت به ملكة بابل لم يكن اسم علم ، وإنما كان في الغالب صفة ؛ إذ قد جاء وصفاً لغير واحدة من نساء بابل مثله في ذلك كممثل SEMIRAMIS الذي وصفت به ملكة ومعبودة في آن معا .

قتله . فقد ابتنت قاعة واسعة تحت الأرض ، وقالت إنها ستفتتحها . ولكنها
في قرارة نفسها كانت تدبر أمراً غير ذلك ؛ دعت إلى الوليمة عدداً كبيراً
من المصريين وبخاصة أولئك الذين علمت أنهم كانوا من المتآمرين على قتل
أخيها . وأطلقت عليهم — أثناء التهامهم الطعام — ماء النهر من قناة واسعة
خفية . هذا كل ما روي له عن هذه الملكة فيما عدا أنها بعد أن قامت بفعلتها
هذه ألفت بنفسها في غرفة مليئة بالرماد حتى لا تعاقب .

١٠١ — وقالوا لي إنه لم يبق أحد من بين الملوك الآخرين بأى عمل
مجيد ، ولم يكن منهم واحد ذائع الصيت غير آخرهم « مويريس » ؛ فقد خلد
ذكره بتشيد بهو معبد « هيفايستوس »^(١) الذى يتجه نحو الشمال ، وحفر
بحيرة سائين فيما بعد^(٢) كم يبلغ طول محيطها بالأستاد ، وبني فيها أهرامات^(٣)

(١) مر ذكر هذا المعبد فى الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب ،
والمقصود به « معبد بتاح » . وبعد ، فأما كهنة منف قد ذكروا لهردوت
— كما يزعم — أن الملك « مويريس » « أمنمحات الثالث » قد كان آخر ملوك
مصر الذين ذاع صيتهم ، فأكبر الظن أنهم قصدوا بذلك أنه كان آخر ملوك الأسرة
الثانية عشرة . وأما أن الملك المذكور قد شيد بهو معبد « هيفايستوس » ،
فصحيح ؛ إذ المعروف أنه جدّد عمارة ذلك المعبد ، وقد وجد له فى أنقاضه
ما يدل على ذلك . انظر : (Petrie, Tarkhan vol. I. pl. 7) .

(٢) انظر ما قلناه عن « مويريس » (MOERIS) هذا فى (الفصل رقم
١٣ هامش رقم ١) . ثم الحديث عن البحيرة المعروفة بهذا الاسم فى (الفصل
رقم ١٤٩) .

(٣) المقول أنه يقصد هرم الملك الذى أقامه عند مدخل الفيوم ، وعلى مسيرة
أربعة أميال منها . انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ١٤٣) . لولا أن الأمر
أمر أهرام لا هرم واحد ، فإذا كان ذلك كذلك ، فليس أمامنا إلا تصور الخلط
وسوء الفهم . (انظر : الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٤٩ هامش رقم ٢) .

سأذكر أبعاده في نفس الوقت مع أبعاد البحيرة . هذه هي الأعمال التي خلفها هذا الملك ولكن لم يعمل واحد من الآخرين شيئاً ما .

١٠٢ — وعلى ذلك ؛ سوف لا أتحدث عنهم ، وسأنتهي على ذكر الملك الذي خلفهم وكان يدعى « سيزوستريس »^(١) . روى الكهنة أنه أقلع أولاً من الخليج العربي بسفن حربية ، وأخضع السكان على سواحل بحر أروتري^(٢) ، ثم واصل الإبحار حتى بلغ المنطقة التي لم يعد عندها البحر صالحاً للملاحة لضعفاته^(٣) . ولما عاد بعدئذ إلى مصر أعد — وفقاً لرواية الكهنة — جيشاً جرّاراً ، واخترق القارة ، وأخضع الشعوب التي كانت في طريقه . وكان إذا صادف منهم شعباً بأسلة ، تُقاتل بعنف من أجل حريتها أقام ببلادهم أعمدة

(١) « سيزوستريس » : هو « سنوسرة الثالث » .

انظر : (Kees, RE. sp. 1861 Art. Sesostris) .

ثم (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ١٣٧ وما بعدها) .

(٢) لا نعرف أن « سنوسرة » في حروبه قد ركب البحر . ولكننا نعرف أنه ركب النيل ليخضع المُصاة في بلاد النوبة ، وليردّها عنها إغارات الزنوج . فهو قد حمل على تلك البقاع حملات أربع ؛ كانت أولاهها في العام التاسع وكانت آخرها في العام التاسع عشر من أعوام حكمه .

انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٢٣٧ وما بعدها) .

(٣) لقد اختلط الأمر على « هردوت » أو على رواته ؛ فهو قد سمع ذلك رواية من أفواه الكهّان كما يقول . على أن الرواية لا تمثل الحقيقة دائماً . وإنما الحقيقة أن فرعون عندما فكّر في تحصين أقاليم النوبة ؛ بدأ بجزيرة القيلة . ثم بدا له من بعد ذلك أن الملاحة في النهر صعبة غير ميسورة ؛ فعمد إلى حفر قناة في الصخر أسماها باسمه ، وبلغ طولها خمسين ومئة ذراع ، وبلغ عرضها عشرين ، كما بلغ عمقها خمس عشرة ذراعا . انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٧) .

عليها نقوش تنطق باسمه ووطنه ، وتبين كيف أنه أخضعهم بالقوة ، وعند هؤلاء الذين لم تقاوم مدتهم واستولى عليها في سهولة ، نقش على الأعمدة نفس ما نقشه عند الأمم الباسلة ، وأضاف إلى ذلك نقشا يصور عورة المرأة ، رغبة منه في أن يبرهن بذلك على جبنهم (١) .

١٠٣ — وبعملة هذا ، عبر القارة واجتاز آسية إلى أوروبا ، وأخضع « السكيثيين » و « الثراقيين » (٢) . ويخيل إلى أن هذين الإقليمين هما أقصى

(١) إن في الرواية خلطاً وسوء فهم وبالغة . ومصدر هذا كله ما حفظته الأجيال من سيرة ذلك الملك العظيم ؛ فمن مأثور قوله يصف نفسه « إنه ملك إذا قال فعل ، ينفذ إرادته بقوة يمينه ، وإنه مولع بالفتح ، شديد الحرص على ما يفتح . لا تكاد رغبته تضطرب بين جوانحه حتى يعمل على تحقيقها ، لا يلين لعدو ، ولا يسكت على أذى ، ولا يقعد عن مهاجمة من حاجه ، ولا يحجم عن مهادنة من هادنه . ويعرف كيف يرد القول بنظيره » . ثم يصف أعداءه فيقول : « إنهم يصدعون بقول الشجاع ؛ فإذا ما هوجوا خضعوا ، وإذا لأن لهم أمرؤ هجموا . وإنهم لقوم ضعفاء ؛ لا يقام لهم وزن ، ثم هم مساكين ؛ ضعاف قلوبهم » . ذلك بعض حديث فرعون تركه على لوح نصبه عند حدود أملاكه في جنوب الوادي ، ثم ختمه بوصية إلى خلفائه فقال : « إن امرأ من ولدى يستطيع أن يحمي ما أقمت من حدود ، فهو ولدى من صلبى ، وإنه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده . فأما من قعد عن ذلك ولم يند عن حدودى ، فذلك ليس من ولدى ؛ لأننى لم ألدّه . وهذا تمثالى أقنّه لكم على الحدود عك أن يُنهضكم فذودوا عنه » .

انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٨) .

(٢) السكيثيون و الثراقيون : من القبائل التى تفرقت قديماً في جنوب روسية انظر : (الحديث عن السكيثيين في الكتاب الرابع لمردوت من الفصل الأول حتى الفصل الرابع والأربعين بعد المئة . ثم ما جاء من ذكرهم أيام إيساتيك =

ما وصل إليه الجيش المصرى ؛ إذ أن الأعمدة ما تزال قائمة بها . ولكن لا يرى لها أثر أبعد من ذلك . ومن هناك دار على عقبه ورجع . وليس بإمكانى أن أتكلم بدقة عما تم بعدئذ عندما بلغ نهر « فاسيس » (١) . أفصلَ الملك « سيزوستريس » نفسه جزءاً من جيشه وتركه هناك لاستعمار الديار ، أم أن طائفة من الجنود — وقد أنهكها السير — بقيت بمحض إرادتها على ضفاف نهر فاسيس .

١٠٤ — إذ أن من الواضح أن « الكولخيين » مصريون (٢) . ولقد

= في الكتاب الذى أخرجه MEULENAERE عن هردوت والأسرة السادسة والعشرين ص ٣٠ وما بعدها .

فأما أن « سنوسرة الثالث » (سيزوستريس) قد عبر القارة واجتاز آسية إلى أوربا ليخضع هاتين القبيلتين ، فذلك قول لا يستند إلى أساس . وما تقدر له من سبب غير شخصية البطل الطاغية الساحرة التى نُسبت إليه كل خارق من العمل . وبطولة ذلك الرجل لم تبهر الكتّاب والمؤرخين فحسب ؛ بل بهرت خلفاءه من بعده ، فهذا أحد خلفائه الأبعدين « تحتمس الثالث » يامر بتقديسه في معابد التوبة ، وهذا « طهرقه » — الذى عاش بعد أيامه بمئتين وألف عام — يعيد تقديسه في معابد تلك الديار . وهكذا خدعت سيرة الرجل بعض المؤرخين وكتّاب السير فنسبوا إليه ما ليس له . والظاهر أنهم خلطوا بين سيرته وسيرة « تحتمس الثالث » ، كما خلطوا بين سيرة هذا الأخير وسيرة « رمسيس الثانى » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٤٦) .

(١) نهر « فاسيس » ، أشهر أنهار « كولخس » الواقعة على شاطئ البحر الأسود . ونعزى شهرته إلى أنه كان أحد الأنهار التى اخترقتها السفينة « آرغو » .
(٢) لا نستطيع أن نكذب « هردوت » فيما روى من أنه زار بلاد « الكولخيين » وإن كنا لا نستطيع التسليم برأيه فى أن « الكولخيين » كانوا من مصر ، وأنهم من بقايا عساكر « سيزوستريس » الذين وصلوا إلى تلك =

ذهبت شخصياً إلى هذا الرأي الذى أعلنه قبل أن أسمع به من الغير . ولما خطر هذا الموضوع ببالى ، استجوبت كلاً الشعبين وأدركت أن تَدَكُر « الكوثليين » المصريين أقوى من تَدَكُر هؤلاء إِيَّاهم . هذا ، مع أن طائفة من المصريين صرحت لى بأنها تعتبر « الكوثليين » بعضاً من جيش « سيزوستريس » . ولقد خمنت ذلك بنفسى ؛ لأن « الكوثليين » سمر البشرة ، جعد الشعر . (ولكن ذلك لا يؤدى فى الحقيقة إلى دليل ما لأن غيرهم من الناس لهم هذه الأوصاف) . وإنما يؤيدنى علاوة على ذلك أنهم وحدهم مع الأثيوبيين والمصريين (وهذا دليل أقوى) يمارسون دون سائر البشر عادة الختان منذ البداية (١) . إذ أن الفينيقيين والسوريين بفلسطين (٢) أنفسهم يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين . أما السوريون (٣) الذين يقطنون على ضفاف نهري « ترمودون » و « بارثينوس » (٤)

= البقاع ؛ ذلك لأنه يسند هذا رأى ويدعمه بممارسة الكوثليين عملية الختان كالمصريين والأثيوبيين . وليس ذلك — فى رأينا — بالدليل الكافى على أنهم كانوا مصريين . لأن المصريين وإن كانوا من أقدم الشعوب التى عرفت الختان ؛ إلا أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الشرق ؛ وإنما عرفته شعوب أخرى فى آسية كالمعبرانيين مثلاً .

(١) انظر الفصل رقم (٣٧) من هذا الكتاب .

(٢) السوريون بفلسطين هم اليهود بطبيعة الحال .

(٣) يقصد بهم سكان Cappadocia . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 131) . فأما عن أصل السوريين فامة .

فانظر : (« هردوت » الكتاب الأول الفصل رقم ٧٢) .

(٤) نهرا « ترمودون » و « بارثينوس » : الأول هو نهري « TERMID »

والثانى يسميه الإغريق PARTHIN ويسميه الترك DOLAP .

و « الماكرونيون » (١) الذين يجاورونهم ؛ فيقولون إنهم تعلموها حديثاً من « الكونليين » . وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون الخنسان . ويظهر أنهم يمارسونه كما يمارسه المصريون تماماً . وأما فيما يتعلق بالاثيوبيين والمصريين ؛ فلا أستطيع أن أقول أى الشعبين أخذ هذه العادة عن الآخر . إذ الظاهر أنها عادة قديمة عندهم . أما أن الشعوب قد تعلمتها من اختلاطها بالمصريين ؛ فبرهاني على ذلك ساطع ، لأن الذين يختلطون باليونانيين من الفينيقيين لا يقلدون المصريين فيما يختص بأعضاء التناسل ؛ بل يتركون ذريتهم بلا ختان (٢) .

١٠٥ — والآن ؟ دعنى أتمحدث — مادمننا بصدد « الكونليين » —
عن عادة أخرى يشبهون فيها المصريين . فهم المصريون فقط يصنعون التيل بنفس الكيفية ، كما أن طريقة الحياة واللغة متشابهة عند الشعبين (٣) . واليونانيون يسمون « التيل الكونلي » (٤) (ساردينيا) (٥) . بينما الذى يرد إليهم من مصر يسمونه مصرياً .

(١) الماكرونيون : ليس بين أيدينا من الوثائق ما يمكننا من تحديد وطن هؤلاء القوم ، وإن كان يظن أنهم لم ينزلوا بعيداً عن Cappadocia .
انظر : (« هرودوت » الكتاب الثالث الفصل رقم ٩٤ والكتاب السابع الفصل رقم ٧٨) . و Cappadocia تقع على مسيرة ٢٠ كم من « قيصرية » .
(٢) إذا صح أن بعض الفينيقيين كانوا يختنون ؛ فليس ذلك بالدليل على أنهم قد تعلموا الختان من المصريين ؛ بل الأرجح أن يكونوا قد أخذوا ذلك عن اليهود بحكم الجوار وكثرة الاختلاط .
(٣) يبدو أن المؤرخ قد أخطأ التوفيق في تصوير هذا الأمر ، إذ ليس من السهل عقد مقارنة بين الشعبين بهذه الصورة التى أوردها .
(٤) نسبة إلى بلد فى آسية الصغرى ، وفى الطريق إلى بلاد اليونان . ومنها كان الكتان يصل إلى تلك البلاد .

(٥) ورد ذكر هذا النوع من الكتان عند « سترابون » .
انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch S. 413) .

١٠٦ — ومع أن أغلب الأعمدة التي أقامها ملك مصر «سيزوستريس» (١) في الأقطار اختفت ولم يبق منها شيء بعد ، إلا أنني لحظت بنفسى أن بعضها ما زال موجوداً بفلسطين السورية (٢) وعليها النقوش التي تحدثت عنها . وكذا عورة المرأة . وفي « إيونيا » يوجد أيضاً تمثالان (٣) لهذا الملك منحوتان في الصخر ، أحدهما في الطريق المؤدية من « إفسوس » إلى « فوكايا » (٤) ، والآخر في الطريق المؤدية من « سارديس » إلى « سميرنا » (٥) . وفي كلا الحالتين يُصوّر التمثال المنحوت رجلاً ضخماً ارتفاعه أربعة أذرع ونصف ؛ ممسكاً بيمينه حربة ، ويسراه قوساً (٦) . وباقى عدته على هذا النمط ، بعضها

(١) انظر : (الفصل الواحد بعد المئة ، هامش رقم ١) .

(٢) الغالب أن المقصود هنا الساحل الفلسطيني الذي مر به « هردوت » فشواهد الأمور تدل على أنه لم يوغل فيها وراء الشاطئ .

(٣) ذلك خطأ وقع فيه « هردوت » . انظر (Legrand, p. 135, note 2.) ثم (Waddell, Herodotus, p. 216, note 5.) .

(٤) إفسوس ، وفوكايا : مدينتان من مدائن « ليديا » تقع الأولى وهي « سلاجوق » — وكانت من الثغور المهمة — على شاطئ ليديا . وكان بها معبد شهير للمعبودة « أرتيميس » . انظر : (Van Der Heyden, ATLAS of the Classical World p. 82, 85) . وتقع الثانية على شاطئ ليديا أيضاً . انظر : (المرجع السابق الخرائط رقم ١٠٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩) .

(٥) سارديس . انظر : (الفصل رقم ١٠٥ هامش ٢) .

(٦) تلك صورة إن صَحَّتْ . قد تكون لآلهة الحرب أو الملوك الذين يصوِّرون في صورتها .

مصرى ، وبعضها إثيوبي . ويمتد بعرض الصدر من كتف إلى كتف نقش محفور باللغة المصرية المقدسة يقول : « لقد استوليت على هذه الأرض بقوة أكتفى » ، ولكنه لا يوضح هنا من أين جاء ، إذ قد أوضح ذلك في مكان آخر . ويظن بعض من شاهدوها أنهما يمثلان « ممنون » (١) . ولكنهم في ظنهم هذا يبعدون عن الحق كثيراً .

١٠٧ — وعندما وصل « سيزوستريس » المصرى إلى « داقشاي البيلوزية » (٢) ، أثناء رجوعه وهو يقود رجالاً عديدين من الشعوب التي قد أخضع بلادها ؛ عندما وصل هناك — وفقاً لرواية الكهنة — دعاه أخوه (٣) الذى كان قد عهد إليه « سيزوستريس » بأمر مصر — إلى وليمة هو وأولاده ، ثم أحاط المنزل من الخارج بأكوام من الحطب ، وبعد تكريمه أشعل فيه النار . فلما علم الملك بذلك ، تشارف في الحال مع امرأته التي كان قد أحضرها معه أيضاً . فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أولاده وكانوا سنة — على كومة الحطب المشتعلة ليكونا بمثابة جسر على النار وبذلك ينجيان نفسيهما بالعبور عليهما . فعل « سيزوستريس » هذا — فاحترق اثنان من أبنائه بهذه الطريقة ،

(١) ممنون : ابن Eos ملك أثيوبيا وحليف « بريام » . كما جاء عند « هوميرو » . انظر : (Homer, Ody. IV, 188 IX, 522) .

(٢) دقشاي البيلوزية : وتسمى أيضاً « كوم دفنة » ؛ موقعها على الفرع البيلوزى وعلى مسيرة ١٥ كم من القنطرة الحالية وفيها وضع « إيسماتيك » الأول حامية من المرتزقين من جنود الإغريق الذين استعان بهم على الخلاص من نير الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ٣٠ من هذا الكتاب) . ثم (الاصحاح ٤٣ من أرميا : ٧ و ٥) .

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٠٨ هامش رقم ١) .

أما الآخرون فقد نجو مع أبيهم (١).

١٠٨ — عند رجوعه إلى مصر بعد أن ثار من أخيه (٢) استخدم « سيزوستريس » العدد الفغير الذي أحضره معه من البلاد التي أخضعها فيما يلي : هم الذين جرّوا الأحجار التي نقلت في عهده إلى معبد « هيفايستوس » ، وقد كانت ضخمة الحجم . وهم الذين سُخِّروا في حفر جميع القنوات التي توجد الآن في مصر . وبهذا جعلوا — بغير رضام (٣) — من مصر التي كانت كلها

(١) في الحق إن الأثرة والأنانية من أخص خصائص النفس البشرية . وتفول العامة « إن جاء الطوفان حُطَّ ابنك تحت رجليك » . كما نسمع أن آباءً عزموا على التضحية بأبنائهم في سبيل عقيدة دينية (انظر : ص ٢٣٧) على أننا لا نظن أن القصة صحيحة بحال من الأحوال .

(٢) لم يكن « رمسيس الثاني » بكر أبناء أبيه ، وإنما ودَّع البكر هذه الدنيا قبل أن يبلغ منها ما قدَّر له أبوه . والعجيب أن الدهر الذي احتفظ لنا برسم ذلك الأمير وألقابه وصفاته ، لم يدَّخر لنا اسمه . ولقد حامت الشكوك حول مصيره ، حتى ظن الناس برمسيس الظنون . ولم يستبعدوا أن يكون قد وقعت بين الأخوين وقائع انتهت بمصرع الأول على يد الثاني . وربما بقي دوى ذلك حتى طرق سمع « هردوت » ؛ فكان ما كان من حبك تلك القصة التي رواها . والله يعلم الغيب من كل أمر .

انظر : (الحديث عن ذلك في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٣٨ و ٨٥١) .
(٣) ذلك أمر لا يخالف منطق الظروف ؛ فقد كانوا أسرى ، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا . وإذا صح أن يُسمَّى العمل في مرافق الدولة يومئذ « سُخْرَ » ؛ فلم يكن الأسرى وخدمهم هم الذين يُسَخَّرُونَ ، وإنما كان يشاركون في ذلك المواطنون أيضاً . وتلك أمور لم تجر في عهد آل فرعون وحسب ؛ بل جرت في سائر اليهود قديمها وحديثها . وليس علينا أن نذكر كيف شُقَّت « قناة السويس » ، وكيف شُقَّت « المحمودية » و « الإسماعيلية » و « الإبراهيمية » ، وكيف بُنيت « القناطر الخيرية » . وعلينا أن نذكر كيف كان يُستخدَمُ عساكر الجيش أيام « فاروق » . وعلينا أن نذكر أن ذلك لم يجر في مصر وحدها ؛ بل جرى في بلاد غير مصر . ويكفي أن نذكر نظام « الخدمة الإجبارية العامة » أيام النازيين في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية .

من قبل بلادا — تقطعها الخيول والعجلات^(١) — بلادا خالية منها . فبذلك
الحين أصبحت مصر — بالرغم من أنها كلها مسطحة — خالية من الخيل
والعجلات . وكانت القنوات السبب في ذلك لكثرتها وامتدادها في كل
الجهات . ولقد شق الملك هذه القنوات في البلاد لأن المصريين الذين كانوا
يقطنون مناطق لا تقع على النهر وتقع في داخل البلاد ، كانوا — لحرمانهم من
مياه النهر كلما انحسر — يتعاطون شرا باصالحاً يستمدونه من الآبار . لذلك
شقت القنوات .

١٠٩ — وقال الكهنة إن هذا الملك وزع الأراضي^(٢) على جميع
المصريين ؛ فأعطى كل فرد بالتساوى نصيبا مريحا . ومن هذا المصدر أوجد

(١) وهذا برهان آخر على أن « هردوت » قد فهم أن « سيزوستريس »
لم يكن « سنوسرة » الثالث ، وإنما كان « رمسيس الثاني » ؛ ذلك لأن الخيول
والعجلات لم تكن قد عرفت في أيام « سنوسرة الثالث » . ونحب هذه المناسبة أن
نشير إلى أن حفر الترع والقنوات لا يمكن أن يكون قد قصد به الاستغناء
عن العجلات ، وإنما قصد به في الغالب توسيع الرقعة الزراعية .

(٢) الواقع أن تصديق رواية هردوت عن التوزيع أمر غير يسير .
فقد كان التوزيع معروفا على حكام الأقاليم باعتبارهم ملتزمين . فأما مسح
الأراضي الزراعية فكان من أهم الأمور التي تشغل الدولة والشعب في كل عام .
وذلك أمر اقتضته طبيعة النيل وما يفعل فيضانه في الأرض . وما زلنا نعرف
ما نسميه اليوم « أكل البحر » أو « طرح البحر » ، ونعرف أن حدود الأرض
الثابتة لا يمكن أن تجري صحيحة مع تلك الظاهرة ، إذ أن الأمر يتوقف على
منسوب الفيضان من كل عام ؛ فعلى قدر المزارع من الأرض كانت الدولة تقدر
دخلها من الضرائب السنوية . انظر : (Strabon, XXII; 787) .

الدخل ؛ لأنه أمر بتأدية ضريبة سنوية (١) . وإذا أكل النهر جزءاً من نصيب أحد الأفراد (لطغيانه على هذا الجزء) ، توجه إلى الملك وبيّن له ما حدث ، فكان « سيزوستريس » يرسل أشخاصاً لمعاينة الأرض وقياس المقدار الذى نقص منها حتى يدفع من الضريبة المقررة ما يتناسب والمتبقى من الأرض . ويُحْيَلُ إلى أن هذا كان بدء اكتشاف علم المساحة (٢) الذى انتقل إلى اليونانيين ؛ لأن هؤلاء تعلموا عن البابليين الساعة الشمسية والمزولة وتقسيم النهار إلى اثني عشر قسماً .

١١٠ — « سيزوستريس » هو الملك الوحيد الذى حكم اثيوبية (٣) ، وقد خلف تخليداً لذكره أمام معبد « هيفايستوس » (٤) تماثيل حجرية : اثنان يمثلانه هو وزوجته ؛ طول كل منهما ثلاثون ذراعاً . والأخرى تمثل

(١) كان المعفون من الضرائب بين طبقات الشعب هم الكهان والجند . انظر : (الفصل رقم ٨٧ و ١٦٨ من هذا الكتاب) .
(٢) ظاهر فيما قدمنا من الحديث عن اضطراب المصريين إلى مسح الأراضي الزراعية فى كل عام ليتبينوا مقدار مساحتها ، ولترتب الحكومة بناء على ذلك ما يخصها من ضرائب . (انظر : Kees, K. G. S. 35) ، أن ذلك قد جمل مصر فى نظر هردوت وطن المهندسة عامة والمهندسة المساحية بخاصة . انظر : (Kees, K. G. S. 293) .

(٣) إن فى كلام « هردوت » نصف الحقيقة ؛ فسيزوستريس كان أول من أقر الأمور فى بلاد النوبة (إثيوبية) بحيث أصبحت جميعاً فى قبضة يده ونحت رايته ؛ إلا أن « سيزوستريس » هذا لم يكن « رمسيس الثانى » كما خال « هردوت » ولكنه كان « سنوسرة الثالث » . ثانى أبطال الأسرة الثانية عشرة ، وأقوام عزيزة وأشدّهم بأساً .

انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (الفصل رقم ٩٩ هامش رقم ٥) .

أبناء الأربعة وطول كل منها عشرون ذراعاً^(١) . وبعد ذلك بزمن طويل لم يسمح كهن « هيفايستوس » لدارا الفارسي أن يقيم تمثاله أمام هذه التماثيل قائلاً: إن الملك الفارسي لم يقيم بأعمال مثل التي قام بها « سيزوستريس » المصري ؛ لأن هذا قد أخضع من الشعوب مالا يقل عما أخضعه « دارا » . وبصورة خاصة « السكيثيين » الذين لم يستطع « دارا » قهرهم ، فلم يكن إذن من العدل أن يقام أمام الآثار التي شيدها « سيزوستريس » تمثال « دارا » ما لم يبره هذا بأعماله . ويقولون إن « دارا » قد وافق على ذلك الرأي^(٢) .

١١١ — وبعد موت « سيزوستريس » خلفه على العرش فيما يقال ابنه

(١) كدأبر الحكام البنائين من فراعنة الوادي وبخاصة « رمسيس الثاني » الذي بزّ أسلافه وخلفاءه ؛ بل بزّ ملوك الأرض جميعاً في هذا الميدان ، لم يسبقه فيه سابق ولم يلحقه لاحق ، ولم تخل عاصمة من عواصم الأرض في شمالها وجنوبها من آثاره الضخمة ، ونحن نعرف أنه سكن « ممفيس » ونزل منها قصرأ كان — أكبر الظن — في غربها أو في الشمال الغربي منها . انظر : (Badawi, Memphis S. 110) ، وبني فيها وعمر ، وترك في ضواحيها آثاراً لا تدع مجالاً للشك في رواية هردوت ؛ فلقد أبقت الأيام على بعض تماثيله بين خرائبها ، وحسبنا منها ذلك التمثال الضخم الذي ما زال في قرية « ميت رهينة » ، ثم ذلك الذي نقلته حكومة الثورة وأقامته في ميدان محطة القاهرة .

(٢) أما عن السكيثيين الذين لم يستطع داراً قهرهم . فانظر : (الفصل ١٧٣ هامش رقم ١ من هذا الكتاب) . وأما أن كهن « هيفايستوس » (= پتاح) قد رفض أن يقام تمثال « دارا » أمام تماثيل « سيزوستريس » (= رمسيس الثاني) لأنه لم يستطع ما استطاعه هذا الأخير ، فأمر يحتاج إلى نظر ؛ ذلك لأن « دارا » كان فاتحاً ، وما أظن أن رأى السكاهن — إن صحت الرواية — قد كان يرضيه إلا أن يكون « دارا » قد كان حاكماً من طراز إنساني ممتاز . وما أظن أن الغزاة والفاحين من المنتصين والمستعمرين قد كانوا كذلك .

« فيروس »^(١) الذي لم يقم بحملة حربية واحدة . وحدث أن أصابه العمى من جراء هذه الحادثة التالية : فاض النهر وقتئذ فيضاً شديداً جداً ؛ بلغ ارتفاعه ثمان عشرة ذراعاً ، وغمر الزروع ، وذلك عندما ثارت الريح ، واضطرب النهر . وهم يروون أن الملك — وقد تملكه سخطٌ مُضِلٌّ — أخذ رحماً

(١) إذا عرفنا أن « سيزوستريس » عند هردوت كان « رمسيس الثاني » ، فإن ابنه الذي بلغ العرش من بعده قد كان « منفتاح » . وأن هردوت لم يُسمِّه باسمه هذا ، وإنما أمماه « فرعون » . ولفظ « فرعون » كما نعلم ليس باسم علم ؛ وإنما كان لقباً يُنعتُ به الجالس على العرش ، ومعناه « البيت العظيم » . وقد ظهر وذاع في المصور المتأخرة . ومثله مثلُ لقب « الباب العالي » الذي كان يُنعتُ به سلاطين « آل عثمان » . على أن اللقب — فيما يظهر — قد أصبح بعد أيام المصريين القدماء علماً عاماً على كل من حكم مصر .
وبنو إسرائيل يُسمُّون من زعموا أنه عدَّ بهم ، ثم اتبعهم بمجنوده ليشردهم في شرق الأرض « فرعون » .

والعجيب أن يُذكر اسم إسرائيل في التوراة ثمانين وستمائة مرة ، على حين أنه لم يرد في تراث المصريين الطويل غير مرة واحدة ؛ وذلك في أيام « منفتاح » حوالي عام ١٢٣٠ ق . م .

وليس يبعد أن يكون فيما سمعه « هردوت » عن ذلك الملك ، وبخاصة قصة العمى ، والاستشفاء منه يبول النساء ، أثرٌ من الدعاية السيئة التي نشرها بنو إسرائيل حول سيرة « منفتاح » ؛ نقول لا نستبعد ذلك وبخاصة إذا ذكرنا أن « هردوت » قد جاء بعد الفتح الفارسي الأول بنحو قرن من الزمان ، وأن اليهود الذين كانوا في مصر قد انتهزوا فرصة دخول الفرس فباتوا يطالبون بحقوق زعموا أنها كانت لهم ثم هُزِمَتْ ، وباتوا يستصرخون الحاكم الفارسي ويستعدونه على المصريين . كما أننا لا نستبعد آخر الأمر أن « سفر الخروج » على الأقل ، قد كتب في ذلك العهد الفارسي . انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٨) .

وَأَلْقَى بِهِ وَسْطَ دَوَامَاتِ النِّهْرِ . وبعد ذلك أصابه في الحال أذى في عينيه ففقد بصره ، وبقى أعشى عشر سنوات . وفي السنة الحادية عشرة ، جاءه وحى من مدينة « بوطو » (١) ينبئ أنه قد انتقضت ، وأنه قد يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع إلاً بزوجها فقط . فبدأ أولاً بتجربة بول امرأته ، وبعد ذلك لم يبصر ، فحرب بعد ذلك على التوالى بول كثيرات من النساء . ولما عاد إليه بصره ، جمع النساء اللاتي جربهن ، حاشا تلك التي أبصر بعد الاغتسال ببولها ؛ فجمعن في مدينة تسمى الآن (أروتري بولوس) (٢) ، وبعد جمعن أحرقن جميعاً والمدينة معهن . أما المرأة التي أبصر بعد الاغتسال ببولها فاتخذها زوجاً له . ولنجاته من الأذى الذي لحق بعينه أقام نصبا في كل المعابد الشهيرة ، أحقها بالذكر على وجه الخصوص الأعمال التي أقامها في معبد الشمس ، وهي جديرة بالمشاهدة : مسلتان حجرتان ، صنعت كل منها من حجر واحد ، وطول الواحدة مئة ذراع وعرضها ثمانية أذرع (٣) .

(١) انظر الفصل رقم ٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) « أروتري بولوس » (ERYTHRABOLUS) يعني « الأرض الحمراء » ويقصد بذلك غالباً منطقة « الجبل الأحمر » . وكانت لدى المصريين من البقاع المقدسة ، وكانت لهم فيها معبودة خالوها في هيئة الطير وأسموها « الحمراء » .

(٣) لم يقيم « مفتاح » مسلات في « هليوبوليس » . وأكبر الظن أن تكون القصة كلها أثرأ من تلفيق المؤرخ اليهودي « يوسف » حين استغل قصة المكسوس وهجومهم على مصر ، فاتحلها لصالح قومه من بني إسرائيل . وهناك خلطٌ عن قصد أو جهل — بين « مفتاح » و « تحتس الثالث » فنحسب ذكر اسم الأول ؛ تماماً كما هي الحال عند من كتبوا سفر الخروج من قومه حين سَمَوْا من شرَدَ اليهود باسم « فرعون » . انظر : (سفر =

١١٢ — تولى الحكم من بعده — حسب قولهم — رجل من « ممفيس » ،
يسمى باللغة اليونانية « بروتبوس »^(١). له فى « ممفيس » حرم جميل جداً ،
حسن الزينة ، يقع إلى الجنوب من معبد هيفايستوس^(٢). يقيم حول هذا الحرم
= الخروج . ثم انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٢٩٤) .

فالمسلتان كاتتا لنحتس الثالث ، وقد نقلنا — فى زمان « أغسطس »
وعلى يد الحاكم الرومانى « برباروس » عام ٢٥ ق . م — إلى الإسكندرية
لنقاما فيها . وأمامها العرب حين رأوها « مسلتى كليوباتره » ، ثم أُهديت
إحداها فى زمان « محمد على » إلى حكومة بريطانيا ؛ فأقيمت على شاطئ نهر
« التمس » بمدينة « لندن » عام ١٨٧٧ ، وأهديت الأخرى إلى حكومة الولايات
المتحدة فى زمان حفيده « إيماعيل » عام ١٨٨٠ ، وهى تُزيّن اليوم
« حديقة السنترال » بمدينة « نيويورك » .

(١) بروتبوس : إن الوصف الذى وصف به « هردوت » هذا الحاكم إنما
يلأئم تماماً الملك الذى عُرفَ عند المصريين باسم « ست نخت » وظهر حوالى
عام ١٢٠٠ ق . م . وبه تبدأ الأسرة العشرون .

انظر : (Ed. MEYER , Gesch. II 1, S. 581) . ويظن بعض
المؤرخين أنه ربما يكون من سلالة البيت الزائل . وقد جلس على العرش نحو
عامين ، واستطاع خلال ذلك الوقت القصير أن يردّ الطغامعين فى العرش من
المدّعين . وأن يردّ الحياة المصرية إلى صوابها . انظر : (فى موكب الشمس
ج ٢ ص ٨٩٢ وما بعدها) كما استطاع — قبل أن يودع الدنيا (عام ١١٩٨) —
أن يجمعَ العرشَ من حقٍّ ولد له عُرفَ فى التاريخ باسم « رمسيس الثالث » .
انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 262) .

(٢) الواقع أن ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، قد بنوا فى معبد
« هيفايستوس » (= بتاح) كثيراً ، وبخاصّة « رمسيس الثانى » وولده
« منفتاح » ، ثم الملك « ست نخت » الذى يسميه هردوت « بروتبوس » .
وقد كانت عمارته — أكبر للظن — إلى الجنوب من عمارة « منفتاح » ، وفى المكان
المعروف اليوم بين خرائب « ممفيس » باسم « كوم القلعة » .
انظر : (Badawi, Memphis. S. 19/20) .

« فينيقيون » من « صور » . ويسمى هذا الحى كله معسكر الصوريين^(١).
ويوجد فى حرم « پروتيوس » معبد يسمى معبد « أفروديت الأجنبية »^(٢) .
وأظن أن هذا المعبد هو معبد هيلينا ، ابنة « تنداروس » ؛ وذلك لما سمعته
من أن « هيلينا » كانت تقيم عند « پروتيوس »^(٣) . ولأن المعبد يسمى معبد
« أفروديت الأجنبية » بينما لا تطلق هذه التسمية على أى معبد من سائر معابد
« أفروديت » .

١١٣ — وعندما سألتهم ، روى لى الكهنة هذه القصة عن « هيلينا »^(٤) :

(١) اقتضت العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وجاراتها من دول
الشرق القريب أن يقد إلى مصر كثير من أمراء تلك البلاد ، ليتربوا فيها تربيةً
ثقافية وعسكرية وكانت « ممفيس » — وهى يومئذ قاعدة مصر الحريسة —
مقر أولئك الوافدين . وأكبر الظن أن أولئك الأمراء لم يقدوا وحدهم
إلى مصر ، وإنما وفد فى ركبهم كثيرون من العُبدان والجواري ، وأصحاب
التجارة . فنشأت لهم مع الزمن أحياء فى تلك العاصمة ؛ كان أكثرها إلى جوار
معبد « پروتيوس » . انظر : (Badawi, Memphis S. 29) .

(٢) هذه المعبودة أسيوية الأصل ، واسمها الأسيوى الأصيل « عشتاره » ،
ساواها المصريون — أو قل قسروها — بمعبودتهم « زخة » ، التى كانت كعبتها
فى « ممفيس » ، والتى ساواها الإغريق بمعبودتهم « أفروديت » .

انظر : (Badawi, Memphis 31 — 32) .

(٤) هيلينا : أكبر الظن أن قصة هيلينا كان أمرها قد ذاع فى مصر قبل
أيام « هردوت » وأن الإغريق كانوا مشغوفين بالبحث والتقصى عن أصل كل
ما جاء فى ملاحم هوميرو . انظر : (RAWLINSON, Herodotus II. p. 158) .

خطفها الإسكندر^(١) من إسبرطة وركب البحر نحو بلده . وبينما هو في بحر
إيجيه طوّحت به رياح عاتية مضادة في « البحر المصرى »^(٢) ، ومن هناك
(لأن الرياح لم تهدأ) وصل إلى مصر ؛ وإلى ما يسمى الآن « بفرع النيل
الكانوبي » والملاحات^(٣) . وكان يوجد على الشاطئ — وما زال موجوداً
حتى الآن — معبد لهيراكليس^(٤) ، إذا لجأ إليه عبدٌ أى كائن من البشر ،
ووسم نفسه بالعلامات المقدسة — واهباً نفسه للإله — فلا يحل لأحد أن يمسه
بسوء . وما زالت هذه السنة متبعة في زمنى ؛ تماماً كما كانت منذ البداية .
لذلك لما علم أتباع الإسكندر^(٥) بالسنة الخاصة بهذا المعبد انفضوا من حوله ،

(١) هذا الإسكندر هو ثانى أبناء « برياموس » صاحب طرواده من زوجه
« هيكوبه » وكان يعرف أيضاً باسم « باريس » وقد خطف « هيلينا » هذه من
« إسبرطة » ، وكان ذلك سبباً في إشعال نار الحروب الطروادية المتصلة التي
استمرت أحد عشر عاماً (١١٩٢ — ١١٨٣) . انظر : (Wiedemann ,
Herodots Zzweites Buch S. 432 ff.) .

(٢) البحر المصرى : هو بطبيعة الحال البحر الأبيض المتوسط .

(٣) الملاحات : يقصد بها تلك المستنقعات البحرية التي كان المصريون
يصطادون منها السمك ، فبما كلونه أو يصدرونه مملوحاً إلى الخارج . وقد مر ذكر
نظائر تلك الملاحات عند الفرع البيلوزى . انظر : (الفصل رقم ١٥ من هذا
الكتاب) .

(٤) كان هذا المعبد في ضاحية يُسميها الإغريق HERAKLEION موقعها
على مصب قناة تجرى من الإسكندرية إلى الفرع الكانوبي . كان معبدها الرئيسى
لآمون . فأما معبد « هيراكليس » فقد ذكره « استرابون » ، كما ذكره
« ديودور » أيضاً . انظر : (Wiedemann, ibid. S. 436) .

(٥) يقصد بأتباع الإسكندر العبيد الذين كانوا معه .

وجثوا ضارعين للإله ، وشكوا «الإسكندر» بُغية إيدائه ، ورووا القصة كلها ؛ ما حدث من أمر « هيلينا » والخطيئة التي ارتكبت في حق « مينلاوس » . وأعلنوا هذه الاتهامات إلى الكهنة ، وإلى حارس هذا الفرع ، وكان يسمى « ثونيس » (١) .

١١٤ — وبعد أن أصنى إليهم « ثونيس » ، أرسل — على جناح السرعة — إلى « بروتوريوس » بمفيس رسالة يقول فيها : جاءنا أجنبي تيوكري الجنس بعد أن ارتكب ذنبا فاحشا في بلاد اليونان ؛ إذ غرر بزواج مضيئه بالذات ، وأحضرها معه هي وثروة طائلة جدا . وقد طوحت به الرياح إلى أرضك ، فهل تدعه يقلع دون أذى . أم تجرّده مما جاء به ؟ . فرد « بروتوريوس » على ذلك قائلا : اقبضوا عليه مهما كان شأنه ، هذا الرجل الذي ارتكب إثما منكرا في حق مضيئه ، وأحضروه إليّ حتى أعرف ما عساه أن يقول .

١١٥ — فلما سمع « ثونيس » بهذا ، قبض على «الإسكندر» واستولى على سفنه . وبعد ذلك ساقه إلى « ممفيس » هو و « هيلينا » ومعهما الأموال وكذا العبيد الضارعين . فلما حضروا جميعا ، طلب « بروتوريوس » إلى «الإسكندر» أن ينبئه من هو ومن أين أبجر . فخذّته الإسكندر بالتفصيل عن نسبه وأخبره باسم بلده وقصّ عليه — في إسهاب — أبناء رحلته من

(١) THONIS ثونيس : يزعم البعض أن ذلك ربما كان تصحيفا لاسم أحد حكام مصر ، وقد جاء ذكر زوجة له أمموها (POLYDAMNA) في شعر « هوميرو » . انظر : (Odys. IV, 228) ، وفي رأي « ديودور الصقلي » (Diod. I. 19) أن ذلك الحاكم قد خلع اسمه على تلك المدينة التي يقول إنها كانت إحدى الموانئ التجارية على الفرع الكانوبي .

المكان الذى أقلع منه . وبعد ذلك سأله « بروتىوس » من أين أخذ « هيلينا » . ولما حاد « الإسكندر » عن جادة الصدق ، ولم يقل الحقيقة ؛ كذبه الذين جاءوا ضارعين . ورووا قصة جرمه بخدافيرها . وأخيراً أعلن إليهم « بروتىوس » حكمه قائلاً ؛ لو لم أكن أنهم كثيراً بالاً أقتل أحداً من الأجانب الذين تطوح بهم الرياح ويأتون إلى بلادى ، لثارت لليونانى منك يا أخس الرجال ، لأنك بعد أن تمتعت بحقوق الضيافة ارتكبت أشنع ذنب ؛ فجامعت زوجة مضيفك نفسه ولم تكشف بذلك ؛ بل أغريتها بالفرار ، وخطفتها وأخذتها معك . ولم تكشف بهذا وحسب ، بل جئت بعد أن نهبت دار مضيفك . وبناء عليه ، لما كنت أعلق أهمية كبيرة على ألا أقتل أجنبياً ، فلن أسمح لك بأن تأخذ معك هذه المرأة ولا تلك الأموال ؛ بل سأحتفظ بها لمضيفك اليونانى إلى أن يرى الحضور بنفسه لأخذها ، أما أنت ورفاقتك ، فأنى أنذركم بأن تقبلوا وترحلوا عن بلادى إلى غيرها فى ظرف ثلاثة أيام ، فإن لم تفعلوا فسأعاملكم معاملة الأعداء (١) .

١١٦ — هكذا — وقفا الرواية الكهنة — وصلت « هيلينا » عند « بروتىوس » . وبخيل إلى أن « هوميروس » كان على علم تام بهذه الرواية ، ولكن لما لم تكن مناسبة للملحمة مثل الرواية الأخرى التى أخذ بها ، فإنه قد

(١) لقد يبدو أن تقوى هردوت ، وإيمانه بالعدل الإلهى ، وبالثواب والعقاب هما اللذان دفعاه إلى أن يُجربى على لسان « بروتىوس » مثل هذا الحديث كما فعل فى كتابه الأول . انظر : (الفصلين رقم ١١٨ ورقم ١٢٣ من الكتاب المذكور) . ولو اطلع هردوت على تراث المصريين لكفاه من ذلك — لتصوير سلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الخلقية — ما أمعاه العلماء « كتاب الموتى » ؛ فإن فى هذا الكتاب ما يكفى للدلالة على حرص كل امرئ من آل فرعون على أن يبرأ من الآثام كافة طمعاً فى أن يأتى ربه بقلب سليم .

أغفلها مع الإشارة إلى أنه كان على معرفة تامة بها . ويتضح ذلك مما رواه عن طواف الإسكندر في « الإلياذة » (ولم يناقض نفسه في أى موضع آخر) . إذ قال إن الإسكندر ومعه « هيلينا » قد حيد به عن طريقه ، فطوّف بأما كن مختلفة ، ثم وصل إلى « صيدا » في « فينيقيا » . ثم هو يذكره في الكلام عن رسالة « ديوميديس » فيقول في أشعاره (١) :

« هناك حيث كانت توجد الثياب الموشاة بالرسوم من صنع نسوة « صيدا » اللاتي أحضرهن من هذه المدينة الإسكندر نفسه — الشبيه بالله — عندما ركب البحر الخضم أثناء رحلته التي حمل فيها « هيلينا » ابنة من يشار إليه بالبنان » (٢) .

ثم ردّد ذكرها أيضاً في هذه الأبيات من « الأوديسا » (٣) :

« وابنة « زيوس » كانت عندها عقاقير شافية ممتازة ، حُضِرَتْ بمهارة فائقة ، أهدتها إليها « بوليدامنا » المصرية ، امرأة « ثون » . وأرض مصر خصبة تنتج من العقاقير مالا حصر له . كثير منها يضر ، وكثير منها إذا خلط كان دواء ناجحاً » .

وفي البيتين التاليين أيضاً يقول « مينلاوس » لتلباخوس :

« وبمصر حجزتني الآلهة ، رغم رغبتي الملحة في الرجوع إلى هنا ، إذ قد فأتني أن أقرب لها قرباناً كافياً لأنني لم أنجر لها مائة ثور كاملة » .

(١) عنوان خامس كتب الإلياذة .

(٢) (٦) ٢٨٩ وما يلي ذلك ، هو التقسيم الحالي للعلاجم « الهومييرية » ويُنسبُ مادة إلى Zenodote (عام ٣٠٠ ق . م) . ولم يكن ذلك معروفاً لدى هردوت بطبيعة الحال .

(٣) الأوديسا (٤) ٢٢٧ وما يلي ذلك ، ٣٥١ — ٣٥٢ .

يتضح من تلك الأبيات أن « هوميروس » كان على علم تام برحلة « الإسكندر » إلى مصر ، لأن سورية تجاوز مصر ، ولأن الفينيقيين الذين يملكون « صيدا » يقطنون سورية .

١١٧ — ويتضح من هذه الأبيات أن « الملحمة القبرصية »^(١) ليست قطعاً لهوميروس ؛ ولكنها لشاعر آخر إذ ورد فيها أن الإسكندر وصل من « إسبرطة » إلى « طروادة » خلال ثلاثة أيام وبصحبته « هيلينا » . لأن الريح كانت مواتية له وكان البحر هادئاً . بينما يقول « هوميروس » في « الإلياذة » : إن الإسكندر قد هام على وجهه وهي معه . فلنترك الآن هوميروس والملحمة القبرصية .

١١٨ — ولما سألت الكهنة عما إذا كانت الرواية التي يرويها اليونانيون عن طروادة باطلة (فارغة) (نافية) أم لا ، ردوا قائلين : إن معلوماتهم مستقاة من « مينلاوس » نفسه . وهذه روايتهم : بعد خطف « هيلينا » توجه إلى بلاد « تيوكريس » جيش عرمرم من اليونانيين لمساعدة « مينلاوس » . وعندما وصل الجيش إلى البر وضرب معسكراته ، أرسل إلى « طروادة » سفراء كان معهم « مينلاوس » نفسه . ولما اخترق هؤلاء أسوار المدينة ، طالبوا بهيلينا والأموال التي كان الإسكندر قد سرقها منهم عند رحيله ، وطالبوا بالتعويض عما ارتكب من ظلم . ولكن أهل « تيوكريس » أكدوا وقتئذ وفيما بعد ، مُتَّسِبِينَ ، وبغير قسم ، أن « هيلينا » ليست عندهم ، وأنهم لا يستحذون على الأموال التي يُتهمون بأخذها ، وإن كل ذلك في مصر ، وإلنه ليس من

(١) الملحمة القبرصية : ينسبها بعض الكتاب إلى شاعر قبرصي عاش في مطلع القرن الثامن قبل الميلاد . ويقال إنها كانت من سبعة أجزاء .

العدل أن يؤخذوا بجيازة أشياء في حوزة « بروتوس » ملك مصر . وظن اليونانيون أنهم يسخرون منهم ، وعلى ذلك حاصروا المدينة واستمر حصارهم لها حتى استولوا عليها . ولما استولوا عليها ولم تظهر لهم « هيلينا » بل وسمعوا نفس القصة التي قيات لهم من قبل ، آمنوا عندئذ بصحة ما سبق قوله وبعثوا بمينلاوس نفسه إلى « بروتوس » .

١١٩ — وعندما وصل « مينلاوس » وأبحر إلى « ممفيس » ، روى القصة على حقيقتها ولقى منتهى الكرم . إذ استرد « هيلينا » ولم يمسه سوء ، وكذا كل أمواله . ولكن بالرغم من ذلك كله كان « مينلاوس » ظالماً للمصريين . فبينما كان يسرع للرحيل ، عاقه نوء شديد ، ولما استمر الحال على هذا المذوال وقتاً طويلاً ، فكر في أمر حرام . إذ أخذ صبيين من أبناء أهل مصر فذبحهما وقدمهما ضحية^(١) . ولما ذاع الخبر بأنه قد ارتكب ذلك ، كرهه المصريون وطاردوه ؛ ففر هارباً بسفنه إلى ليبيا^(٢) . ولم يستطع المصريون أن يذكروا الاتجاه الذي سار فيه هناك ، وقالوا إنهم وقفوا على بعض هذه المعلومات عن طريق الاستقصاء . أما ما حدث في بلادهم فهم يروونه عن يقين .

(١) إن التضحية بالبشر تكفيراً عن ذنب مقترف ، أو دَرءٌ الشر يُنْتَظَر وقوعه ، أو نذراً للأرباب لقاء خير مرتقب ، قد كانت من الأمور المعروفة في الأساطير اليونانية القديمة . وقد عُرِفَتْ عند غير اليونان أيضاً . وحسبنا أن نذكر قصة « إبراهيم » وإقدامه على التضحية بابنه (« إسحق » عند المسيحيين و « إسماعيل » عند المسلمين) . ثم قصة « عبد المطلب » وإقدامه على التضحية بولده « عبد الله » . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نُذَكِّرَ بأن المصريين من آل فرعون لم يعرفوا هذا النوع من التضحية . انظر : (ص ٢٢٤ هامش رقم ١) .

(٢) ذكر « هردوت » في كتابه الرابع (فصل ١٦٩) ميناءً نسبها إلى « مينلاوس » على الشاطئ الليبي .

١٢٠ — ذلك ما رواه كنه مصر . وأنا نفسي أوافق على ما قيل بشأن

« هيلينا » للاعتبار التالى : لو أن « هيلينا » كانت فى « طروادة » لُرُدَّتْ إلى اليونانيين ، رغب الإسكندر أم لم يرغب . إذ لم يصب « برياموس » ولا الآخرون من أهله بنجل للدرجة أنهم يعرضون أنفسهم للخطر ، وكذا أبناءهم ومدينتهم ليعاشر الإسكندر « هيلينا » . وإذا افترضنا أنهم أقروا ذلك بادئ الأمر^(١) ، إلا أنه لما كان عدد القتلى من سائر الطرواديين كبيراً . كما التحموا مع اليونانيين ، ولما كان يموت لبرياموس كلما نشبت الموقعة ، اثنان أو ثلاثة أو أكثر من أبنائه ، (إذا جاز الكلام اعتماداً على شعراء الملاحم)^(٢) ، فإني أعتقد شخصياً أن « برياموس » — فى مثل هذه الظروف — كان يرد « هيلينا » إلى الأخيين ، حتى ولو كان هو نفسه الذى يعيش معها إذا قدر له أن يتخلص بذلك من الشرور المحيطة به . كما أن الملك لم يكن ليثول إلى الإسكندر وأن مقاليد الأمور كانت فى يديه لشيخوخة « برياموس » بل إن « هيكتور » ، أخاه الأكبر الذى يفوقه رجولة ، كان صاحب الحق فى تولى الملك بعد موت أبيه . ولم يكن من اللائق بهيكتور أن يسمح لأخيه بالاستمرار فى عبثه وخصوصاً أن شروراً جسيمة قد أصابت « هيكتور » بالذات وسائر الطرواديين بوجه عام بسبب الإسكندر . كلا . فلم يكن فى مقبورهم أن يردوا « هيلينا »^(٣) ولم يصدقهم اليونانيون عندما قالوا الحق .

(١) يعنى أنه لم يكن فى الإمكان رد « هيلينا » وتسليمها إلى « منيلاوس » .

(٢) يسمونهم الـ zyklizer ؛ ويعنون تلك الطائفة من الشعراء الذين

كانوا يقلدون « هوميروس » ، والذين كتبوا شعرهم من أحداث حروب « طروادة » . انظر : (Dr. Friedrich Erdmann, Handbuch der

Fremdwoerter, Leipzig 1887) .

(٣) إنهم — فى رأى « هردوت » — لم يكونوا قادرين على ذلك .

بل كان ذلك — وهذا رأي الخصاص أعلنه — تدبيراً إلهياً ليتضح للناس من هلاك أهل طروادة الذريع أن الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاء وفاقاً للأخطاء الجسيمة . ذلك هو رأي الشخصى (١) .

١٢١ — وقال الكهنة إن « رامپسينوس » (٢) الذى ورث الملك عن « بروتوس » قد خلف تذكراً لحكمه بوابة معبد « هيفايستوس » (٣) التى تتجه نحو الغرب ، وأقام أمام هذه البوابة تمثالين ارتفاع كل منهما خمسة وعشرون ذراعاً . ويسمى المصريون التمثال القائم ناحية الشمال « الصيف » والآخر القائم ناحية الجنوب « الشتاء » . وهم يسجدون تعظيماً للتمثال المسمى بالصيف

(١) ذلك مظهر من مظاهر تقوى « هردوت » وعقيدته فى العقاب والثواب . وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل رقم (١١٥) من هذا الكتاب .

(٢) RHAMPSINITUS . مثل هذا الاسم كمثل سابقه PROTEUS الذى مر ذكره فى الفصل الثانى عشر بعد المئة من هذا الكتاب — لم يرد ذكره بين أسماء الفراعنة فى الأبحاث والآثار المعروفة . على أنه إذا صح ما قدرناه فى الفصل المذكور من أن PROTEUS هو « ست نخت » وأنه كان آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، أو بمعنى أدق ، قد كان حلقة الوصل بين الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ؛ فن المرجح أن يكون RHAMPSINITUS خليفته أول ملوك الأسرة العشرين ونعنى « رمسيس الثالث » . وإذا كنا نعترف بأننا لا نستطيع إثبات ذلك من واقع الآثار ، فأنتا لا نعدم فى حكم المنطق ما يحملنا على مثل هذا التخمين . انظر : (Roeder, in RE. 2, 1. unter Rhamp. Sp. 14) ثم (Helck, Untersuchungen Zu Manetho (Berl. 1956)) (٣) انظر الحديث عن هذا المعبد (فى الفصل رقم ٩٩ من هذا الكتاب) ؛ فلقد تعاقب أكثر الفراعنة منذ عهد « منا » على التجديد فى عمارته ومنهم « رمسيس الثالث » . ولعمارة هذا الأخير فيه وصف رائع جاء تفصيله فيما بين أيدينا من تراث زمانه . انظر : (Badawi, Memphis S. 20) .

ويجولونه . أما المسمى بالشتاء ، فينصرفون إزاءه خلاف ذلك (١) .

وقالوا إن « رامپسينيتوس » قد امتلك من الفضة ثروة طائلة ، لم يستطع ملك ممن خلفوه ، فيما بعد ، أن يقتنى أكثر من هذه الثروة أو أن يدانيه فيها (٢) . وحرصاً منه على كنز هذه الأموال في أمان ، ابتنى خزانة من الحجر تمتد إحدى حوائطها إلى الجدار الخارجى من القصر (٣) . ولكن البناء

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تمثالين ؛ أحدهما لحورس والآخر لست ، وقد كان الأول معبود الشمال وخليفة آيه « أزوريس » رب الحصب والخير ، وكان الثانى عدو الأول وواتره ، وقاتل آيه ، علماً على الجنوب ، ورباً للصحراء ، ورمزاً للعقم والجفاف .

(٢) الواقع أن أغنى كنوز مصر المعدنية وأشهرها قد كانت فى الأغلب الأعم من الذهب ؛ ذلك لأن الذهب كان وفيراً فى مناجها . فأما الفضة فكانت تستورد من الخارج . والشئ الذى لا شك فيه هو أن « رمسيس الثالث » قد كان ملكاً غنياً واسع الغنى ؛ يشير إلى ذلك مقدار ما أنفق على بيوت العبادة ، وما أغدق عليها من منح ، وما أوقف عليها من أرض وماشية . وفى الحق أنه أعطى فأجزل ؛ عطاءً لم نسمع بمثله فى تاريخ الفراعين من أسلافه وخلفائه . انظر : (فى موكب الشمسى ج ٢ ص ٨٩٣ - ٨٩٩ وما بعدها) .

(٣) تشير هذه القصة إلى أنها إغريقية الأصل ؛ إذ تذكرنا حوادثها بقصة الأخوين : Agamedes ، Trophonius وكانا بنّاءين ؛ فأما بناء خزانة لكنوز الملك Hyrieus . وحشراً فى جدرانها حجراً يمكن سحبه فى سهولة ويسر ؛ بحيث يتمكن من يريد دخول الخزانة أن يأتيا من غير بابها . ولما عرف الملك أن كنوزه تتناقص ، نصب فى الخزانة شركاً وقع فيه أحد الأخوين المشار إليهما . وعجز أخوه عن تخليصه ، فاضطر إلى أن يحترق رأسه حتى لا يتعرف عليه أحد .

فالقصة ، كما ترى ، إغريقية النّسج . وليس يبعد أن يكون المصريون قد سمعوا بها من الإغريق الذين سبقوا « هردوت » إلى مصر ، فأطادوا نسجها =

— لغرض خبيث في نفسه — فكر في الحيلة التالية : رتب الأحجار بحيث كان من السهل على رجلين ؛ بل على رجل واحد رفع أحدها من الحائط . ولما تم بناء الخزانة كنز الملك أمواله فيها . ومرت الأيام . . فلما قاربت حياة البناء على الانتهاء استدعى أولاده (وكان له اثنان) . وبين لهما كيف أنه لجأ إلى الحيلة في بناء خزانة الملك حرصاً منه على أن يعيشا في رخاء . وشرح لهما بامضاح كل ما يتعلق برفع الحجر ، وأعطاهما أبعاده ، ثم قال لهما إذا حافظا على ذلك باهتمام ، فإنهما سيصيران الأمينين على أموال الملك . ولما مات أبوهما ، لم ينتظرا طويلاً قبل أن يبدأ العمل . وذهبا إلى القصر ليلاً ، واكتشفا الحجر في الجدار ، وانزعاه بأيديهما دون مشقة . وحملهما مقداراً عظيماً من الأموال . وحدث أن فتح الملك الخزانة ، فأخذته الدهشة عندما شاهد أن المال الذي بالقصور^(١) قد قل . ولكنه لم يستطع أن يتهم أحداً لأن الخزانة مقفولة والأختام بقيت سليمة . ولما فتح الخزانة مرة ثانية وثالثة ، تبين له أن الأموال آخذة في النقصان باستمرار . (لأن اللصين لم يتراخيا في النهب) فلجأ الملك إلى هذه الحيلة : أمر بصنع أشراك ووضعها بجانب القصور التي وضعت فيها الأموال . وذهب اللصان إلى الخزانة كما فعلا في الأيام السابقة . ولما دخل

== بعد أن أضافوا إليها شيئاً من خيالهم القصصى . وقد يكون السبب في إدارة حوادثها حول ذلك الفرعون (رمسيس الثالث) بالذات ما كان معروفاً عن ثرائه الواسع العريض من ناحية ، ثم ما عُرِفَ من المؤامرات التي دبرّت في بلاطه . — وقد تكون أودت بحياته — من ناحية أخرى . والله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(١) إن حفظ العملة في قدور الفخار من الأمور المألوفة . وما زال المصريون من أهل الريف يفعلون ذلك ، لأن الفخار أجف ، وأحفظ ، وأوعى من غيره .

أحدهما فيها واقترب من القدر ، وقع لتوه في الشرك . ولما أدرك في أى مأزق خرج هو ؛ دعا أخاه في الحال وأراه ما ألمَّ به ، وأمره بأن يدخل بسرعة متناهية ليقطع رأسه ، حتى إذا رآه أحد وتعرّف على شخصه ، لا يكون في ذلك هلاك الثانى أيضاً . واعتقد هذا بوجهة الفكرة فاقنع بها ونفذها ، ثم أعاد الحجر إلى مكانه ، ورجع إلى بيته بحمل رأس أخيه . وفي صبيحة اليوم التالى دخل الملك الخزانة ، وذهل عندما رأى جثة اللص في الشرك دون رأس ، وأن المكان كان سليماً لا أثر فيه مطلقاً لدخول أو خروج . ولجأ الملك — في حيرته — إلى عمل هذا . . علق جثة اللص فوق الحائط (١) ، وأمر الحراس الذين عينهم لحراستها أن يقبضوا على من يرونه باكباً أو نادباً ، وأن يحضروه إليه . ولما علقت الجثة ، ثارت ثورة أمه وتحدثت إلى ابنها الذى تبقى لها ، وأمرته بأن يجتال بكل ما يستطيع من الوسائل حتى يفك جثة أخيه ويحضرها ، وهددته بأنها — إذا هو أهمل ما قالت — ستذهب بنفسها إلى الملك وتبلغ عنه بأنه سارق المال . ولما داومت على تأنيبه بمرارة (٢) ، ولما لم ينجح هذا الولد المتبقى في إقناعها رغم ما ردّده عليها من قول ، فكر هو في هذه الحيلة . أعدّ حميراً وزقاقاً ملاًها بالنبيذ وحمل بها الحمير ، ثم ساق هذه وعندما

(١) كان ذلك النوع من الصّلب معروفاً عند قدماء المصريين ، ويكفى أن نذكر ما فعله فرعون مصر « أمينوفيس الثانى » بالعصاة والخارجين من أهل فلسطين . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ . ص ٥١٦) .

وانظر أيضاً (Legrand, Hérodote, Livre 2. P. 148. Note 3.) .

(٢) ذلك أمر يبدو طبيعياً ؛ لأن الأم تكره أن تبقى جثة ولدها بغير تحنيط . انظر : (ما ذكر عن قيمة التحنيط عند الفراعنة فى الفصل رقم ٨٥ من هذا الكتاب) .

أقرب من حراس الجنة المعلقة شدَّ إليه من الزقاق اثنين أو ثلاثاً ، وفك
 بنفسه رقابها المربوطة ، ولما أخذ النبيذ في الانهمار ، بدأ يضرب رأسه ويصيح
 بصوت جهورى - كأنه لا يدرى إلى أى الجحير يتجه أولاً - ولما رأى الحراس
 النبيذ المنهمر (١) ، أسرعوا جميعاً ، يحملون أوعية ليأخذوا فيها النبيذ المتدفق
 حاسبين ذلك غنا . أما هو فتظاهر بالغضب وأمطرهم وابلاً من اللعنات .
 ولما أخذ الحراس في مواساته ، تصنع الهدوء بعد برهة ، وتخلَّى عن غضبه .
 وأخيراً ساق الجحير من الطريق ، وأخذ في إعدادها . وجرى بينهم حديث
 طويل ، ومزح معه أحدهم بما حمّله على الضحك ، فقدم لهم إحدى الزقاق
 وجلس الحراس في الحال ، حيث كانوا ، معتزمين الشرب ، ودعوه إلى البقاء
 معهم لمشاركتهم في احتساء النبيذ فوافق وبقى . وبدأ الحراس يتلاطفون معه
 في ود . فقدم لهم أيضاً إحدى الزقاق . ولما أفرط الحراس في شرب النبيذ ،
 صرعهم السكر ، وغلبهم النوم فناموا بالمكان الذى كانوا به يشربون .
 فأما هو ، فحين تقدم الليل ، فك جنة أخيه ، وحلق على سبيل السخرية الخلد
 الآمين لجميع الحراس (٢) ، ثم حمل الجنة على حميره وعاد إلى داره بعد أن نفذ
 ما قد أمرته به أمه .

فاستشاط الملك غيظاً حينما بلغه الخبر بأن جنة اللص قد سرقت . وأراد
 أن يكشف بأى حال من الأحوال شخصية ذلك الذى دبر تلك المكيدة ،
 فلجأ إلى الحيلة التالية : ولو أننى لا أصدقها .

(١) أكبر الظن أن « هردوت » قد خلط هنا بين الجمعة والنبيذ ، فقد كانت الجمعة
 هى الشراب الوطنى ألما لوف عند آل فرعون . انظر : (الفصل السابع والسبعين
 من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر منطقي ؛ لأن حلق الذقن على هذا النحو شئ مهين .

وضع ابنته في ماخور ، وأمرها أن تستقبل جميع من يفدون إليها على السواء . وأن تختبر كل زائر منهم ، قبل مجامعته إليها ، على أن يقص عليها أبرع وأخبث ما فعل في حياته . فإذا روى لها أحدهم ما حدث بشأن اللص ؛ فعليها أن تمسك به ولا تسمح له بالخروج . وعندما بدأت الصبية بتنفيذ ما أمرها به أبوها ؛ فكر اللص فيما يلي : — لأنه كان عليا بالسبب الذي من أجله دُبِّرَت هذه الخديعة ، وكان يرغب في أن ييزَّ الملك في مكروه — قطع من عند الكتف ذراع جثة شخص مات حديثا ، وذهب إلى ابنة الملك ، يحمل الذراع تحت رداءه . ولما دخل عندها ، وجهت إليه الأسئلة التي وجهتها لمن سبقوه . فأبناها أن أشنع ما قام به هو قطع رأس أخيه عندما وقع في شرك في خزانة الملك ، وأن أمهر ما أقدم عليه هو إسكار الحراس وفك جثة أخيه المعلقة . فلما سمعت الفتاة ذلك ، همَّت بالقبض عليه ، فدَّ إليها اللص في الظلام ذراع الجثة ، فأمسكت بها . وأطبقت عليها حاسبة أنها ممسكة بذراعه هو . أما اللص فترك لها الذراع وخرج هاربا . فلما وصلت هذه الأنباء أيضاً إلى مسامع الملك ، اندهش لفطنة هذا الرجل وجراته وأرسل في النهاية إلى كافة المدن معلنا ، أنه إذا جاء الرجل إلى حضرته فهو يضمن له حرَّيته ، ويعده بوعود مغرية . فوثق به اللص وذهب إليه فأعجب به « رامپسينيتوس » أشد الإعجاب وزوَّجه من ابنته هذه ؛ لكونه أبرع الخلق أجمعين ، إذ أنه ييز المصريين كلهم وهؤلاء ييزون سائر البشر في البراعة .

١٢٢ — وبعد ذلك قيل لي (١) إن هذا الملك نزل حياً إلى العالم

(١) يقصد أنه مع ذلك من الكهان .

السفلى (١) الذى يسميه اليونانيون الجحيم وهناك لعب النرد مع « ديمتر »
وتغلب عليها أحيانا وانتصرت أحيانا عليه (٢) . ثم عاد ثانية إلى الأرض
ومعه منديل مشغول بالذهب ، أهدته إليه (٣) .

(١) تلك قصة كانت معروفة لدى المصريين وبخاصة فى عصورهم المتأخرة .
انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٩٠٦ وما بعدها) .

ثم انظر : ما جاء عن قصة « خمواسى » فى (ERMAN, Relig. S. 406 ff.) .
(٢) إن « لعب النرد » (أو كيفما كانت تسميته) قد كان معروفاً فى العالم
القديم ، وبخاصة عند المصريين من آل فرعون الذين عرفوه قبل الإغريق ؛
تشير إلى ذلك آثارهم المعروفة منذ أبعد عصور التاريخ . وحسبنا ما عُثر عليه
من أدوات تلك اللعبة بين آثار الملك « توت عنخ آمون » ، ثم ما نراه مصوراً
من ممارسة اللعبة فى رسوم قبر الملكة « نفرتارى » زوجة « رمسيس الثانى »
فى جبانة الملوك غربى طيبة (WRESZINSKI, ATLAS, Taf. 49) .
ثم (Erman - Ranke, Aeg. 1923) .

ثم (Posener, Dict. de la Civil. eg. Paris 1954) .
وأخيراً (Pieper, D. Brettspiel d. alt. Aeg. 1909 S. 10 f.) .
ويقول « هردوت » إن الإغريق عرفوا تلك اللعبة عن اللبديين . انظر :
(هردوت الكتاب الأول فصل ٩٤) . ونحن نعتقد أن ما أشار إليه من لعب
الفرعون الذى أسمى RHAMPSINITOS مع « ديمتر » (= ايزيس) قد كان له
معنى رمزى كالذى صورَه بلوتارخ بين « هرميس » « وسيلين » . انظر :
(Plut. Isis & Osiris, Cap. 12) .

(٣) نكاد نعتقد أن تلك الهدية التى صورتها الأسطورة فى صورة « منديل »
موشى بالذهب لا تخرج عن تصوير المصريين من آل فرعون لآمالهم فى الحُصْب ،
فالمنديل — أغلب الظن — يمثل الأرض الزراعية ، ووشى الذهب يمثل القمح .
وقديما سُمى المصريون القمح « ذهبا » (Wb. Bd. II, S. 240) . ثم إننا نعتقد
آخر الأمر أن عودة RHAMPSINITOS من أسفل الأرض رمزُه إلى عودة
الحُصْب والخير . نقول هذا ونحن نعلم أن بعض العلماء قد عرضوا لتفسير قصة =

ويقولون إن عودة « رامسينيتوس » من الجحيم — بعد أن نزل إليه — جعلت المصريين يحتفلون بعيد ما زالوا — فيما أعلم — يحيونه حتى وقتى هذا . وليس فى إمكانى القول بأن ذلك هو السبب فى إقامة العيد . ويوم العيد نفسه ، بعد انتهاء الكهنة من نسج ثوب ، يلبسونه أحدهم ويعصبون عينيه بعصابة ، ويقودونه على الطريق المؤدية إلى معبد « ديمتر » الذى يبعد عن المدينة عشرين « ستاد » . ثم يعودون أدراجهم فى الحال . أما ذلك الكاهن الذى عصبت عيناه ، فيقوده — حسب قولهم — ذئبان إلى معبد « ديمتر » ، ثم يرجعان به على الفور من المعبد إلى نفس المكان (١) .

= المنديل ومنهم Legrand فقال إنه منديل لتجفيف العرق كذلك الذى نراه غالباً ممثلاً فى أيدي التماثيل .

انظر : (Legrand, Hèrodote, Livre, II Notice, 47) .

ثم Sethe ، ويرى أنه المنديل الملفوف حول شارة الحياة التى يمسك بها الملك .

انظر : (Sethe, Untersuchungen zur Gesch. & Altertumskunde)

. (Aegyptens, Bd. II, Sesostri, (Leipzig 1900), 6

(١) إن فى تسمية هذا الحيوان بالذئب أثراً من خطأ الإغريق وخططهم ، وربما شاركهم فى هذا الخطأ من حاصروهم من المصريين فى العصور المتأخرة ، يؤيد ذلك ما أطلق الإغريق، ممثلاً على « سيوط » حين أمموها « ليكوبوليس » (= مدينة الذئب) على حين كان رمزها المقدس حيواناً من بنات آوى ، ولم يكن من الذئاب . انظر : (Kees, G. G. S. 27) . والمصريون قد عرفوا طبيعة « ابن آوى » منذ أقدم العصور ، وعرفوا له حاسة الشم القوية ، وقدسوه من أجل ذلك . ثم خافوه على قبور موتاهم من أن ينبت لها وحاولوا أن يعزوا أنفسهم عن ذلك نغالوه حارساً على قبور موتاهم . والفكرة — على بساطتها — من طبيعة النفس البشرية حين تلتصم العزاء فى ساعة المحنة الطارئة . ويكفى أن نذكر — على سبيل المثال — أن الناس فى عصرنا الحديث قد كانوا يلجأون =

١٢٣ — وليقبل روايات المصريين من يرى أن مثل هذه الأشياء نحتمل التصديق . أما أنا ففهمت أن أسجل في هذا التاريخ ما أسمع من أقوال أية جماعة (١) . يقول المصريون إن « ديمتر » و « ديونيسوس » هما أصحاب السلطان في الجحيم (٢) . والمصريون كذلك هم أول القائلين بخلود الروح (٣) ودخولها — بعد فناء الجسد — في جسم حيوان آخر عند ميلاده . وبعد أن

= إلى « شيوخ المناسر » فيمهدون إليهم بحراسة أرزاقهم .
ولقد بالغ المصريون للقدماء في تقديرهم حين جعلوا من « ابن آوى » الذى خافوه على قبور موتاهم « محطاً » لأجساد أولئك الموتى ، مقدّرين — فى الغالب — أن الصانع شديد الحرص على ادخار آثار صنعته والمحافظة عليها .
وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر ما جاء فى حديث القوم عن رحلة الشمس الليلية — حين تخيلوا سيرة موكبها من تحت هذه الأرض — من أن تلك الكلاب من بنات آوى قد كانت تجرّ زورقها فى الظلام . وظاهر من خلال كل ذلك أن الإبحار لم يكن هو الذى يهدى تلك الكلاب من بنات آوى ، وإنما هى حاسة الشم القوية عند تلك الحيوانات . انظر : (Sethe, Pyr. Texte, Spruch 215).
(١) انظر الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب .

(٢) يعنى « إيزيس » و « أزوريس » وقد كان الأخير سلطاناً على العالم الآخر .
(٣) آمن المصريون القدماء بحياة أخرى من وراء الموت وآمنوا بالخلود فيها ، ودعاهم ذلك إلى التفكير فى تأمين أجسادهم وحفظها من العدم .

انظر : (Kees, Totenglauben, S. 38 ff. 45. 46 ff.) ، والحرص على تحصينها بما نحتوا لها فى الصخر من بيوت ، وما حملوا إليها من زاد مادى ومعنوى .
انظر : (Kees, Totenglauben S. 50) وحتى لا تضل الأرواح السبيل إليها . وفى ذلك ما يشير إلى اعتقادهم فى خلود الروح . على أن السبيل إلى حياة الخلد لم يكن هيناً ولا ميسوراً ، وإنما كان مشروطاً بالتقوى والبراءة من كبائر الإثم . انظر : (Erman, Relig. S. 158 f.) . كذلك صور المصريون الروح فى هيئة طائر . انظر : (Naville, T. B. cap. 76 . 88) ثم (Kees, T. G. S. 56 f.) .

تطوّف بجميع مخلوقات الأرض والماء والهواء ، تدخل ثانية في جسم إنسان عند ميلاده ، ويتم تطوافها هذا في ثلاثة آلاف عام^(١) . ومن اليونانيين مفكرون — سابقون^(٢) ومتأخرون^(٣) — اعتنقوا هذه النظرية ، ونادوا بأنها من ابتكارهم الخاص . ومع أننى أعرف أسماءهم فإننى لا أسجلها^(٤) .

١٢٤ — وقال الكهنة : إنه حتّى عهد الملك « رامسينتوس » كان يسود مصر كلها نظام تام ، ويعبّثها رخاء عظيم . ولكن حكمهم من بعده « كيوس »^(٥) الذى ————— اتّهم

(١) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى والأربعين بعد المئة .

(٢) عله يقصد بذلك « الأورفيين » .

(٣) ربما يقصد « فيثاغورس » ومدرسته .

(٤) ذلك دأبنا من « هردوت » حين يطعن على من يسه آراءهم ، ويتجنب ذكر أسماءهم . وليس علينا إلا أن نذكر ما جاء فى كتابه الأول (الفصل رقم ٥١) . ثم فى كتابه الثانى غير مرة . ثم فى كتابه الرابع (الفصل رقم ٤٣) .

(٥) كيوس : هو فرعون مصر المعروف « خوفو » الذى أمم الإغريق أيضاً (Suphis) ثانى ملوك الأسرة الرابعة ، وصاحب الهرم الأكبر ، حكم حوالى عام ٢٦٥٠ ق . م . واستمر حكمه نحو ٢٣ عاماً . وليس من المعقول — بعد الذى قدّرنا فى التعليق على ما جاء فى الفصل رقم ١٢١ من أن المقصود بمن أسماء هردوت (RHAMPSINITOS) قد كان « رمسيس الثالث » — أن يكون « كيوس » خليفة له . ويحاول بعض المؤرخين أن ينسب ذلك إلى خطأ فى ترتيب مخطوطة الكتاب الثانى من كتب « هردوت » . انظر : (Erick Lueddeckens, Wissenschaftliche Buchgesellschaft (Darmstadt 1962) .

إلى البؤس^(١) . إذ بدأ بإغلاق المعابد ، ومنع المصريين من التضحية^(٢) . ثم أمرهم جميعاً بالعمل من أجله ؛ فأجبر البعض على جرّ الأحجار من المحاجر الموجودة بالجبل العربى^(٣) حتى النيل ، وأمر البعض الآخر باستلامها بعد نقلها في السفن عبر النهر ، وجرّها إلى الجبل المسّى بالجبل اللبى^(٤) . وكانوا

(١) لا نظن أن عصر « خوفو » كان عصر بؤس . ولو كان كذلك ؛ لما قدّر خلفائه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمرانى الذى نرى آثاره فيما تركوا وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادى . وأكبر الظن أن يكون ما سمعه « هردوت » ، بقية من آثار الدعاية التى قام بها كهان الشمس ، وأناروا حروبها على البيت الحاكم أيام الأسرة الرابعة . وشواهد ذلك بادية واضحة في ذلك القصص الذى نطالع في القرطاس المعروف باسم « قرطاس ثستكار » .

انظر : (« في موكب الشمس » ج ١ ص ٢١٨ وما بعدها) .

(٢) ليس ذلك بالأمر المعقول ، وإنما هو أثر من آثار الحرب الباردة التى أدارها أصحاب مذهب الشمس من أعداء البيت الحاكم والثائرين عليه . انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ٨٨٧ وما بعدها) . مثل هذه الإشاعات قد كانت معروفة بين الناس ؛ ولا أدل على ذلك من أنها بقيت إلى ما بعد أيام « هردوت » بقرون ، وقد ذكرها المؤرخ المصرى السمنودى « منتون » . وكان كاهننا مصرياً عاش في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد .

(٣) انظر الحديث عن محاجر الجبل العربى في الفصل الثامن من هذا الكتاب . فأما إجبار الناس وتسخيرهم في أعمال الدولة فمسألة فيها نظر ، وما ينبغى لنا مطلقاً أن نحكم على عصر « خوفو » بمنطق الحياة وأهلها في أواخر القرن العشرين . انظر : (حديثنا عن السخرة في الفصل الثامن بعد المئة من هذا الكتاب) ، ثم عن « الخدمة الإجبارية » في كتابنا عن تاريخ ممفيس .

انظر : (Badawi, Memphis S. 42) .

(٤) يقصدُ بالجبل اللبى الهضبة التى أقيمت عليها الأهرام من شاطئ الوادى الأيمن .

يشتغلون في مجموعات من مائة ألف رجل ؛ تعمل كل منها ثلاثة أشهر . ولقد مرت عشر سنوات أنهكت فيها قوى الشعب لإنشاء الطريق الذي جروا عليه الأحجار^(١) . وهذا — في نظري — عمل لا يقل كثيراً عن تشييد الأهرام (طوله في الواقع خمسة « استاد » وعرضه عشرة « أبواع » وعلوه في أقصى ارتفاعه ثمانية أبواع)^(٢) . وهو مبنى من أحجار مصقولة ، حفرت عليها صور . وقد انقضت العشر سنوات في بناء هذا الطريق ، وبناء الغرف التي تحت الأرض في التل الذي تقوم عليه الأهرام . وقد بنى هذه الغرف

(١) لقد خلط « هردوت » بين شيئين ؛ خلط بين الطريق الذي كانت تسحب عليه الأحجار محمولة فوق الزحافات الخشبية — ولم يكن طريقاً واحداً بل كانت طرقاً متعددة — وبين الطريق الذي يجري بين ما نسميه اليوم « معبد الوادي » الواقع على شاطئ النهر ، والمعبد الجنائزى الذي يقع في شرق الهرم مباشرة . وأوضح مثل لذلك ما بقى إلى اليوم من عمارة هرم « خفرع » . فأما أثره عند « خوفو » فلا نشك في أن « هردوت » قد رآه ؛ ولا أدل على ذلك من أن العالم الألماني R. Lepsius الذي زار مصر قبل مئة عام ويزيد قد رآه وتحدث عنه ، وعن النفق من تحت يسلكه الحجيج وغيرهم من الزوار إلى الناحية المقابلة بدلاً من الدوران حول الضريح . وقد كشفت أعمال التنقيب عن بقايا هذا الطريق ؛ وكانت صفحاته مزدانة بالرسوم ، كما وجدت كذلك بقية من أسس المعبد الجنائزى في الجهة الشرقية من الهرم .

انظر : (Ricke, Bemerkungen, 1, 37, Fig. 10.) .

(٢) لم يكن من السهل على « هردوت » ولا على الذين تحدث إليهم أن يعرفوا الحجرة التي دُفن فيها الملك ؛ ذلك لأن علماء الآثار والعمارة في العصور الحديثة قد تأكدوا في ضوء دراساتهم الدقيقة من أن تغيرات كثيرة قد حدثت في تصميم بناء الهرم بحيث تفسر موضع الدفن في بناء الهرم غير مرة . يضاف إلى ذلك أن مواضع الدفن في أهرام الأسرة الخامسة ، قد وُجدت في مستوى عادى لا ينخفض عن قاع الهرم .

وأنخذها مقابر لنفسه (١) في جزيرة تنقل إليها مياه النيل بواسطة قناة (٢) . واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما . وهو مربع طول كل واجهة من واجهاته ثمانية بلترا ، وارتفاعه مثل ذلك (٣) . وهو مبنى من حجر مصقول

(١) ظاهر أن حديث القناة والجزيرة خلطٌ وسوء فهم مصدرها بعض ما ترك المصريون من قبور وهمية لإمام الشهداء « أزوريس » ؛ ومنها ذلك الأثر الباقي إلى جوار معبد الملك « سبتى الأول » في العراة المدفونة ؛ فحجرة الدفن قد كانت في قلب الهرم ، ولا يمكن أن تصل إليها المياه بحال من الأحوال ؛ بل إن الهرم كله قد بنى على ربوة لا يمكن أن يصل إليها ماء النيل مهما يرتفع منسوب فيضانه . فأما القناة فهي تلك الحفر الدائرة من حول الهرم والتي خصصت لوضع السفن التي خال المصريون أن موتاهم سوف يستعينون بها في العالم الآخر على الانتقال من مكان إلى مكان . ولقد أحماها بعضهم خطأ « مراكب الشمس » . ويبلغ عددها ثمانية . لم يستحق منها هذا الاسم الأخير غير اثنتين ؛ إحداها لرحلة النهار والأخرى لرحلة الليل . ولقد كُشِفَ عن إحدى تلك الحفر عام ١٩٥٤ في الناحية الجنوبية من ضريح « خوفو » ؛ طولها ٣١ر٢٠ متراً ، وعرضها ٢ر٦٠ من الأمتار ، وعمقها ٣ر٥٠ . ووجدت بها سفينة من خشب الأرز تكاد تكون — بين ما عثر عليه من السفن — منقطة النظير . ومن أمثالها — وإن لم يكن يناظرها في الجودة — ما عثر عليه منذ أكثر من ستين عاماً في منطقة دهبور ونفى المراكب الثلاث التي آل منها مركبان إلى متحف القاهرة وآلت الثالثة إلى شيكاغو حيث استقرت بمتحف التاريخ الطبيعي فيها ، وكلها من أيام الأسرة الثانية عشرة . انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 45) .

(٢) يعنى نحو ثمانية قدم .

(٣) الواقع أن الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم كانت مصقولةٌ بحيث لا يحتاج البناء في وضعها إلى ما يسمونه « المونة » إلا بقدر ما يسمح بدفع الواحد منها فوق الآخر في سهولة ويسر . فأما وزن كل منها فيبلغ في الأغلب الأعم طنّاً ونصف طن .

يلتصق بعضه ببعض تمام الالتصاق (١) . وليس هناك حجر واحد يقل طوله عن ثلاثين قدماً .

١٢٥ — وفيما يلي وصف بناء هذا الهرم . يُبْنَى أولاً على هيئة سلام يَسْتَبِها البعض « درجات » والبعض الآخر هياكل (٢) . وبعد تشييده بهذا الشكل رفعوا الأحجار الباقية بواسطة آلات مصنوعة من ألواح خشبية قصيرة (٣) ، وكانوا يرفعون الأحجار من الأرض إلى الطبقة الأولى من الدرجات . وبعد رفع الحجر إلى هذه الطبقة كان يوضع على آلة أخرى قائمة على الطبقة الأولى ، ومنها يرفع إلى الدرجة الثانية ويوضع في آلة أخرى . وكانت هناك آلات بعدد الدرجات ، أو لعلها كانت آلة واحدة سهلة الحمل . كانوا ينقلونها من طبقة إلى أخرى كلما جروا الحجر . ومن الواجب التحدث

(١) سقى أن الأحجار ملتصقة بالثقل والتفريغ .

(٢) علته يقصد بالهياكل ما نُسَمِّيهِ اليومَ « بالمصاطب » . والشيء الذي لا شك فيه هو أن بناء الهرم يُعَدُّ من المعجزات . ولست أشك في أن رجال العمارة في العصر الحديث بكافة ما أوتوا من أدوات ووسائل ، سوف يشفقون على أنفسهم أشد الإشفاق ، وقد يترددون ؛ بل ربما يحجمون ، إن نحن طلبنا إليهم أن يبنوا لنا هرمًا مثل هرم خوفو .

(٣) علته يقصد الزخافات المصنوعة من الخشب ، والتي كانت توضع فوقها الأحجار ، ثم تُجَرَّ بها من « مدماك » إلى « مدماك » . وأول من تحدث عن الطريقة التي أنشأ بها البنائون في تشييد الهرم ، وهي طريقة استخدام الجسور الصاعدة هو « ديودور الصقلي » وقد آمن بها بعض العارفين بشئون العمارة في العصر الحديث .

انظر : (S. Clarke & R. Engelbach, Anc. Eg. Masonry)

. (The Building Craft, p. 127)

عن الطريقتين ؛ إذ يقال بكلتيهما ، ثم - أولاً - بناء أعلى جزء من الهرم ، ثم بعد ذلك بنوا الأجزاء التالية بالتدريج . وأخيراً أكلوا الأجزاء السفلى التي على الأرض (١) . وقد بُنِيَ على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمننا لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم . وإذا وعت ذاكرتي بالضبط ما قاله لى الترجمان عندما قرأ على النقش فإن النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة (٢) .

(١) لم تكن الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم مقدودة كلها من محاجر الجبل الواقع على شاطئ النيل الأيسر (= جبل طره أو المعصرة) ، وإنما شيد الهرم من الحجر المقدود من الهضبة التي بنى عليها . ولم يستخدم في بنائه من مقالع الأحجار في الشاطئ الأيسر (= شرق) غير تلك الصفايح الرقيقة التي استخدمت في الكساء الخارجي .

(٢) لم ينفرد « هردوت » بالحديث عن تلك النقوش التي ازدانت بها صفحات الهرم الأكبر ، بل أشار إليها غيره من الكتاب الذين رأوها من قبله ومن بعده ، فأما الذين من قبله فيكفي أن نذكر منهم الأمير «خواسي» بكر فرعون مصر « رمسيس الثاني » الذي طال الحديث عنه في كتب العلماء نظراً لما قام به من رعاية آثار السلف الصالح ، ثم المؤرخ العربي « عبد اللطيف البغدادي » الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ، وقال إن ما وُجِدَ على صفحات الهرم الأكبر من كتابات ونقوش تملأ عشرات الألوف من صفحات الكتب . إلا أنها أزيلت حينما بدأ الناس ينتزعون كساء الهرم خلال القرن الثالث عشر الميلادي . ولولا اهتمام الهواة من رجال العمارة في القرن التاسع عشر الميلادي لصاعت كل معلوماتنا عن الهرم والغرض من بنائه . انظر : (Vyse, Operation Carried on the Pyramids of Gizeh II, 152) .

ثم (F. Petrie, The Pyramids & Tempels of Giza) .

فأما حصة التكاليف فذلك شيء من عمل « هردوت » ، ذلك بالإضافة إلى أن الفضة لم تتداول في مصر إلا بعد زمان «خوفو» بوقت طويل . وفي ذلك ما يدل =

فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا كان —بالإضافة إلى هذا — مقدار ثمن الآلات الحديدية التي اشتغلوا بها ، وما مقدار ما أنفق على ماكل العمال ، وملبسهم . ذلك إذا ما كان الوقت الذي أمضوه في العمل كما ذكرت ، مضافا إليه ، ما قضوه من الزمن في قلع الأحجار ونقلها ، وفي حفر القناة التي تحت الأرض ، ذلك عمل لم يستغرق ، فيما يخيّل إلى ، وقتا قليلا .

١٣٦ — ولقد بلغ « كيوبس » — فيما يقولون — أخط درجات الرذيلة حتى إنه — لحاجته إلى المال — وضع ابنته هو في مأخور وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا لى مقداره (١) . فضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها فإنها فكرت بدورها في ترك أثرٍ خاص بها ؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهدي إليها حجراً . ومن هذه الأحجار — فيما يقال — بُني الهرم الذي يقع بين الثلاثة ، وهو أمام الهرم الأكبر . ويبلغ طول كل

= على بساطة « هردوت » . فهو لم يُخدع في هذه وحسب ، بل يُخدع غير مرة .
انظر : (الفصلين رقم ٣٦ ، رقم ١٣٦ من هذا الكتاب) .

(١) إن أقل الناس حظا من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الإنسانية ، واعتبارهم الزنا من كبائر الإثم التي يُسجّازى مرتكبها بالموت . (انظر : في موكب الشمس ج ١ ص ٢١٤) . لا يستطيع أن يصدق مثل هذه الفرية . ولست أستبعد أنها من روايب الماضي ، وأن أعداء بيت خوفو من أصحاب المذهب الشمسي هم أصحاب هذه الفرية ، يضاف إلى ذلك الخلاف الذي يُحتمل أن يكون قد وقع بين أبنائه من بعده — وكانوا من أمهات مختلفات — ومنهن تلك اللبيرة الشقراء ذات العينين الزرقاوين ، وأعني « حنبحرس » الثانية التي يظن بعض المؤرخين أنها أم ولده الذي يحتمل أن يكون قد خلفه على العرش وهو « رع — ددف » ؛ ذلك الذي بنى هرمه في منطقة « أبي رواش » . لسنا نستبعد أن يكون لكل ما ذكرنا أثر في اختلاق هذه الفرية .

جانب من جوانبه بليثرون ونصف (١) .

١٢٧ — ويقول المصريون إن « كيوس » هذا حكم حسين علما (٢) . وبعد موته تولى الملك أخوه « خفرع » (٣) وسار هذا على منوال أخيه في كل شيء . وبني كذلك هرمًا لا يبلغ في أحجامه هرم كيوس ، (إذ قد أخذنا المقاييس بأنفسنا) ولا توجد بأسفله غرف تحت الأرض ولا تصل إليه قناة من النيل مثل التي تتصل بالهرم الأكبر وتنساب من مجرى مبنى ، وتحيط بجزيرة يرقد فيها « كيوس » حسب قولهم . وقد بنيت الطبقة الأولى من حجر إثيوبى مختلف الألوان (٤) . وبني « خفرع » هذا الهرم الذى يقل في ضخامته أربعين قدمًا عن الهرم الأكبر ، بناه بجانب الأخير . ويقع كلاهما على نفس النيل

(١) فى الحق أنه يوجد فى شرقى هرم « خوفو » ثلاثة أهرام صغيرة . لا نستبعد أن تكون قد بُنيت لتصبح مثوى لثلاث من أزواجه . كل ذلك على الرغم من وجود شاهد عثر عليه فى معبد لايزيس يحمل مايشير إلى أن إحدى تلك الأهرام الثلاثة لأحدى بنات خوفو ، ونحن نستبعد أن يكون الهرم لأحدى بناته ؛ ذلك لأن أولاده جميعاً قد دفنوا فى قبور كانت على هيئة مانسميه المصاطب .

(٢) لا تظن أن حكم « خوفو » قد بلغ هذا المدى ؛ فلدينا من الوثائق التاريخية ما لم يجاوز بأيام حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً . وما يدل على أنه تزوج بغير واحدة ، ومنهن تلك التى تحمل اسم أمه « حتب حرس » ، والتى صُوِّرت فى قبر ابنتها شقراء الشعر زرقاء العينين ، وقد قيل إنها من أصل لىبي . انظر : (فصل ١٢٦ هامش رقم ١) ، كما كان له كثير من البنين والبنات .

(٣) لم يكن « خفرع » من إخوة « خوفو » ، وإنما كان من أبنائه ، وكان ثانى خلفائه ؛ وربما كان ثالثهم . وقد حكم حوالى عام ٢٦٢٠ ق . م .

(٤) يقصد حجر الجرانيت ما بين أحمر وأسود . وقد نسب إلى « إثيوبية » لأن الإغريق كانوا يسمون مناطق النوبة « إثيوبية » .

الذى يبلغ ارتفاعه مائة قدم تقريبا (١). وقيل إن « خفرع » حكم ستا وخسين سنة (٢).

١٢٨ — وهم يعتبرون أن المصريين قد تعرضوا لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة (٣). إذ لم تفتح أثناءها المعابد التي كانت قد

(٤) يبلغ ارتفاع هرم « خفرع » ١٤٣ م . كما يبلغ طول كل جانب من جوانبه ٢١٥ م . وتعد عمارته أتم عمارات الأهرام مجموعة وأكملها أجزاء . كشف العالم الفرنسى « أغسطس مارييت » عما يسمونه معبد الوادى من عمارته عام ١٨٥٣ ، وهو أروع مثل بين نظائره . ولم يوضع كساء الهرم إلا فى عصر متأخر نسبياً ، ولعل ذلك هو السر فى بقاءه مدى طويلا . ويقدر العالم البريطانى « فلندرز پترى » عدد من كانوا يعملون فى بنائه فى وقت واحد بما يتراوح بين ٣٥٠٠ — ٤٠٠٠ من العمال .

(٥) المعروف أن مدى حكم الأسرة كلها لم يجاوز ١٨٠ عاما (من ٢٩٣٠ — ٢٧٥٠ ق . م .)

(١) واضح أن هردوت يجعل هذه قسمة بين ملكين هما « خوفو » و « خفرع » ؛ جعل لأولهما خمسين عاما ، وجعل لثانيهما ستة وخمسين عاما . على أن فى الأسرة غير هذين ملوكا آخرين ؛ فرأس الأسرة قد كان الملك « سنفرى » ، وآخرها كان « شيسكاف » . إلا أن ترتيب الملوك من بعد أيام « خوفو » لم يتضح بعد ؛ فخليفة « خوفو » لم يكن « خفرع » وإنما الراجح أنه كان « رع — ددف » الذى أقام هرمه على مسيرة ٧ كيلو مترات من شمالى هرم أبيه ، وفى المنطقة المعروفة باسم « أبى رواش » . ثم جاء من بعده « خفرع » . وبين تراث هذه الأسرة ما يشير إلى وجود ملكين آخرين بين « خفرع » و « منكاورع » وهما « حور — ددف » ثم « باوف — رع » .

انظر : (Debono, F. Expédition archéologique royale du)

= (desért oriental, An. d. Serv. LI. 1951) p. 89.

أُغلقت . ولا يرغب المصريون مطلقاً في تسمية هذين الملكين لكرههم بل إنهم يُسمّون الهرمين باسم الراعى « فيليتيوس » (١) الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة .

١٢٩ — وبعد « خفرع » — وفقاً لما قالوا — تولى الملك « منكاورع » ابن « كيوس » (٢) . ولم يرض « منكاورع » عن أعمال أبيه ففتح المعابد وسمح للشعب — الذى عانى أقصى درجات البؤس — بأن يمارس أعماله ويقدم الأضحيات . فكانت الأحكام التى يصدرها أعدل من أحكام سائر الملوك .

== ولنا نستبعد أن الأدلاء الذين صاحبوا هردوت قد خلطوا بين زمان هذه الأسرة وزمان المكسوس . انظر : (الفصل رقم ١٣٣ من هذا الكتاب ؛ حيث جاء أن الشقاء قدّر على مصر مئة وخسين عاماً ، وهى المدة التى حكمها المكسوس) ، وإن فى خلطهم هذا لبَقِيَّةٌ من أثر الدعاية التى لم يفتّر أصحاب مذهب الشمس من أعداء « خوفو » وقبيله فى نشرها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٨٠٦ وما بعدها) .

(١) لا نعتقد أن ذلك صحيح ، لأن الشعائر الدينية والطقوس الجنازية الخاصة بالملك « خوفو » قد كانت قائمة عند ضريحه فى أيام العصر الصاوى . انظر : (Gauthier, L. d. R. I, p. 78) . كما ظلت كذلك فى زمان الفرس ؛ بل ربما بقيت بعد ذلك أيضاً . فأما نسبة الهرمين إلى الراعى الذى ذكره « هردوت » فقد لا يعدو سببها فى الأغلب الأعم ملازمة ذلك الراعى منطقة الهرمين . كما مى الناس فى العصر الحديث أحد الأهرام باسم « هرم الشواف » ، وذلك لأن اللصوص من نباشى القبور قد استخدموه مرقباً ، يرصدون منه حركات الحراس . ولنا نستبعد آخر الأمر أن يكون اسم PHILITIS اسماً مصرياً مؤغرقاً .

(٢) حقيقة إن « منكاورع » قد خلف « خفرع » على العرش ، إلا أنه لم يكن من أبناء « خوفو » وإنما كان من أحفاده .

ولهذا السبب، فهم يخصصونه بالمديح دون سائر الملوك الذين حكموا مصر حتى ذلك الحين (١). وعلاوة على إصدار الأحكام العادلة؛ فإنه كان يعطى تعويضا من ماله الخاص كل من لم ترضه أحكامه ويهدى ثورة غضبه (٢). وبينما هو يحبو الرعية بحسن رعايته؛ دائب على عمل ذلك في ورع، حلت به أولى المصائب وهي وفاة ابنته؛ الطفلة الوحيدة التي كانت له في القصر (٣). فاستولى عليه حزن عميق من جراء الخطب الذي نزل به. وأراد أن يدفن ابنته بطريقة تخالف كل ماعداها؛ فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب ثم دفن بداخلها ابنته المتوفاة (٤).

١٣٠ — ولم تغيّب هذه البقرة في الأرض، ولكنها ما زالت ترى حتى يومنا هذا، في مدينة «سايس» (٥)، موضوعة في القصر الملكي

-
- (١) نلح في ذلك بقية من أنار الدماية التي آثارها أصحاب المذهب الشمسي. فقد كان «منكاورع» أول من أنمى نفسه «ابن الشمس» وأخذ خلفاؤه بهذه السنة من بعده. انظر: (في موكب الشمس ج ١ ص ١٦١ وما بعدها).
- (٢) من الجائز أن يكون «هردوت» قد خلط بين سيرة هذا الملك وسيرة الملك «بوخريس» الذي حكم في سايس أيام العصر الأثيوبي (حوالي عام ٧١٥ ق.م).
- (٣) انظر قصة ذلك في الفصل الثالث والثلاثين بعد المئة من هذا الكتاب.
- (٤) ربما كان مرجع ذلك إلى أن الناس كانوا يرون صورا ورسوما على نوايت العصور المتأخرة وبينها ما يمثل جثة الميت محمولة على ظهر بقرة.
- (٥) إن الجبانة التي كان ينبغي أن تدفن فيها ابنة «منكاورع» — إن صح أن ينظر إلى مثل هذه القصة — قد كانت جبانة الجيزة؛ حيث مدافن الأسرة ولم يكن هناك من داع مطلقاً إلى نقلها إلى «سايس». وليس من المعقول ولا من المعقول أن تتصور أن الأجيال قد احتفظت بتابوت ابنة «منكاورع» حتى أيام «هردوت». وليس من المعقول كذلك أن يوضع تابوتها في القصر الملكي، ليحرق فوقه البخور، وتضاء من حوله المصابيح.

بأحدى غُرفه المزيّنة . ويجرقون طول النهار بجانبها مختلف أنواع البخور . وكل ليلة يشعلون مصباحا بالقرب منها . وعلى مقربة من هذه البقرة توجد في قاعة أخرى تماثيل لسرايا « منقرع » — حسب قول كهنة « سايس » — إذ تقوم هناك تماثيل ضخمة من الخشب يبلغ عددها العشرين تقريبا . وهي تُمثِّل نِسوة عاريات . أما من عسى أن يَكُنَّ فليس في إمكانى أن أجزم إلا بما رووه (١) .

١٣١ — ويروى البعض القصة التالية بخصوص البقرة والتماثيل الضخمة : يقولون إن « منكاورع » هام بحب ابنته وجامعها رغما عنها . وإن البنت شنت نفسها بعد ذلك ، وإن الملك دفنها في البقرة . وقالوا : إن الأم قطعت أيدي الوصيفات اللاتي قدَّمن البنت إلى أبيها ، وإن التماثيل تعرضت الآن لما لاقته النسوة في حياتهن . ولكني أعتقد أن مارووه هو محض هراء وخاصة ما يتعلق بأيدي التماثيل ؛ لأننا قد شاهدنا بأنفسنا أن التماثيل قد فقدت أيديها بفعل الأيام ، وأن الأيدي إلى يومنا هذا ترى ملقاة تحت أقدامها (٢) .

(١) لا نكاد نجد داعيا للاحتفاظ بتماثيل لسرايا « منكاورع » في مدينة « سايس » وأكبر الظن أن القصة من أولها إلى آخرها قد استغلت في الدعاية أيام الملك إيساتييك الثاني لأن « منكاورع » من أسماء إيساتييك الثاني . انظر : HERMAN DE MEULENAERE, Herodotos over de (26^{ste} Dyn: S. 152) .

(٢) في هذه الرواية خلط مصدره بقية من آثار الدعاية التي قام بها أصحاب المذهب الشمسي من أعداء هذه الأسرة ، كما رأينا غير مرة . ثم من عقائد المصريين التي غُصَّت على أكثرهم لطول العهد ، وتتابع الحن ؛ فهم يذكرون « كلموتف » (= فحل أمه) ، وهم قد فهموا خطأ ما يروى عن زواج بعض الملوك بيناتهن ، مثل « أمنوفيس الثالث » و « رمسيس الثاني » ، ولعلمهم نسجوا من كل هذا التراث المهلهل تلك القصة وأمثالها مما سمعه « هرودوت » فأنكره . =

١٣٣ — وقد أخفيت البقرة بجميع أجزائها في غطاء أحمر فيما عدا الرقبة والرأس ؛ فبقيت ظاهرة للعيان ، تكسوها طبقة سميكة جداً من الذهب ، ويوجد بين القرنين قرص من الذهب ، تقليداً لقرص الشمس . والبقرة لا تقف على أرجلها ولكنها جاثمة على ركبتيها . وهي في حجم بقرة ضخمة حيّة . وتنقل البقرة خارج الغرفة عندما يلطم المصريون على الإله الذى لا أسميه (١) فى مثل هذه المناسبة (٢) ؛ يخرجون وقتئذ البقرة إلى ضوء النهار لأنهم يدعون أن البنت عند موتها توسّلت إلى أبيها أن ترى الشمس مرة واحدة فى السنة (٣) .

١٣٣ — وبعد موت ابنته أتمّ بالملك خطب آخر ، هذا هو : جاءه وحى من مدينة « بوطو » (٤) يخبره أنه سيعمر ست سنين فقط ويموت فى السنة السابعة .

= ونحب أن نضيف إلى كل ذلك ما لسنّا نستبعده من أن يكون للدعاية الإسرائيلية أثر فى هذه القصص . فاجتماع الأب بابنته أمر عرفه بنو إسرائيل وقالوا إنه جرى بين « لوط » وابنتيه . انظر : (التوراة وسفر التكوين ١٩ ، ٣٢ — ٣٦) . وأما تقطيع الأيدى فقد جاء ذكره فى قصة يوسف . انظر : (قرآن كريم سورة يوسف ٣١ ، ٥٠) .

(١) يعنى « أزوريس » .

(٢) ليس خافياً أن البقرة قد كانت من الحيوانات المقدسة عند آل فرعون ، وكانوا يرزونها إلى الأبد ، ويتخذون منها علماً على « إيزيس » ، فضلاً عن وصفها « حتحور » الذى أضحى يشير إلى أن القوم اعتبروها مرضعة لحورس ابن « إيزيس » وأما له . فأما الصورة التى يتحدث عنها هردوت ، فليست غريبة عن المصريين . فإذا صح أنهم كانوا يفعلون ما رواه ، فأكبر الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك فى ذكرى الشهيد « أزوريس » .

(٣) فى ذلك ما يدلّ على الجهل وسوء الفهم ؛ فلم يكن يكفى أن يطعم القدماء لموتاهم فى أن يروا الشمس مرة واحدة ، وإنما كانوا يأملون لهم أن يروها فى كل يوم .

(٤) انظر فصلى ٨٣ ، ١٥٢ من هذا الكتاب .

فاستشاط الملك غيظاً ، وأرسل يُسَفِّهُ الوحي والإله مآ^(١) على أن أباه وعمه اللذين أغلقا المعابد ، وأغفلا ذكر الآلهة ؛ بل وسافا الناس إلى التهلكة^(٢) قد عاشا زمناً طويلاً . أما هو التقي فسيموت بمثل هذه السرعة . وجاءه من الوحي ردٌّ ثانٍ يقول إن أيام حياته قد مرَّت سراعاً لهذه الأسباب ؛ إذ أنه لم يفعل ما كان يجب فعله . فقد كان مقدراً على مصر الشقاء حتماً مدة مئة وخسين عاماً . وقد فهم الملوك السابقون ذلك . أما هو فلم يدركه . ولما سمع « منكاورع » بهذا الردِّ عرف أن مصيره قد تقرَّر فأمر بصنع مصابيح عديدة كان يشعلها عند مجيء الليل ؛ ويشرب ويتمتع بلذات الحياة دون انقطاع سواء بالليل أو بالنهار ، وطاف بالمستنقعات والغابات ، وورد كل مكان علم أن به أحب متع الشباب . وقد فصل ذلك رغبةً منه في تكذيب الوحي . فهو قد جعل من الليل نهاراً حتى تصير السنوات الست اثنتي عشرة سنة .

(١) تأنيب الآلهة ، بل وتهديدهم أحياناً ، كان شيئاً معروفاً في العالم القديم ، وقد أشرت إلى ذلك في بعض ما كتبت . انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٧٠) . فأما الأب والعم اللذان أُشير إلى أنهما حكما طويلاً ؛ فأكبر الظن أنه يعني بهما « خفرع » و « خوفو » . فإذا كان ذلك كذلك ؛ فينبغي أن نشير هنا إلى أن في الأمر خلطاً ؛ لأن شواهد الأمور تدل على أن البلاد إِبَّانَ حكم « خفرع » وأواخر أيامه قد كانت تحتاز فترة عصيبة بسبب الخلاف الذي نشب بين الطامعين في العرش من ولد « خوفو » .

انظر : (١) Ed. MEYER, Chronologie S. 142 .

Walter Federn, Zur Familiengeschichte d. IV. (٢)

Dyn. Aegyptens (Wiener Ztsch. f. d. Kunde des Morgenlandes XLII, S. 163 - 192)

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٢٨ هامش رقم ١) .

١٣٤ — وترك هو بدوره هرمًا ، أصغر بكثير من هرم أبيه (١) ؛ يقل عنه في كل جانب من جوانبه عشرين قدماً في كل ثلثة قدم ، وهو مربع ؛ مبنىً إلى النصف بالحجر الأثيوبي (٢) . ويدعى بعض اليونانيين أنه يُنسب إلى الغانية « رودويس » (٣) . ولكنهم لا يقولون صدقاً . ويلوح لى أنهم يتكلمون دون أن يعرفوا من عساها تكون « رودويس » . (وإلا لما نسبوا إليها بناء هرم مثل هذا ، أُنْفِقَ عليه مالا يعدُّ من ألوف الثلاثينات كما نقول) . هذا إلى أن « رودويس » كانت في ربيع الحياة ، أثناء حكم الملك « أمازيس » لا في عهد « منكورع » (٤) . فهي عاشت إذن بعد هؤلاء الملوك الذين خلّفوا الأهرام بسنين كثيرة جداً . وأصل « رودويس » من « ثراقيا » وكانت

(١) نعم إن هرمه أصغر من هرم أبيه ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته يبلغ حوالى ١٠٨,٥٠ م . فأما ارتفاعه فكان أصلاً ٦٦,٥٠ م .

(٢) يقصد الكساء الذى يغطى صفحات البناء من حجر الجرانيت فيغطى من ذلك ما لا يقل عن ١٦ « مدمكاً » . وأكبر الظن أن « منكورع » قد مات قبل أن يتم بناء هذا الضريح ، أو قبل أن يتم وضع هذا الكساء .

(٣) إذا صح أن نعجب بوعى هردوت ، وبقظة عقله أحياناً ، ثم بصدق حسه التاريخي حين ينكر نسبة هذا الهرم إلى هذه الحساء . وينكر أنها عاشت أيام « منكورع » ، فمن الحق علينا أن نبحث عن الأسباب التي جعلت أصحاب هذه القرية ينسبون الهرم إلى تلك الغانية بالذات . ولكننا حين نفعل ، لا نكاد ننتهى إلى سبب ، وإن كنا نسأل : ترى أيكون مبعث ذلك ما بين اسمها واسم « روددة » زوج كاهن الشمس التي ورد اسمها في قرطاس « فستكار » إبان حكم « منكورع » . انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨) . الله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(٤) انظر : (فصل ١٧٢ من هذا الكتاب) .

عبدة لأيدامون بن « هيفايستوبوليس » . وهو من جزيرة « ساموس » . وكانت زميلة في الرُّق لأيزوبوس (١) راوية الخرافات ؛ لأن هذا كان عبداً لأيدامون . ويتضح ذلك بوجه خاص مما يلي . لما نادى رسول من قبل أهل « دلفي » عدة مرات من يريد أن يأخذ دية « ايزوبوس » ؛ لم يتقدم لأخذها أحدٌ آخر غير « إيدامون » وهو حفيد الأول . وهكذا كان « ايزوبوس » عبداً لأيدامون (٢) .

١٣٥ — وصلت « رودوبيس » مصر حيث أحضرها « كسانثوس الساموسى » ؛ ولما كان مجيئها بقصد التكبُّب أعتقها « خراكسوس الميثيلينى » وهو ابن « سكاماندرونيوس » وأخو الشاعرة « سافو » لقاء ثمن باهظ . وهكذا تحررت « رودوبيس » وبقيت فى مصر . ولما كانت فى منتهى الجاذبية (٣) ، أحرزت ثروة كبيرة كافية لها . ولكنها ليست بالثروة الطائلة التى تكفى لبناء هرم مثل هذا ، إذ من الممكن لكل من يشاء — حتى يومنا هذا — أن يعرف عشر ثروتها فلا ينبغي أن تنسب إليها ثروة طائلة . فقد أرادت « رودوبيس » أن تخلف لها أثراً فى بلاد اليونان ، فأمرت

(١) AESOPUS صاحب الخرافة الشهيرة التى أدار حوادثها أيام القرن السادس ق. م . انظر : (Plut., Moral., 557 a) .

(٢) واضح أن « هردوت » — يؤمن على الأقل — بوجود شخصية AESOPUS ، وواضح كذلك أن وجوده فى رأى « هردوت » قد كان فى الأولمبياد الخامس . وجاء فى بعض القصص أن أهل « دلفي » قد ألقوا بهذا الرسول من فوق صخرة عالية ، وأن « أبوللون » جازاهم على ذلك بمحنتين ؛ محنة الجوع ، ومحنة المرض . وأنهم كفَّروا عن ذلك بدفع البديَّة .

(٣) معنى الاسم « ذات الوجه الوردى » .

بصنع شيء لم يكن لغيرها أن يفكر فيه أو يقدمه للمعبد، ووهبته لدلفي تذكاراً لها. وبِعُشْرُ ثروتها، طلبت صنع سفافيد كثيرة من حديد، خاصة بشقي البقر بقدر ما سمح به عشر الثروة، وأرسلتها إلى «دلفي». ولا تزال هذه السفافيد حتى الآن مكمومة هناك خلف الهيكل الذي وهبه الخيويون أمام المحراب ذاته. وغواني «نوقراطيس» هنّ في العادة على درجة كبيرة من الجاذبية. إذ لا يُقتصر الأمر على هذه التي دار حولها الحديث هنا؛ والتي طبقت شهرتها الآفاق، حتى أن كافة اليونانيين عرفوا باسم «رودويس»؛ بل وجدت غانية أخرى فيما بعد تدعى «أرخيديكي» ذاع صيتها في بلاد اليونان. ولو أنها لم تكن موضوعاً لحديث الجميع بقدر ما كانت «رودويس». وبعد أن أعتق «خراكسوس» هذه وعاد إلى «ميتيليني» سخرت منه «سافو»^(١) في إحدى قصائدها من السخرية، والآن ينتهي حديثي عن «رودويس».

١٣٦ — ويقول الكهنة أن «أسوخيس»^(٢) حكم مصر بعد «منقرع».

(١) يؤكد ATHÉNÉE على أي حال أن الشاعرة هاجت «رودويس». انظر: (ATHÉNÉE, XIII. P. 596).

(٢) إن الذي حكم بعد «منكاورع» مباشرة قد كان «شيسسكاف». وله قبر قائم عرف في الكتب العلمية باسم «مصطبة فرعون». فأما ASYCHIS هذا فيما تذكر أنه ورد ضمن أسماء الملوك عند مؤرخنا الوطني «منتون». ولأنذكر كذلك أنه ورد ضمن أسماء الملوك التي دونها الفراعنة في الأبنات التي عرفت في بعض معايدهم؛ أو في القراطيس التي خصصت لذلك. ولربما يبدو طبيعياً أن يظن بعض المؤرخين أن المقصود بهذا الاسم هو Bochoris، وإن كنا لا نعرف له مثل هذا الاسم. انظر: (Wiedemann, ibd. S. 490). كذلك ظن بعضهم أن ذلك الملك هو من أسماء «يوسف اليهودي» (آسوخايوس) ونسب إليه فتح «أورشليم». انظر: (Josephus, Bellum Jud. 6. 10).

وهو الذى شيد مدخل معبد « هيفايستوس » (١) الذى يتجه نحو الشرق . وهو أكثر المداخل جمالاً وضخامة . فمع أن كل المداخل تحوى أشكالاً محفورة وآلاف من المناظر الأخرى للمارة ، فإن هذا المدخل يفوقها جميعاً إلى حد بعيد . ويقول الكهنة : إن النقد فى عصر هذا الملك كاد يكون معدوماً ، وإنه صدر إلى المصريين قانون بمقتضاه يقدم الفرد جثة أبيه رهناً ليحصل على قرض . وأضيف إلى هذا القانون بند آخر يخول الدائن التحكّم فى مقبرة المدين كلها (٢) . وإذا رفض المدين الذى قدّم ذلك الرهن ، سداد دينه ، عوقب بالألا يدفن بعد موته لا فى مقبرة آبائه ولا فى أى مقبرة أخرى . وليس له أن يدفن أى ميت آخر من أقاربه . وقد أراد ذلك الملك أن يبرز

= (436) . ثم (Pietschmann. in RE. unter Asychis) . وبذلك يكون الملك الذى عناه « هردوت » هو « شيشنق الأول » ؛ وإن كان قد خلط بينه وبين « بوخوريس » . وربما يؤيد هذا الزعم ما نسب إليه « هردوت » من المماثر الضخمة فى معبد « بتاح » . وقد كان « شيشنق الأول » من كبار البنائين فعلاً . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن شيشنق وآله جميعاً لم يبنوا أهراماً . ومهما يكن من شىء فليس لدينا آخر الأمر ما يمكن أن نسند به كل هذا الزعم .

(١) انظر : (فصل ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر لا يمكن تصوّره فى سهولة ؛ فنحن نعرف عقيدة الشعب المصرى فى الحياة والموت ، ونعرف شدة محافظته على آثار السلف ، ومقدار احترامه للتقاليد . كما نعرف تقواه التى لم يستطع هردوت نفسه إنكارها ، ونعرف فوق ذلك تقديره الصادق لمقام الأبوة . ونحن لا نقول ذلك تعصياً لشعبنا الذى ما زلنا نعيش على بعض تراثه ، وإنما بقوله بعض علماء الغرب المحدثين من المنصفين فى هذا العصر الحديث .

انظر : (Erman, Relig d. Aeg., Kap. XV, S. 291 f.) .

الملوك الذين حكموا مصر قبله ، فخلف أثراً عبارة عن هرم مبنى من اللبن ، وعليه نقش — محفور على حجر — يقول : « لا تحتقري بالقياس إلى الأهرام الحجرية فأنا أنوقها بقدر ما يفوق « زيوس » الآلهة الآخرين (١) . فقد أُلقيَ مسبار في البحيرة فلصق به بعض الطين وأُخذَ هذا الطين وصنعت منه لبنات . وبهذه الوسيلة كان بنأى » . تلك هى أعمال هذا الملك .

١٣٧ — وتولى الحكم ، بعد هذا الملك ، رجل أسمى من مدينة « أنيسيس » (٢) . وفى عهد هذا الملك تقدم الأثيوبيون وملكهم « شباكو » (٣) نحو مصر بقوة عظيمة . ففر الأسمى هارباً إلى المستنقعات ، وحكم الأثيوبي مصر خمسين عاماً فعل فيها الآتى (٤) : إذا ارتكب أحد المصريين خطأ ما ، رفض أن يقتل أى واحد منهم ، ولكن كان يحاكم كلاً بما يتناسب وجسامته الخطأ ،

(١) ما زالت بعض أهرام المصريين المبنية من اللبن قائمة . ويسمىها المواطنون « الأهرام السود » . ويكفى أن نذكر منها « أهرام دهشور » التى تقع على بعد قريب من منطقة صقارة . وقد يكون للقصاص الذى طالعنا فى ما كتب المؤرخون أثره فى ذلك الخلط . فنحن نذكر كيف قيل إن « منكاورع » قدم مات قبل أن يتمَّ هرمه ، وأن ابنته « نيتوكريس » قد آمنت ببناءه من اللبن . وليس يفوتنا « ونحن ننظر فى رواية هردوت » كذلك أن « آمون » الذى أمماه الإغريق « زيوس » لم يكن معروفاً أيام « منكاورع » .

(٢) من الجائز أن يكون واحداً من حكام الأقاليم . فأما المدينة نفسها فكانت أغلب الظن فى شرق الدلتا وعلى مسيرة نحو ١٩ كم إلى الشمال الغربى من القنطرة وفى المكان المعروف بتل « بليم » . انظر : (J. Ball, 17, 168) .

(٣) شباكو : أحد الملوك الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ١٠٠) .

(٤) إن « شباكو » لم يجاوز مدى حكمه اثنى عشر عاماً ، ولم يبلغ حكم الأسرة كلها خمسين عاماً .

مصدرا الأمر إلى كل فرد من المذنبين بأن يقيم السدود أمام المدينة التي ينتسب إليها، وبذلك صارت المدن أكثر ارتفاعا . وقد علت أول الأمر نتيجة لعمل الذين شقوا القنوات في عهد « سيزوستريس » (١) ، ثم في عهد الأثيوبى . فصار ذات علو شاهق . ومع أن سائر المدن في مصر أصبحت مرتفعة إلا أن أكثرها ارتفاعا في نظرى هى مدينة « بوباسطيس » (٢) ؛ حيث يوجد معبد « بوباسطيس » وهو جدير جدا بالوصف ، وإن كانت المعابد الأخرى أعظم منه وأبهظ نفقة إلا أنه أكثرها بهجة للنظر . و « بوباسطيس » باللغة اليونانية هى « أرتميس » (٣) .

١٣٨ — وهذا هو وصف المعبد : فيما عدا المدخل يقوم على جزيرة ؛ إذ ينساب فى النيل مجريان ، لا يختلطان ببعضهما ؛ بل يسيران حتى مدخل المعبد كل على حدة ؛ هذا من جانب وذلك من الجانب الآخر . وعرض كل منهما مائة قدم ، تظللهما الأشجار . والمدخل ارتفاعه عشرة أبواع (٤) ، مزخرف بأشكال ، ارتفاعها ست أذرع (٥) تستحق الكلام . ويقع المعبد فى وسط المدينة ، وبراء الطائف حوله من جميع الجهات ؛ إذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمى ، بقى المعبد كما شُيِّد منذ البداية ؛ لم يلحق به أى تغيير ، لذا من الممكن رؤيته . ويحيط بالمعبد سور حفرت عليه أشكال

(١) انظر : (الفصل رقم ١٠٨) .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦٠) .

(٣) هكذا سمى الإغريق « بسته » المصرية ، كما أطلقوا نفس الاسم على « بخت » (Pakhet) التى كانت تقدس فى وادى بنى حسن وكانت هرة برية .

(٤) أى حوالى ١٠٠ قدم .

(٥) أى حوالى تسع أقدام .

وبداخل السور فناء تنمو به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الآلهة ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد فى جميع الجهات ، وقبالة المدخل ، يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة ستاد تقريبا . وهو يخترق السوق متجها نحو الشرق وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبيه هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع إلى عنان السماء وهو يؤدى إلى معبد هرمس . تلك هى الحال التى عليها المعبد .

١٣٩ — وقال الكهنة إن انسحاب الأثيوبي قد انتهى بهذه الصورة : ولئى هارباً بعد أن شاهد فى نومه الرؤيا التالية : بدا له رجل يقف بجانبه ، ينصحه بجمع كل كهنة ويقطعهم نصفين . فلما رأى هذا الحلم قال إن الآلهة — فيما ظن — أرتة هذا كمبرر لكى يصيبه شر ، بعد انتهاك حرمة الأشياء المقدسة ، من الآلهة أو من الناس (٢) . وعليه فلن يفعل من ذلك شيئاً بل إنه سينسحب لأن الوقت الذى تنبىء به لحكمه مصر قد اقتضى وبالفعل لما كان بأثيوبية أعلن الوحي الذى يستنبؤه الأثيوبيون أنه من الواجب عليه حكم مصر خمسين عاما . فيما أن هذه المدة قد مرت ؛ فضلاعن انزعاجه من الحلم الذى رآه فى منامه ، فقد انسحب « شباكو » من مصر برضاه (٣) .

(١) أى حوالى أربعمئة قدم .

(٢) انظر : (هردوت ج ١ فصل ٣٢) حيث نجد ما يشبه تلك الصورة .

(٣) انظر : (Diod. I. 65. 5 - 8) . ونحن نتساءل : ترى أيسكون فى قصة الرؤيا أثر من قصة رؤيا « تانوتامون » ؟

انظر : (Schaefer, Urk. d. aelteren Aethiopen Koenige 577—7)
Siegessinschr. d. Tanotamon (Die sog. Traumstele). Les Songes
(et Leur interprétation (Ed. du SEUIL) p. 26

١٤٠ — وعندما رحل الأثيوبي عن مصر ، حكمها الأعشى ثانية بعد رجوعه من المستنقعات . حيث كان يسكن خلال الحسين عاما ، جزيرة (١) علاها بركام الرماد والتراب . إذ كلما جاء إليه ، دون علم الأثيوبي ، مصريون يحملون له الخنطة — وفقا لما كان مقررا على كل منهم — أمرهم بأن يحضروا رمادا مع هديتهم . ولم يستطع أى فرد أن يجد هذه الجزيرة قبل « أميرتيوس » (٢) . بل إنه خلال فترة تزيد على سبعمائة عام لم يسكن في مقدور الملوك الذين سبقوا « أميرتيوس » في الحكم ، أن يكتشفوا هذه الجزيرة ، واسمها « ألبو » (٣) وحجمها عشرة استناد في جميع الجهات .

(١) ليس من السهل أن نعرف موقع هذه الجزيرة .

(٢) امرتيوس Amyrtée تحريف أو تصحيف لاسم أمير وطني من أمراء الدلتا « أمن حري » (= أمون حري) كان أميراً لسايس . ظهر إبان ضعف الفرس وأيام الثورة التي قام بها المصريون عام ٤٦٠ ق.م. والتي أتان الإغريق فيها المصريين على الفرس ، فبشوا إليهم بأسطول من ثلثمائة (٣٠٠) سفينة . وكان الفرس قد بعثوا على مصر جيشا من ٣٠٠٠٠٠ رجل التقوا بالمصريين قبل وصول المدد الإغريق في مدينة Paprimus ، وكان قد سبقه إلى الجهاد أمير مصرى يدعى « إنحررو » . أكبر الظن أن يكون ذلك تصحيفا للاسم « إرت — إن — حور » (بمعنى عين حورس) ، ويسميه الإغريق Inarus . وفي رواية هردوت خلط من الناحية التاريخية . انظر : (Legrand, Hérodote II, p. 54 - 55) .

(٣) ليس يبعد أن تكون هذه الجزيرة (إلبو) في منطقة بحيرة المنزلة على أن الطبيعة قد تغيرت ، وتغير معها وجه الأرض في تلك البقعة من زمن هردوت أو من زمن الفراعنة عموما حتى يومنا هذا . فأما هذا التحديد الزمنى الذى يقدره هردوت بأكثر من سبعة قرون ، فليس من السهل أن نأخذ به .

١٤١ — خلفه في الحكم كاهن «هيفايستوس» ويسمى «سيتوس» (١).
ولقد عامل المحاربين المصريين بازدراء ، ولم يكثر بهم — ظاناً أنه لن
يحتاج إليهم — ومن بين الأمور الأخرى التي قام بها ليحط من قدرهم ،
أنه انتزع أراضيهم ، وهم الذين كان يملك كل واحد منهم في عهد الملوك
السابقين اثني عشر فدانا من الأرض الممتازة (٢) . وبعد ذلك ساق ملك

(١) إن Selhos هذا الذي يصفه هردوت بأنه كان من كهان «هيفايستوس»
(= بتاح) ، والذي يجعله خليفة للحاكم الأثيوبي «شباكا» ، ينبغي أن يكون
بداية «شباتاكا» . والظاهر أن هذا الأخير قد آثر أن يخفي وراء ستار
المسرح ، ويجعل مكانه «طهرقه» بن «بمنخي» . وكان يومئذ قد لم يجاوز
العقد الثاني من عمره ، وكان قد جاء في ركاب «شباكا» وأسهم في غزو الدلتا
عام ٧١٥ ق . م .

وليس بمستبعد أن يكون لذكرى ملك مصر العظيم «سيتي الأول» وحروبه
التي أجراها في فلسطين أثر في هذا الخلط ، يضاف إلى ذلك أن الحاكم الأثيوبي
«كشتا» قد ورد ذكره عند «منتون» تحت اسم (سيتي) . وظاهر أن
الحكام الأثيوبيين لم يستطيعوا توحيد مصر بحال من الأحوال . ونحن نسمع
صدى ذلك في النبوءة المنسوبة إلى يوشع (إصحاح ١٩) حيث يقال : «أهبيج
مصريين على مصريين ؛ فيحارب رجل أخاه ، ورجل صاحبه ؛ مدينة مدينة ،
ومملكة مملكة» . و«سيتون» في رأى Griffith هو بطل من أبطال ذلك القصة
الذي أخرجه تحت عنوان «قصص أخبار ممفيس» .

انظر : (Griffith, Stories of the High - Priests of Memphis)
(The SETHON of Herodotus (Oxford 1909, 13 - 40)) .

وكان ذلك القصة جاريا على السنة الناس أيام هردوت .

(٢) من الحقائق المعروفة في تاريخ مصر الفرعونية وبخاصة أيام الدولة
الحديثة ؛ بل منذ طرد المكسوس ، أن القواد والأبطال من رجال الحرب =

العرب (١) والأشوريين سنحريب جيشاً عظيماً نحو مصر (٢) . وهناك رفض المحاربون المصريون مد يد المساعدة له . فلما وقع الكاهن في هذه الحيرة ؛ توجه إلى المحراب يندب أمام التمثال ما يعانیه من خطر . وفيما هو يئن استولى عليه النعاس ، وبدا له في الحلم أن الرب يقف بجانبه ، يشجعه ويقول : إنه لن يصيبه مكروه إذا خرج للملافة الجيش العربى ، لأن الإله نفسه سينبث إليه بمن يدافعون عنه ، ولتقته في أحلامه ، أخذ معه من المصريين من رغب فى أتباعه ، وعسكر فى « بيلوزيوس » (إذ هناك توجد المنافذ إلى مصر) . ولم يكن بين من تبعوه واحد من المحاربين ؛ بل كانوا من صغار التجار والصناع الذين يرتادون الأسواق . فلما وصل الأعداء هناك انقضت القتران ليلا على الأعداء كالسيل الجارف ، وقرضت جعبهم وأقواسهم وحمايل دروعهم أيضاً . فكانت النتيجة أنهم — وقد أصبحوا عزلاً من السلاح — ولوا الأدبار ، وسقط منهم الكثيرون . وحتى الآن يقوم لهذا الملك تمثال حجرى فى معبد « هيفاستوس » ، يمسك فى يده فأراً ، عليه نقش ، ينطق بهذه العبارة :

== قد كانوا يقطعون مساحات من الأرض الزراعية ، وحسبنا أن نذكر من ذلك على سبيل المثال مارواه البطل « أحموسى بن إينا » الذى شارك فى طرد الهكسوس تحت قيادة « أحموسى » الأول . انظر : (Sethe, Urk. IV, 18 Dyn., 6) . ثم (Badawi, Memphis, S. 59) . فأما مساحة الفدان المصرى القديم فكانت بحسب اليوم تساوى ٢١ س ١٥ ط .

(١) أكبر الظن أن المقصود بالعرب هنا قد كانوا سكان وادى النهرين ومن يليهم من أهل البقاع المجاورة الذين خضعوا يومئذ لسلطان « سنحريب » .
 (٢) كان ذلك حوالى عام ٧٠١ ق . م . أيام « حُكم » طهرقه الأثيوبى مصر .

« فليتيق الله من ينظرني » (١) .

(١) ليس من السهل أن نعرف أسباب الهزيمة على وجه التحقيق ، وإن كان يمكن — بسبب ذكر الفيران — أن تتصور أن الجيش الآشوري قد هلك بوباء الطاعون وبذلك نجّى الله « أورشليم » ، وفاز معها جيش « طهرقه » بالنجاة . وتلك قصة تذكرنا بهجوم « أبرهة الأشرم » على الكعبة ، وما كان من معجزات « هام الفيل » ، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم . وتذكرنا كذلك بما وعد به الله النبيّ في « وقعة بدر » وبما كان في « وقعة الخندق » ، وظاهر من شواهد الأمور أن الخطر الآشوري قد كان يتزايد ، وأن « سنحريب » الذي خلف أباه « سرجون الثاني » منذ عام ٧٠٥ ق . م . كان قد قرر أن يهاجم فلسطين ، وأن ملوك آسيا الدنيا قد اضطروا إلى التحالف لمواجهة هذا الخطر . انظر : (التوراة سفر الملوك الثاني ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٩ : ١٢ — ١٣) ، وكيف أن « سنحريب » قد حاصر « أورشليم » ، وكيف استطاعت هذه بفضل قوة حصونها أن تقاوم هجوم الآشوريين ، وكيف أن ملك مصر « شباتاكا » قد بعث بجيش إلى آسيا تحت إمرة « طهرقه » ، وكيف أن « سنحريب » قد هزأ بكل ذلك فأرسل إلى « حزقيا » قائلاً : على من اتكلت حتى عصيتني ، هو ذا قد اتكلت على مصر ، واتخذت عكازه هذه القصبية المروضة التي إذا اتكأ عليها إنسان دخلت في كفه وتفتتها . كذلك هو فرعون ملك مصر لجميع المنكبلين عليه . انظر : (سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٠ — ٢١) .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أننا لا نملك من وثائق التاريخ الصحيح ما يؤيد تلك الهزيمة التي حاقت بسنحريب وجيشه ، وإن كنا نملك روايتين ولا نملك إزاء أحداث التاريخ إلا أن نضمهما في مصاف المعجزات : أولاهما أن « يهوى » رب العبرانيين قد بعث بواحد من ملائكته أهلك يسيفه ١٨٥٠٠٠ من عساكر الآشوريين . انظر : (كتاب الملوك : ١٩ : ٣٥ — ٣٦) ، وتلك — في رأبي — أشبه بالمعجزة التي أهلك بها الله أعداء المسلمين يوم « بدر » ، والثانية هي التي تصدى لها « هردوت » .

انظر : (Legrand, Hérodote. p. 165) .

١٤٢ — إلى هذا الحد من الرواية ، كان الكلام للمصريين وكهنتهم :
 وضخوا الى أنه وجد عندهم ابتداء من أول ملك إلى كاهن « هيفايستوس » هذا
 — وهو آخر من حكمهم — واحد وأربعون وثلاث مئة جيل من البشر^(١). وخلال
 هذه الأجيال ، كان عدد كبار الكهنة بقدر عدد الملوك^(٢). والآن. فإن ثلاث مئة
 جيل من الرجال تعادل عشرة آلاف عام ؛ لأن ثلاثة من هذه الأجيال تعادل
 مئة سنة^(٣) ، ويبلغ ما تشتمل عليه الأجيال الواحد والأربعون الباقية
 — التي تضاف إلى الثلاث مئة — ١٣٤٠ عاماً^(٤). وهكذا ؛ لم يظهر — حسب
 قولهم — إله على شكل إنسان^(٥). وقالوا : إنه لم يظهر شيء من هذا القبيل ،
 لا من قبل ولا من بعد في عهد ملوك مصر الباقين . ثم قالوا إن الشمس في ذلك
 العصر غيّرت مناطقها المألوفة أربع مرات ؛ فأشرقت مرتين حيث تغرب الآن ،
 وغربت مرتين حيث تشرق الآن . ولكن لم يتبع ذلك أى تغيير في
 مصر ، لا فيما تَفَلَّه الأرض ، ولا فيما يجود به النهر ، ولا فيما يتعلّق

(١) يقصد « منا » أول الملوك فضلا عن الثلاثين والثلاث مئة . كما أوضح
 في الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب ، ثم يضيف إلى ذلك العشرة الذين ورد
 ذكرهم بين فصلي (١٠٢ — ١٤١) .

- (٢) ليس ضروريا أن يكون عدد كبار الكهنة بقدر عدد الملوك .
 (٣) يتضح من ذلك أن « هردوت » لم يتوخ الدقة ، وإنما أخذ بالتعميم ؛
 حين جعل لكل ملك متوسطاً من العمر لا يعدو الجيل الواحد .
 (٤) لقد أخطأ « هردوت » ولم يكن دقيقاً في حسابه ، إذ أن الأجيال
 التي ذكرها ؛ وعددها واحد وأربعون وثلاث مئة تعد من السنين $\frac{1}{4}$ ١١٣٦٦ .
 وذلك على أساس أن كل قرن من السنين يشمل ثلاثة أجيال .
 (٥) ذلك كلام تنقصه الدقة . وحسبنا أن معبود المصريين « بتاح » قد كان
 منذ أول عهد المصريين يظهر في صورة بشر .

بالأمراض أو الموت (١).

١٤٣ — وعندما وضع المؤرخ « هيكاتيوس » (٢) — فيما مضى أثناء وجوده في طيبة — تسلسل أنسابه ؛ فرفع أصل أسرته إلى إله جعله جده السادس عشر (٣) ، فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معي . ولو أنني لم أوضح نسبي . فقادوني داخل المحراب (٤) وهو ضخم . وأروني تماثيل خشبية ضخمة وعدوها ؛ فكان عددها كما قالوا تماماً ؛ لأن كل كاهن كبير يقيم هناك في حياته تماثلاً لنفسه . وفيما كان الكهنة يعدونها ويطلعونني عليها أكدوا لي أن كل ابن منهم كان خليفة لأبيه . بادئين بآخر من مات منهم . ومازئين بهم جميعاً حتى أتوا على ذكرهم جميعاً . وعندما وضع « هيكاتيوس » نسبه ووصل بأصله إلى إله

(١) يقصد ما كان يعتري بدء السنة المصرية من تغيير . انظر : (ما جاء من الحديث عن ذلك في (Erman, Aegypten S. 397 - 399) .

(٢) هيكاتيوس : هو الشهير « بالملطية » نسبة إلى وطنه « ملطية » . وكان من أشهر رجال زمانه . سبق « هردوت » في كتابة التاريخ ، ويعد أول أسلافه في هذا المجال ؛ زار كثيراً من بقاع الدنيا المعروفة في أيامه ، وسجل كل مشاهداته وبخاصة وصف تلك البقاع ومنها مصر ؛ وذلك في كتابه « حول الأرض » . وله كتاب آخر أتمناه « الأنساب » . وظهر في أكثر ما كتب « هردوت » أنه شديد الكره لسلفه هذا ، كثير الطعن عليه ، شديد الميل إلى تسفيه آرائه . ويمكن أن نشير إلى ذلك في بعض فصول هذا الكتاب مثل : (فصل : ٢١ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١٥٦) . وليس بين أيدينا ما يحقق زعم « هردوت » من أن سلفه قد حكى كل ما نسب إليه ، وأكبر الظن أن الأمر لا يخرج عن افتراء مصدره الكره والحسد .

(٣) أغلب الظن أن الإله المعنى هنا هو « أبوللون » الذي عبد في « ملطية » ووطن « هيكاتيوس » .

(٤) لا ندري لم لم يصف « هردوت » ذلك المحراب بالتفصيل كدأبه ؟

بمثابة جده السادس عشر ، عارضوه في أن نسبا يعتمد على هذا التثبت لأنهم لا يسلمون بقوله إن إنسانا يخلق من آله ، وعارضوا نسبه بهذه الكيفية . . . أعلنوا أن كل واحد من أصحاب التماثيل الضخمة كان « بيروميس » (١) خليفة « بيروميس » إلى أن وضخوا أن هذا التسلسل من « بيروميس » إلى « بيروميس » يشمل الخمسة والأربعين والثلاث مئة تمثال ولم ينسبهم إلى إله أو بطل . و « بيروميس » تعنى في اللغة اليونانية « الرجل الفاضل » .

١٤٤ — إذن هذه التماثيل — وفقا لتبياناتهم — كانت على شاكلة أصحابها (من البشر) ، بعيدة كل البعد عن الآلهة . ولكن قبل هؤلاء الناس ، كان حكام مصر آلهة يعيشون مع البشر ، وكان صاحب السلطان دائماً واحدا منها ، وآخر الملوك من الآلهة هو « حورس » بن « أزوريس » . ويسميه اليونانيون « أبوللون » (٢) ؛ حكم بعد أن خلع « تيفون » (٤) ؛ فكان آخر ملوك مصر من الآلهة .

(١) الواقع أن « هردوت » يقصد إلى تحويل اللفظ في اللغة الإغريقية إلى معنى « الرجل الفاضل » ؛ وإن كان يمكن إرجاعه إلى أصل مصرى قديم لا يبدو . بمعناه كلمة « الرجل » ، « الإنسان » ، « البشر » .
(٢) عرف المصريون من آل فرعون — كغيرهم من سائر شعوب الأرض القديمة — أسراً مقدسة لأربابهم التي عبدوها .

انظر: (Alex. Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne, p. 68.)
(٣) كان « أبوللون » هو الاسم الذي أطلقه الأغارقة على المعبود المصرى « حورس » ، وكان هذا الأخير إنما يمثل — في الأغلب الأعم — « الشمس » .
وهي مظهر القوة الطبيعية التي تفعل فعلها في الحياة وتطورها على مدار السنة .
وأما أن « حورس » كان آخر من حكم من الآلهة ، فذلك قول يطابق ما جاء في نظرية هليوبوليس الدينية .

(٤) الاسم الذي أطلقه المصريون على المعبود المصرى « ست » رمز الجفاف ، وصاحب الصحراء ، وقاتل أخيه « أزوريس » ، وغدو ولده « حورس » (= أبوللون) .

«أزوريس» هو في اللغة اليونانية «ديونيسوس»^(١).

١٤٥ — يعتبر «هيراكليس»^(٢) و «ديونيسوس» و «بان» عند اليونانيين أحدث الآلهة. أما المصريون فيعتبرون «بان» أقدم الآلهة. وبعد الآلهة التي يسمونها الآلهة الثمانية^(٣) الأولى. و «هيراكليس» أحد آلهة المرتبة الثانية المسماة بالآلهة الاثني عشر^(٤)، و «ديونيسوس» أحد آلهة المرتبة الثالثة الذين خلقوا من الآلهة الاثني عشر. ولقد بينت — فيما سبق — عدد السنين التي انقضت — حسب قول المصريين أنفسهم — بين «هيراكليس» والملك «أمازيس»^(٥). ويقال إن المدة التي مرت منذ «بان» أطول من ذلك أيضاً، وانقضت منذ «ديونيسوس» فترة أقصر من هذه وتلك. ويعدون من زمان «ديونيسوس» إلى زمان الملك «أمازيس» خمسة عشر ألف عام^(٦). ويؤكد المصريون أنهم يعرفون ذلك بمنتهى الدقة لأنهم يحسبون السنين ويسجلونها باستمرار. مع أن الفترة منذ وجود «ديونيسوس» بن «محملي» بنت «كادموس» حتى أيامنا هذه، تبلغ ألفاً

(١) واضح أن «هردوت» يعني بالمعبود الإغريقي Dionysos نظيره من معبودات المصريين «أزوريس» الذي يمثل البعث في الطبيعة. وقد أوضحنا ذلك في غير موضع من هذا الكتاب. انظر: (الفصلين رقم ٤١، ورقم ١٢٣).

(٢) انظر: (الفصلين رقم ٤٣، رقم ٤٤) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: (الفصول رقم ٤، ٤٣، ٤٦) من هذا الكتاب.

(٤) انظر: (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب.

(٥) انظر: (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب.

(٦) انظر: (Legrand, H. L. II p. 144, Note 7).

وستمئة سنة تقريبا (١). ومنذ زمان «هيرا كليس» بن «ألكيني» تسع مئة عام على وجه التقريب. ومنذ «بان» بن «پنيلوبي» (إذ يقول اليونانيون إنه ابنها من «هرمس» (٢)، انتقضت أعوام أقل مما انتقض منذ حرب طروادة أى ما يقرب من ثمان مئة.

١٤٦ — ولكل امرئ أن يختار من هاتين الروايتين ما يرى أنها أولى بالتصديق. أما أنا فلقد سبق أن بينت رأيي في هذا الشأن (٣)، لأنه إذا كان «ديونيسوس» بن «سميلي» و «بان» بن «پنيلوبي» اشتبرا وعمرًا كذلك في بلاد اليونان مثل «هيرا كليس» بن «أمفيتريون»، فللمرء أن يقول إنهما كانا — مثل «هيرا كليس» — رجلين يسميان بأسمى الإلهين اللذين وجدا من قبلهما. على أن اليونانيّين يقولون عن «ديونيسوس» أن «زبوس» قد خاطه إلى فخذه بمجرد ولادته، وحمله إلى «نيسا» (٤) التي تقع بأثيوبية فيما وراء مصر. أما بخصوص «بان» فليس في إمكانهم أن يقولوا إلى أين

(١) إذا جاز لنا أن نرى أزهر أيام «هردوت» خلال رحلته إلى مدينة «تورى» Thuriى بإيطاليا؛ أى حوالى ٤٤٤ ق. م، فإن أيام «ديونيسوس» ينبغي أن تقع حوالى ٢٠٦٤ ق. م، وأيام «هيرا كليس» حوالى ١٣٤٤ وأيام «بان» حوالى ١٢٤٤ ق. م.

(٢) انظر الحديث عن Hermes في الفصل رقم ٥١ من هذا الكتاب، فأما Penelope. فلن يختلف وضعها هنا عن وضع Helena أو عن وضع Jo. (٣) انظر الفصول من ٤٣ — ٤٩، ثم الفصل رقم ٥٢ من هذا الكتاب.

(٤) هذا هو الاسم الذى وضعته الحرافة الإغريقية علماء على الموضع الذى بمث إليه «زبوس» بالطفل «ديونيسوس»، وأسلمه إلى الحور ليرضعه. ولما انتشرت شعائر «ديونيسوس» مع الزمن أخذت أسماء الأماكن الخاصة بمولده ونشأته تتردد وتختلف بين «تراقية»، و «آسية الصغرى»، و «المند».

تَوَجَّهَ بعد مولده . ومن ذلك يتضح أن اليونانيين - فيما يبدو لي - قد عرفوا
اتسمى هذين الإلهين بعد أسماء الآلهة الأخرى ، وأنهم حددوا تاريخ ميلادهما
وقما علموا بهما .

١٤٧ - إن ما سبق هو من كلام المصريين أنفسهم : وأقص الآن
روايات الآخرين ؛ وتلك يوافق عليها المصريون ، بشأن ما حدث في هذا البلد .
وسيضاف إلى هذا أيضاً بعض مشاهداتي الخاصة (١) .

لما تهرَّروا المصريون بعد حكم « كاهن هيفايستوس » (لأنهم لم يستسيغوا
مطلقاً أن يعيشوا زمناً بدون ملك) ، قَسَمُوا مصر كلها اثني عشر قسماً ،
وَنَصَبُوا عليها اثني عشر ملكاً (٢) .

(١) انظر الفصل رقم ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) الواقع أن فكرة الأثني عشرية لا تبدو قائمة على أساس واضح . فأما
فكرة الانحلال والتكالب على الحكم قبل أيام الأسرة السادسة والعشرين فأمرها
معروف ، وإن كان قد غاب عن « هردوت » أن هذه الصنورة من الانقسام
والنفك قد عُرِفَتْ وتكررت في مصر قبل أيام الأسرة الخامسة والعشرين ؛
فهى قد عرفت قبل أيام « منا » ، وهى قد عرفت قبل أيام الدولة الوسطى ، وبعد
انتهاء أيامها أيضاً . انظر : (de Meulenaere ibd. 12 f.) . وأكبر الظن أن ضخامة
بناء « اللايرنث » . انظر : (الفصل رقم ١٤٨) قد راعت هردوت بحيث لم يستطع
أن يتصور أنه من عمل ملك واحد . والواقع أن ذكر العدد والإصرار
على تحديده لم يكن من عمل هردوت وحده ، بل أخذ به كل من « استرابون »
و « بلينيوس » فجعلوا كل فناء من أقبية المعبد الأثني عشر لإقليم من الأقاليم
الإثني عشر . انظر : (Plinius, Naturalis historia 36, Cap. 13) .

وفكرة تمثيل الأقاليم في المعابد كانت معروفة قبل أيام هردوت ، وقبل أيام
الأسرة السادسة والعشرين ؛ بل قبل أيام صاحب اللايرنث . عرفت أيام
« منكورع » . انظر : (Reisner, Mycerinus (Cambridge 1913) .

وتحالف هؤلاء الملوك فيما بينهم عن طريق الزواج ، وحكموا متبعين هذه القواعد . . ألا يخلع أحدهم الآخر ، ألا يسمى أحدهم إلى أن يمتلك أكثر من الآخر ، وأن يكونوا أصدقاء مخلصين . أما السبب الذي من أجله استنوا هذه القواعد واحترموها احتراماً فائقاً فهو أن وحياء - بمجرد توليتهم الحكم - جاءهم منذ البداية قائلاً إن حكم مصر سيتول إلى من يسكب منهم القربان من قنح برونزي في معبد « هيفايستوس » (١) (ذلك لأنهم كانوا يجتمعون في جميع المعابد) (٢) .

١٤٨ - وقرروا جميعاً أن يخلفوا أثرًا مشتركاً . وعلى أثر ذلك القرار ، شيّدوا « اللابيرنث » (٣) الذي يقع وراء بحيرة

(١) انظر الحديث عن ذلك في الفصل (رقم ٥١) من هذا الكتاب .

(٢) يعني أن الاجتماع لم يكن قاصراً على المعبد التابع للإقليم الذي سيتولى حكمه كل واحد من أولئك الأثني عشر ، بل كان في معابد الأقاليم الأخرى ، وفي مقدمتها معبد « بتاح » .

(٣) اللابيرنث المصري : كتب في وصفه غير هردوت آخرون من كتّاب العالم القديم ، وليس في مقدورنا اليوم تحقيق الوصف الذي أورده هردوت ، بعد أن تابعت عن الأيام على البناء ، وعدت عليه المواد في القديم والحديث ، ففي العصر الروماني بُنيت من أنقاضه مدينة « كروكوديلوبوليس » (مدينة التمساح) . ومنها بُنيت أكثر مرافق السكة الحديدية في الأيام الحديثة ، وتجرى الباحثون في تحديد مكانه . انظر : (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889) . ومن الذين وصفوا المعبد غير « هردوت » « استرابون » . انظر : (Strab. 17, 811) الذي عاش بعده بأربعة قرون ، ونستطيع أن نقدر مطمئنين أن بناء المعبد قد تغير في هذا المدى الطويل ، ويتضح أثر ذلك في اختلاف الوصفين ، كما يتضح رُحماً رواء « ديودور الصقلي » . انظر : =

« مويريس »^(١) بقليل ، وعلى قرب من المدينة المسماة بمدينة التماسيح^(٢) .
ولقد رأيت به بنفسى ، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان . إذ لو قدر لامرئ أن
يجمع معرضاً للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون ، لبست عملاً أقل من
هذا « اللابيرنث » بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق . ولو أن معبدى
« إفسوس »^(٣) و « ساموس »^(٤) ليستحقان الكلام . كذا لاحظنا أن الأهرام
تجل عن الوصف وأن كلا منها يكافئ كثيراً من آثار يونانية ، حتى عظيمها .
ولكن « اللابيرنث » يفوق الأهرام أيضاً وبه اثنا عشر بهوا مستقوفاً مداخلها
متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متباعدة ، يحيط بها سور
خارجى واحد . وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق
الأولى ، تحت سطح الأرض . وعددها ثلاثة آلاف قاعة . خمسمائة وألف من

= (Diod. I, 66) . والواقع أن في ضياع هذا الأثر خسارة في تراث العمارة
الفرعونية لاتعدلها خسارة ؛ فهو كما وصفه الكتاب الذين ذكرنا يعد شيئاً
منقطع النظير بين عجائب الدنيا ؛ بل هو كما وصفوا يفوق كافة المعابد المصرية من
حيث المساحة ، وتعدد الغرفات وزينتها وزخرفها وتماثيلها . انظر : (Petrie, ibd.)
ثم (Petrie, Labyrinth, Gizeh & Mazghuneh) . ثم انظر الحديث الذى
جاء عن ذلك فى الكتاب الذى أصدره de Meulenaere عن هردوت
والأسرة السادسة والعشرين عام ١٩٥١ ، وأخيراً المقال الذى نشره العالم Kees .
انظر : (Kees, Aeg. Laby. RE. XII, 1, S. 323 - 326) .

ثم (Wiedemann, Herodots II = Buch S. 525—533) .
(١) انظر ما جاء عن البحيرة فى الفصل رقم ١٣ من هذا الكتاب .
(٢) « مدينة التماسيح » التى عرفت بعد أيام الفراعنة باسم Arsinoe وهى
بعد كثيراً عن مدينة الفيوم الحالية (انظر : ص ٢٧٩ هامش ٣) .
(٣) يقصد معبد ARTEMIS فى تلك المدينة . انظر : (هردوت ج ١ فصل ٩٢) .
(٤) يقصد معبد HERA ؛ وكان فى رأيه أكبر المعابد . انظر : (هردوت
ج ٣ فصل ٦٠) .

كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التي فوق سطح الأرض وجسنا خلالها . وإنا لتسكلم عما شاهدناه بأعيننا . . أما القاعات التي تحت الأرض ، فوقفنا على أمرها مما قيل لنا . لأن هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة أن يرونا إياها ؛ مدعين أنه توجد بها تواييت الملوك الذين بنوا ، أول الأمر ، ذلك اللابيرنث . وبها تواييت التماسيح المقدسة أيضاً . وهكذا تلقفنا الحديث عن القاعات السفلى ؛ عرفناه عن طريق السماع . أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا وهي تفوق أعمال البشر . فالممرات خلال الردهات والمنعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الأبهاء كانت لنا مصدر أعجاب لا حد له ، أثناء مرورنا من البهو إلى القاعات . ومن هذه إلى الأروقة ، ومن هذه إلى ردّهات أخرى ومن القاعات إلى سائر الأبهاء . وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ، والجدران ممتلئة بالأشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة بإتقان فائق . ويلتصق بالركن الذي ينتهى عنده اللابيرنث هرم ارتفاعه أربعون باعا ، حُفرت عليه أشكال حيوانات كبيرة (١) ، وقد بنى تحت الأرض طريق تصل إليه .

(١) إنه هرم « أنمحات الثالث » في « هوأره » . ويقصد هردوت بالأشكال الكبيرة الكتابة الهيروغليفية ، وعلى ذلك جرى النظراء من الكتّاب الأقدمين ؛ إذ كانوا يسمون إشارات الكتابة المصرية « الحيوانات الكبيرة المحفورة » ، وفي ذلك الوصف ما يدل على أن هردوت قد رأى هذا الهرم ، فأما تقدير الارتفاع عنده ويبلغ ٢٤٠ قدما فيختلف عن تقدير Perring الذي يبلغ ١٦٠ قدما . هذا ؛ ولا يفوتنا أنه قد كان لأنمحات هذا هرم آخر على بعد قريب من منف ، وقد بقيت منه قننه الموجودة بالمتحف المصرى والتي بلغ ارتفاعها ١٤٠ م كما بلغ طول قاعدتها ١٨٥ م . انظر : (Schaefer, Z.Ae.S. 41, 1904 S. 84. f.) .

١٤٩ — ومع أن « اللابيرنث » على هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة بحيرة مويريس^(١) والتي بنى « اللابيرنث » بالقرب منها ، تثير عجباً أشد ، فطول محيطها ٣٦٠٠ ستاد أو ستون اسخينوس ، وهذا مدى يساوى امتداد مصر نفسها على ساحل البحر . وتمتد البحيرة نحو الشمال والجنوب ، وغورها فى أعق الجهات خمسون باعا ، وهى ذاتها تشير إلى أنها صناعية ، صورتها السواعد ، إذ يقوم فى وسطها تقريبا هرمان ، يرتفع كل منهما فوق الماء خمسين باعا ، وما بنى تحت الماء منهما يعادل هذا القدر . ويوجد فوق كل منهما تمثال ضخيم من الحجر يجلس على عرش . وبذا يكون ارتفاع كل من الهرمين مئة باع ومئة باع تساوى « ستادا » واحدا مكونا من ستة بليثرونات ؛ لأن الباع يساوى ستة أقدام أو أربع أذرع ؛ ذلك لأن القدم أربعة أشبار والذراع ستة أشبار^(٢) . والماء الذى بالبحيرة ليس فيها بالطبيعة (فالإقليم فى هذه المنطقة شديد الجفاف) بل يصل إليها

(١) يقصد البحيرة المعروفة اليوم باسم « بركة قارون » انظر فصل ١٣ .

(٢) إن التمثالين اللذين ظنَّ « هردوت » أن قاعدة كل منهما هرم ، يقعان على مسيرة ٨ كيلو مترات إلى الشمال من مدينة ARSINOE ، ولسنا نعتقد أنهما يوم رآهما هردوت كانا — كما يقول — يتوسطان البحيرة . وقد عثر « بترى » على القاعدة فى القرن الماضى ، وكان ارتفاع التمثالين ١٢ م ، وكان جزءاها السفليان واضحين حتى أيام القرن السابع عشر . وعثر « بترى » أيضاً على شئ من حطام هذين الأثرين . ونحب أن نقرر آخر الأمر ؛ أن هردوت لم يكن كاذباً ، وإنما كان معذوراً حين رأى القاعدة هراً ، إذ أنه رآها من بُعد ، فهالكه ضخامتها .

انظر : (Brown, The Fayum & lake Moeris 1892) .

ثم (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889) .

من النيل بوساطة قناة (١) وينساب الماء من النيل إلى البحيرة مدة ستة أشهر ، ثم يرجع منها إلى النيل ثانية مدة ستة أشهر ، وعندما يخرج منها الماء في الأشهر الستة ، تجلب من الأسماك (٢) ما يُدرُّ يومياً على الخزانة الملكية (مبلغ) تالنت من الفضة ، وعندما يدخلها الماء يكون واردها عشرين مناً فحسب.

١٥٠ — وكذلك قال أهل البلاد : إن هذه البحيرة تنجى من ناحيتها الغربية إلى الأرض الداخلية بجنداء الجبل الذى يقع فوق ممفيس ، وتصب تحت الأرض في «السيرتيس» في ليبيا . ولما لم يقع بصرى في أى مكان على الرَّدِيم الناتج عن حفر البحيرة ، فقد شغلنى الأمر ، فسألت الذين يسكنون قريباً جداً من البحيرة أين يوجد الرَّدِيم الذى أخرج منها . فوضحوا لى بالقول أين تقل . فصدمتهم في سهولة ؛ لأننى كنت علمت بالسمع أن شيئاً مثل هذا حدث بالمدينة الآشورية «نينوى» (٣) ، إذ أن «اساردانا پالوس» (٤) ملك نينوى كان يملك أموالاً طائلة محفوظة في كنوز تحت الأرض ، وأن اللصوص فكروا في سرقها . فشرع هؤلاء في الجفر تحت الأرض ، مبتدئين من بيوتهم

(١) تلك هى القناة المعروفة اليوم باسم «بحر يوسف» الذى يفصل من النيل عند دبروط ثم يجري بالماء إلى واحة الفيوم . وأكبر الظن أن القناة القديمة كانت أوسع من قناة اليوم .

(٢) ليس غريباً أن تنسَى البحيرة بأسمائها ، وقد أشار إلى ذلك «ديودور» ، انظر . (Diod. I, 52) ، وإن كان قد أخطأ حين نسب إلى الملك «موريس» تخصيص إيراد السمك الخارج من هذه البحيرة لزينة زوجته ، وأغلب الظن أنه خلط بين هذا الملك وبين حكام الفرس الذين خصصوا إيراد بعض المدن لزينة أزواجهن .

(٣) نينوى : حاصمة آشور من عام ١٣٠٠ — ٦١٢ ق . م .

انظر : (هردوت ج ١ فصل ١٧٨) .

(٤) ملك من ملوك آشور ورد اسمه كالأتي في الخط المسبارى :

ASSUR-DAN-APLU . عاش في القرن السابع قبل الميلاد .

ومقدرين المسافة إلى القصر الملكي ، وكانوا كل ليلة يحملون التراب الناتج عن الحفر إلى نهر دجلة الذي ينساب بالقرب من «نينوى» حتى حققوا بغيتهم . ولقد سمعت أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث عند حفر البحيرة في مصر . إلا أنه لم يتم بالليل ؛ بل تم بالنهار . إذ كان المصريون يحملون التراب الذي يُخْرِجُونَهُ إلى النيل ، وكان النهر يأخذه معه ويبعثه حتماً .

١٥١ — واتبع الملوك الاثنا عشر العدل . وبعد مرور فترة من الزمن ، بينما كانوا يُقَرَّبُونَ في معبد هيفايستوس ، وفيما هم يزعمون سكب القربان في آخر أيام العيد ، أحضر لهم الكاهن الأكبر الأواني الذهبية التي اعتادوا استخدامها في سكب القربان . ولكنه أخطأ في العدد فأحضر إحدى عشرة آنية مع أنهم كانوا اثني عشر ملكاً . ولما لم يكن لا بسماتيك^(١) ، الذي كان يقف آخرهم ، إناء نزع خوذته وكانت من البرونز^(٢) ومدها ثم سكب بها القربان . وكان جميع الملوك الآخرين أيضاً يلبسون خوذات . وتصادف عندئذ أنهم كانوا يلبسونها . (ومعنى ذلك أنه) لم يجبل مطلقاً بخاطر «ابسماتيك» أي تفكير خيث عندما مد خوذته . ولكن الآخرين فكروا فيما فعله ، وفي الوحي الذي كان قد أنبأهم بأن الذي يسكب منهم القربان من إناء برونزي سيكون وحده ملك

(١) ابسماتيك الأول حكم بين عامي ٦٧٠ ، ٦١٦ ق . م . انظر : (الفصل رقم ١٥٧) .

(٢) لم تكن كافة النيجان التي نراها في الصور والرسوم على رءوس الفراعنة من المعدن . وليس باستبعد كذلك أن يكون في الأمر خلط وسوء فهم في تفسير كلمة برونز . انظر : (de Meulenaere ibd. p: 24 s. 99) .

مصر . ولما تذكروا النبوءة ، اعتبروا أنه من الظلم قتل « إسماتيك »
إذ اكتشفوا ، بعد سؤاله ، أنه أقدم على فعلته دون أى تفكير مقصود .
وقرروا إبعاده إلى المستنقعات^(١) بعد تجريده من الجزء الأكبر من سلطانه .
وعلى ألا ينادر المستنقعات ، وألا تكون له صلات مع باقى أقاليم مصر .

١٥٢ — وإسماتيك هذا كان قد فر فيما مضى أمام «شباكو» الأثيوبي
الذى قتل أباه « نيكوس »^(٢) ولجأ عندئذ إلى سورية . وعندما انسحب
الأثيوبي بسبب الحلم الذى رآه ، أزعج المصريون (أهل سايس) إسماتيك
الذى تولى الحكم بعد ذلك . وحدث لسوء حظه أن نفاه الملوك الأحد عشر
مرة ثانية إلى المستنقعات بسبب الخلوذة . ولما أحس أنهم امنهوا كرامته فكر فى
الانتقام من طردوه فأرسل إلى معبد «ليتو» فى مدينة «بوطو» حيث يوجد وحى
مصدق تمام التصديق عند المصريين^(٣) ، وجاء الوحى بأن الانتقام سياتى من
البحر عند ظهور قوم برونزين ، وداخله شك كبير فى محىء رجال برونزين
لمساعدته . ولكن بعد مضى وقت غير طويل شاء القضاء المحتوم أن يطوح
إلى مصر بنفر من الأيونيين والكاريين^(٤) ، كانوا قد أبحروا بغية السلب .

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٢ ، رقم ١٤٠) . المقصود هنا منخفضات الدلتا تحيط
بها القنوات أحيانا وتغطيها الأخوار أحيانا أخرى .

(٢) نحاو : والد أوسلف إسماتيك ، قتله الأثيوبيون عام ٦٦٣ ق . م .
انظر : (de Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn.) (Leuven 1951) .

(٣) انظر : (فصل ١٥٥) ، ثم انظر : (ماورد فى الفصل الثالث والثمانين) .
(٤) كان الكاريون أصلاً يحترفون القرصنة ، ثم أصبحوا بعد ذلك من
الجنود المرتزقين . وقد عُثِرَ بين نقوش معبد أبى سنبل على نصوص تدل أن
الجنود الكاريين قد باخوا أسوان تحت إمرة « إسماتيك » فعلاً .
انظر : (Wiedemann, Herodots II^{tes} Buch S. 592) .

ولما نزلوا إلى البر ، مدرعين بالبرونز ، ذهب أحد المصريين إلى المستنقعات إلى « إسماتيك » ، ولم يكن قد رأى من قبل رجالا مدرعين بالبرونز ، فأبلغ « إسماتيك » أن رجالا برونزيين قد وصلوا من البحر وأنهم ينهبون الأرض المنزرعة. فأدرك « إسماتيك » أن النبوءة قد تحققت وعمل على مصادقة الأيونيين والكاريين وإغرائهم بوعود سخية لينضموا إليه . فلما أقنعهم ، خلع الملوك بمساعدة هؤلاء المرتزقة والمصريين الذين رغبوا في تأييده .

١٥٣ — ولما تمت له السيادة على مصر كلها ، أقام « إسماتيك » في ممفيس رواقاً لهيفايستوس ، يتجه نحو الجنوب . وبنى لأيس (١) تجاه الرواق فناء حيث كان يطعم عندما يتجلى ، والفناء كله محاط بالأعمدة ومملوء بالصور (٢). وبدلاً من أن يقوم على أعمدة ، تحمله تماثيل ضخمة ، طول كل منها اثنتا عشرة ذراعاً . و« آيس » في اللغة اليونانية هو « إيافوس » (٣) .

١٥٤ — وأعطى « إسماتيك » الأيونيين والكاريين الذين ساعدوه أراضي ليسكنوها ، بعضها قبالة البعض (٤) يمر النيل في وسطها ، وتسمى المعسكرات (٥) ، منحهم هذه الأراضي ووفى لكل بما كان قد وعد به . كما أنه عهد إليهم بصبية مصريين ليتعلموا اللغة اليونانية . ومن هؤلاء الذين تعلموا انحدر التراجي (٦) الحاليون بمصر . وأقام الأيونيون والكاريون بهذه

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٩ ، رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٢) يعني الكتابة الهيروغليفية .

(٣) انظر : (ما جاء عن « إيافوس » في الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (Kees, Zur Innenpolitik der Saiten Dyn.)

(٥) انظر : (الفصل رقم ١١٢) .

(٦) انظر : (المقدمة ثم الفصل رقم ١٦٤) .

الأراضى وقتنا طويلا . وتقع بجانب البحر بعد مدينة « بوباسطيس » بقليل ، وعلى فرع النيل المسمى بالفرع اليلوزى ، وأخيراً هجرهم « أمازيس » من هذا المكان وأسكنهم « ممفيس » وجعلهم حرسه الخاص ؛ يتقى بهم المصريين . وبسكنى هؤلاء مصر وبفضل اتصال اليونانيين بهم عرفنا تماماً كل ما جرى بمصر ابتداء من حكم « إسماتيك » وما بعده . وهم أول من سكن مصر من الأجانب . ولقد بقيت حتى وقتنا هذا الأماكن التى كانوا يحفظون فيها سفنهم (١) . وبقياً مساكنهم موجودة فى الأراضى التى هاجروا منها . تلك كانت سبيل استيلاء « إسماتيك » على مصر .

١٥٥ — ذكرت فيما سبق وحى (٢) مصر مرات عديدة ، وسيدور حديثى عنه لأنه جدير بالكلام ؛ إن مهبط وحى مصر هو معبد « ليتو » ، المقام فى مدينة كبيرة على فرع النيل (٣) المسمى بالفرع السبينيى فى طريق صاعد فى النهر من البحر متجها إلى الداخل . وتدعى هذه المدينة التى يوجد بها الوحى « بوتو » كما سميتها من قبل (٤) . وفى مدينة « بوتو » هذه معبد لأبوللون وأرتميس . أما معبد ليتو (٥) الذى يوجد به الوحى فهو فى حد ذاته ضخمة وله صرح ارتفاعه عشرة أبواع (٦) وسأتكلم الآن عما أثار فى نفسى أشد العجب

(١) يقصد القواعد التى كانت تحفظ عليها السفن إذا ما أخرجوها من الماء ، ثم تدفع بعد ذلك بواسطتها إذا ما أرادوا إنزالها إلى الماء .

انظر : (Wiedemann, H. II^{tes} Buch S. 554) .

(٢) انظر : (فصل ٨٣ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر : (فصل ١٧ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (الفصول ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ثم ١٣٣) .

(٥) يقصد معبد « حتحور » .

(٦) أى نحو ٦٠ قدماً .

مما رأيت : يوجد داخل سور معبد «ليتو» محراب مصنوع من حجر واحد (١)، وهو متساوى الأبعاد من ناحية الارتفاع ومن ناحية الطول ، فكل منهما أربعون ذراعاً . والسقف الذى يغطيه عبارة عن حجر له إفريز بارز (ممك) أربع أذرع .

١٥٦ — إن هذا المحراب — من بين ما شاهدت في نطاق هذا المعبد — يثير في النفس منتهى العجب . ومن بين الأشياء التي تليه (في إثارة الدهشة) ، الجزيرة المسماة «خميس» (٢) وتوجد هذه في بحيرة عميقة واسعة (٣) بالقرب من معبد «بوتو» . ويسمىها المصريون الجزيرة الطافية . أما أنا فلم أرها طافية أو متحركة ؛ بل عندما سمعت بهذا ، أخذتني الدهشة . وفكرت فيما إذا كانت توجد حقاً بجزيرة طافية (٤) . ولكن مما لا شك فيه أن هذه الجزيرة معبداً عظيماً لأبولون وثلاثة هياكل . وينمو فيها نخيل متكاثف وأشجار

(١) يقصد ما نسميه الناووس ومثله كثير بين آثار المصريين .

(٢) ليست هذه نفس مدينة «خميس» التي ورد ذكرها في الفصل ٩١ . وإنما هذه كانت موجودة بالدلتا ، وأكبر الظن أن يكون اسمها مصرى قديم «خم» بمعنى «المقصورة» ، أو «القدس» ، وربما كانت الجزيرة قرية من «بوتو» . انظر : (J. Ball, 17) .

(٣) البحيرة التي يصفها هردوت بالعمق والاتساع قد تكون «بحيرة البرلس» التي كانت تتصل بالبحر يومئذ عن طريق الفرع السمندودى .

(٤) قد نرى في ذلك ما يدل على أن «هردوت» كان حريصاً كل الحرص على ألا يصدق كل ما كان يسمع . ولم يكن عليه من بأس أن هو صدق ذلك في سهولة ؛ ذلك لأنه يعرف من أساطير قومه اليونان أن هناك جزيرة طافية قالوا أن AELUS قد عاش فيها . انظر الحديث عن ذلك في : (Odys. X, 3) . ثم حديث الجزيرة المأثمة أيضاً في (Kees, G. G. S. 50) .

أخرى كثيرة ؛ بعضها يشمر وبعضها لا يشمر . ويؤكد المصريون أن الجزيرة طافية ، وبرددون هذه الرواية . لقد حدث في هذه الجزيرة — ولم تكن طافية فيما مضى — أن إحدى الآلهة الثمانية الأولى (١) ، « ليتو » التي كانت تسكن في مدينة « بوتو » ؛ حيث يوجد وجهها ذاك ؛ حدث في هذه الجزيرة أن تسلمت « ليتو » من « إيزيس » « أبوللون » وديعة . وأتقنت حياته بأن خبأته في الجزيرة التي تدعى حالياً بالجزيرة الطافية . حدث ذلك وقما ذهب « تيفون » يبحث في كل مكان رغبة منه في العثور على ابن « أزوريس » (٢) . (يقول المصريون إن « أبوللون » و « أرتيمس » هما من ولد « ديونيسوس » و « إيزيس » وأن « ليتو » كانت مربيتهما ومنقذتهما . وفي اللغة المصرية ، « أبوللون » هو « حورس » و « ديميتير » هي « إيزيس » و « أرتيمس » هي « بوباسطيس » (٣) . وعن هذه الرواية — وليس عن أى مصدر آخر — أخذ « أيسخيلوس » ابن « أوفوريون » — وحده من بين الشعراء السابقين — أخذ ما سأقول : جعل « أرتيمس » ابنة « ديميتير » . ومن أجل هذا ، صارت الجزيرة طافية . تلك هي رواية المصريين .

١٥٧ — وحكم إسماتيك مصر أربعاً وخمسين سنة (٤) ؛ استمر أثناء تسع وعشرين منها محاصراً لأزوتوس (٥) حتى استولى عليها ، وهي مدينة

(١) انظر : (الفصل رقم ٤٣ من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : (الفصلين رقم ٥٩ ، رقم ١٤٤ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب) .

(٤) ذلك صحيح فقد حكم إسماتيك من ٦٦٣ إلى ٦٠٩ ق . م .

(٥) أزوتوس AZOTUS « أشدود » مدينة قديمة موقعها في المنطقة الحصينة

المتدة على الساحل بين « غزة » و « الكرمل » . وقد يكون موقعها قريباً من « عسقلان » . تردد ذكرها في التوراة ، وكانت مركزاً من المراكز =

كبيرة بسوريا . وقد صمدت « أزوتوس » هذه أمام الحصار من بين كل المدن التي نعرفها أطول مدة .

١٥٨ — وأنجب « إسماتيك » ولداً ، (هو) « نينخوس »^(١) ، حكم مصر . وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحر « أروتري » ، والتي أتم حفرها من بعده (دارا) الفارسي^(٢) . وطول القناة يساوي مدى إبحار

== الحرية الهامة في الشرق القريب عامة وبالنسبة لسياسة مصر يومئذ بخاصة . وقد حاصرها « إسماتيك » زمناً طويلاً ، وكان عظيم الأمل في استرداد أملاك مصر في غرب آسية ، ثم اضطر أخيراً إلى فك الحصار عنها ليعود إلى بلاده ويحميها من ذلك الخطر الداهم الذي كان يهدد حدودها بين أيدي « البسكيثيين » الذين أخذوا يجتاحون بلاد الشرق الأدنى حتى قربوا من حدود مصر . انظر : Breasted, *Gesch. Aegypten* S. 307; de Meulenaere, H. p. 30 (١) NEKOS : فرعون مصر « نحاو » الذي تردد اسمه في التوراة كما ورد على كثير من آثار عهده بين عامي ٦١٠ ، ٥٩٥ ق . م .

(٢) كانت الملاحة في البحر الأحمر من أشق الأمور على المصريين في ذلك العهد وهي ما زالت كذلك إن قارناها بالملاحة في غيره من البحار وبخاصة إذا كانت بالشراع . انظر : (Koester, Z. Ae. S. 58, S. 125 f). والغالب أن ذلك كان من دواعي التفكير في شق قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق « وادي الطميلات » ، وإن كنا لا نكاد نجد في تراث المصريين ما يشير إلى ذلك ؛ لا في أيام الدولة القديمة ، ولا في أيام الدولة الوسطى ؛ وإنما بات أمر ذلك يشغل بال المصريين منذ أيام الدولة الحديثة ؛ فالرسوم التي تمثل مناظر الأسطول المصري في رحلته إلى بلاد « بنط » تشير إلى اختراقه مياه النيل ، وفي ذلك ما يدل على وجود قناة تصل النيل بالبحر الأحمر . ومن الجائز أن يكون استخدام تلك القناة قد بطل في عهد الرعامسة . ولما كانت أيام الأسرة السادسة والعشرين أخذ « نحاو » في حفر القناة التي يتحدث عنها « هردوت » والتي أتم حفرها من بعده الحاكم الفارسيان « داريوس » و « إجزركسيس » (Ξέρξης) ، إلا أنها لم تُعمّر طويلاً .

أربعة أيام ، وقد حفرت عريضة ، حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنباً إلى جنب (١). ويؤتى إليها بالماء من النيل ، منصرفاً من مكان فوق مدينة « بوباسطيس » بقليل ، بالقرب من المدينة العربية « باتوموس » (٢) ، وتنتهى إلى بحر « أروترى » . حفر منها الجزء الذى فى السهل المصرى من جانب بلاد العرب ، ويتصل بهذا الجانب إلى الشمال من السهل ، سلسلة الجبال التى تواجه « ممفيس » (٣) ، والتى توجد بها المحاجر . وعلى ذلك فالقناة تجري بمخاء أسفل الجبل ، ممتدة من الغرب إلى الشرق (٤) ثم تسير فى منحدرات متّجهة من الجبل نحو الجنوب ، ونحو مهب الريح الجنوبية حتى تبلغ الخليج

(١) إذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أن القناة قد كانت تستخدم فى أغراض حربية ؛ ذلك لأن السفن ذوات الصفوف الثلاثة من المجاديف كانت سفناً حربية . انظر : (فصل ١٥٩ من هذا الكتاب) .

(٢) PATUMOS : مدينة مصرية قديمة ، ورد ذكرها فى التوراة ؛ حيث جاء فى الإصحاح الأول من سفر الخروج أن بنى إسرائيل قد بنوا لفرعون مخازن مدينتى « فيثوم » و « رمسيس » . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد موقع المدينتين وطال الجدل حول ذلك زمناً وبخاصة حول موقع الثانية منهما ؛ وإن كانوا يجمعون على أنها فى شرق الدلتا وعلى بعد قريب من « فاقوس » . فأما « فيثوم » فقد جعلها بعضهم عند « تل المسخوطة » . انظر : (I. Ball, P. 15) .

ثم (Breasted, Gesch. Aegypten S. 248) . وأحدث من كتب عنها هو المهندس « على شافعى » فى المقال الذى أخرجه حديثاً حول هذا الموضوع . انظر : (Historical Notes on the Pelusiatic Branch, the Red sea Canal & the Route of the Exodus, Bul. d. l. soc. Geogr. d' Egypte XVI) .

(٣) انظر (الفصل رقم ٤٨ هامش رقم ١)

(٤) يعنى : إلى البحر الأحمر

العربي . وهناك ، حيث يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالي (١) إلى البحر الجنوبي — وهذا نفسه يسمى بحر «أروتري» — من جبل «كاسيوس» (٢) ، الحد الفاصل بين مصر وسورية ، تبلغ المسافة من هذا المكان حتى الخليج العربي ألف استاد . هذا هو أقصر طريق . أما القناة فهي أطول من ذلك بكثير بقدر ما هي أكثر تعرجاً . وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها في عهد «نيخوس» مئة وعشرون ألف عامل (٣) . وتوقف «نيخوس» في منتصف عملية الحفر لأن نبؤة عاقته بقولها أنه يعمل لصالح البربر ، والمصريون يسمون كل من لا يتكلمون لغتهم بربرا (٤) .

(١) أى ، من البحر الأبيض

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦)

(٣) ليس عجيباً أن يهلك مثل هذا العدد من الرجال في حفر تلك القناة . وإن كان رجال الأعمال من المصريين أيام الفراعنة لم يذكروا في كافة مآقموها به من عمل — في المحاجر والمناجم ؛ بل ولا في أعمال البناء ، وإنشاء المرافق العامة ، وما اقتضاه كل ذلك من جهود شاقة — عدد من فقدوا من العمال . ولن يكون في سكوتهم هذا ما يدل على أن أعمالهم قد تمت في سلام .

انظر : ما كتبه Reg. Engelbach عن مسألة أسوان عام ١٩٢٢) .

على أن أيسر النظر في خسارة مصر فيمن فقدت من رجالها أيام حفر قناة السويس ، وقناة الحمودية ، وغير ذلك من مرافق الري ، لبدلنا على أن «هردوت» لم يبالغ في تحديد عدد العمال الذين هلكوا أثناء العمل في القناة المشار إليها .

(٤) ذلك تعبير غير مصرى ؛ وإنما هو إغريقي استعمله الإغريق وصفا لكل من لا يتكلم بلسانهم ؛ فالبربري عندهم هو الأجنبي بصفة عامة . (انظر الفصل رقم ١٦٧ من هذا الكتاب) .

١٥٩ — ولما توقّف « نيكوس » عن حفر القناة ، وجّه اهتمامه نحو الخدمة العسكرية ، فبنى سفناً ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف ؛ بعضها للبحر الشمالى، وبعضها الآخر فى الخليج العربى فى بحر أروترى . وما زال من الممكن ، حتى الآن ، رؤية الأماكن التى كانت تحفظ بها . وكان يستخدم هذه السفن وقت الحاجة . واشتبك برّاً فى معركة مع السوريين^(١) عند « ماجدولوس »^(٢) ، فانتصر فيها . وبعد هذه الموقعة ، استولى على « كاديّيس »^(٣) ، وهى مدينة كبيرة فى سورية . وأرسل إلى « البرانخيديين » فى « Milet »^(٤) الملابس التى كان

(١) ينبغى أن نعرف هنا أن المقصود بالسوريين لم يكونوا سكان سورية وحسب ؛ بل يجب أن نطوى تحتهم أهل فلسطين وغيرهم من بعض سكان آسية الدنيا الذين شملهم ذلك الهجوم الذى قام به « نخاو » ، والذى وردت أخباره فى التوراة . وكانت وجهة الحملة شطر القوّات الآشورية عبر فلسطين ؛ حيث التقى « نخاو » يوشع JOSIAS ملك اليهود . وكان قد خرج للقائه بغية صده ، إلا أنه سقط عند « مجدو » وعلى بعد قريب من « جبل الكرمل » . هنالك أصبحت السيادة لصاحب مصر المتظفر على جميع تلك البقاع بما فيها « أورشليم » . وهنالك واصل « نخاو » زحفه مزهواً بالنصر إلى وادى النهرين ؛ حيث لقيه صاحب آشور « نبوكاذ نصر » على مقربة من الفرات فهزمه .

(٢) ماجدولوس MAGDOLUS : هى « مجدو » عند السهل الذى اخترقه المصريون إلى بابل وآشور والذى يعرف اليوم باسم « مرج ابن طامر » .

(٣) كاديّيس CADYTES (المدينة المقدسة) ، وهى « أورشليم » وتعرف اليوم باسم « القدس » . ويرى بعضهم أنها « غزة » . انظر :

(Strab. XIII, 2. 3. p. 617) ثم انظر : (de Meulenaere, H. 152)

ثم « Wiedemann, H. 11 Buch. 566 » ونحن نرجح الرأى الأخير ، ذلك لأن مكانها على شاطئ البحر .

(٤) كان « البرانخيديون » يشكلون طائفة مرموقة من الكهّان الذين اشتهروا بالحكمة ، وكانوا يخدمون فى معابد « أبولون » . وظلوا محتفظين بمكاتهم تلك حتى أيام العصر الرومانى .

يرتديها عند قيامه بهذه الأعمال ، ووهيها « لأبوللون » (١) . وبعد حكم بلغ في مجموعه ست عشرة سنة (٢) ، مات تاركاً السلطة لابنه « بساميس » (٣) .

١٦٠ — وأثناء حكم « بساميس » هذا لمصر ، جاء سفراء من الإيليايين (٤) ، يتباهون بأن نظام المباراة الأولمبية عندهم أعدل وأحسن النظم التي عند الناس أجمعين (٥) ، وكانوا يظنون أن المصريين — وهم أحكم البشر — لن يضيفوا باختراعهم أى شئ يقارن بذلك . وعندما وصل الإيليايون إلى مصر ، أعلنوا أسباب مجيئهم . عندئذ استدعى الملك من يقال إنهم أحكم المصريين . ولما اجتمع المصريون ، عرفوا من كلام « الإيليايين » بكل الأنظمة المعمول بها عندهم بشأن المباراة . وبعد أن شرح الإيليايون كل ما عندهم ، قالوا : إنهم جاءوا ليعلموا ما إذا كان في مقدور المصريين أن يكتشفوا ما هو أعدل منها . وتشاور المصريون وسألوا الإيليايين عما إذا كان مواطنوهم يشتركون في المباراة . فأجاب هؤلاء بأنه يسمح في المباراة بكل من يشاء من الإيليايين ومن باقى اليونانيين على حد سواء فقال

(١) فى تلك الإشارة — إن صحت — مايدل على حسن العلاقات بين المصريين والإغريق ، وكانت قد بدأت منذ أيام « إيسماتيك » (انظر : الفصل رقم ١٥٤) ثم (هردوت ج ١ الفصل رقم ٩٢) .
(٢) أى من عام ٦٠٩ إلى عام ٥٩٣ ق.م .

(٣) « بساميس » PSAMMIS : هو « إيسماتيك الثانى » وأكبر الظن أن صيغة الاسم على هذا النحو منشؤها خطأ فى النقل بالقلم اليونانى عن الأصل المصرى . انظر : (Wiedemann, H. II ^{tes} Buch, S. 568)

(٤) ذلك مخالف لما يقرره « ديودور الصقلى » ، الذى ذكر أن مجيء أولئك السفراء قد كان أيام الملك « أمازيس » انظر : (Diod. 195)

(٥) انظر : (الفصل رقم ٩٢ من هذا الكتاب) .
ثم (Plut. Mor., 160 c. 215 f; Athénée 350)

المصريون إنهم بوضعهم هذه القاعدة قد اخفقوا تماماً في تحقيق العدل، إذ ليس من المحتمل مطلقاً ألاّ يتحيزوا لمواطنهم عندما يتبارى ويظلموا الأجنبي . ولكن إذا شاءوا أن يطبقوا العدل — وكان ذلك سبب مجيئهم إلى مصر — فليأمرُوا أن تقام المسابقة بين المتبارين من الأجانب . وألاًّ يسمحوا لإيلياى أبداً بالاشتراك فيها . ذلك ما اقترحه المصريون على الإيليايين .

١٦١ — حكم « پساميس » مصر ست سنوات (١) فقط ، وقام بحملة على « أثيوبيه » (٢) . ثم توفى بعد ذلك مباشرة وخلفه ابنه « أپريس » (٣) . وكان هذا — بعد جده الثانى « ايسماتيك » — أسعد الملوك السابقين ، حكم خمسة وعشرين عاماً (٤) . سير أثناءها جيشاً إلى « صيدا » . وحارب ملك « صور » بحراً ، وكان سوء الحظ قد أصابه كما سأفصّل فى رواياتى اللببية (٥) . أما الآن فسأذكره باختصار : عندما أرسل جيشاً عظيماً ضد السكورينائيين أصابه فشل ذريع ، فانتبه المصريون لذلك وثاروا ضده ؛ إذ ظنوا أنه قد أرسل بهم ، قصداً ، إلى هلاك محقق ليصيبهم الدمار . وليحكم هو بنفسه بقية المصريين فى أمن أكثر ثباتاً . فسخط من ذلك الذين عادوا ، وأصدقاء الذين هلكوا وثاروا جهاً .

(١) يعنى من ٥٩٣/٥٩٤ حتى ٥٨٨ ق.م . ومن هذا التاريخ حتى عام ٥٧٠ حكم « أپريس » . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 310-313)
(٢) وفى حملتهم هذه سجلوا أسماءهم على تماثيل « معبد أبى سنبل » (انظر الفصل رقم ١٥٢ من هذا الكتاب) .

(٣) اسم « أپريس » فى اللسان المصرى « واح — إيب — رع » .

(٤) لم يبلغ ٢٥ عاماً ولم يعد ٢٢ عاماً .

(٥) انظر : (هردوت ج ٤ — الفصل رقم ١٥٩) .

١٦٢ — ولما علم «أبريس» بذلك أرسل إليهم «أمازيس» ليحدثهم ، ويتوصل إليهم ليكفوا عن ثورتهم ، فلما وصل هذا عندهم ، حاول أن يمنعهم عن عمل ذلك . وبينما هو يتحدث إليهم وضع أحد المصريين — وقد وقف وراءه — على رأسه خوذة ، وقال : إنه وضعها وليجعل منه ملكاً . ولم يكن «أمازيس» — كما أظهر — غير راغب فيما حدث . إذ بعد أن نصبه الثوار المصريون ملكاً ، بدأ يعد حملة للسير ضد «أبريس» . وعندما عرف «أبريس» بذلك أوفد إلى «أمازيس» رجلاً محترماً من أفراد حاشيته المصريين يدعى باتاريبيس وأمره أن يحضر له «أمازيس» حياً . ولما وصل «باتاريبيس» عند «أمازيس» ناداه وتصادف أن كان «أمازيس» ممتطياً جواده ، فنهض وأخرج ربحاً وأمره أن يأخذه إلى «أبريس» . وبالرغم من ذلك ، توسل إليه «باتاريبيس» أن يذهب إلى الملك الذي أرسل في طلبه ؛ فأجابه «أمازيس» بأنه كان يستعد لعمل ذلك منذ وقت بعيد ، وليس لأبريس أن يشكو من ذلك لأنه سيحضر بنفسه وسيحضر معه آخرين . ومن ذلك الكلام ، ومما رأى «باتاريبيس» من استعداداته ، فطن إلى قصده ، فعاد مسرعاً رغبة في أن يوضح للملك ، بأقصى سرعة ممكنة ، ما يجري . فلما وصل عند «أبريس» — دون أن يحضر «أمازيس» — لم يعط الملك نفسه فرصة للتروى ؛ بل استولى عليه الغضب وأمر بقطع أذنه وجذع أنفه . وعندما شاهد باقي المصريين الذين كانوا يخلصون له حتى ذلك الوقت ؛ ما يعاينه أعظمهم مكانة من الامتهان ، على تلك الصورة القاسية ، لم يترثوا لحظة واحدة في الانفصال والانضمام إلى الآخرين وتقديم أنفسهم إلى «أمازيس» .

١٦٣ — وعندما علم «أبريس» بذلك أيضاً ، سلّح جنوده المرتزقة ، وقادهم ضد المصريين . وكان معه ثلاثون ألف جندي مرتزق من الكاريين والأبونيين^(١)

(١) انظر الفصلين (١٥٢ ، ١٥٤ من هذا الكتاب) .

وكان قصره الملكي في مدينة « سايس » ، ضخماً ، جديراً بالشاهدة . وكان أن سار أتباع « أبريس » ضد المصريين وأتباع « أمازيس » ضد الأجانب والتقى الجمعان عند مدينة « مومفيس » (١) ، وكادا يلتحان ليظهرا مقدرتهما .

١٦٤ — وتوجد سبع طبقات (٢) من المصريين تسمى : طبقة الكهنة ، وطبقة المحاربين ، ورعاة البقر ، ورعاة الخنازير ، والتجار ، والمترجمين ، والملاحين . تلك عدة طبقات المصريين . وأسمائها ناشئة من حرفها ؛ المحاربون يسمون

(١) مومفيس . يظن J. Ball أنها كانت في الغالب في المكان المعروف اليوم باسم « كوم أبو يلدو » انظر : (J. Ball, p. 172) ويرى غيره أنها كانت في المكان المعروف باسم « كوم الحصن » .

انظر : (de Meulenaere, S. 153)

(٢) نلاحظ على ذلك أمرين : الأول ؛ أن هردوت استعمل لفظ γένεα وهو نفس اللفظ التي استخدمه للدلالة على قبائل الميديين والفرس ؛ في حين أنه يتحدث هنا عن طبقات الشعب من حيث العمل والحرفة لا من حيث الجنس والقبيلة . والثاني ؛ أن الكتاب القدماء لم يتفقوا على تحديد عدد تلك الطبقات ؛ إذ جعلها بعضهم ثلاثاً ، وبعضهم الآخر ستاً ؛ كما جعلها آخرون سبعة . وأرقى تلك الطبقات اثنتان : طبقة الكهنة ؛ وكانوا أغنى الطبقات مالا ، وأعلاها قدراً ؛ وأقواها نفوذاً ، وأعظمها حظاً من الثقافة . ثم طبقة المحاربين (وهم الذين يسميهم هردوت في الفصل ١٦٦ كلاسيريس) ؛ وكانوا غالباً في الدلتا ذات الأبواب المفتوحة ليدفعوا عنها إغارة المغيرين . وكانوا يُقْطَعُونَ أرضاً يرتزقون من غلاتها أيام السلم ، كما كانوا يعملون في خدمة الملك .

ثم يأتي من بعد ذلك بقية الطبقات مثل : رعاة البقر ، ورعاة الخنازير ؛ ويراى « ديودور » طبقة واحدة . وإن كان رعاة الخنازير قد كانوا من أحط الطبقات . انظر : (Diod, I, 73, 2.) . وهناك « طبقة التجار » ، كما أن « καπηλαιοι » ، ثم « طبقة التراجة » ، وكان حظ هذه الطبقة الأخيرة من الرزق يتوقف على ظروف =

« كالاسيريس »^(١) و « هرموتويس »^(٢) . وهم من المقاطعات التالية لأن مصر كلها مقسمة إلى مقاطعات .

١٦٥ — (مقاطعات) الهرموتويس كالآتى : بوسيريس ، وساييس ، وخنيس ، وباريميس ، ومقاطعة الجزيرة التي تسمى « بروسوبينيس » ، ونصف نائو^(٣) . فالهرموتويس إذاً من هذه المقاطعات وكان عددهم عندما بلغ أقصاه ، مئة وستين ألفاً . ولم يتعلم أى واحد منهم حرفة على الإطلاق ، ولكنهم مُخصَّصون للجندية .

١٦٦ — وهذه بدورها مقاطعات « الكلاسيريس » : طيبة ، وبوبسطيس ، وأفنيس ، وتانيس ، ومنديس ، وسبينيتوس ، وأثرييس ، وفارباينيس ، وثنويس ، وأنوفيس ، وأنوسيس ، ومويكفوريس . (هذه المقاطعات تقع في جزيرة تجاه مدينة « بوبسطيس »)^(٤) . تلك مقاطعات

= مصر من حيث علاقاتها بالبلاد الأخرى ، وفتح الأبواب في وجوه السائحين . وأخيراً رجال الملاحة وطبقة الزراعة (عمال الفلاحة) . ونلاحظ أن هذا التخميد — على اختلاف الآراء فيه — لا يمكن أن يكون مضبوطاً ، إذ ينبغي أن يكون أكثر من ذلك عدداً .

(١) انظر الحديث عن ذلك في الهامش رقم ١ من صفحة ٢٩٩ .

(٢) أرجع Spiegelberg هذه الكلمة إلى أصلها المصرى « رم (ة) حت (ر) »

ومعناها « فارس » .

(٣) Naθw تقع — أغلب الظن — في شرق الدلتا بين الفرعين

البوصيرى والبوبسطى . انظر : (Wiedemann, H. II^{tes} Buch, S. 575)

(٤) كل هذه المقاطعات — فيما عدا « طيبة » — كانت في الدلتا . فأما عن

« بوبسطيس » فانظر (الفصل رقم ٦٠) . وعن « أفنيس » انظر : J. Ball ,

فأما « تانيس » هي « صان الحجر » و « منديس » هي « تل الربعة »

و « سبينيتوس » هي « ممنود » و « أثرييس » هي « تل أثريب » قرب بنها .

و « فارباينيس » هي « هوريط » شمال شرقى الزقازيق ، و « ثنويس » هي

« ثنى الأمديد » و « أنوفيس » هي « تل بلال » إلى الجنوب الغربى من

« دكرنس » . أما عن « أنوسيس » فانظر (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب) .

« الكالاسيريس »^(١) . وكان عددهم عندما بلغ أقصاه مئتين وخمسين ألف رجل . ولا يسمح لهم بممارسة أية حرفة ؛ ولكنهم يحترفون الجندية فقط ؛ يتوارثها الولد عن أبيه .

١٦٧ — وليس في مقدورى أن أقرر بدقة ما إذا كان اليونانيون قد تعلموا هذا من المصريين أيضاً ؛ إذ أرى أن « التراقيين » و « الأسكيثيين »^(٢) و « الفرس » و « الليديين » وكل البرابرة^(٣) تقريباً ينظرون إلى المواطنين الذين يتعلمون حرفاً ؛ إليهم وإلى أولادهم ؛ بتقدير أقل من تقديرهم للآخرين . أما الذين يتجنبون المهن اليدوية — وبالذات الذين يتخصصون في الجندية — فيعدونهم نبلاء . وعلى كل لقد تعلم اليونانيون كل هذا وبخاصة

(١) *Kalassiris* : أولئك هم طبقة المحازين . وقد عرض العالم الألماني Spiegelberg لتفسير هذا اللفظ ، وإرجاعه إلى أصل مصرى هو « خار — شرى » ومعناه « شاب أسبوى » انظر : (Spiegelberg, Mumienetiketten 1901) كما حاول العالم نفسه أن يرجعه إلى أصل نوبى هو Kar - gar بمعنى « ابن » انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 87 - 90) .

ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون أصل هذه الكلمة فيما لدينا من الألفاظ القبطية الآتية *σαλαυρις* بمعنى « الرجل القسوى الأبد » . انظر : (Crum p. 813) ، ثم *ζερωνη* : *ζερωνη* : *ζερωνη* بمعنى « البافع » . فإذا صح ذلك ، فإن كلا المعنيين يلائم ما ينبغي أن يكون عليه أهل هذه الطبقة ، ثم ما ينبغي لهم من صفات .

(٢) *Scythia* انظر : (Rawlinson, Vol. III; Map to illustrate the Scythia).

(٣) انظر كيف يسمى « هردوت » كل من عدا قومه « برابرة » ؛ وتلك كانت عادة الإغريق على كل حال ؛ بل عادة غيرهم من الأمم الكبرى في القديم والحديث أيضاً ، (انظر حديثنا عن ذلك في الفصل الثامن والتسعين بعد المئة من هذا الكتاب ثم ما سبق ذلك ص ٥٩ هامش ٣) .

« اللاكيدونيون » . أما « الكورنثيون » فهم أقل من يزدري الصناعات (١)

١٦٨ — وكان المحاربون (٢) وحدهم من بين المصريين — ما عدا الكهنة — (٣) يمنحون هذه الامتيازات ؛ يوهب كل منهم اثني عشر فدانا معفاة من الضرائب . والفدان (٤) مربع طول كل ضلع من أضلاعه مئة ذراع مصري (٥) . والذراع المصري يساوى الذراع « الساموسى » (٦) . وكان الجميع

(١) الواقع أن هذه الظاهرة كانت معروفة عند أكثر من عرفنا من الأمم القديمة ؛ إذ لم يكن لأهل الحرف والصناعات اليدوية كثير من الاحترام ؛ هكذا كانت الحال عند المصريين من آل فرعون (أنظر فى موكب الشمس ج ٢ . ص ١٦٠ وما بعدها) . وكذلك كان الأمر عند الإغريق ؛ فلم يكن يسمح للأسيوطى الأصيل مثلاً أن يزاول عملاً يدوياً ، أو أن يعمل فى فلاحه الأرض . فإذا شذت كورنته عن هذا السلوك ؛ فينبغى أن يكون لمركزها التجارى والصناعى أثر فى ذلك ؛ إذ لم يكن لأهلها من عمل فى غير ميدانى التجارة والصناعة . فأما بقية بلاد الإغريق فكانت تحقر الحرف اليدوية ؛ لا يعمل فيها عندهم غير العبيد ، وذلك أمر إن دل على شيء ، فإنما يدل على جهل ، وغرور ، وضيق أفق . ولو قد فكر المفرورون يومئذ أن ما تيسر لهم من متاع فى الحياة الدنيا قد كان من عمل أيدى أولئك الصناع والزراع وبقية أصحاب الحرف ؛ أقول لو فكروا فى ذلك قليلاً ؛ إذا لما سلكوا مثل هذا المسلك البغيض ، ولرفعوا كثيراً من قدر العمال وأصحاب الحرف .

(٢) أنظر الفصول رقم ١٦٥ ، رقم ١٦٦ ، ثم رقم ١٦٧ .

(٣) أنظر الفصل ٣٧ .

(٤) كانت مساحة الفدان المصرى القديم حوالى ٢١ ١٥ ط ، أى أن حظ الجندى

من ملكية الأرض قد كان حوالى ٧ أفدنة بحسابنا اليوم .

(٥) الذراع المصرى يساوى ٥٢٣ مليمترا .

(٦) كان الذراع الساموسى فى الغالب يختلف عن الذراع اليونانى ، وأكبر

الظن أنه كان لدى اليونان بمثابة ذراع دولى بالنسبة لحوض البحر الأبيض ، وذلك نظراً لمكانة « ساموس » فى ميدانى البدل والتجارة .

يتمتعون بهذا الامتياز . كما كانوا يحظون بالامتيازات التالية بالدور الذى لا يصيبهم إلا مرة واحدة : كان حرس الملك يتكون كل عام من ألف من « السكالا سيريس » وألف أخرى من « الهرموتويس » . وكان هؤلاء يُمنحون امتيازات أخرى بالإضافة إلى الأرض ؛ فلكل فرد فى اليوم خمسة أمان (١) من الخنطة المحمصة . وله مَنان من لحم البقر ، وأربعة أقداح من النبيذ . ذلك ما كان يعطى لأفراد الحرس الملكى بالتتالى .

١٦٩ — عندما وصل « أبريس » على رأس المرتزقة « وأمازيس » على رأس المصريين جميعاً ؛ عندما وصلا إلى مدينة « مومفيس » ، اشتبكا فى معركة . ورغم استبسال الأجانب فى القتال ، فإنهم هُزموا لأن عددهم كان يقل كثيراً عن عدد خصومهم . ويقال إن « أبريس » كان يظن أن أى إله لا يستطيع تحويله عن الملك ؛ لاعتقاده بأن سلطانه قائم على أساس راسخ . ولكنه عندما التحم فى المعركة ، غلبَ على أمره ، وأخذَ حياءً ، وسبق إلى مدينة « سايس » ؛ إلى القصر الذى كان يملكه فيما سبق ، والذى أصبح الآن المقر الملكى لأمازيس . وخلال فترة من الزمن كان يطعم هناك . وكان « أمازيس » يعامله معاملة حسنة . ولكن فى نهاية الأمر عندما لام المصريون « أمازيس » لأنه لا يعمل بالعدل ؛ حين يعول أعدائهم وأعدائه ، أسلمه

(١) أى ما بين أربعة وخمسة أرتال . والمَنّ مكيال من مكاييل المصريين القدماء كانوا يكيلون به النبيذ والعسل وغيرها .

(أنظر : Wiedemann, Herodot's II^{tes} Buch s. 578)

(Gardiner, Egyptian Grammar, 3^d Edit. § 266.) ثم

«أمازيس» لذلك إلى المصريين الذين خنقوه^(١) ثم دفنوه في مقبرة آبائه. وهذه توجد في «معبد آثينا»^(٢) ، وتقرب جداً من المحراب الذي يقع على يسار الداخل . ولقد دُفِنَ أهل «سايس» في داخل المعبد كلّ الملوك الذين أصلهم من هذه المقاطعة^(٣) . ومع أن قبر «أمازيس» أبعد عن المحراب من مقبرة «أبريس» وأسلافه إلا أنه موجود أيضاً في ساحة المعبد . وهذه الساحة عبارة عن رواق من الحجر واسع ومزدان بأعمدة تحاكي النخيل ، وبضروب أخرى من الزينة باهظة التكاليف . وبداخل هذا الرواق ، غرفتان لهما بابان ، توجد بهما المقبرة .

١٧٠ — ويوجد أيضاً بسايس في حرم معبد «أثينا» قبر من لا يحلّ لي ذكر اسمه في هذا الشأن^(٤) . والقبر موجود وراء الهيكل . ويمتد محاذياً لكل جدار المعبد . وفي حرم المعبد تقوم أيضاً مسلتان عظيمتان من الحجر ، توجد بجوارهما بحيرة مزخرفة ومزينة بحافة من الحجر ، متقنة الصنع على شكل

(١) هذا النوع البشع من القتل عُرفَ عند الفرس بين ألوان العذاب. ومن قبل روى هردوت مثل ذلك ونسبه إلى المصريين في القصة التي وراها عن «نيوكريس» ونحن نعتقد أنه حين فعل ذلك كان متأثراً بالروايات الفارسية (انظر الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : الفصل رقم ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) انظر : الفصل رقم ٦٢ من هذا الكتاب ؛ حيث كان الناس في زمان «هردوت» يقولون إن الشهيد «أزوريس» قد دفن في «سايس» . فأما دفن الملوك والأمراء في المعابد ، وإن يكن ذلك أمراً غير مألوف قبل هذا العصر المتأخر . إلا أنه غير مستبعد على كل حال . وأكبر الظن أنه أتيح في بعض الحالات كما وقع في «سان الحجر» «وميت رهينة» (= ممفيس)

(٤) يقصد كدابه «أزوريس» بطبيعة الحال (انظر الفصول رقم ٦١ ، ١٣٨ ، ٨٦)

دائري^(١) . وحجمها — فيما بدا لي — كحجم بحيرة « ديلوس » التي تدعى
بالبحيرة المستديرة^(٢) .

١٧١ — وفي هذه البحيرة ، تُقدَّم ليلاً الاستعراضات التي تُمثل مصيره
المحزن^(٣) التي يسميها المصريون « أسراراً »^(٤) . ومع أنني أعلم بتفاصيل
ما يدور بكل منها إلا أنني ألزم الصمت بصدها . كذلك فيما يختص بعيد
« ديميتير » الذي يسميه اليونانيون ثسموفوريا^(٥) ، فلن ألفت بشأنه حرفاً

(١) الغالب أنها كانت في « صا الحجر » ، وأن بعض آثار منها قد بقيت حتى
العصر الحديث . ولكنها كانت أغلب الظن على هيئة نصف الدائرة .

(٢) يقال إن في هذه الجزيرة كان مولد « أبوللون » (انظر :
Waddell, H. p. 253)

(٣) يعنى « أزوريس » الذي صمغ أنه دُفِنَ في « سايس » ، وكانوا يحتفلون
بذكرى مصرعه في المكان الذي خالوا أنه دفن فيه . وكانوا يمثلون في احتفالهم
هذا مأساة الشهيد تمثيلاً واضحاً . وإذا صح كل هذا ، فلا نجد ما يمنعنا من تصديق
ما يقال من أن الإغريق قد اتخذوا من تلك المأساة مثلاً لمأساة « ديونيسوس »
(٤) يعنى « بالأسرار » ما كان يجري في ذلك الاحتفال ؛ إذ يقال إن القوم
كانوا يأتون بكاهن فيمصبون عينيه ، ثم يقودونه على الطريق إلى معبد « إيزيس »
ومن أمامه اثنتان من « بنات آوى » كانا يعودان به بعد ذلك .

انظر : (Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne p. 287 ff)
ثم (Erman, Relig. d. Aeg. S. 335)

(٥) يزعم هردوت أن أصل هذا الاحتفال مصرى ، وأن أمره قد ذاع في
أكثر بلاد « الهيلوبونيز » ، ثم في « أثينا » من بعد ذلك . وكان يقع في ثلاثة أيام
من فصل الخريف ، وكان المحتفلون به من النساء ؛ وذلك تقديساً للمعبودة « ديميتير »

انظر : (Erman, ibd.)

إلا ما تبيح الشريعة الإلهية قوله عنه : إن بنات داناؤس هن اللائي تqlن هذا العيد من مصر وعلمنه النسوة البيلاسيات . ولكن عندما اضطر الدوريون سكّان الپيلوپونيز كلها إلى الهجرة ، اختفى العيد ولم يحتفظ به سوى الأركاديين وحدهم ، وهم الذين بقوا من الپيلوپونيزيين ولم يجبروا على الهجرة .

١٧٢ — وهكّذا لما هُزم « أپريس » وقضى عليه (١) ، صار « أمازيس » (٢) ملكا . وهو من مقاطعة « سايس » . وكان أصله من مدينة « سیوف » (٣) . احتقره المصريون أول الأمر ولم يقدرّوه على الإطلاق ؛ لأنه كان فيما مضى من العامة ، ولم يكن من أسرة ذائعة الصيت . ولكن بعدئذ اجتنبهم « أمازيس » إليه بفضل حكمته وlinه ؛ إذ كان عنده — بين آلاف أخرى من الأشياء النفيسة — طستٌ ذهبي . وكان « أمازيس » نفسه وكل ضيوفه يغسلون فيه أقدامهم في كل مناسبة (٤) . فكسره وطلب أن يُصنع

(١) يقصد في الغالب هزيمته لا موته (انظر الفصل رقم ١٦٩ من هذا الكتاب) .

(٢) اسمه المصري « أحوسى » .

(٣) سیوف : إحدى مدن إقليم سايس (صا الحجر) ومكانها على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد وتسمى اليوم « الصفة » .

(انظر Legrand, Hérodote, Livre II, p. 187) .

ثم (Wiedemann, H. II^{tes} Buch S. 593)

(٤) غريب جداً أن يكون « أحوسى » صعلوكاً من طامة الشعب ويملك مثل هذا الطست من الذهب . وأكبر الظن أن « هرذوت » هنا كان يفكر بقله الإغريق ؛ إذ كانت هذه العادة من عادات قومه . ومن الجائز — إن صحّت هذه الواقعة — أن يكون « أحوسى » — بحكم علاقاته الطيبة بالإغريق — قد أخذ عنهم هذا التقليد . وطادة غسل القدمين — بهذه المناسبة — كانت معروفة أيضاً عند العبرانيين ، (انظر سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر من التوراة) .

منه تمثال لإله ؛ نصبه في المدينة وفي أَسب مكان فيها. فأخذ المصريون يتوافدون على التمثال ويعظمونه تعظيماً فائقاً . ولما علم « أَمَازيس » بما كان يفعله أهل المدينة ، دعا المصريين وأوضح لهم أن التمثال مصنوع من الطست الذي كان المصريون من قبل يتقيثون ويبولون وينسلون أقدامهم فيه ، وهم الآن يُجِئُونَهُ إجلالاً فائقاً . ثم استطرد قائلاً : إن نصيبى كنصيب الطست . فهو إذا كان فيما سبق من عامة الشعب فإنه الآن ملكهم . وطلب إليهم أن يعظموه ويُجِئُوهُ . وبذلك الطريقة استمال المصريين نحوه ، حتى وافقوا على الخضوع له .

١٧٣ — ولقد اتبع النظام التالى في إدارة أعماله . . من الصباح الباكر حتى ساعة امتلاء السوق (١) كان يصرف بهمة ما يُعرض عليه من أمور ، وبعد ذلك كان يشرب ويشاكس ندماءه مازحاً معهم ، وكان يعبث ويلهو . ولما تضايق أصدقاؤه من تلك التصرفات ، لاموه قائلين له : « أيها الملك . . . إنك لا تحكم نفسك بالضبط ؛ بل تسوقها إلى غاية الانحطاط ، وإنه لينبغى لك أن تجلس في جلال على عرش مهيب ، وتدبر شئون المملكة طول النهار . وعندئذ يدرك المصريون أن حاكمهم رجلٌ عظيم ، وتكون ذا سمعة أطيب . أما الآن فإن ما نفعله لا يليق بملك على الإطلاق » . فرد عليهم « أَمَازيس » بما يلى : « إن أصحاب الأقواس يشدونها عندما يحتاجون إلى استعمالها وبعد استخدامها يرخونها ؛ لأنها إذا بقيت على الدوام مشدودة انقطعت ، فلا يمكن لهم أن يستخدموها عند الحاجة . وتلك طبيعة الإنسان أيضاً ؛ إذا ابتغى الجد دائماً ولم يسمح لنفسه باللهو ساعة فإنه — من غير أن يدرك — يصير مُخْتَلِئاً

(١) يعنى أنه كان يقضى وقته في السوق . فإذا ما هَجَرَ النهار قفل راجعاً إلى قصره . .

أو معنوها . ولما كنت أعرف ما أقول ؛ لذا فإني أجعل من وقتي جزءا لكل
من الأمرين « (١) . ذلك ما أجاب به أصدقاؤه .

١٧٤ — وىروى أن « أمازيس » كان — حتى وهو شخص بسيط —
يجب الشرب والمزاح ولم يكن على الإطلاق رجل جد ونشاط . وكان كلما أعوزته
لوازم الحياة بسبب الشرب وحياة المجون ، أخذ يطوف ويسرق . فكان يسوقه
الذين يدعون أنه أخذ ما لهم ، عندما ينكر ؛ تسوقه كل طائفة منهم إلى الوحي
الذى عندها . وكثيراً ما كان الوحي يُدينه ، وكثيراً ما كان يبرئته أيضاً . وعندما
أصبح ملكاً عمل الآتى : أغفل معابد الآلهة التى برأته من السرقة ، ولم يعط شيئاً
لأصالحها ولم يزرها ، ولم يضح لها ؛ لأنها لم تكن جديرة بشيء ما ، ولأن نبوياتها
كاذبة . أما الآلهة التى أفتت بأنه سارق ؛ فقد اهتم بها كل الاهتمام باعتبار
أنها آلهة لا ريب فيها ، وأنها تنطق بنبوءات صادقة (٢) .

١٧٥ — وفى مدينة « سايس » شيد (هذا الملك) رواقاً رائعاً لأثينا ، بزرَّ به
كل (من شيدوا من أسلافه) من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره
(المستعملة) ونوعها . وأقام أيضاً الشواخ من التماثيل وتماثيل كباش بالغة الطول (٣) .

(١) ذلك قول رجل حصيف بذكرنى — مع الفارق من حيث المقام والقصد
والوسيلة — بالقول المنسوب إلى الإمام على كرم الله وجهه «روى حوا القلوب ساعة
بعد ساعة ؛ فإن القلوب إذا كلَّتْ تعميت » .
(٢) تلك صفة حميدة تدل على صدق الرجل ، وجودة معدنه ، وكامل مروءته
وحسبنا من ذلك أنه كان صادقاً مع نفسه . وليس يمنه ما عرف عنه من الصلابة
من أن يكون صاحب مروءة .

(٣) يحرص « هردوت » على تذكير تلك الأصنام ؛ ذلك لأن مثلها عند
اليونان إنما ورد فى صورة الآتى . وكان أول ذلك اللون من أصنام الفراعنة
وأضخمها حجماً وأخلدها بين ترانيمهم ، يمثل فرعون الرأجل المؤله الذى صار شمسا .
ونفى تمثال « أبو الهول » المعروف عند هرم « خفرع » وفيه تنضج الفحولة الرائعة =

وأحضر حجارة أخرى للترميم ، هائلة الحجم ، جلب بعضها من مقالع الأحجار
التي في « ممفيس » وبعضها الآخر — وهو ذو ضخامة منقطعة النظير — من مدينة
« إليفانتينا » (١) وهي على مسافة إبحار عشرين يوماً من « سايس » . على أن
أكثر ما أثار في نفسي أبلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتي : أمر بإحضار
محراب (مشيد) من صخرة واحدة من « إليفانتينا » (٢) ، واستغرق
إحضاره ثلاث سنوات ، وكلف عشرين ألف رجل بنقله . وكلهم كانوا

= وكذلك كانت الأصنام التي عُرفت بعد ذلك وانتشرت على جوانب الطرق
إلى أبواب المعابد . فهي تمثل الذكور ، بل « الفحول » من معبودات المصريين .
نجد بقاياها على جانبي الطريق بين معبدى الكرنك والآنصر ، والطريق الذي
كان يجرى من معبد بتاح في منف إلى الأماكن المقدسة في جياتها منف ، والذي
بقي اسمه على القرية المعروفة غرب البدرشين وهي قرية « مبت رهينة »
أي « طريق الكباش » .

والمعجب أن « هردوت » الذي تحدث عن كاتبة عجائب مصر وبخاصة
« اللايرنت » لم يتحدث مطلقاً عن « أبو الهول » وهو إحدى عجائب الدنيا ، وسيظل
كذلك مهما تعددت عجائبها . وأغلب الظن أن هردوت لم ير ذلك الأثر العظيم
لأنه كان تحت الرمال في زمانه ، وفي تاريخ البلاد ما يثبت أن « أبو الهول » قد كانت
تغطي عليه رمال الصحراء فتطمسه وتخفيه .

انظر (: Ein neues Erman, Sitz. Ber. Berl. Akad. (1904),
Denkmal vor der grossen Sphinx.)

(١) انظر ما جاء في الفصل (١٧) من حديث عن تلك المحاجر ولا زالت
بعض صخورها تحمل من النصوص ما يشير إلى ما قد منها أيام « أمازيس »
لبناء معبد .

(٢) انظر الحديث عن ذلك في الفصل (١٥٥) هامش (رقم ٦) . وتزن هذه
الصخرة ما يزيد على ستة آلاف قنطار . وفي ذلك ما يجعل نقلها على الأرض واليم
من أصعب الأمور .

من الملاحين^(١). وطول هذا المحراب من الخارج إحدى وعشرون ذراعاً ، وعرضه أربع عشرة ذراعاً ، وارتفاعه ثمان أذرع . تلك هي الأبعاد الخارجية لذلك المحراب المقدود من صخرة واحدة . أما في الداخل فطوله ثمان عشرة ذراعاً وعشرون أصبعا^(٢) . وعرضه إثنتا عشرة ذراعاً ، وارتفاعه خمس أذرع . وهو يقع في مدخل المعبد . ويؤكدون أنه لم يُسحب إلى داخل المعبد لأنَّ المشرف على أعمال البناء قد أرهقه ذلك العمل الشاق الطويل الأمد ، فأشفق «أمازيس» من ذلك ولم يسمح بجره إلى أمام أبعد مما وصلوا به . هنا . ويرى البعض أن واحداً من الذين كانوا يرفعونه قد تهشم تحتهم ، وبسبب ذلك لم يُسحب إلى داخل المعبد .

١٧٦ — وأقام «أمازيس» كذلك في سائر المعابد العظيمة أعمالاً تستحق المشاهدة لضخامتها ؛ وبخاصة التمثال الشاخص الملقى على ظهره ، في «ممفيس»^(٣) ، أمام معبد «هيفايستوس» . وطول هذا التمثال خمس وسبعون قدماً . وعلى نفس قاعدة هذا التمثال يقوم تمثالان هائلان من الحجر الأثيوبي^(٤) ، ارتفاع كل منهما عشرون قدماً . ويقف كل واحد منهما

(١) ليس هذا العدد من الملاحين والعمال بالكثير ؛ ذلك لأن الصخرة كما قدمنا قد كانت ثقيلة ؛ بحيث يقتضى نقلها استخدام هذا العدد الضخم من الرجال .

(٢) يعنى ما نسبته اليوم بالقيراط .

(٣) الغالب أنه يقصد بذلك كافة التماثيل التي تصور أصحابها جالسين وظهرهم إلى حائط المعبد على عكس التماثيل المنصوبة أمام المدخل ، أو تلك التي تقوم مقام العدد من داخل المعبد والتي اصطلاح العلماء على تسميتها بالعدد الأوزيرية .

(٤) يقصد الجرانيت الوردى المحبب أو الأسود . (انظر الحديث عن ذلك في الفصلين ١٢٧ ، ١٣٤) .

على أحد جانبي التمثال الكبير . ويوجد أيضاً في « مايس » تمثال حجري
بنفس الحجم ، ملقى بنفس الطريقة كالتمثال الذي في « ممفيس » .
و « أمازيس » هو الذي أنجز أيضاً بناء معبد « إيزيس » بممفيس ، وهو معبد
عظيم ، جدير بالمشاهدة .

١٧٧ — ويقال إن مصر كانت تحت حكم « أمازيس » على درجة عظيمة
جداً من الازدهار^(١) ؛ وذلك نتيجة لما جاد به النيل على الأرض من طمى ،
وما جادت به الأرض على الناس من خير . وكان بمصر على الجملة في ذلك العهد
ألف مدينة آهلة بالسكان^(٢) . كما كان « أمازيس » هو واضع القانون الذي يفرض
على كل مصرى أن يُبين سنوياً مورد عيشه لحاكم الولاية^(٣) . ومن
لا يفعل ذلك ، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة ، كان عقابه الموت .

(١) تلك رواية لا تكاد تتفق وما جاء في أخبار التوراة (حزقيال ٢٩ ، ٩
وما بعدها) ؛ حيث جاء « وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعملون أنى أنا
الرب . لأنه قال النهر لى وأنا علمته . لذلك ها أنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل
أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدلى إلى أسوان إلى تخوم كوش ... إلخ » .
ترى أيتكون من تحدثوا إلى هردوت قد أخفوا عنه أمر ذلك ، ولم ينبشوه
إلا بما كانت عليه أحوال مصر فيها بعد ؛ حيث رآها هو ، ورأى علاقتها الاقتصادية
مع بلاد اليونان ؟ الله وحده يعلم .

(٢) قَدَّرَ « ديودور الصقلي » عدد البلاد المعصورة في مصر يومئذ بحوالى
١٨٠٠٠ ، ثم ارتفع عددها أيام البطالة فبلغ حوالى ٣٠٠٠٠ ، وقَدَّرَ عدد السكان
على هذا الأساس بنحو سبعة ملايين نسمة .

(٣) ظاهر من ذلك أنه كان لكل إقليم حاكم مسئول . وإنا لنعلم فوق
ذلك أنه كان لكل ناحية حاكم مسئول أيضاً ؛ مما يدل على دقة النظام الإدارى
في مصر يومئذ .

ولقد نقل « صولون » الأثيني^(١) هذا القانون عن المصريين ووضعه للأثينيين .
وهؤلاء يطبقونه إلى الآن إذ لم يوجّه إليه أى طعن .

١٧٨ — وكان « أمازيس » محباً لليونانيين ، وعبر لم عن عاطفته
تلك بأنه وهب للذين جاءوا منهم إلى مصر مدينة « نوقراطيس »^(٢)
ليسكنوها . أما الذين لم يرغبوا في استيطانها ، وكانوا يفدون للسياحة وحسب ؛
قد أعطاهم أراضى ليقموا عليها هياكل ومعابد لألهتهم . وأكبر هذه
المعابد وأشهرها وأكثرها رواداً يسمى « الهيلينيوم »^(٣) ، وقد ساهمت
في بناءه المدن التالية : مدن إيونية وهى : « خيوس » ، « ثيوس » ، « فوكايا » ،
ثم « كلاًزومنيابى »^(٤) . مدن دورية^(٥) وهى : « رودس » ، « كنيديوس » ،
« هاليكارناسوس » ، « فاسيليس » ، ثم مدينة إيولية^(٦) واحدة وهى :

(١) كان ذلك تشريعا خاصاً بالضرائب فى مصر ، وبه أخذ « صولون »
عندما وضع قانون الضرائب السنوية فى « أثينا » . ولكن ليس من الضرورى
أن يكون « صولون » قد أخذه عن « أمازيس » بالذات .

(٢) نوقراطيس « Naukratis » : مر ذكرها فيما مضى من فصول موقعها
على الشاطئ الشرقى للفرع الكانوى وغير بعيد من المكان الذى أقيمت عليه
فيما بعد مدينة الإسكندرية . وكانت منزلاً للجالية الإغريقية التى تعيش تحت
سلطان مصر وتعمل فى البذل والتجارة . وقد ظلت مكاتها التجارية مزوقة حتى
تحولت عنها إلى الإسكندرية . وأكبر الظن أن تأسيسها يرجع إلى ما بين عامي
٦١٣ ، ٦١٠ ق م .

(٣) كان موقعه غالباً فى شمالى المدينة .

(٤) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ٤٢)

(٥) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٤)

(٦) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٩)

« ميثيليني » . تلك هي المدن التي يتبعها المعبد ، وهي أيضاً التي تُعَيِّن القناصل الذين يشرفون على التجارة (١) . أما كل المدن الأخرى التي تدعى أن لها فيه نصيباً فهي إنما تدعى شيئاً ليس لها فيه حق . ولقد بنى أهل « إيجينا » — على حدة — معبداً لزيوس خاصاً بهم ، وبنى أهل « ساموس » معبداً لهيرا ، والملطيون آخر لأبولون .

١٧٩ — وقدما كانت « نوقراطيس » البلدة التجارية الوحيدة ، ولم يكن بمصر غيرها . وكان إذا بلغ أحد ما داخل مصب آخر من مصاب النيل ، وجب عليه أن يُقسم أنه لم يأت بمحض رغبته . وبعد القسم كان عليه أن يُبحر بسفينته وحمولتها إلى المصب الكانوي . وأما إذا اسبحال عليه الإبحار بسبب رياح مضادة ، فينتحم عليه أن ينقل بضاعته في قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل إلى « نوقراطيس » ، وهكذا كانت « لنوقراطيس » مكانة ممتازة (٢) .

١٨٠ — ولما تعهد « الأمفيكتيونيون » (٣) — لقاء ثلثثة تالنت — ببناء المعبد الموجود حالياً في « دلفي » (لأن المعبد الذي كان هناك من قبل احترق من نفسه) (٤) تنحّم على أهل « دلفي » دفع ربع المبلغ ، فأخذوا يطوفون

(١) لقد كانوا — أغلب الظن — قناصل مهمتهم الإشراف على التجارة الإغريقية وحمايتها وهم أشبه الناس بمن نسميهم اليوم « الملحقين التجاريين » .

(٢) انظر : (Kees, K. G. S. 106 7)

(٣) الأمفيكتيونيون (= المجاوزون) عَلمٌ على حلفٍ مُكوّنٍ من مجموعة مدائن كانت في الشمال الشرقي من بلاد اليونان .

(٤) يبدو أن هردوت يريد أن يقول — بطريق غير مباشر — إن الحريق لم يكن مصادفة (انظر ما جاء عن الحريق في الفصل (٥٠) من كتاب هردوت الأول ، ثم في الفصل (٦٢) من كتابه الخامس) .

بالمدين ؛ يتقبلون العطايا . ولم يجمعوا من مصر أقل مما جمعوا من غيرها ،
إذ منحهم « أمازيس » ألف تالنت من الشب^(١) ، ومنحهم اليونانيون المقينون
بمصر عشرين منّا^(٢) .

١٨١ — وتصادق^(٣) « أمازيس » مع « الكورنيائيين » وحالفهم ،
وأراد أن يتزوج منهم ذلك لأنه اشتهى أن تكون له امرأة يونانية . أولسبب آخر ،
ألا وهو صداقة « الكورنيائيين » . ولقد تزوج منهم على أى حال ؛ تزوج وفقا
لقول البعض من ابنة « باتوس » بن « أركيسيلوس » ، وفي قول البعض الآخر
من ابنة « كريتوبولوس » وهو مواطن ذو اعتبار . وكانت تسمى « لاديكي » .
وعندما نام معها « أمازيس » ، لم يجد نفسه قادرا على مجامعتها ؛ على حين كان
في مقدوره أن يجامع نساءه الأخريات . ولما استمر الحال على ذلك وقتا طويلا ؛
قال « أمازيس » لهنه المدعوة « لاديكي » : أيتها المرأة ، لقد استخدمت ضدى
وسائل السحر فلا مفر من أن تموتى شر ميتة ؛ (ميتة) لم تلق مثلها امرأة قط .
فاحتجت « لاديكي » . ولكن « أمازيس » لم يلن أبدا . عندئذ نذرت بينها
وبين نفسها لأفروديت أنه إذا اجتمع بها « أمازيس » فى الليلة التالية — لأن

(١) كان « الشب » — فى الغالب — من سلع التجارة المهمة المتبادلة
بين مصر وبلاد اليونان .

(٢) أغلب الظن أن الهدية كانت من « الذهب » ، ولم تكن من « الشب » .
وإن كان الأمر يبدو غريبا على كل حال ، نظراً لذكر « المن » الذى كان فى
الغالب من مكاييل السوائل عند المصريين .

(٣) فى ذلك ما يشير إلى أن « أمازيس » — على العكس من سلفه —
قد كان صديقاً للهليينيين (انظر الفصل رقم ١٦١ من هذا الكتاب) .

في ذلك وقاية لها من الشر — فإنها سترسل إليها تمثالاً في « كوريني » .
وبعد النذر مباشرة جامعها « أمازيس » ومنذ ذلك الوقت — كلما أتى عندها —
كان يجامعها بها . ثم أحبها بعدئذ حباً جماً . ووفت « لاديكي » بنذرهما نحو الآلهة .
(فطلبت) صنع تمثال وأرسلته إلى « كوريني » . ولا يزال التمثال موجوداً
إلى يومنا هذا لم يمسه شيء ، وهو موضوع خارج مدينة الكورنثيين . أما فيما
يتعلق بلاديكي هذه ، فإنه عندما سيطر « قبيز » على مصر ، وعلم منها من هي أرسلها
إلى « كوريني » دون أن يصيبها مكروه .

١٨٢ — ولقد أرسل أمازيس (١) الهدايا أيضاً إلى بلاد اليونان : فألى

« كوريني » أرسل ، تمثالاً لأثينا مغطى بالذهب مع صورة له مرسومة ، وإلى « ليندوس » ،
تمثالين لأثينا من الحجر ومشدا للصدر جديراً بالمشاهدة (٢) . ووهب أيضاً لهيرا
في « ساموس » تمثالين لنفسه من الخشب ، لا يزالان حتى وقتنا هذا قائمين
في المعبد الكبير ؛ خلف الأبواب . وبعث الهدايا إلى « ثاموس » لتوثيق
صلات الودِّ والكرم بينه وبين بوليكراتيس (٣) بن « إياكيس » . إلا أن
ما أرسله إلى « ليندوس » لم يكن من أجل صلات الكرم والمحبة ؛ بل لأن
معبد أثينا في « ليندوس » كان قد شيدته — فيما يقال — بنات « دناؤس » ،
عندما حلن هناك أثناء فرارهم من أبناء « إيجيبتوس » . تلك هي الهدايا

(١) وهنا تقع أيدينا على دليل جديد يؤكد صداقة « أمازيس » للهلينيين .

(٢) انظر في هذا الوصف ما ذكره هردوت في كتابه الثالث (فصل ٤٧) .

(٣) Polycrates هو طاغية « ساموس » (انظر ص ١٣) .

التي قديماً أمازيس . وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها
دفع الجزية (١) .

(١) خضعت « قبرص » قبل ذلك للآشوريين والفينيقيين . وليس بعيد أن
تكون قد خضعت لفرعون مصر « أمازيس » . ولكننا نحرمص — كدأبنا —
على إثارة الشك في أقوال المؤرخين ، وبخاصة إذا كانوا رواة من طراز
« هردوت » ، إذ قد تكون المهود التي أبرمت بين « أمازيس » وأشهر مدائن
الجزيرة مثل « سلاميس » و « أماتوس » و « إيداليون » قد أول أمرها إلى
غير ما ينبغي لها حق ظن — خطأ — أن « أمازيس » قد احتل الجزيرة .

محتويات الكتاب

ص	مقدمة	الفصل
٨—٥	أبو التاريخ هردوت	
٣٧—٩	تمهيد : « نظرة سريفة في أحوال مصر والشرق القريب »	
٥٧—٣٩	قُبيل أيام هردوت «	
	« قبيل » وحملته على مصر	١
	قصة « إسماتيك » والبحث عن أقدم شعوب الدنيا	٢
	مقدمة الحديث عن مصر بين هردوت والسكينة	٣ — ٤
	وصف طبيعة مصر : أرضها ، وتربتها ، ومساحتها	٥ — ١٣
	الحديث عن الزراعة	١٤
	الحديث عن حدود مصر	١٥
	الحديث عن النيل	١٩ — ٣١
	الحديث عن ليبيا	٣٢
	بين النيل والبطون	٣٣ — ٣٤
	عادات المصريين	٣٥ — ٣٦
	طقوس المصريين الدينية وشعائرم	٣٧ — ٤٩
	ذكر ما بين عقائد المصريين وعقائد الإغريق الدينية	٥٠ — ٥٧
	من تشابه	
	أعياد المصريين	٥٨ — ٦٤
	تقديس الحيوان	٦٥ — ٧٦
	الحياة العامة وما يُمارس فيها من قواعد وتقاليد	٧٧ — ٨٤
	الجنائزات	٨٥ — ٩٠
	عبادة « پرسوسن »	٩١
	سكان أقاليم الأخوار وعاداتهم	٩٢ — ٩٥
	المراكب التي استخدمها المصريون	٩٦
	وسائل النقل والانتقال أيام الفيضان	٩٧ — ٩٨

الفصل

- ٩٩ - ١١١ ذكر « مينتا = منا » أول الحكام المصريين وخلفائه
 ١١٢ - ١٢٠ أسطورة « ميلينا »
 ١٢١ - ١٢٢ قصة « رامسيسيتوس »
 ١٢٣ ذكر تناسخ الأرواح
 ١٢٤ - ١٣٥ عصر بناء الأهرام
 ١٣٦ - ١٤٣ ذكر الأثيوبيين في مصر
 ١٤٤ - ١٤٦ عصر البشر المؤهلين
 ١٤٨ - ١٥٢ الأثني عشرية
 ١٥٣ - ١٦٩ أسرة « إسماتيك » والمصر الصاوي
 ١٧٠ قبر الشهيد « أزوريس »
 ١٧١ المعائد السرية في مصر
 ١٧٢ - ١٨٢ ذكر الملك « أمازيس » (أحوسى)

قائمة مختصرات المراجع الهامة

- An. d. Serv. = Annales du Service des Antiquités de l'Égypte.
Badawi, Memphis = Ahmad Badawi, Memphis als seite
Landshauptstadt im NR. Kairo 1948.
- Ball = J. Ball = J. Ball, Egypt in the classical geographers,
Cairo Government Press 1942.
- Bonnet, Bilderatlas = H. Bonnet, Bilderatlas zur Religionsge-
schichte. hrsg. von H. Haas 2-4, Lief. Aegyptische Re-
ligion, Leipzig 1924.
- Borchardt, Neuserre, Sahurê = Das Grabdenkmal des Königs
Neuser-Rê, bzw. Sahw-Rê. Wiss. Veröffentl. der Deut-
schen Orient-Ges. Bd. 7 (1907), 14 (1910), 26 (1913).
- Brugsch, Gesch. Aegyptens = Geschichte Aegyptens unter den
Pharaonen, Leipzig 1877.
- Brugsch, Thes. = Brugsch, Thesaurus inscriptionum aegypti-
acarum, Leipzig, 1883/91.
- CAH = The Cambridge Ancient History, Camb. Univ. Press.
- Diod. = Diodorus of Sicily with an English translation by C.H.
Oldfether. 1946.
- Diod. = An account of Egypt by Diodorus the Sicilian, being
the 1st book of his universal history translated into
English by W.G. Waddell. Bulletin of the Faculty of Arts
Univ. of Egypt. Vol. I part I, 1933.
- Drioton-Vandier, l'Égypte = Clio, Les peuples de l'Orient Mé-
diterranéen II, L'Égypte, Paris 1938.
- Erman, Aegypten = Adolf Erman, Aegypten und aegyptisches
Leben im Altertum. Neue Bearbeitung von H. Ranke,
Tübingen 1923.
- Erman, Lit. = Adolf Erman, Die Literatur der alten Ägypter,
Leipzig, 1923.

Erman, Relig. = Adolf Erman, Die Religion der Aegypter, ihr Werden und Vergehen in vier Jahrtausenden, Walter de Gruyter, Berlin & Leipzig. 1934.

Gardiner, Admonitions = Alan Gardiner, The admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.

Handbuch der Fremdwoerterte. = Handbuch der Fremdwoerter v. Dr. Friedrich Erdmann Petri XIII, Aufl. Neu bearbeitet und vielfach vermehrt von Dr. Emanuel Samostz, Leipzig 1787.

Hopfner, Tierkult = Der Tierkult der alten Aegypter, Deutscher-Wiener Akad. phil.-hist. Klasse Bd. 57, 2 (1913).

J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology, London 1914 —

Kees, G.G. = Hermann Kees, Der Goetterglaube im alten Aegypten, Leipzig 1941.

Kees, T.G. = H. Kees, Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der alten Aegypter, Leipzig 1926.

Klebs, Reliefs = Die Reliefs des Alten Reiches.

Die Reliefs und Malereien des Mittleren Reiches.

Die Reliefs und Malereien des Neuen Reiches.
I. Abt. Heidelberger Akademie 1915, 1922, 1934.

L.D. = R. Lepsius, Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, 12 Bände, Atlas in 6 Abteilungen, Berlin 1849 ff.; 5 Bände Text, 1 Tafelergänzungsband, Leipzig 1897 ff.

Mém. inst. fr. or. = Mémoires publiées par les membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, Le Caire 1902 ff.

Meyer, Gesch. = Ed. Meyer, Geschichte des Altertums, 5 Bde. Stuttgart und Berlin 1925, 1926, 1928, 1931, Stuttgart 1937, 1944, 1956, 1958.

O.L.Z. = Orientalische Literaturzeitung, Leipzig.

Otto, Stierkulte = Beiträge zur Geschichte und Stierkulte in Aegypten, Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, Bd. 13 Leipzig 1938.

- Plut. Isis et Osiris = Plutarque, Isis et Osiris. Trad. par Mario Meunier, Paris MDCCCXXIV.
- Plut. Isis und Osiris = Plutarch, Ueber Isis und Osiris, Text, Uebersetzung und Kommentar von Theodor Hopfner, Orientalisches Institut in Praga. Bd. IX, Iste. & Ite. teil.
- Plut. Moral. = Plutarchus Moralia. gr. Plutarchos Ethika.
- PSBA. = Proceedings of the Society of Biblical Archaeology.
- Pyr. Text. = Sethe, Die altaegyptischen Pyramidentexte, Leipzig 1908 ff.
- Sethe, Amun = Kurt Sethe, Amun und die acht Urgoetter von Hermopolis, Abh. Berl. Akad. 1929.
- Sethe, Untersuchungen = Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, hersg. v. Kurt Sethe (Leipzig).
- Strabo = The Geography of Strabo, with an English translation by Horace Leonard Jones in eight volumes, Harvard Univ. Press. MCMXLIX.
- Thucydides = Thucydides Historiae, Edited by C. Hude I & II.
- Urk. = Sethe, Urkunden des aegyptischer Altertums, hersg. von G. Steindorff Abt. I-VII, Leipzig.
- Waddell, Manetho = Manetho, with an English translation by W.G. Waddell, Loeb Classical Library, Camb. Mass. Harvard Univ. Press, 1940.
- Wb. = A. Erman und Hermann Grapow, Woerterbuch der aegyptischen Sprache I-V, Leipzig, 1926/31.
- Wiedemann, Aeg. Gesch. = Karl Alfred Wiedemann, Aegyptische Geschichte, Handlehrbuecher der alten Geschichte (Serie I, Abt. 1)
- Wreszinski, Atlas = W. Wreszinski, Atlas zur altaegyptische Kulturgeschichte I, Leipzig, 1923.
- Z. Ae. S. = Zeitschrift fuer aegyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.

فهرس الأعلام العامة

أخناتون « ملك » ٨٦	(١)
آخيل « بطل أسطوري » ٦٤	إبراهيم ٢٣٧، ١٦٨
أخبوس ٢١١	أبرمة الأشرم ٢٧٢
آخيشون « شعب » ٢٣٨	أبقراط « طبيب » ١٨٣
إدوين ميت « قرطاس بردى » ١٩١	ابن عبد الحكيم « مؤرخ » ١٠٥
أرجو « سفينة » ٢١٩	إلياس كليس ٢١٣
أرجوس « ملك » ١٣٢	أريس « ملك » ٢٩٥، ٥٥٠، ٤٩، ٤٨
أرخاندروس ٢١١	٣٠٤، ٣٠٢، ٣٠١، ٢٩٧، ٢٩٦
أرخيديكي « غانية » ٢٦٤	إسمانك « ملك » ٤١، ٣٧، ٣٢، ٢٧
أرسطو ٩٩	٤٩، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢
أرفيشون « أوفيشون » ١٤٩، ٢٤٨	٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٢٣
أركاديشون « شعب » ٣٠٤	٢٩٥، ٢٩٤، ٢٩٠، ٢٨٩
أركيسيلوس ٣١٢	أثانورك « الغازی » ١٢٩، ٥٢
أريون « شعب » ٥٢	إتيارخوس ١١٤، ١١١، ١١٠
استرابون « سترابون » « مؤرخ » ٦٦،	أثينيوس ١٨٣
١٩٤، ١٠٦، ١٠٦، ١٨٣، ١٩٠،	أثينيون « شعب » ١٤٧، ١٥٣، ٣١٠،
٢٢١، ٢٣٢، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٠٩،	أثينيون « شعب » ٣٩، ٤٠، ٦٠، ١٠٦،
إسحق ٢٣٧	١٠٩، ١١٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣،
إسرائيل « بنو » ٣٢، ١٣٠، ١٩٦،	٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٨٥،
٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٠، ٢٩١،	أجزرتيس « لجزركيس » « ملك »
أسرحدون « ملك » ٤٠	٢٩٠، ٥٢
اسطفانوس البزنطي ٦٦	أجنون « ملك » ١٥٠
إسكندر « ابن صاحب طرواده » ٢٣٢،	أحاباش « شعب » ١٠٧، ٢١٣
٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨،	أحد البدوي « من أولياء الله » ١٦٨
إسكندر « المقدوني » ١١١، ١٣٦،	أحمسي « ملك ». أنظر أيضاً أمازيس
اسكيشون ٢١٩	٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٣٠٤
إسماعيل « خديو مصر » ٢٣٠، ٢٣٧،	أحمسي الأول « ملك » ١٥٢، ٢٧١
أسوخيس « ملك » ٢٦٤	أحمسي بن إينا ٢٧١
	أحمسي نقرتاري « ملكة » ١١٩، ١٥٢

آشوريشون «شعب» ٥٣،٤١،٤٠
 ٣١٤،٢٨٣،٢٧٢،٢٧١،٧١
 آشور باليت «ملك» ٤٧
 أغريق ، أغارقة ١٤ ، ١٧ ،
 ٢٨،٢٧،٢٦،٢٥،٢٤،٢٣،٢٢
 ٤٣،٤٢،٣٧،٣٢،٣١،٣٠،٢٩
 ٥١،٥٠،٤٩،٤٨،٤٧،٤٥،٤٤
 ٦٤،٦٣،٦٢،٦١،٦٠،٥٥،٥٤
 ٨٥،٨٤،٨١،٧٥،٧١،٧٠،٦٦
 ١١٢،١١٠،١٠٨،١٠٧،١٠١
 ١٢٤،١١٧،١١٦،١١٥،١١٣
 ١٤١،١٣٥،١٣٤،١٣٣،١٣٢
 ١٥٧،١٥٦،١٥٢،١٥٠،١٤٣
 ١٧٦،١٧٥،١٧٣،١٧٢،١٥٨
 ١٨٩،١٨٨،١٨٦،١٨٥،١٨٣
 ٢٠٣،٢٠٢،٢٠١،٢٠٠،١٩١
 ٢٤٠،٢٣١،٢٢٣،٢١٠،٢٠٧
 ٢٦٦،٢٥٥،٢٤٨،٢٤٦،٢٤٥
 ٢٩٤،٢٩٢،٢٧٦،٢٦٩،٢٦٧
 ٣٠٤،٣٠٣،٣٠٠،٢٩٩

الحارث بن سدوس ١٤٨

إلياذه ٢٣٦،٢٣٥

أمازيس «ملك» (أنظر أيضاً أحموس)

٥٢،٥٠،٤٩،٤٨،٣٢،٢٩

٣٨٧،٢٧٦،٢٦٢،١٩٢،١٤٠

٣٠٢،٣٠١،٢٩٧،٢٩٦،٢٩٤

٣٠٨،٣٠٧،٣٠٦،٣٠٥،٣٠٤

٣١٣،٣١٢،٣١١،٣١٠،٣٠٩

٣١٤

أمفيكتيونيشون ٣١١

أمنحات الثالث «تي - ماعف رع» -

«مارس - لا مارس لا بارس»

«ملك» ٢٨١،٢١٦،٨٤

أمونيون ١٤٩

أمون حري (أنظر أميرتيوس)

أمونيون ١٣٦،١١١،١١٠

أميرتيوس (أميرتيوس) ٢٦٩

أمينو فيس الأول «ملك» ١٥٢،١١٩

أمينو فيس الثاني «ملك» ٢٤٢

أمينو فيس الثالث «ملك» ٢٥٩،٤٩

إناخوس ١٣٢

أنتحرو ٢٦٩

أوديس ٢٣٢

أوديمو «ملك» ١٩٠

أوفوريون «شاعر» ٢٨٩

أوني ٢١٥

إميجتيوس ٣١٣

إيلياشوت «شعب» ٢٩٥،٢٩٤

أبوليوس «شعب» ٥٩

أونيون «شعب» ١٢٩،٨٨،٥٩

٢٩٦،٢٨٦،٢٨٥،١٧٦

(ب، ب)

باب العالي ٢٢٨

بابليشون ٢٢٦،٤٧

بابه ١٥٩

باع «مقياس» ٢٨١،٢٥٠،٧٦،٧٥

٢٨٢

برباروس «ملك» ٢٣٠

بريرة ، برير «قبائل» ٢٩٢،٦٠

٢٩٩

برمات ١٥٢

برانجيديشون ٢٩٣

بشنس ١٤٦

بطالة ٣٠٩،١٨٣،٩٠،٨٥

بطليوس الأول «ملك» ٢٠٠

بطليوس الثاني «ملك» ٧٢

بطليموس الزمغار « ملك » ١٦٩

بنى أمية ١٢٩

بوخوريوس « ملك » ٢٦٥، ٢٥٨، ٤٠

ياريس ٢٣٢

يانياس ١٣

برام ٢٢٣ (أنظر برياموس)

يساميس « ملك » ٢٩٥، ٢٩٤

يعنخي « ملك » ٢٧٠، ٢١٣، ٤٠

بلائون ٢٠٠

بلونارخ « مؤرخ » ١٩، ٢٠، ٥٥

١٤٨، ١٢٩، ١٢٥

باليوس ٢٧٨، ٦٦

برونيوس « ملك » ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣

٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٩

بروميليا « كاهنة » ١٥٧

برياموس ٢٣٢، ٢٣٨ « أنظر برام »

بولدامنا ٢٣٥

بوليكرائيس « ملك » ٣١٣

بيني الأول « ملك » ٢١٥، ٢١٤

بيني الثاني « ملك » ٢١٤

بيروميس ٢٧٥

بيلاسيبيثون « شعب » ١٥١، ١٥٣

١٥٤، ١٥٥، ٣٠٤

بيلوبونيزيثون « شعب » ٣٠٤

(ث)

ثالكث « معيار » ٢٨٣، ٢٦٢

ثاليس الملقى ٩٦

ثانوتامون « ملك » ٢٦٨

ثقي « ملك » ٢١٥

ثحتمس الثالث « ملك » ١٦٢، ١٦٧

٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٠

ثفنخت « ملك » ٤٠

ثلباخوس ٢٣٥

ثنداروس ٢٣١

ثوت خنخ آمون « ملك » ٢٤٥

ثوراه « كتاب مقدس » ٦٦، ٦٧، ١٠٩

١٣٥، ١٩٦، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٨٩

٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٩، ٣٠٤

ثباريقي « كاهنة » ١٥٧

(ث)

ثسوفوريا « عيد » ٣٠٣

ثونيس « ثول » ٢٣٣، ٢٣٥

ثيسپروثيثون « شعب » ١٥٨

(ج)

جالينوس ١٨٣

جربيجوار « البابا » ٧٠

جورجو « ميدوزا » ٢٠٣

(ح)

حب حرس « ملكة » ٢٥٤، ٢٥٥

حشيشوة « حشيشوت » « ملكة »

٦٠، ٧١، ١١٩، ٢٠٩، ٢١٤

حجر رشيد ١٠

حزقيا ، حزقيال ٢٧٢، ٣٠٩

حزة ١٩٣

حور - ددف « ملك » ٢٥٦

(خ)

خار - شري ٢٩٩

خراكسوس « الميثليبي » ٢٦٣، ٢٦٤

خفيع « ملك » ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥

٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١

خواس « امير » ٢٤٥، ٢٥٣

(م)

۲۷۷، ۲۷۸، ۲۷۹

(ش)

(د)

دیوید ایس ۲۳۵

(j)

رودوپس «خانیه» ۲۶۴، ۲۶۳، ۲۶۲

شباكا - شباكو «ملك» ٢١٣،٤١٠،٤٠

٢٨٥،٢٧٠،٢٦٨،٢٦٤

شيسكاف «ملك» ٢٥٦، ٢٦٤

شعري «الشعري الجمانية» ١٩٦،٧٠

شوق «شاعر» ١٧٠

شيرون ١٦٩

شيشنق الأول «ملك» ٢٦٥،١٠٧

(ص)

صينيون ١٨٥

صولون ٣١٠

(ط)

طرواديون ٢٣٨

طهارة «= طهارة» «ملك» ٤٠،

٢٧٠،٢١٩،٢١٣،١٣٦،٤١

٢٧٢،٢٧١

(ع)

حام الفيل ٢٧٢

عبداللطيف البغدادى «المؤرخ» ٢٥٣

عبادة ٢٣٧

عبد المطلب ٢٣٧

عبرانيون ١٣٢،١٣٦،٢٢٠،٢٧٢،

٣٠٤

عثمان أمين «مؤلف» ١٨

عثمان «آل» ٢٢٨

عرب ٨٩،٧٨،٨١،٨٣،٨٤،٨٩،١٠٥،

١٠٩،١٠٧،١٢٩،١٧٦،١٧٩،

١٨٠،١٨٥،٢٣٠،٢٧١،٢٩١،

علاميون «شعب» ٤٣

على باشا «والى يانينا» ١٥٥

عمالة ١٥٠

عمر بن الخطاب ١٠٥،١٠٠،٢١٠

عمر بن العاص ١٠٥،١٠٠،٢١٠

(ف)

فاروق «ملك» ٢٢٤

فارسيس ٥٩،٥٢

فارثرون «آل» ١٠٨،١٠٩،١٠٠،١١٠

فرسخ «مقياس» ٧٥،٧٦

فريبيثون «آل» ٦١،٦٣

فيثاغورث ١٨٨،٢٤٨

فيثاغورية ١٨٨

فيلوس ٢١١

فيروس ٢٢٨

فيغاروس «مذهب» ٣٢

فستكار «قرطاس بردى» ٢٤٩،٢٦٢،

(ق)

قرآن ٧٠،١٣٥،٢٦٠،٢٧٢

قرطاجنيون ١١٢

قبيز «ملك» ٢١،٥٢،٥٣،٥٤،٥٥،

٥٦،٥٩،١١١،٣١٣

قوانين الدواوين «مؤلف» ١٦٠

قورش «ملك» ٥١،٥٢،٥٣،٥٩،١٩٢،

(ك)

كابرو «= كبيرو» ١٥٣، ١٥٤

كادموس الصوري ١٥٠، ٢٧٦

كارنارفون ٣٤

كاريثون «شعب» ١٦٣، ١٦٤، ٢٨٥،

٢٨٦، ٢٩٦

(م)

- ماكرونيثون ٢٢١
 مانيزوس ١٨٦
 متني « شاعر » ٩
 محمد توفيق « خديو مصر » ٢٠٠
 محمد علي « الكبير » ٢٣٠، ٩٣
 مروان بن محمد « خليفه » ١٢٩
 مسلون ٢٣٧، ٢٠٣، ١٤٤، ١٢٣
 مسيح ٢١٥، ١٥٥
 مسيحيون ٢٣٧، ١٨٨
 معجم البلدان ١٦٠
 ملاحم الهوميري « ال » ٢٣٥
 ملحمة القبرصية « ال » ٢٣٦
 مَلَطِيَّيُون ٣١١، ١١٥
 منا = مينا « ملك » ٧٣، ٧٢، ٦٥، ٣٢
 ٢٧٣، ٢٣٩، ٢١٣، ٢١٢، ١٥٢
 ٢٧٨
 متوجحات « حاكم » ١٠٧
 مَنِيْثُون « مؤرخ » ١٠٨، ٧٢، ٤٠، ٣٤
 ٢٦٤، ١٤٩، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣
 ٢٧٠
 منديسيون ١٣٥
 منفتاح « ملك » ٢٣٠، ٣٢٩، ٢٢٨
 منكورع (= منقرع) « ملك »
 ٢٦١، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦
 ٢٦٦، ٢٦٤
 موسى ١٣٦
 موبريس (موريس) « ملك » ٢٤
 ٢١٦، ١٧٥، ٨٥، ٨٤، ٧٤، ٧٣
 ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨٠
 ميديثون ٢٩٧، ٥١، ٤٧، ٤٦
 ميلايوس ١٥٠، ١٤٩
 مينلاوس « ملك » ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٣
 ٢٣٧

كالا مبريس « لباس من الكتان » ١٨٧
 ٣٠١، ٢٩٨، ٢٩٧

- كتاب الموتى ٢٣٤
 كسانتوس الساموسي ٢٦٣
 كشتا « ملك » ٢٧٠، ٢١٣
 كلتيثون « شعب » ١١٥، ١١٤
 كلبات السكندري ٥٥
 كلوباطرة « ملكه » ٢٣٠
 كورنيثيون « = كرنائيون » ٩٥
 ٣١٣، ٣١٢، ١١٤، ١١٠
 كورنيثيون ٣٠٠
 كوتيثون ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩
 كيكي « زيت » = « كاك » ٢٠٧
 كيليستيس « ضرب من الخبز » ١٨٣
 كيليكثون ٩١
 كينيثون ١١٥
 كيهك ١٤٦
 كيوس « ملك » (أنظر خوفو)
 ٢٥٥، ٢٥٣، ٢٤٨

(ل)

- لاديكي « امرأة » ٣١٣، ٣١٢
 لاكيديمونيثون « ال » ٣٠٠، ١٨٦
 لجداموس الثاني « ملك » ١٣٠
 لوط ٢٦٠
 ليثون ١١٤، ١٠٨، ٩٤، ٤٩، ٢٩
 ١٨٢، ١٥٧، ١٥٢
 ليدثون ٢٩٩، ٢٤٥
 لينكيوس ٢٠٢
 لينوس « أنشوده » ١٨٦، ١٨٥

(ن)

ناپليون الاول ١٢٩

نبوخذ نصر (= نبوكاذ نصر) «ملك»

٢٩٣، ٢١٥

نخاو (= نيفروس = نيكوس) «ملك»

٢٩٣، ٢٩٢، ٢٩٠، ٢٨٥، ٤٧، ٤٢

نسامونيئون ١١٤، ١١٣، ١١١

نفر إركارع «ملك» ١٩٠

نفرناي «ملكة» ٢٤٥

نويئون ٢١٣

نيتوكريس «ملكة» ٢١٥، ٢١٤

٣٠١، ٢٦٦

نيكاندري «كاهنة» ١٥٧

(هـ)

هكاتبه اللطى (هيكاتبه - هيكاتيوس)

«مؤرخ» ٣٨٠، ٢٨٠، ٢٢٠، ١٤٠، ١٢٠

٢٧٤، ٩٨، ٩٧، ٨٨، ٧٤

هكتور ٢٣٨

هكسوس ٢٥٧، ٢٢٩، ٩٠، ٥٢، ٤٣

٢٧١، ٢٧٠

هليثيون ٣١٢، ١٥١، ١٢٧، ١٧

٣١٣

هومير (= هوميروس) «شاعر» ٦٥

٢٢٣، ١٥٦، ١٥٥، ١٥١، ٩٨، ٧١

٢٣٨، ٢٣٦، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣١

ميراطيقية «كتابه» ١٢٤

ميرو غليقية «كتابه» ١٢٤، ١٢٣

١٨٦

ميسودوس «شاعر» ١٥٦، ١٥٥

(و)

واح - إيب - رع «ملك» ٢٩٥، ٤٨

وازي - حور - رسنة ٥٥

(ي)

يسوميون ١٠

يعقوب ١٩٦، ١٣٢

يهود ٢٢٠، ١٤٤، ١٢٣، ١٢٠، ٣٢

٢٩٣، ٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢١

يوسف ٢٦٤، ٢٦٠، ٢٢٩، ١٩٦، ١٣٢

يوشع ٢٩٣، ٢٧

يوليوس قيصر ٦٩

فهرس الأعلام الجغرافية والأماكن

اسبانيا ١١٥
 أسبرطة ٢٣٦، ٢٣٢، ٥١
 أستروس « نهر » ١٠١، ١١٤، ١١٥،
 ١١٦
 أستروبوليس ١١٥
 اسكوثلانده ٦٢
 إسماعيلية « نعمة » ٢٢٤
 إستا « مدينة » ١٢٦
 أسوان « مدينة » ٧٨، ٧٤، ٢٤
 آسية (= آسيا) ٥١، ٤٧، ١٦، ١٥،
 ٥٢، ١٩٧، ١٠٨، ٩١، ٩٠، ٥٢
 ٢٩٣، ٢٩٠، ٢٧٢، ٢١٩
 آسية الصغرى ١٢، ١١، ٦١، ٩١، ٢٢١، ٢٧٢
 أسبوط ١٧٥
 إسكندرية ٨٩، ٢١٠، ٢٣٠، ٢٣٢، ٣١٠
 أشدود « أنظر أرونوس » ٢٨٩
 أثمون طناح ١٣٥
 أثمونين ١٧٢
 أعمدة هرقل ١١٥
 أفنيس ٢٩٨
 أفريقية ١٥، ١٦، ٦٠، ٩٥، ١١٢، ١١٣،
 ١١٧، ١١٥
 أفسوس ٨٠، ٢٢٢، ٢٨٠
 أكارنانيا ٨١
 أسكتان ٤٧
 ألبانية ١٥٥
 ألبو « جزيرة » ٢٦٩
 أقصر ٦٥، ١٥٩، ٣٠٧
 أقيانوس ٩٨

(أ)

إبراهيمية « نعمة » ٢٢٤
 إبطو « مدينة » ١٦٠
 أبو رواش ٧٨، ٢٥٤، ٢٥٦
 أبو سبل ٢٨٥
 أبو صبرينا ١٦٠
 أبو فوده « جبل » ١٧٥
 أبو قير ٤٢، ٤٥، ٨٩
 أبو النجا « نعمة » ٩٢
 أيدوس ١٢٩، ١٤٦
 أناربيخيس (مدينة) ١٣٣
 أنريب - أنريس ٤١، ٤٢، ٢٩٨
 آئينا = « آئينا » ٢٨، ٦٣، ٧١، ٧٧،
 ١٠١، ١٠٢، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣،
 ١٦٠، ١٨٩، ٢٠٣، ٣٠٢، ٣٠٦،
 ٣١٣، ٣١٠
 أنيوبية = « أنيوبيا » ٤٢، ٤٤، ٥٤،
 ٨٢، ٨٣، ٩٧، ١٠٩، ١١٠، ٢٢٣،
 ٢٢٦، ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٩٥
 أخيم = « خيم » ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢
 أخيليوؤس « نهر » ٨١
 أخيناديس « جزائر ألبانية » ٨١
 إدفو « مدينة » ١٠٨، ١٤٦
 أرخاندرس « مدينة » ٢١١
 أروتري (= أروتيري) « بحر »
 ٧٨، ٨١، ٢١٧، ٢٢٩، ٢٩١، ٢٩٢
 أروتري بولوس ٢٢٩
 أروتوس « مدينة » ٢٨٩، ٢٩٠

هرام ٢٤، ٣٥، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٩٦،
٢١٠، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١،
٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦،
٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٨٠،
إستر «نهر» (أنظر استروس) ١١٥

(ب)

باب المئذب «بوظار» ٨١
بابل ٤٣، ٤٧، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٢١٥، ٢٩٣
باتوس ٣١٢
بيلوس ٢٠٤
بحر أشمون الرمان ٩٢
بحر (الأبيض المتوسط) = البحر الثمالي
٨٠، ٨٢، ٩٢، ١١١، ١١٤، ١٥٨،
٢٠٥، ٢٣٢، ٢٩١، ٢٩٢
بحر «الأسود» ١١٥، ١١٦، ٢١٩
بحر الغزال ٨٧
بحر «المصري» ٢٣٢
بحر موسى ٦٢
بحر يوسف ٧٤، ٢٨٣
بحيرات «المرّة» ١٨٠
بحيرة البرلئس ٢٨٧
بحيرة التماسح ١٨٠
بلر «وقعة» ٢٧٢
بدرشين «مدينة» ٦٥، ٧٨، ٣٠٧
برانس «جبال» ١١٤
برانس «مدينة» ١١٤
برتغال ١١٥
برج الحمل ١٣٧
بروج ٧١
برقة ٤٩، ٥٠، ٦٠، ١١٠، ١١٢
بركة فارون ٢٨٢
بقليّة ٩٢
بنت «بلاد» ٦٠، ٢٩٠
بنها «مدينة» ٢٩٨

بني حسن «بلدة» ١٦٩، ٢٦٧
بهنسا «مدينة» ١٢٦

بويطة (= بوباسطيس = بويطيس)

٩٢، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣،
١٦٩، ١٧١، ٢٦٧، ٢٨٧، ٢٨٩

٢٩٨، ٢٩١

بورزريس ١٤٢، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٩٨

بوطو (= بوتو = بوطون) ١٦٠،

١٦٤، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٩، ٢٢٩،

٢٦٠، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩

بوريني ١١٤

بيجه «جزيرة» ١٠٤

بيوسيا ١٥٠

ببرعيس ١٦٠، ١٦٥، ١٧٧، ٢٩٨،

باتارميس ٢٩٦

بالوس ٢٨٣

بروسويتيس ٢٩٨

بليثيني «بلدة» ٧٦

بليثوس (= بليثيني) «خليج» ٧٦

بناپوليس ٢٠٠

بروسوس «مرفأ» ٨٩، ١٠١، ٢٠٢، ٢٠٢،

٢٠٣

بروسويقي ١٣٣

بروسيا ٦٢

بزا ٧٧

بولندا ٢٠٣

بيلاسچيا ١٥٨

بيلونيز ٣٠٣، ٣٠٤

بيلوزبوس ٢٧١

بيلوزيوم ١٠٩

(ت)

تاخيسو ١٠٦

تائيس ٢٩٨

تراقيا «تراقية» ١٨٨، ٢٦٢، ٢٧٧

تركية ١٥٣

تل أبو صفية ٨٩

تل أنزيب « أنظر أنزيب » ٢٩٨

تل الرابعة ٢٩٨، ٩٢

تل الفراعين = (كوم الفراعين) ٨٩

١٦٤، ١٦٠

تل الفرما ١٦٠، ٨٩

تل المسخوطة ٢٩١

تل بسطة « أنظر بوسطيس » ١٦٠

تل بلال ٢٩٨

تل بليم ٢٦٦

نمس « نهر » ٢٩٨

نيسويس ٢٩٨

نمي الأمديد ٢٩٨

نورين ٦٤، ٥٢، ١٣

نونة الجبل ١٧٢

نيوكريس ٢٣٦

(ث)

ثاسوس « جزيرة » ١٤١

ثرمودون ٢٢٠

ثيبا (طيبة) ٦٦

ثيوس ٣١٠

(ج)

جبل الحية « إقليد » ١٧٩

جبل طارق ١١٥، ٦١

جيلين ١٧٥

جيل ٢٠٤

جزيرة الفيلة ١٠٣، ٩٧، ٨٠، ٤٥، ٣٢

٢١٧

جوزاء ٧٠

جيزة ٢٨١، ٦٥

(ح)

حبشة ٢٧٥، ١٣٦، ١٠٤، ٩٧، ٩٥

حكة - كا - بتاح ٩٠

(خ)

خرطوم « مدينة » ٩٥

خليج العربي ٢٩٣، ٢٩٢، ٢١٧، ٨٢

خينيس ٢٩٨، ٢٨٨، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١

خندق « وقعة » ٢٧٢

(د)

دافنای (= دفنة) ١٠٩، ٤٨، ٤٥

٢٢٣

دجلة « نهر » ٢٨٤، ٤٧

دكرنس ٢٩٨

دكتا ٤١، ٤٠، ٢٩، ٢٧، ٢٤

٧٤، ٧٣، ٧٢، ٦٥، ٦٢، ٤٧، ٤٢

٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٥

١٦٠، ١٣٣، ١٢٦، ٩٥، ٩٤

٥٢٠، ٤٢٠، ٣٠١، ١٧٥، ١٦٦، ١٦٤

٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٦، ٢١١، ٢٠٧

٢٩٨، ٢٩٧، ٢٩١، ٢٨٨، ٢٨٥

٣١١

دلفي ٣٠١، ٢٦٤، ٢٦٣، ١٥٧

دمياط « فرع » ٩٢

دندره ١٧٥، ٧١

دهشور ٢٦٦، ٢٥١، ٧٨

دودونا ١٥٩، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤

ديروط « مدينة » ٧٤

ديلوس ٣٠٣

ديوس پوليس ميسيجالي « أنظر طيبة » ٣٦

(ذ)

ذراع أبو النجا ٦٥

(ر)

رأس الباقورة ٢٢٢

رشيد « فرع » ٣٠٤،٩٢

رمسيس « مدينة » ٢٩١

رودس « جزيرة » ٣١٢،٢٠٥

روسية ٢١٨

رومانيا ١١٥

رون (نهر) ١١٤

(ز)

زقازيق ٢٩٨،١٦٠

(س)

ساردينيا ٢٢١

سافو ٢٦٣

ساموثراقيا ١٥٤،١٥٣

ساي (أنظر سايس) ١٠٢

سايس ٥٥٥،٤٥٥،٤٣٤،٤٢٤،٤١٤،٤٠٤،٢٩

١٩٠،١٦٤،١٦٠،١٠٢،٥٦

٢٩٧،٢٨٥،٢٦٩،٢٥٩،٢٥٨

٣٠٤،٣٠٣،٣٠٢،٣٠١،٢٩٨

٣٠٩،٣٠٧،٣٠٦

سبعة البردويل ٧٦

سيليتوس ٢٩٨

سدرة « خليج » ١١١

سربونيس ٧٦

سرايئة « بلدة » ١٧٥

سكسونيا ٢٠٣

سكثيا ٩٨

سلسلة (جبال) ١٧٥،١٠٥،٩٧

سلاميس ٣١٤

سلجوق ٢٢٢

مشتود « مدينة » ٢٩٨،١٦٠،٩٢

ميرانا « مدينة » ٢٢٢

ميرق ٢٢٢

سنتار ١١٣

سهيل « جزيرة باسوان » ١٠٣

سورية = « سوريا » ٥٨٢،٥٥٩،٤٧

٥٨٣،٢٣٦،١١٧،٩٦،٨٩،٨٤،٨٣

٢٩٣،٢٩٢،٢٩٠،٢٨٥

سولوس « رأس » ١١٢

سويس « خليج » ٨١

سوئي (أسوان) ١٠٣

سيرنيس ٢٨٣

سيلان ٢٠١

سينوك ١١٦،١١٥

سيوة « واحة » ١٣٦،١١١،٩٤،٩٣

سيوط (أنظر أسوط) ٢٤٦،١٧٢،٧٤

سيوف ٣٠٤

(ش)

شرق (الأدنى = الشرق القريب)

٢٩٠،٢٣١،١٤٤

شرق « العربي » ٧٨

شرقية ١٦٠

شلال (الأول) ١٠٤،١٠٣،١٠٢،٩١

١٠٦،١٣٥، الرابع ١٠٧

شَوَاف « مرم » ٢٥٧

شيخ حسن « آل » ١٧٥

(ص)

صا الحجر ١٩٠،١٦٤،١٠٢،٤٣،٤١

٣٠٤،٣٠٣

صان الحجر ٣٠٢،٢٩٨

صحراء (الشرقية أو الغربية أو العرب)

٩٥،٩١،٧٤

صحراء الغربية « أليبية » ٩٩٠٧٨٠٦٠
 ١٨٠٠١١١٠٩٥٠٩٤
 صعيد (= مصر أو الوادي) ١٠٧٠١٠
 ١٩٢٠١٧٩٠١٤٥٠١٢٦٠١٢١
 ٢٠٢٠٢٠١
 صغارة « جيانة » ٢٦٦٠١٦٩
 صقلية « جزيرة » ٦٤
 صور « مدينة » ٢٣١٠١٤١٠١٤٠
 ٢٩٥
 صومال (قطر) ٦٠
 صيدا « مدينة » ٢٩٥٠٢٣٦٠٢٣٥
 (ط)
 طارف « جبل » ١٧٥
 طونة (= الدانوب) « نهر » ١٠١
 ١١٥٠١١٤
 مطر ٢٥٣
 طرواده ٢٣٨٠٢٣٦٠٢٣٢٠١٥٥
 ٢٧٧٠٢٣٩
 طنطا « مدينة » ١٦٨
 طنطا « مدينة » ٢٠١٠١٧٥٥
 طيبة « مدينة » ٧١٠٦٨٠٦٦٠٦٥٠٤٢
 ١٠٣٠٩٠٠٨٠٠٧٩٠٧٤٠٧٣
 ١٣٥٠١٣٤٠١١١٠١٠٨٠١٠٧
 ١٥٩٠١٥٨٠١٥٧٠١٥٦٠١٣٦
 ٢٤٥٠٢٠٨٠٢٠٠٠١٧٩٠١٧٤
 ٢٩٨
 (ع)
 عدن ١٨٥
 عراق ٤٧
 عراق « المدفونة » ٢٥١
 عسقلان ٢٨٩
 عطبرة « نهر » ٩٥
 عسكا « مدينة » ٢٢٢
 عين شمس « مدينة » ١٩٠٠٢٦٧٤

(غ)
 غابة « السودان » ١١٤
 غاليسيا ١١٥
 غزة « مدينة » ٢٨٩٠٥٥٣
 غينيا « خليج » ١١٣
 (ف)
 فارياثيس ٢٩٨
 فارس ٥٦٠٥٥٠٥٤٠٥١٠٢٦٠٢٥
 ٢٩٨٠١٩٢
 فاسيس « نهر » ٢١٩
 فاسيليس ٣١٠
 فاشر ١٠٧
 فاقوس ٢٩١
 فرات « آل » ٢٩٣٠١٦٧٠٤٧
 فرمة (= الفرمة) ٩٢٠٧٧٠٥٤
 فرنسا ٧١
 فلسطين ٢٤٢٠٢٢٢٠٢٢٠٠٢٠٥
 ٢٩٣٠٢٧٢٠٢٧٠
 فوكايا ٣١٠٠٢٢٢
 فيتوم ٢٩١
 فيله ١٠٦٠٩٧
 فينيقية (= فينيقية) ١٨٥٠١٤٠
 ٢٣٥
 فيثوم « آل » ١٢٦٠٨٤٠٤٠٠٢٤
 ٢٨٣٠٢٨٠٠٢١٦٠١٧٥

(ق)
 قاهرة « آل » ١٩١٠١٨٩٠١٧٢٠٨٩
 ٢٥١٠٢٢٧٠٢٠١
 قبرص ٣١٤٠٢٠٥٠٨٥٠٥٣
 قرنة « آل » ٢٠٨
 قصر التيه (أنظر أيضاً لآبرنت) ٣٠٧
 قلعة (البيضاء) (أنظر أيضاً منف) ٧٢

كوم سَسَحَدِي ٢١١،٨٩

كيليكيا ١١٦،١١٥،٩١

(ل)

لايرنث «قصر التيه» ٢٧٩،٢٧٨،٢٤٤

٣٠٧،٢٨٢،٢٨١،٢٨٠

لينال ١٦٧

لنل ٢٣٠

ليبية (= ليبيا) ٨٣،٧٩،٤٩،٤٤

٩٧،٩٦،٩٤،٩٢،٩١،٩٠،٨٩

١٠٩،١٠٨،١٠١،١٠٠،٩٩

١١٦،١١٥،١١٤،١١٢،١١١

١٦٧،١٥٨،١٥٧،١٥٦،١٥٢

٢٨٣

ليديا ٢٢٢،٥٣،٥١

ليكوپوليس ٢٤٦،١٧٢

(م)

ماريا = (مارية) ١٠٩،٩٤،٤٥

مجدو «مدينة» ٢٩٣

مجدوليس = (مجدولوس) ٢٩٣

مخودية «ترعة» ٢٩٢،٢٢٤

مدينة هابو ٦٥

مرج ابن عامر ٢٩٣

مرمدة بني سلامة ١٤٤

مر — ور (= البحيرة العظمى) ٨٤

مروى «مدينة» ١٠٧

مربوط ٩٤،٧٦،٤٥

مصر العتيقة ٢٠١

مصطبة فرعون ٢٦٤

مماينة «بلدة» ١٧٥

معصرة «بلدة» ٢٥٣

مغرب «أل» ١٨٧

مقطم «جبل» ٧٨

قناة السويس ٢٩٢،٢٢٤

قناطر «الحيرية» ٢٢٤

قنطرة «بلدة» ٢٢٣

قوتاز «جبال» ٦٠

قيصرية ٢٢١

(ك)

كاركاسوروس «بلدة» ٢١١،٩٢،٨٩

كاديليس «بلدة» ٢٩٣

كاسترزا «مدينة» ١٥٥

كاسيوس ٢٩٢،٧٦

كانوب ١٦٤،٨٩

كثيب القلس ٧٦

كدميلوس ١٥٢

كرميل ٢٩٣،٢٨٩

كرنك ٣٠٧،١٢٠،٦٥

كروفي ١٠٤،١٠٣

كروكوديلوپوليس ٢٧٩

كريت «جزيرة» ٢٠٥،٦٢

كريتوپوليس ٢١٣

كعبة ٢٧٢

كلازومنياي ٣١٠

كلت ١١٤

كُنفُو ١١٣

كوديني ٣١٣

كوش ١٠٨،٨٢

كولس ٢١٩

كوم أبويلو ٢٩٧

كوم اشقاو ٢٠١

كوم الحصن ٢٩٧

كوم القلعة ٢٣٠

كوم أمبو ١٧٥

كوم جيف ٢١١،٢١٠

كوم دفنه ٢٢٣

٩٦٠٩٥٠٩٤٠٩٣٠٩٢٠٩١٠٨٧
 ١٠٣٠١٠١٠٠٠٩٩٠٩٨٠٩٧
 ١١١٠١١٠٠١٠٠٠١٠٠٠١٠٠٠
 ١١٨٠١١٦٠١١٥٠١١٤٠١١٣
 ١٨٠٠١٧٧٠١٧٥٠١٣٥٠١٣٤
 ٢٠٦٠٢٠١٠١٩٩٠١٨٦٠١٨٢
 ٢٨٢٠٢٥٣٠٢٥١٠٢٢١٠٢١٣
 ٢٩٠٠٢٨٧٠٢٦٢٠٢٨٤٠٢٨٣
 ٣١١٠٣٠٩

نيل « الأزرق » ٩٥

نيجر « نهر » ١١٤٠١١٣

نينوى « مدينة » ٢٨٤٠٢٨٣٠٤٧

نيويورك ٢٣٠

(هـ)

هاليكارناسوس « مدينة » ٣١٠٠١٢

هرقليو پوايس ٤٠

هرموبوليس ١٧٢٠١٣٩

هرمونوبيس ٣٠١٠٢٩٨

هند ٢٧٧٠٢٠١

هليو پوليس ٧٣٠٧١٠٧٠٠٦٨٠٦٧٠٦٦

١٦٦٠١٦٤٠١٦٠٠٧٩٠٧٧٠٧٤

٢٧٦٠٢٢٩٠١٩٠٠١٧٨

هذان ٤٧

هوار ٢٨١

هوريط ٢٩٨

هلاس ١٥١

هيليوم ٣١٠

(و)

واحات « الخارجة » ١١٠٠٥٧٠٥٤

وادي الطميلات ٢٩٠

وادي التهرين ٢٩٣٠٢٧١

واوات ٨٢

(ي)

يانينا ١٥٥

ملاطيه = « ملاطيه » ٢٧٤٠٨٠٠٤٢

مليج « نرعة » ٩٢

مناوات « بلدة » ٧٩

منزلة « بحيرة » ٢٦٥٠٩٢٠٨٩

منشبة « بلدة » ٢٠١٠٢٠٠

منف = « ممفيس » ٤٠٠٠٣٣٠٣٢

٦٥٠٦٤٠٥٧٠٥٤٠٤٨٠٤٢٠٤١

٨٠٠٧٨٠٧٤٠٧٣٠٧١٠٦٨٠٦٧

٢٠٧٠١٢٨٠٩٠٠٨٦٠٨٤٠٨٣

٢٣٠٠٢٢٧٠٢١٣٠٢١٢٠٢١٠

٢٨١٠٢٧٠٠٢٣٧٠٢٣٣٠٢٣١

٣٠٢٠٢٩١٠٢٨٧٠٢٨٦٠٢٨٣

٢٢٣٠٣٠٩٠٣٠٨٠٣٠٧

مشتول ٢٢٣

منديس ١٤٤٠١٤٣٠١٣٥٠١٣٤٠٩٢

موني ١٠٤٠١٠٣

مومفيس ٣٠١٠٢٩٧٠٥٠

مويكفوريس ٢٩٨

مياندروس « سهل » ٨٠

مياندروس « نهر » ١٠٦

ميت رهينة « بلدة » ٣٠٧٠٣٠٢٠٢٢٧٠٦٥

ميتليقي ٣١١٠٢٦٤

ميديا ٥١٠٤٧

(ن)

نيابة « بلدة » ١٠٧

نوبه ١٠٧٠١٠٦٠٨٢٠٦٠٥٥٠٥٤

٢٥٥٠٢٢٦٠٢١٧٠١٧٦٠١٠٨

نوكراتيس = « نوكراتيس - نوكراتيس »

٢١١٠٢١٠٠٤٥٠٤٢٠٢٩٠٢٤

٣١١٠٣١٠٠٢٦٤

نيبا ٢٧٧

نيابوليس ٢٠٠

نيل (أل) ٦٠٠٤٧٠٤٠٠٢٤٠٢٣

٨٦٠٨٥٠٨٣٠٨١٠٧٨٠٧٤٠٦٥

فهرس أسماء المعبودات والمقدسات

أوزيريس « معبود مصرى » Osiris

١٢١٠، ١٠٨٠، ٧١٠، ٦٩٠، ٦٢٠، ٥٥٠

١٤٧٠، ١٤٦٠، ١٣٨٠، ١٣٤٠، ١٢٦٠

١٦٦٠، ١٦٣٠، ١٥٢٠، ١٥٠٠، ١٤٩٠

١٩٤٠، ١٩٢٠، ١٨٨٠، ١٨٦٠، ١٨٥٠

٢٥١٠، ٢٤٧٠، ٢٤٠٠، ٢١٥٠، ١٩٩٠

٢٨٩٠، ٢٧٦٠، ٢٧٥٠، ٢٧٠٠، ٢٦٠٠

٣٠٣٠، ٣٠٢

أسكليبيوس Asklepius « من معبودات

اللاغريق ١٩١

أفروديت Aphrodite « من معبودات

اللاغريق « ١٤٧٠، ١٣٣٠، ٧١٠، ١٨٦٠، ٢٣١٠، ١٨٦٠

أمفيتريون « من معبودات اللاغريق «

٢٧٧٠، ١٤١٠، ١٣٨٠

ألكينا « من معبودات اللاغريق «

٢٧٧٠، ١٤١٠، ١٣٨٠

آمون Amon « معبود مصرى « ٥٧٠،

١١٠٠، ١٠٨٠، ١٠٧٠، ٩٤٠، ٩٣٠، ٧١٠

١٣٦٠، ١٣٥٠، ١٣٤٠، ١١٩٠، ١١١٠

١٥٩٠، ١٥٧٠، ١٥٦٠، ١٥٠٠، ١٣٧٠

٢٦٦٠، ٢٣٢٠ « أحد عناصر الكون

الأربعة «

آمونة من عناصر الكون الثمانية وزوجة

آمون ١٣٩٠، ٧١٠

أورانوس Uranos « من معبودات

اللاغريق « ١٥١٠

(١)

إيافوس Epaphus « لخل مُقدّس «

« أنظر آيس «

أپوفيس (Apophis) « حيّة مقدسة «

٢٠٢٠، ١٧١٠، ١٧٠٠

أبوللون Apollon « من معبودات اللاغريق «

٢٦٦٣٠، ١٨٩٠، ١٨٦٠، ١٥٠٠، ٧١٠

٢٨٩٠، ٢٨٨٠، ٢٨٧٠، ٢٧٥٠، ٢٧٤٠

٣١١٠، ٣٠٣٠، ٢٩٤٠، ٢٩٣٠

آيس « لخل مقدس « ١٢٩٠، ١٢٧٠، ٥٤٠،

٢٨٦٠، ١٨٧٠، ١٣٢٠

آتوم Atum « معبود مصرى « ٧١٠،

١٧٨٠

آتون Aton « معبود مصرى فى هيئة

قرص الشمس « ١٧١٠

أثينا « پلاس (Athena (Pallas) «

« معبودة يونانية « ١٠١٠، ٧١٠،

٣٠٦٠، ٢٠٣٠، ١٦٠٠، ١٥٠٠، ١٠٢٠

٣١٣٠

آدون « رمز الربيع « « معبود شرق «

١٨٥٠

أدونيس « من معبودات اللاغريق « ١٨٥٠

أرتميس Artemis « معبودة يونانية «

٢٢٢٠، ١٨٩٠، ١٥٩٠، ١٥٠٠، ٧١٠

٢٨٩٠، ٢٨٧٠، ٢٨٢٠، ٢٨٠٠، ٢٦٧٠

أريس Ares « معبود يونانى « ٧١٠،

١٨٩٠، ١٨٦٠، ١٦٦٠، ١٦٥٠، ١٦٠٠

تيس منديس «تيس مقدس» «أنظر بان»
تيفون «أنظر ست» ١٤٦ ، ١٥٠ ،
٢٨٣ ، ٢٧٦

(ث)

ثامون «مجموعة من ثمانية معبودات» ٧١
ثيمس Themis «معبودة إفريقية»
١٥١

(ج)

جب Geb «معبود مصري» ٧١
جرانيا = جراتيا Gratia «معبودة
إفريقية» «أنظر خاريتيس»
جوبيتر Jupiter «معبود روماني» ٧١
جيا Gaea «معبودة إفريقية» ١٥١

(ح)

حاج «عنصر كوني مذكر» ١٣٩ ، ٧١
حاجة «عنصر كوني مؤنث» ١٣٩ ، ٧١
حتحور «معبودة مصرية» ١٣١ ، ١١٩
٢٦٠ ، ١٦٤ ، ١٣٧ ، ١٣٣ ، ١٣٢
٢٨٧

حري شاف «معبود مصري» ١٣٨
حوريس «معبود مصري» ٦٢ ، ٥٣
١٦٦ ، ١٥٠ ، ١٣٣ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٦
٢٨٩ ، ٢٧٥ ، ٢٦٩ ، ٢٦٠ ، ٢٤٠
حورس الطفل «أنظر حوريس»

(خ)

خاريتيس (Gratia , Chariten)
«معبودة إفريقية» ١٥١
خنسو «معبود مصري» ١١٩
خنوم «معبود مصري» «أنظر بان»
١٧٣

إيزيس Isis «معبودة مصرية» ٥٥٥
١٠٢ ، ٩٤ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٢
١٥٠ ، ١٣٤ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٠٣
١٦٦ ، ١٦٣ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٢
٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢١٥ ، ٢٠٥ ، ١٩٢
٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٢٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٥٥
إيو «من معبودات الإغريق» ١٣٢
إيزيس ونفتيس «نواحيستان» ١٥٧
إيزيس وأزوريس «أسطورة» ٥٥٥
١٩٩ ، ١٤٨ ، ١٢٦ ، ٦٢

(ب)

بان Pan «من معبودات الإغريق»
٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ١٥٠ ، ١٤٣ ، ١٣٧
بتاح Ptah «معبود مصري» ٣٣ ، ٣٢
١٥٠ ، ٦٤ ، ٦٣
٢٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٣٠ ، ٢١٣ ، ٢١٢
٣٠٧ ، ٢٧٩ ، ٢٧٣
بخت Pakhet «معبودة مصرية» ٢٦٧
برسيفون ١٥٤
بسته «معبودة مصرية» ١٦٠ ، ١٥٠
٢٦٧
بعل «معبود فينيقي» ١٤٠
بيلوبي ٢٧٧
بوذا «معبود أسوي» ٢٠١
پوسيدون Posidon «معبود إفريقي»
١٥٢ ، ١٥٠ ، ١٣٩ ، ٧١
بوليديكس «معبود إفريقي» ١٥٠

(ت)

تاسوع Ennead «مجموعة من تسعة
معبودات» ٧١
تفتوت Tefnut «معبودة مصرية» ٧١
توت Thoth «معبود مصري» ١٥٠
١٨٢ ، ١٧٢

سكزيس Sokaris « معبود مصرى »
١٤٦

سمبلى « معبوده إفريقيا » ٢٧٧، ٢٧٦
سوخوس « معبود مصرى » ؛ أنظر سبك
سيلينى « سيلين » « معبود إفريقيا »
٢٤٥، ١٤٧، ١٤٦

(ش)

شو Shu « معبود مصرى » ٧١

(ع)

عشارة « معبوده أسوية » ٢٣١

(ف)

فستا Vesta « معبوده رومانية » ٧١
فولكان Vulcan « معبود روماني »
٧١

فينوس Venus « معبوده إفريقيا » ٧١

(ك)

كاستر Kastor « معبود إفريقيا » ١٥٠
كاك ١٣٩، ٧١
كاك ١٣٩، ٧١
كاموتف ٢٥٩

كيش هناسيا « كيش مقدس » أنظر « بان »
كرونوس Kronos « معبود إفريقيا »
١٥١، ٦٢

كبريس « معبوده رومانية » ٧١

(ل)

ليتو Leto « معبوده إفريقيا » ١٣٧
٢٨٨، ٢٨٧، ١٨٩، ١٦٤، ١٦٠
٢٨٩

ليدا Leda « معبوده إفريقيا » ١٠٥

(د)

ديانا Diana « معبوده رومانية » ٧١
ديميتر « معبوده إفريقيا » ١٣٤، ٧١
٢٤٦، ٢٤٥، ١٦٠، ١٥١، ١٥٠
٣٠٣، ٢٨٩، ٢٤٧

ديوسكورى « معبودان إفريقيا »
Dioskuren ١٥٠، ١٠٩

« أنظر أيضاً كاستروبولديكس »
ديونيسيس Dionisos « معبود إفريقيا »

١٣٨، ١٣٤، ١٠٨، ١٠٧، ٧١

١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦

٢٨٩، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٤٧، ١٥٤

٣٠٣

(ر)

رع « معبود مصرى » ١٧٠، ١٠٨
ريا Rhea « معبوده إفريقيا » ٦٢

١٥١

(ز)

زخة Sekhmet « معبوده مصرية » ١٦٩
٢٣١، ١٩٢، ١٩١

زيوس Zeus « معبود إفريقيا » ٦٢، ١٧
١٠١، ٩٣، ٨٦، ٧٧، ٧١، ٦٤، ٦٣

١٣٥، ١٣٢، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٢

١٥٧، ١٥١، ١٥٠، ١٤٢، ١٣٦

٢٦٦، ٢٣٥، ١٨٩، ١٧٩، ١٥٨

٣١١، ٢٧٧، ٢٧٤

زيوس الطبي « معبود » أنظر آمون

(س)

سبك Sobk « معبود مصرى » ١٧٥

ست Seth « معبود مصرى » ٧١، ٦٩

١٦٦، ١٦٣، ١٥٠، ١٤٦، ١٣٤

٢٨٩، ٢٧٦، ٢٧٥، ٢٤٠

(هـ)

هرقل Hercules «معبود إغريقي»
أنظر هيراكليس

هرمس Hermes «معبود إغريقي»
١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠، ٧١
٢٧٧، ٢٧٢، ٢٦٨، ٢٤٥

هستيا Hestia «معبودة إغريقية»
١٥١، ٧١

هيفايستوس «معبود إغريقي» ٦٣،
٢٢٤، ٢١٣، ١٥٠، ٧١، ٦٥، ٦٤
٢٦٣، ٢٣٩، ٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٦
٢٧٨، ٢٧٣، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٥
٣٠٨، ٢٨٦، ٢٨٤، ٢٧٩

هليوس «معبود إغريقي» ١٦٠
هيرا Hera «معبودة إغريقية» ١٢،
٢٨٠، ١٥١، ١٣٢، ٧١، ٦٣، ١٣
٣١٣، ٣١١

هيراكليس Herculis «معبود إغريقي»
١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ٦٤
١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨
٢٧٧، ٢٧٦، ٢٣٢، ٢٠١، ١٨٩
هيلينا «معبودة إغريقية» ١٥٠

(ي)

يهوفا «يهوى» «رب العبرانيين»
٢٧٢، ١٣٦، ٣٢
يونو «معبودة رومانية» ٧١

(م)

مارس Mars «معبود إغريقي» ٧١
مركور Mercurius «معبود روماني»

١٥٢، ٧١

ملكارت «معبود فينيقي» أنظر بل

منديس «معبود» ٢٩٨، ١٣٤

موت Mut «معبودة مصرية» ١١٩

ميتيس Metis «معبودة إغريقية»
١٠٢، ١٠١

مين «معبود مصري» ١٤٣، ١٣٧
٢٠١، ١٥٢، ١٥٠

ميفترا «معبودة رومانية» ٧١

(ن)

نبتون Neptun «معبود روماني»
«أنظر نوسيدون» ١٥٠، ٧١

نفتيس Nephthis «معبودة مصرية»
١٩٢، ١٥٧، ٧١، ٦٩

نوت Nut «معبودة مصرية» ٧١
١١٩

نون ١٧٨، ١٣٩، ٧١

نوتة ١٣٩، ٧١

نية Neith «معبودة مصرية» ٥٦
١٥٠، ١٠٢، ١٠١

نيريديس Nereiden «معبودة إغريقية»
١٥١

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة